سيمون دو بوفوار

المثقفون

رواية

نقلها الى العربية

جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

المثقفون

- ٢ -

سيمون دو بوفوار

المثقفون

رواية

الجزء الثاني

ترجمة : جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الفصل السادس

كنت تائهة فرحاً وفضولاً مساء هبوطي بالطائرة الى «لاغوارديا[1]»، وأمضيت الاسبوع التالي أكظم غيظي. نعم، كنت لا أعرف شيئاً من آخر ما حققه التحليل النفسي الاميركي من تقدم. وكانت جلسات المؤتمر مفيدة علمياً فائدة كبيرة وكذلك أحاديث زملائي. لكني كنت أرغب ايضاً في رؤية نيويورك، وكانوا يمنعونني من ذلك في اخلاص مثير للاعصاب. كانوا ينفونني في فنادق مفرطة التدفئة. ومطاعم مكيفة الهواء، ومكاتب فخمة، وشقات مترفة ولم يكن من السهل ان افلت منهم. وعندما كانوا يعيدونني الى فندقي بعد العشاء، كنت اجتاز قاعة المدخل في سرعة واخرج من باب آخر. كنت استيقظ عند الفجر وأذهب لأتنزه قبل جلسة الصباح. لكني ما كنت أستخلص شيئاً كبيراً من أوقات الحرية هذه التي كنت اختلسها اختلاساً. كنت أتبين ان العزلة، في اميركا، لا مجال لها. وكنت قلقة وانا اغادر نيويورك، شيكاغو، سان لويس، اورليانس الجديدة، فيلادلفيا، ونيويورك من جديد، وبوسطن ومونتريال: جولة جميلة. وكان لا بد ايضاً ان تقدم لي الوسائل للاستفادة منها. وقد دلني زملائي على عناوين اشخاص يعيشون في مسقط رأسهم، يُسرّون بتعريفي على مدينتهم. لكن كانوا جميعاً أطباء، واساتذة، وكتاباً، وكنت مرتابة.

كانت الجولة خاسرة سلفاً، على كل حال، بالنسبة لشيكاغو. فلم أقضِ فيها سوى يومين وكانت هناك سيدتان عجوزان تنتظرانني في المطار. وأخذتاني

---

١ – مطار نيويورك – المترجم.

لتناول طعام الغداء مع سيدات عجائز ايضاً لم يتركنني طوال النهار . وبعد محاضرتي ، أكلت سراطين بحر بين سيدين منشّيين، وكان سأمي متعباً جداً اني صعدت لأنام فور عودتي الى الفندق .

وكان الغضب هو الذي أيقظني صباحاً. وقررت: «لا يمكن ان يدوم هذا». ورفعت سماعة التلفون : « كنت ثائرة الاعصاب ، انني اعتذر ، لكن زكاماً يرغمني على البقاء في الفراش». ثم قفزت فرحة من السرير. لكني في الشارع خففت من ادّعائي . كان الطقس بارداً جداً . وكنت اشعر انني ضائعة تماماً بين سلك حديد الحافلات والمترو الجوي. لا فائدة من المشي ساعات : لن استطيع الذهاب الى أي مكان . وفتحت دفتر مذكراتي . ليويس بروغان ، كاتب . لعل هذا افضل من لا شيء . ومن جديد تلفنت . وقلت لبروغان هذا انني صديقة لآل « بنسون » ، وقد كتبوا له بدون شك لإعلامه بمجيئي : موافق ، سيكون في قاعة فندقي في الساعة الثانية من بعد الظهر . وقلت : « انا التي سآمر لآخذك ». ووضعت السماعة . كنت اكره فندقي ، ورائحة المطهرات والدولارات فيه ، وكان يسليني ان آخذ سيارة تاكسي لأذهب الى مكان محدد ، لأرى أحداً .

وعبر التاكسي جسوراً ، وسكك حديد، ومخازن ، وسار في شوارع كانت جميع الدكاكين فيها ايطالية . وتوقف عند زاوية ممر تفوح منه رائحة الورق المحترق ، والارض المبللة ، والفقر . وأشار السائق الى جدار من القرميد تتشبث به شرفة خشبية . « هنا » . وسرت بين صف من الاشجار . كانت الى يساري حانة مزدانة بلافتة حمراء مطفأة الانوار : « شليتز » . والى يميني ، كانت اسرة اميركية مثالية ، على إعلان كبير ، تستروح ضاحكة صحناً من البوريدج » . وكانت علبة قمامة تدخّن عند اسفل درج خشبي . وارتقيت الدرج. ووجدت ، على الشرفة ، باباً مزججاً تحميه ستارة صفراء : لا بد ان الشقة هنا . لكني فجأة شعرت انني خجلة . إن في الغنى دوماً شيئاً عمومياً ، لكن حياة فقير شيء صميمي . كان يبدو لي أن القرع على هذا الزجاج ليس رصيناً . ونظرت في تردد الى جدران القرميد التي تتشبث بها في رتابة ادراج اخرى وشرفات رمادية

اخرى . وكنت ألمح من فوق الاسطحة اسطوانة ضخمة حمراء وبيضاء : خزان غاز . وكانت هناك ، تحت قدمي ، وسط مربع من الارض الجرداء ، شجرة سوداء تماماً وطاحونة صغيرة زرقاء الاجنحة . ومن بعيد مر قطار ، فارتعدت الشرفة . وقرعت ، ورأيت رجلاً شاباً بما فيه الكفاية ، طويلاً بما فيه الكفاية : متصلب الجذع في سترة جلدية ، يظهر . وتفحصني في دهشة .

– وجدت البيت ؟

– هذا ما يبدو لي .

كانت مدفأة سوداء تشخر وسط مطبخ اصفر . وكان اللينوليوم مغطى بصحف قديمة ، ولاحظت انه لا توجد ثلاجة . وأشار بروغان الى الاوراق بحركة مبهمة : « كنت ارتب » .

– آمل انني لا ازعجك .

– كلا .

وظل مغروساً امامي في سيماء من حرج : « لماذا لم ترغبي في ان اذهب لآخذك من فندقك ؟ » .

– انه مكان رهيب .

ورسم فم بروغان أخيراً ابتسامة : « انه اجمل فندق في شيكاغو » .

– بالضبط . كثير من السجاد ، كثير من الزهور ، كثير من الناس ، كثير من الموسيقى ، كثير من كل شيء .

وصعدت ابتسامة بروغان حتى عينيه :

– ادخلي اذن من هنا .

ورأيت اولاً الغطاء المكسيكي ، والكرسي الاصفر لفان غوخ ، ثم الكتب ، والبيك آب ، والآلة الكاتبة . لا بد ان من المستطاب العيش في هذه الغرفة التي ليست استديو رجل يتذوق الجمال ، ولا عينة من البيت الاميركي المثالي . وقلت في انطلاق : « بيتك لطيف » .

– أترين ذلك ؟ » كان بروغان يسأل الجدران بنظراته : « انه ليس

كبيراً » . وساد صمت من جديـد وقال في تسرع : « ألا تريدين ان تخلعي معطفك ؟ ما رأيك بفنجان قهوة ؟ لدي اسطوانات فرنسية، هل تحبين سماعها ؟ اسطوانات لشارل ترينيه ؟ » .

لا شك في انني بسبب المدفأة الكبيرة التي كانت تشخر، او لأن ظل الشجرة السوداء كان يرتعد على الستارة المذهبة بشمس شباط الباردة ، فكرت فوراً : « من المستطاب ان امضي النهار جالسة على الغطاء المكسيكي » . ولكني انما تلهفت لبروغان لزيارة شيكاغو . وقلت في حزم :

– اود ان ارى شيكاغو : انني راحلة غداً صباحاً .

– شيكاغو كبيرة .

– أرني منها قطعة صغيرة .

فلمس سترته الجلدية وقال بصوت قلق : « هل يجب ان ألبس ؟ » .

– يا لهذه الفكرة ! انني أكره القبعات القاسية !

فاحتج في حرارة :

– لم اضع قط قبة قاسية في حياتي ...

وللمرة الاولى التقت ابتسامتانا ، لكنه لم يكن يبدو عليه انه قد اطمأن تماماً :

– ألا تحرصين على رؤية المسالخ ؟

– كلا . لنتنزه في الشوارع .

كان هناك شوارع كثيرة وكانت متشابهة كافة . وكانت محفوفة ببيوت خشبية متعبة وبأراضٍ بور تحاول ان تشبه بساتين الضواحي الصغيرة . وسرنا أيضاً في شوارع طويلة مستقيمة وقاتمة . وفي كل مكان كان الجو بارداً . وكان بروغان يلمس اذنيه في قلق : « لقد تخشبتا ، سوف تنقصفان الى قسمين » .

وأشفقت عليه : « لندخل الى بار لنتدفأ » .

ودخلنا الى بار . وطلب بروغان «جنجر ايل» ، وطلبت أنا نبيذ البوربون . وعندما خرجنـا كان الجو لا يزال بارداً . ودخلنا الى بار ثان وأخذنا نتحدث .

كان قد أمضى بضعة أشهر في معسكر في « آردين[1] » ، بعد الانزال ، وكان يطرح علي أسئلة كثيرة عن فرنسا ، والحرب ، والاحتلال ، وباريس . وسألته أنا أيضاً . كان يبدو سعيداً كل السعادة بأن اصغي اليه ، لكنه كان مرتبكاً في سرد حياته . كان ينتزع من نفسه جملاً في تردد ثم يلقي بها إلي في اندفاع كبير ، حتى انني كنت أشعر في كل مرة انني أتلقى هدية. كان قد ولد في جنوب شيكاغو من أب عطار بسيط من أصل فنلندي ومن ام يهودية هنغارية . وكان في العشرين ايام الأزمة الكبرى ، وقد تسكع عبر اميركا، مختبئاً في عربات البضائع ، كبائع جوال ، وغطاس ، وخادم ، وممسد ، وحفار ، وبنّاء ، وبائع ، بالتناوب ، وعند الحاجة كنشال . وفي محطة ضائعة في الأريزونا حيث كان يغسل الاقداح كتب اقصوصة نشرتها مجلة يسارية. وعند ذاك كتب غيرها . ومنذ نجاح روايته الاولى أجرى له أحد الناشرين راتباً يسمح له بالعيش .

وقلت :

– أود كثيراً لو أقرأه ، هذا الكتاب .

– التالي سيكون أفضل .

– لكن هذا قد كتب .

وتفحصني بروغان في حيرة : « أتريدين حقاً ان تقرأيه ؟ » .

– نعم ، حقاً .

فنهض ، وسار نحو التلفون ، في صدر الغرفة . وعاد بعد ثلاث دقائق : « سيكون الكتاب في فندقك قبل العشاء » .

فقلت في حرارة : « اوه ! شكراً ! » .

لقد لمست قلبي حماسة بادرته. كان هذا ما جعله يبدو في نظري فوراً جذاباً: تلقائيته . كان يجهل الجمل المصنوعة وطقوس الأدب . وكان يباده في مجاملاته ، فتشبه ابتكارات الحنان . في البداية ، تلهّيت بلقاء هـذه العينة الاميركية

---

١ – هضبة في فرنسا كثيرة الغابات ، كانت ميداناً لمعارك طاحنـة في الحربين العالميتين . « المترجم » .

الكلاسيكية لحماً وعظماً : كاتب – يساري – صنع نفسه – بنفسه . اما الآن ، فإنني انما اهتم ببروغان . كنت أشعر من خلال حكاياه انه لا يعترف لنفسه بأي حق على الحياة ولكنه رغب دوماً رغبة حماسية في العيش . وكان هـذا الخليط من التواضع والنهم يعجبني .

وسألت :

– من أين أتتك فكرة الكتابة ؟

– لقد احببت دوماً الورق المطبوع : عندما كنت طفلاً كنت أصنع جريدة بلصق قصاصات الصحف على دفتر .

– لا بد ان هناك اسباباً اخرى ؟

ففكر : « اعرف كميات من اناس مختلفين : انني أرغب في ان اظهر لكل منهم كيف هم الآخرون حقـاً . فأكاذيب كثيرة تروى عنهم » وصمت لحظة : « في العشرين ، فهمت ان جميع الناس كانوا يكذبون علي وأثار هـــذا في نفسي غضباً كبيراً ، وأعتقد انني لهذا بدأت اكتب ولا أزال مستمراً ... » .

– أما زلت غاضباً ؟

فقال في ابتسامة صغيرة مكتومة :

– بقدر متفاوت .

فسألت :

– ألا تعمل في السياسة ؟

– انني أعمل اشياء صغيرة .

مجمل القول ، لقد كان في وضع روبير وهنري تقريباً . لكنه كان ينسجم مع وضعه في هدوء غريب جداً . كانت الكتابة ، والحديث في الراديو وأحيانـاً في المؤتمرات لفضح بعض الاستغلالات ، يرضيانه تماماً . ولقد قيل لي هـذا سلفاً : المثقفون هنا يستطيعون ان يعيشوا في أمـان لأنهم يعرفون انهم عاجزون كلياً .

– هل لك اصدقاء كتّاب ؟

فقال في اندفاع :

– « اواه ! كلا ! » وابتسم : « لي اصدقاء أخذوا في الكتابة عندما رأوا انني اربح مالاً بمجرد ان أظل جالساً امام آلتي الكاتبة ، لكنهم لم يصبحوا كتاباً » .

– هل ربحوا مالاً ؟

فأخذ يضحك في صراحة : « أحدهم كتب خمسمئة صفحة في شهر واحد . واضطر الى دفع مبلغ كبير لطبعها ومنعته زوجته من المعاودة . فعاد الى مهنته كنشال » .

فسألت :

– أهي مهنة جيدة ؟

– هذا يتوقف . في شيكاغو ، توجد منافسة ضخمة .

– أتعرف الكثير من النشالين ؟

فنظر إليّ نظرة ساخرة قليلاً : « نصف دزينة » .

– ومن رجال العصابات ؟

فأصبح وجه بروغان جدياً : « رجال العصابات جميعاً أنذال .

وبدأ يعرض لي في سرعة الدور الذي لعبه رجال العصابات في السنوات الأخيرة هذه كمحطمي اضرابات . ثم روى لي كمية من القصص عن علاقاتهم بالبوليس ، بالسياسة ، بالأعمال . كان يتكلم بسرعة وكنت أجد بعض المشقة في متابعته ، لكن ذلك كان مثيراً للحماسة كفيلم لإدوار روبنسون. وتوقف فجأة .

– ألست جائعة ؟

فقلت :

– بلى . الآن وقد جعلتني افكر بذلك ، فإنني جائعة كثيراً .

وأضفت في مرح : – انت تعرف قصصاً كثيرة .

فقال :

– أوه ! لو لم اكن اعرف ، لابتكرت . للذة رؤيتك تصغين .

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة ، لقد هرب الوقت بسرعة . وأخذني

بروغــان للعشاء في مطعم ايطالي ، وبينا كان يأكل صحن « بيزا » ، كنت أتساءل لماذا أشعر بأنني مرتاحة جداً ، الى جانبه . لم أكن أعرف شيئاً عنـه تقريباً ، ومع ذلك لم يكن يبـدو لي غريباً قط . لعل هـذا يعود إلى فقره اللامبالي . ان النشاء والاناقة ، والتظرف ، تخلق مسافات . عندما كان بروغان يفتح سترته على كنزته القديمة ، عندمـا كان يقفلها ، كنت أشعر قربي بالحضور الواثق لجسد يحس ببرد او بحرّ ، جسد حي . كان قد لمّح حذاءه بنفسه : وكان حسبي ان انظر إليه لأدخل في صميميته. وعندما تناول ذراعي ، ونحن خارجان من مطعم « البيزا » ليساعدني على السير على الارض الجلدية ، بدت لي حرارتـه فوراً مألوفة .

وقال لي :

– هيا ! سأريك على كل حال بضع صغيرة من شيكاغو .

وجلسنا في مسرح هزلي لنتفرج على نساء يخلعن ثيابهن على أنغام الموسيقى ، وسمعنا موسيقى الجاز في مرقص صغير أسود . وشربنا في بار يشبه ملجأ ليلياً . كان بروغان يعرف جميع الناس . عازف البيـان في المسرح الهزلي ، الموشوم المضمين ، وعازف البوق الأسود في المرقص ، والمتشردين ، والزنوج وعاهرات البار العجائز . كان يدعوهم الى طاولتنا ، ويجعلهم يتحدثون وهو ينظر إلي في سيماء من سعادة ، لأنه كان يرى انني كنت اتسلـّى . وعندما وجدنا نفسينا ثانية في الشارع ، قلت في اندفاع : « انني مدينـة لك بأفضل سهرة لي في اميركا » .

فقال بروغان :

– هناك أشياء كثيرة وددت لو أُريك اياها !

كان الليل ينتهي ، والفجر على وشك الولادة ، وشيكاغو على وشك الاختفاء الى الأبد . لكن فولاذ المترو الجوي كان يخفي عنا اللطخة البرصاء التي أخـذت تتأ كل السماء . كان بروغان يمسكني من ذراعي . وكانت القناطر السود ، امامنا ، ووراءنا ، تتكرر الى ما لا نهاية . وكنت أشعر انها الأرض واننا سنسير هكذا الى الأبد . وقلت :

– انِ نهاراً واحداً مدة قصيرة جداً . يجب ان أعود .

فقال بروغان :

– عودي . » وأضاف بصوت سريع : « لا اريد ان افكر انني لن أراك ثانية » .

وتابعنا السير في صمت حتى محطة سيارات التاكسي . وعندما قرّب وجهه من وجهي ، لم أستطع ان امنع نفسي من إشاحة رأسي، لكني احسست بأنفاسه على فمي .

وفي القطار ، بعد عدة ساعات ، بينما كنت احاول ان اقرأ رواية بروغان أنـَّبت نفسي : « هذا سخيف ، في عمري ! » . لكن فمي كان لا يزال منفعلاً كفم عذراء . لم أكن قد قبّلت قط الا الرجال الذين نمت معهم . وعندما كنت أتذكر ظل القبلة ذاك، كان يخيل إلي انني سأجد ثانية في أعماق ذاكرتي ذكريات حب محرقة . وقلت في نفسي في تصميم : « سأعود » . ثم فكرت : « وما الفائدة ؟ سيتوجب من جديد ان نفترق ، ولكن باستطاعتي ان اقول : سأعود. كلا ، كان من الأفضل ان اوقف النفقات فوراً » .

ولم آسف على شيكاغو . وفهمت بسرعة ان هذا يشكل جزءاً من متع السفر، اقصد الصداقات التي ليس لها من غـد ، والتمزق الصغير في لحظات الفراق . واعتزلت الناس المملين في حزم ، ولم اعاشر الا الذين كانوا يسلونني . كنا نمضي فترات بعد الظهر في التنزه ، والليالي في الشرب والنقاش ، ثم نفترق كي لا نلتقي ثانية أبداً . ولم يكن اي منا يشعر بأسف . ما كان أسهل الحياة ! لا أسف ، لا واجب ، ولا حساب لاي حركة من حركاتي ، وما كانت تطلب مني النصيحة ، ولم أكن اعرف من قاعدة الا نزواتي . وفي اوليانس الجديدة ، بعد ان خرجت من دار سكرت فيها بمشروب « الديكيري »، اخذت فجأة الطائرة الى فلوريدا. وفي لانشبورغ، استأجرت سيارة وتنزهت طوال ثمانية أيام عبر اراضي فرجينيا الحمر . واثناء إقامتي الثانية في نيويورك ، لم اغمض عيني تقريباً . فقد رأيت خليطاً كبيراً من الناس ، وتسكعت في كل مكان . واقترح علي آل دافيس ان

ارافقهم الى هارتفورد ، وبعـد ساعتين كنت اركب معهم في السيارة : ان اعيش بضعة ايام في منزل الريف الاميركي ، يا للحظ غير المتوقع . ! كان منزلاً خشبياً جميلاً للغاية ، أبيض ، مطلياً ، له نوافذ في كل شبر منه . كانت ميريام تنحت ، والابنة تأخذ دروساً في الرقص ، والابن يكتب قصائد غير مفهومة . كان في الثلاثين وله جلد طفل ، وعينان مأساويتان وأنف فـاتن . وفي المساء الاول ، بينما كانت نانسي تروي لي احزان قلبها ، كانت تتلهى بتنكيري في ثوب مكسيكي عريض ، واسبلت شعري على كتفي . وقال لي فيليب : « لماذا لا تسرحين شعرك هكذا دوماً ؟ لكأنك تتعمّدين ان تهرمي ».وراقصني الى ساعة متأخرة ليلاً . ولكي اعجبه ، تابعت في الايام التـالية التنكر في إهاب صبية . كنت أفهم جيداً لماذا يغازلني. كنت قادمة من باريس،ثم انني كنت في السن نفسها التي كانت فيها ميريام ايام مراهقته . كنت على كل حال متأثرة . كان ينظم من اجلي حفلات راقصة ، ويبتكر لي حفـلات كوكتيل، ويعزف لي على قيثارته أغاني رعاة بقر جميلة جداً ، وينزهني عبر القرى الطهرانية القديمـة . وعشية رحيلي ، بقينا في غرفة الجلوس بعد الآخرين، ورحنا نستمع الى اسطوانات ونحن نشرب الوسكي ، فقال لي بصوت حزين :

– يا لها من خسارة اذ لم أعرفك في نيويورك معرفة أفضل . كنت عبدت الخروج معك في نيويورك !

فقلت :

– يمكن ان تعود هذه الفرصة . بعد عشرة ايام سأرجع الى نيويورك : ربما ستكون فيها .

فقال وهو ينظر الي في جدّ :

– على كل حال استطيع ان آتي اليها . تلفني لي .

واستمعنا الى بضع اسطوانات اخرى ، ورافقني عبر صحن الدار حتى باب غرفتي . ومددت له يـدي ، ولكنه سأل بصوت خـافت : « ألا تريدين ان تقبليني ؟ » .

واخذني بين ذراعيه. وللحظة لبثنا ساكنين ، خداً الى خد ، تشلّنا الرغبة. ثم سمعنا وقع خطى خفيفة فافترقنا بسرعة . ونظرت الينا ميريام بابتسامة ظريفة وقالت بصوتها الرقيق :

– آن راحلة في ساعة مبكرة . لا تجعلها تسهر الى ساعة متأخرة .

فقلت :

– كنت ذاهبة لأنام .

ولم أنم . بقيت واقفة أمام النافذة المفتوحة اتنشق الليل الذي لم تكن تفوح منه أية رائحة: لكأن القمر كان يجمد عطر الزهور. كانت ميريام نائمة أو ساهرة في الغرفة المجاورة ، وكنت اعرف ان فيليب لن يأتي . وذات لحظة ظننت انني اسمع وقع خطى ، لكنها كانت الريح فقط التي تتغلغل بين الاشجار .

لم تكن كندا ظريفة . وقد سعدت كثيراً عندما هبطت في نيويورك من جديد ، وسرعان ما فكرت : « سأتلفن لفيليب » . وكنت مدعوة في اليوم نفسه الى كوكتيل حيث كنت سألتقي ثانية بمعظم اصدقائي . وكنت ألمح من نافذتي مشهداً عريضاً تحتله ناطحة سحاب : لكن هذا كله لم يعد يكفيني. ونزلت الى بار فندقي : وفي النور الأسود الزرقة ، كان عازف يعزف على البيانو في هدوء انغاماً فاترة ، وازواج يتهامسون، والندل يمشون على اطراف اقدامهم . وطلبت كأس مارتيني وأشعلت سيجارة ، وكان قلبي يخفق خفقات صغيرة . لم يكن ما سأفعله صائباً جداً . فبعد ثمانية ايام امضيتها مع فيليب، لن اغادره بالتأكيد دون انفعال جدّي في النفس . لكن ليكن . فأنا ، أولاً ، راغبة فيه . اما انفعال النفس ، فإنني سأصاب به على كل حال ، بل انني لاشعر به منذ الآن . كوينسبريدج ، سنترال بارك ، واشنطن سكوير ، ايست ريفر : بعد ثمانية ايام ، لن أراها ثانية . ومهما يكن ، فقد كنت افضل أن أتحسّر على شخص على ان أتحسّر على حجارة ، وكان يخيل إليّ ان هذا سيكون أقل ايلاماً . وشربت جرعة من المارتيني . اسبوع واحد : هذه مدة قصيرة جداً من أجل اكتشافات جديدة ، قصير جداً من أجل متع بلا غد . لم أعد اريد ان اتجول في نيويورك

كسائحة . كان يجب ان أحيا حياة حقة في هذه المدينة ، فهكذا ستصبح مدينتي الى حد ما وسأترك فيها شيئاً مني. كان يجب ان أسير في الشوارع متعلقة بذراع رجل سيكون لي، مؤقتاً. وافرغت كأسي. ذات مرة خلال هذه السفرة، أمسك رجل بذراعي . كان فصل شتاء ، وكنت أتعثر على الجليد الرقيق لكني قربه كنت أشعر بالدفء . كان يقول : « عودي . لا اريد ان افكر انني لن اراك ثانية » . ولن أعود . سأشد على ذراعي ذراعاً اخرى . وخلال لحظة شعرت انني مذنبة بالخيانة . لكن لم تكن هناك مشكلة . انه فيليب الذي اشتهيته طوال ليلة ، ولا ازال أشتهيه ، وكان ينتظر مكالمتي الهاتفية. ونهضت ، ودخلت الى غرفة التلفون وطلبت هارتفورد .

– المستر فيليب دافيس .

– سأذهب لأدعوه .

فجأة ، أخذ قلبي يخفق خفقات كبيرة . قبل لحظة واحدة ، كنت أتحكم بفيليب حسب رغبتي ، وأدعوه من نيويورك ، وأنيمه في سريري . لكنه كان موجوداً لحسابه الخاص ، وانا التي تتعلق الآن به . كنت وحيدة ، بلا دفاع ، في هذا الحبس الضيق .

– آلو ؟

– فيليب ؟ أنا آن .

– آن ! ما اطيب ان اسمعك !

كان يتكلم الفرنسية في إتقان بطيء راح يبدو قاسياً فجأة .

– انني اتلفن من نيويورك .

– اعرف . عزيزتي آن ، هارتفورد مملة جداً منذ ان غادرتنا ! هل قمت بأسفار جميلة ؟

ما كان أقرب صوته ! انه يلامس وجهي . لكنه هو ، فجأة ، كان بعيداً جداً . كانت يدي ندية على جلاتين السماعة السوداء . واطلقت كلمات كما اتتني اتفاقاً : « اود لو أرويها لك . قلت لي ان اتصل بك . هل تستطيع المجيء الى

نيويورك قبل رحيلي ؟ » .

– متى سترحلين ؟

– السبت .

فقال :

– اوه ! اوه ! سريعاً جداً ! » وساد صمت قصير : « هذا الاسبوع ، يجب ان أقصد بعض الاصدقاء في « كاب كود » ، لقد وعدت » .

– يا للخسارة !

– نعم ، هذه خسارة ! ألا تستطيعين ان تؤجلي هذا الرحيل ؟

– لا استطيع . وأنت ، ألا تستطيع ان تؤجل تلك الرحلة ؟

فقال صوته المتجهم :

– كلا ، هذا مستحيل !

فقلت في مرح مهذب :

– حسناً ، سنلتقي ثانية في باريس هذا الصيف . الصيف ليس بعيداً جداً .

– آسف كثيراً !

– آسفة ايضاً . الى اللقاء ، فيليب ، الى هذا الصيف .

– الى اللقاء ، آن العزيزة . لا تنسيني كثيراً .

ووضعت السماعة المبللة بالعرق . كان قلبي قد هدأ ، وكان ذلك يترك فراغاً تحت ضلوعي . وقصدت منزل آل ويلسون ؛ كان هناك كثير من الناس ، وقد وضعوا كأساً بين يدي ، وكانوا يبتسمون لي ، ويدعونني باسمي ، ويتلقونني من ذراعي ، من كتفي ، ويدعونني الى اليمين ، والى الشمال ، وكنت اسجل مواعيد على دفتري . ولكن كان لا يزال في صدري ذلك الفراغ . خيبة جسدي ، كنت أنصاع لها . لكن هذا الفراغ ، كنت اجد مشقة في تحمله . كانوا يبتسمون لي ، ويحادثونني ، وكنت اتحدث ، وابتسم ، وطوال اسبوع كامل ايضاً سنتحادث ونبتسم ، ثم لن يعود احد منهم يفكر بي ولا أنا بهم . كان هـذا البلد حقيقياً جداً ، وكنت حية للغاية ، وسأرحـل دون ان اترك ورائي شيئاً ، ودون ان

احمل شيئاً . وبين ابتسامتين ، فكرت فجأة : « واذا ذهبت الى شيكاغو ؟ » كنت أستطيع ان اتلفن لبروغان هذا المساء بالذات وأقول له : « انني قادمة ». واذا لم تبق عنده رغبة في رؤيتي ، فإنه سيقول ذلك : ما الأهمية ؟ ان رفضين لن يكونا اسوأ من رفض واحد . وبين ابتسامتين اخريين ، نظرت الى نفسي في استنكار : لم احصل على فيليب ، اذن سألقي بنفسي بين ذراعي بروغان ؟ ما أخلاق الأنثى المضطرمة هذه؟ في الحقيقة، لم تكن فكرة النوم مع بروغان تعني عندي شيئاً كبيراً ، وكنت اتخيل انه في الفراش سيكون أخرق بالاحرى . ولم اكن واثقة حتى من انني سأتمتع برؤيته ثانية ، فأنا لم أمض معه الا بعد ظهر يوم واحد ، وكنت أجازف بأسوأ الخيبات . كان هذا المشروع أحمق ، دون ادنى شك . كنت أرغب في الحركة ، في الانفعال ، كي اخفي على نفسي خيبة أملي ، وانما هكذا يرتكب الناس حماقات حقيقية . وقررت ان ابقى في نيويورك وتابعت تسجيل المواعيد : معارض ، حفلات ، موسيقى ، وعشاء ، ورقص ، وسوف يمضي الاسبوع سريعاً . وعندما وجدت نفسي في الشارع ثانية ، كانت ساعة « غرامرسي سكوير » الكبيرة تشير الى منتصف الليل، على كل الاحوال، كان الأوان قد فات لاتصال هاتفي . كلا ، لم يفت . ففي شيكاغو ، لم تكن الساعة الا التاسعة ، وبروغان يقرأ في غرفته او يكتب . وتوجهت امام واجهة مضاءة لدراغ – ستور[1] . « لا اريد ان افكر انني لن اراك ثانية ابداً » . ودخلت ، وصرفت نقوداً من الصندوق وطلبت شيكاغو .

– ليويس بروغان ؟ انا آن دوبروي .

ولم يجب بشيء . « انا آن دوبروي ، أتسمع ؟ » .

– اسمع جيداً جداً » . وأضاف في فرنسية مشوهة وهو يتعتع في كل مقطع في مرح : « صباح الخير ، آن . كيف الحال ؟ » .

كان الصوت اقل حضوراً من صوت فيليب . وكان بروغان لذلك يبدو اقل

---

١ معناها الحرفي مخزن ادوية . لكنها تستخدم اليوم للدلالة على دكان كبير يوجد فيه كل شيء . « المترجم »

بعداً . وقلت :

– استطيع ان آتي لتمضية ثلاثة ايام او اربعة في شيكاغو هذا الاسبوع . ما رأيك ؟

– الطقس جميل جداً في شيكاغو حالياً .

– لكن اذا جئت فلكي أراك . هل لديك وقت ؟

فقال في لهجة ضاحكة :

– لدي وقتي كله . ان وقتي لي .

وترددت ثانية واحدة . كان هذا سهلاً جداً : احدهما قال كلا ، والآخرنعم ، باللامبالاة نفسها . لكن الاوان قد فات للتراجع وقلت : « اذن ، سأصل غداً صباحاً في الطائرة الاولى . احجز لي غرفة في فندق لا يكون افضل فنادق شيكاغو . اين سنلتقي ؟ » .

سأذهب لآتي بك من المطار .

– اتفقنا . الى الغد .

وساد صمت . وتعرفت الصوت الذي قال لي قبل ثلاثة اشهر : « عودي » . وكان يقول :

– آن ! انني سعيد للغاية برؤيتك ثانية !

– انني سعيدة ايضاً . الى الغد .

– الى الغد .

كان صوته ، كان نفسه كما كنت أتذكره ، ولم ينسني . سوف اشعر بالدفء ، الى جانبه ، كما في ذلك الشتاء . وفجأة ، كنت مسرورة من ان فيليب اجاب : كلا . كل شيء سيكون بسيطاً . سوف نتحادث لحظة في بار منخول الاضواء . وسيقول لي : « تعالي لتستريحي عندي » . وسنجلس جنباً الى جنب على الغطاء المكسيكي . وسأستمع في وداعة الى شارل ترينيه ، وسيأخذني بروغان بين ذراعيه . لن تكون بدون شك ليلة مثيرة جداً لكنه سيكون سعيداً بها ، كنت واثقة من ذلك ، وهذا يكفي لسعادتي . واستلقيت على فراشي ، وكلي انفعال

من التفكير بأن رجلاً ينتظرني ليضمني الى قلبه .

لم يكن ينتظرني . ولم يكن هناك احد في القاعـة الكبيرة . وكنت افكر وانا اجلس على مقعد : « البداية سيئة » . كنت محتارة للغاية وقلت في نفسي في قلق انني لم أكن متبصرة « أأدعو بروغان ام لا أدعوه ؟ » . لقد لعبت بمفردي هذه اللعبة . وهأنذا اجد نفسي ملقاة في اقتحام لم يعد نجاحه يتعلق بي . كل ما كنت استطيـع ان افعله ، هو ان اتبـع على ميناء الساعـة حركة ذينك العقربين اللذين ما كانا يتقدمان . وأرعبتني هذه السلبية وحاولت ان اطمئن نفسي . انني سأستطيـع ، بعد كل شيء ، اذا ما ساءت خاتمة هـــذه القصة ، ان اجد ذريعة لأعود من الغد الى نيويورك . على كل الاحوال ، سوف يغلق الهلال ، خلال ثمانية أيام : سوف ابتسم ، في امان حياتي ، لجميـع ذكرياتي ، المؤثرة ، او السخيفة ، في تسامح . وسكن قلقي . وعندما فتحت حقيبتي لأبحث في مفكرتي عن رقم تلفون بروغان ، تحققت من جميـع منافذ النجدة ، وكان مؤمناً عليّ ضد جميـع الحوادث. ورفعت رأسي ، ورأيت انه واقف امامي ، وطوقني بكاملي بابتسامة صغيرة مكتومـــة . واصابني ذهول كبير كما لو انني صادفت شبحه في الطرف الآخر من العالم . وقال في فرنسيته الفظيعة :« اذن ؟ كيف الحال ؟».ونهضت . كان انحف من صورته ، وكانت له عينان اكثر حياة : « على ما يرام » .

ودون ان يترك ابتسامته ، قرّب فمه من شفتي . وبلبلتني هذه القبلة العلنية وتركت على ذقن بروغان لطخة حمراء . وقلت : « ها انت قـــد تلطخت » . ومسحت اللطخة بمنديلي وأضفت : « لقد وصلت في الساعة التاسعة » .

فقال في لهجة تأنيب بدت كأنها موجهة إليّ :

– اوه ! قالوا لي في التلفون ان الطائرة الاولى ستحط في العاشرة .

– لقد اخطأوا .

– انهم لا يخطئون ابداً .

– المهم اخيراً انني هنا .

فقال مسلـّماً :

– انت هنا .

وجلس ، وجلست ايضاً . الساعة التاسعة وعشرون دقيقة ، لقـــد وصل متأخراً عشرين دقيقة ، ومبكراً اربعين دقيقة . كان يرتدي طقماً جميلاً من الفلانيلا ، وقميصاً ناصعاً . كنت اتخيله منتصباً امام مرآته ، قلقاً للاحتفاء بي ، غير لبق في النظر الى نفسه، سائلاً انعكاسه بعين مزهوة ومحتارة بالتناوب . كان يراقب الساعة في قلق . وكنت انا قد اخذت بانتظـــاره ، على نحو غادر ! وابتسمت له :

– لن نبقى هنا طوال الصباح .

فقال :

– كلا . » وفكر : « هل تريدين ان نذهب الى حديقة الحيوانات ؟ » ..

– الى حديقة الحيوانات ؟

– انها قريبة جداً من هنا .

– وماذا سنفعل فيها ؟

– سننظر الى الحيوانات وستنظر الينا .

– لم آتِ الى هنـــا لأعرض نفسي على حيواناتكم . « ونهضت : « لنذهب بالأحرى الى مكان هادىء استطيع ان احصل فيه على قهوة، وعلى سندويشات، وسننظر الى بعضنا البعض » .

كنا بمفردنا في السيارة المقفلة التي كانت تقلنا الى قلب المدينة . كان بروغان واضعاً حقيبة سفري على ركبتيه ، وكان صامتاً ، ومن جديد شعرت انني قلقة : « ستكون مدة طويلة ، هذه الأيام الأربعة مع مجهول . وأربعة ايام ستكون مدة قصيرة للتعارف » . وقلت : « يجب ان نمرّ أولاً على فندقي لأضع حقيبتي» .

فابتسم بروغان في سيماء من حرج :

– لا بد انك حجزت لي غرفة ؟

كان يحتفظ بابتسامة مذنبة ، لكن كان في صوتـــه شيء ما يتحدى : « كلا ! » .

– كيف ! لقد طلبت اليك ذلك في التلفون !

فقال في سرعة :

– لم اسمع نصف ما كنت تقولينه . ان انكليزيتك لأسوأ أيضاً ممـــا كانت عليه في الشتاء ، وانت تتكلمين كمدفع رشاش . لكن ليس لهذا أي اهمية . »
واضاف عندما نزلنا من السيارة امام مكتب الطيران : « سنضع هذه الحقيبة في مستودع الحقائب . انتظريني هنا . » ودفع باباً دواراً وتبعته بنظري في ريبة . هذا النسيان ، هل كان إهمالاً ام حيلة ؟ كان واضحــاً بالنسبة لي ، دون شك ، انني سأمضي هذه الليلة في سريره . لكن الهلع كان يتملكني من فكرة انه ربما لن تكون لنا رغبة حقاً هذا المساء . لقـــد أقسمت بيني وبين نفسي انني لن ارتكب ثانية غلطة الدخول الى فراش رجل دونما رغبة . وما إن عاد بروغان حتى قلت في عصبية :

يجب ان نتلفن لفندق . انني لم أنم ليلاً . واحب ان اقوم بقيلولة ، وآخذ حماماً .

فقال :

– من الصعب جداً ايجاد غرفة في شيكاغو .

– هذا سبب اضافي للبحث عن غرفة فوراً .

كان يجب ان يقول : « تعـــالي لتستريحي عندي » . لكنه لم يقل شيئاً . ولم يكن المقهى الذي اخذني اليه يشبه قط البار الصميمي والدافىء الذي كنت قد تخيلته : فكأنه مقصف محطة . وكان البار التالي الذي وقعنا عليه يبدو كغرفة انتظار هو الآخر . هل سنمضي النهار في الانتظار ؟ ماذا كنا ننتظر ؟

– وسكي ؟

– عن طواعية .

– سيجارة ؟

– شكراً .

– سأضع اسطوانة .

لو استطعنا على الاقل ان نتحدث في هدوء كما في الماضي ! لكن بروغان لم يكن يستقر في مكانه . كان يذهب الى البار ليأتي بزجاجة كوكا-كولا ، ويدس قطعة معدنية ، ثم اخرى في علبة الاسطوانات ، ويقايض سجاير . وعندما جعلته اخيراً يقرر ان يتلفن ، ظل غائباً مدة طويلة جداً الى حد ظننت معه انه اختفى الى الابد . نهائياً ، كنت مخطئة في تنبؤاتي ! لكأنه كان يتعمد إحباطها. وكان لا يكاد يشبه الرجل الذي احتفظت بذكراه . كان الربيع قد أذاب كتلة التخشب التي كان الشتاء قد جمده فيها . يقيناً ، انه لم يصبح ظريفاً ، ولا مرناً ، لكن قامته كانت شبه انيقة ، وشعره اشقر نهائياً ، وعيناه بلون اخضر رمادي محدد تماماً . وكنت اكتشف ، في هذا الوجه الذي كان بدا لي حيادياً ، فماً حساساً ، ومنخرين نافرين قليلاً ، وفطنة تبلبلني .

وقال بروغان عندما جلس ثانية بقربي :

– لم اجد شيئاً . وقد توجهت اخيراً الى شركة الفنادق . يجب ان اخاطبهم بعد قليل .

– شكراً .

– ماذا تريدين ان تفعلي الآن ؟

– لو نبقى في اطمئنان هنا ؟

– اذن ، وسكي آخر ؟

– ليكن .

– سيجارة ؟

– شكراً .

– اتريدين ان اضع اسطوانة ؟

– كلا ، من فضلك .

وساد صمت . وبادرته : « رأيت اصدقاءك في نيويورك .

– ليس لي اصدقاء في نيويورك .

– بلى ، آل بتسون الذين عقدوا الصلة بيننا .

– اوه ! ليسوا اصدقاء .

– اذن لماذا قبلت برؤيتي ، قبل شهرين ؟

– لأنك كنت فرنسية ، ولأنه كان لك اسم يعجبني : « آن » .

وللحظة ، منحني ابتسامته ، لكنه استعادها فوراً . وقمت بجهد جديد :

– كيف اصبحت ؟

– لقد شخت يوماً في كل يوم .

– اجد بالاحرى ان شبابك قد تجدّد .

– هذا لأنني ارتدي سترة صيفية .

وخيم الصمت من جديد وفي هذه المرة استسلمت .

– طيب . لنذهب الى مكان . لكن اين ؟

فقال في عجلة :

– في ذلك الشتاء ، كنت ترغبين في رؤية مباراة بيزبول ، وتوجد مبـاراة اليوم .

– حسناً ! هيا بنا .

كان لطيفاً ان يتذكر رغباتي القديمـة . لكنه كان يستطيع ان يشك في ان البيزبول لا يهمني مطلقاً حالياً . ليكن ان خير ما نستطيع ان نفعله ، هو ان نقتل الوقت بالأنتظار ... انتظار ماذا ؟ كنت اتبع بنظرة بلهاء الرجال ذوي الخوذ الذين كانوا يركضون على الارض المعشوشبة بخضرة حادة ، وكنت أردد في نفسي في قلق : ان نقتل الوقت ! في حين اننا لا نملك ساعة واحدة لنفسدها . ان اربعة ايام مدة قصيرة جداً ، فيجب ان نسرع : متى سنلتقي بنفسيناأخيراً؟

وقال لبويس : « اتضجرين ؟ » .

– لنذهب الى مكان آخر .

وأخذني الى نادٍ حيث شربنا الجعـــة ونحن ننظر الى تساقط كرات اللعب الخشبية ، والى حانة حيث عزفت خمسة بيانات ميكانيـة موسيقى مغبرة ، والى حوض سمك كانت الاسماك فيه تكثر في خبائة . وركبنا حافلات كهربائيـة ،

ومتروهات ، وحافلات اخرى، ومتروهات اخرى. كنت أسر في المتروهات. كنا نغوص ، وجبيني مستند الى زجاج العربة الاولى ، في انفاق مدوخة مزهرة بمصابيح زجاجية شاحبة الزرقة ، وكانت ذراع بروغان تطوق خصري وكان صمتنا يشبه الصمت الذي يوحد بين عشاق مطمئنين . لكننا في الشوارع ، كنا نسير منفصلين وكنت اشعر متضايقة بأننا نصمت لأننا لا نجد شيئاً نقوله فيما بيننا. وفي منتصف بعد الظهر ، توجب عليّ ان أعترف بأن هناك خطأ في حساباتي : بعد اسبوع ، غداً ، سيكون هذا النهار قد اصبح من الماضي ، وسأستطيع بسهولة ان اتغلب عليه . لكن كان يجب أولاً ان اعيشه ساعة فساعة ، وطوال هذه الساعات كلها كان مجهول يتحكم بمصيري كما يشاء . كنت متعبة جداً ، وخائبة جداً ، الى حد انني أردت ان اجد نفسي وحيدة ثانية .

وطلبت :

– من فضلك ، تلفن مرة اخرى . انني بحاجة للنوم قليلاً .

فقال بروغان وهو يدفع باب دراغ – ستور :

– سأتوجه الى شركة الفنادق .

ولبثت واقفة انظر بعين ساهمة الى الكتب الباردة الجلد ، وسرعان ما خرج من غرفة التلفون في ابتسامة راضية .

– توجد غرفة تنتظرك على بعد خطوتين من هنا .

– آه ! شكراً .

وسرنا في صمت حتى الفندق . لماذا لم يكذب ! انما كان عليه الآن ان يقول : تعالي لتستريحي عندي. ألم يكن واثقاً هو الآخر من رغباته؟ كنت قد اعتمدت على حرارته ، على جرأته لتحطيم عزلة جسدي . لكنه كان يتركني سجينة ولم اكن استطيع شيئاً من اجلنا . واقترب ليويس من المكتب :

– لقد حجزت غرفة منذ لحظة .

فألقى المستخدم نظرة على السجل :

– شخصان ؟

فقلت :

– شخص واحـــد . » وسجلت اسمي على البطاقة : « حقيبتي في مستودع الحقائب » .

فقال ليويس :

– سأذهب لآتي بها . متى تريدينها ؟

– استدعني بعد ساعتين .

هل حلمت ؟ أم هل تبادل نظرة قريبة مع المستخدم ؟ هل حجز الغرفـــة لشخصين ؟ لكنه كان يستطيع اذن ان يجد ذريعة ليصعد معي وكنت سأوحي اليه بعشرين ذريعة . كانت حيله المسكينة تغيظني بقدر ما كنت أتمنى ان اترك نفسي اقع فيها . واعددت ماء حمامي ، وغطست في الماء الساخن وأنا أقول في نفسي اننا أسأنا البداية . هل كانت غلطتي ؟ لا شك في ان هناك نساء يعرفن كيف يقلن فوراً : « لنذهب الى منزلك » . كانت نادين ستقول ذلك . واستلقيت على الغطاء المبطن بالساتان ، واطبقت عيني . كنت قد خشيت من اللحظة التي سيتوجب فيها عليّ ان اجد نفسي واقفة وسط هــذه الغرفة حيث لن تستقبلني حتى ولا ألفة فرشاة اسنان . كثير من الغرف المختلفة والتي لا يمكن تمييزها عن غيرها ، كثير من الحقائب المفتوحة ، المغلقة ، كثير من الوصول والرحيـــل ، واليقظة ، والانتظار ، والجري ، والهرب – كنت سئمة من اعادة خلق حياتي كل صباح ، كل مساء ، كل ساعة . كنت أتمنى في حماسة لو ان قوة اجنبية سطحتني على هذا الفراش ، الى الأبد . ليصعد ، ليقرع بابي ، ليـدخل . كنت أترصد خطاه في الممشى في نفاذ صبر مهووس للغــاية حتى انه كان يقلد الرغبة . لا صوت . وألقيت بنفسي في النوم .

عندما رأيت بروغان في قاعة الفندق ثانية ، كنت قد سكنت . عمـــا قريب ، سيقرر مصير هذه المغامرة ، وعلى كل الأحوال ، من الآن حتى بضع ساعات سأنام . وبدا لي المطعم الألمـــاني القديم الذي تناولنا فيه العشاء حفياً ، وثرثرت في لامبالاة . وكان البار الذي جلسنا فيه فـــيما بعد غارقاً في ضباب

بنفسجي : كنت أشعر بالراحة فيه . وكان بروغان يكلمني بصوته الماضي . كان يقول :

– خطفك التاكسي ، ولم أكن اعرف شيئاً عنك . وعندما عدت ، وجدت « النيويوركر » تحت بابي . وإذا بي ، في منتصف مقال عن مؤتمر للطب النفسي ، اقع على اسمك . لكأنك عدت في قلب الليل لتقولي لي من انت .

– ألم يعلمك آل بنسون ؟

– أوه ! انني لا اقرأ ابداً رسائلهم . » واضاف بصوت عابث :

« في المقال ، كانوا يتحدثون عنك كدكتورة لامعة » .

– أأدهشك هذا كثيراً ؟

فنظر إليّ دون ان يجيب ، مبتسماً . عندما كان يبتسم لي هكذا ، كان يخيل إليّ انني اشعر بأنفاسه على فمي .

– فكرت بأن عندهم دكاترة ظريفين في فرنسا .

– وانا ، عند عودتي ، وجدت كتابك في الفندق . وحاولت أن اقرأه لكني كنت اشعر بنعاس شديد . وقرأته في اليوم التالي في القطار . » وتفرست في وجه ليويس : « برتي ، فيه اشياء كثيرة منك ، أليس كذلك ؟ » .

فقال بروغان بصوت ساخر :

– أوه ! انا ، ما كنت لأشعل النار قط في مزرعة . انني اخاف كثيراً من النار ومن الدرك ايضاً . » ونهض فجأة : « تعالي لنلعب لعبة الستة والعشرين » .

وناولتنا الشقراء الشرسة العينين التي كانت جالسة وراء طاولة اللعب ، علبة النرد . واختـار بروغان الستة وراهن على نصف دولار . كنت انظر في فتور الى العظام الصغيرة التي كانت تتدحرج على الطاولة الخضراء . لماذا تهرب ، في اللحظة نفسها التي بدأنا فيها في وجدان نفسينا ثانية ؟ هل كنت أخيفه انا الأخرى ؟ كان وجهه يبدو لي في آن واحد قاسياً جداً وقابلاً للأذى كثيراً ، وكنت أسيء حل لغزه . وقال في لهجة فرحة : « ربحت ! » وناولني علبة النرد . وخضضتها في عنف . وقررت في لمح البرق : « انما على ليلتنا اقـامر »

واخترت الخمسة. كان فمي مبطناً بالرق، وراحتاي نديتين. وخرجت الخمسة سبع مرات خلال الضربات الثلاثة عشرة الأولى، ثم ثلاث مرات ايضاً : خسرت !

فقلت وانا اجلس ثانية :

انها لعبة سخيفة .

ـ أتحبين اللعب ؟

ـ اكره ان اخسر .

فقال بروغان في كآبة :

ـ انني اعبد البوكر واخسر دوماً . يبدو ان وجهي يسهل جداً حل لغزه .

فقلت وانا أحدجه بنظرة تحدٍ :

ـ لا اعتقد .

وظهر عليه الحرج لكني لم أحول نظرتي . كنت قد قامرت على ليلتنا، وخسرت، وكان بروغان يمنع عني مساعدته ولقد أداني النرد . وتمردت ضد هذه الهزيمة في عنف تحول فجأة الى شجاعة :

ـ منذ هذا الصباح، اتساءل هل أنت مسرور بعودتي، ولا أصل الى معرفة ذلك .

فقال بصوت كثير الجد حتى انني خجلت من لهجتي العدائية :

ـ بالطبع، انا مسرور .

فقلت :

ـ اود ذلك، لأنني انا سعيدة بوجدانك ثانية . هذا الصباح كنت خائفة من ان تكون ذكرياتي قد غشتني : لكن لا، فأنت لا تزال كما كنت اتذكرك .

فقال :

ـ انا، كنت واثقاً من ذاكرتي . » ومن جديد كان صوته دافئاً كزفير .

واخذت يده وقلت كلمة جميع النساء اللواتي يختبرن أنفسهن في الحنان :

ـ احب يديك كثيراً .

ـ احب كثيراً يديك انت . أيها تعذبين دماغ المرضى المساكين الذين بدون

دفاع ؟

ـ أودعني دماغك ، اعتقد انه بحاجة لذلك ...

ـ اوه ! انه لا يعرج إلا من جانب واحد .

كانت أيدينا متحدة ، وكنت انظر بانفعال الى هذا الجسر الهش الذي وصل بين حياتينا ، وأتساءل ، جافة الفم : « هاتان اليدان ، هل سأعرفهما أم لا ؟ ». ودام الصمت ملياً واقترح بروغان :

ـ هل تريدين ان نعود لنستمع الى « بيغ بيللي » ؟

ـ اود كثيراً .

في الشارع ، أخذ ذراعي . كنت اعرف انــه بين لحظة وأخرى سيجذبني اليه . كان عبء هذا النهار الثقيل قد انزاح عن كتفي ، وكنت أمشي اخيراً نحو السلام ، نحو الفرح . وفجأة ترك ذراعي . واضاءت وجهه ابتسامـــة كبيرة مجهولة : « تيدي ! » .

وتوقف الرجل والمرأتان وابتسموا في تألق. وفي لحظة وجدنا أنفسنا جالسين الى طاولة مقهى كئيب . كانوا يتكلمون جميعاً بسرعة كبيرة ولم أكن افهم شيئاً مما يقولونه . وكان بروغان يضحك كثيراً ، وقد انتعشت نظرته ، فكان يبدو مطمئناً لإفلاته من خلوتنا الطويلة . كان هذا طبيعياً : فهؤلاء الناس اصدقاؤه ، ولديهم كثير من القصص يروونها فيما بينهم . أما بينه وبيني ، فمـــا هو المشترك ؟ كانت المرأتان الجالستان بالقرب منه صغيرتين وجميلتين : هل كانتـــا تعجبانه ؟ وتبينت انه كان في حياته بالتأكيد نساء صغيرات وجميلات : كيف استطيع ان اشعر بهذا الألم الكثير في حين اننا لم نتبادل بعد قبلة حقيقية واحدة؟ وكنت اتألم. بعيداً ، بعيداً جداً في اعماق نفق ، كنت ألمح واحداً من منافذ النجدة التي بدت لي في الصباح موثوقة للغاية : لكني كنت اكثر تعبـاً من ان أستطـع جر نفسي اليه ، ولو على ركبتي . وحاولت ان اتمتم : « كم من قصص لأنني لم أصل الى جعله يقبّلني » لكن هــذه الكآبة لم تكن تساعد . ان أكون سخيفة إن كثيراً وإن قليلاً ، ان أستحق استحساني أو لومي ، هذا لم يعد له اي أهمية . ان هذه

القصة لا تجري مني إلي : فقد وضعت نفسي موثوقة اليدين والقدمين تحت رحمة رجل آخر . يا للجنون ! لم اعد افهم حتى ما جئت ابحث عنه هنا . يقيناً ، لا بد انني فقدت العقل لأتخيل ان رجلاً لا يعني بالنسبة لي شيئاً يستطيع شيئاً من اجلي . وقررت عندما تناول بروغان ذراعي في الشارع ثانية : « سأذهب لأنام فوراً » .

وقال :

— انا مسرور إذ أريتك تيدي ، انه النشال الكاتب الذي حدثتك عنه ، أتذكرين ؟

— اذكر . والمرأتان ، من هما ؟

— لا أعرفهما . » كان بروغان قد توقف عند زاوية شارع : « اذا لم تأتِ الحافلة ، فسنأخذ سيارة تاكسي » .

وفكرت : « ان التاكسي لهو حظنا الاخير . واذا أتت الحافلة ، فإنني سأتخلى ، وأعود الى الفندق » . وطوال لحظة لامتناهية ، كنت أترصد السكة الحديدية ، المهدد بريقها . واشار بروغان الى تاكسي : « إصعدي » .

لم يتح لي الوقت لأقول في نفسي : « الآن أو ابداً » . فانه كان قد شدني اليه ، وكان غلّ من اللحم يحبس شفتي ، ولسان ينقب في فمي وجسدي يقوم من بين الاموات . ودخلت إلى البار مترنحة كما ترنح ألعازر يوم بُعث . كان الموسيقيون يستريحون ، وجاء بيغ بيللي ليجلس الى طاولتنا . كان بروغان يمزح معه وعيناه تلمعان . ووددت لو اشاطره مرحه ، لكنني كنت مرتبكة بجسدي الجديد كله ، فقد كان مفرط الحجم ، محرقاً للغاية . وعاودت الاوركسترا العزف . ونظرت بعين ساهمة الى الرجل الوحيد الساق ، الأجعد الشعر ، الذي كان يؤدي رقصة كلاكيت ، وكانت يدي ترتعد وهي تحمل الى فمي كأس الوسكي : ماذا سيفعل بروغان ؟ ماذا سيقول ؟ انا ، لن استطيع ان انتزع من نفسي حركة ، ولا كلمة . وبعد فترة بدت لي طويلة جداً سأل بصوت متحمس : « أتريدين الذهاب ؟ » .

– نعم .
– أتريدين أن تعودي ؟
وفي تمتمة مزقت حلقي ، تمكنت من الهمس : « لا اريد ان اتركك » .
فقال مبتسماً :
– ولا أنا .
وفي التاكسي أخذ فمي بين شفتيه ثانية ثم سأل :
– أتريدين ان تنامي عندي ؟
– بالتأكيد .
هل كان يفكر انني استطيع ان القي الى علبة القمامة بهذا الجسد الذي منحني اياه ؟ ووضعت رأسي على كتفه وطوقني بذراعه .
وفي المطبخ الاصفر الذي ما عادت المدفأة تشخر فيه ، شدني اليه في عنف : « آن ! آن ! انه حلم ! لقد كنت تعيساً جداً طوال النهار ! » .
– تعيساً ؟ انما انت الذي عذّبتني . فانك ما كنت لتقرر تقبيلي .
– لقد قبلتك ومسحت ذقني بمنديلك : ففكرت بأنني أخطأت الطريق .
– ان الناس لا يتبادلون القبل في قاعة عامة ! كان يجب ان تأتي بي الى هنا.
– لكنك كنت تطالبين بغرفة ! ولقد هيأت ، أنا ، كل شيء . فاشتريت قطعة بفتيك كبيرة للعشاء . وفي الساعة العاشرة مساء كنت سأقول : فات الاوان لإيجاد فندق .
– لقد فهمت جيداً . لكني حذرة : افترض اننا لم يجد أحدنا الآخر ثانية .
– كيف لا يجد أحدنا الآخر ثانية ؟ لم افقدك قط .
كنا نتكلم فماً الى فم وكنت اشعر بأنفاسه على شفتي . وتمتمت : « كنت خائفة كثيراً من ان تمر حافلة » .
فضحك في كبرياء : « كنت مزمعاً على ركوب تاكسي » . كان يقبل جبيني ، وجفوني ، ووجنتي ، وكنت أشعر بالارض تدور . وقال : « انت ميتة تعباً ، يجب ان تنامي » . وفي سحنة متجهمة أضاف : « حقيبتك ! » .

– لست بحاجة اليها .

وبقي في المطبخ بينما كنت أتعرّى . والتففت بين الأغطية ، تحت الغطاء المكسيكي . كنت أسمعه يحوم ، ينضد ، يفتح ويغلق الخزانات وكأننا زوجان منذ زمن طويل . بعد كثير وكثير من الليالي التي أمضيتها في غرف فنادق ، في غرف اصدقاء ، كان من المريح ان اشعر انني في بيتي ، في هذا الفراش الغريب عني . وكان الرجل الذي اخترته والذي اختارني يهم بالرقاد الى جانبي .

وقال بروغان :

– اوه ! رقدت من الآن ! » كانت ذراعاه مثقلتين ببياضات ناصعة وكان ينظر إليّ في تحير : « كنت اريد ان اغير الأغطية » .

– لا فائدة من ذلك . » ولبث على عتبة الباب محرجاً بحمله الضخم . وقلت وانا اسحب حتى ذقني الغطاء الدافىء الذي نام فيه ، في الليلة الماضية : « انني مرتاحة تماماً » . وابتعد ، ثم عاد .

– آن !

كان قد تهالك علي ، واقلقتني لهجته . وللمرة الأولى ، نطقت باسمه « ليويس ! » .

– آن ! انني سعيد جداً !

كان عارياً ، وكنت عارية ، ولم اكن اشعر بأي حرج . لم تكن نظرته لتستطيع ان تجرحني . لم يكن يحلف لي ، ولم يكن يفضل عليّ شيئاً . ومن شعري الى اصابع قدمي ، كانت يداه تستظهرانني . ومن جديد قلت : « احب يديك » .

– اتحبينهما ؟

– طوال السهرة كنت اتساءل هل سأشعر بهما على جسدي .

فقال :

– ستشعرين بهما طوال الليل .

وفجأة ، لم يعد لا اخرق ولا متواضعاً . كانت شهوته تغير شكل وجهي .

كنت املك من جديد ، انا التي لم يعد لها منذ زمن طويل لا مذاق ولا شكل ، نهدين ، وبطناً ، وفرجاً ، وجسداً . كنت مغذّية كالخبز ، فواحة كالأرض . كان هو معجزاً للغاية الى حد انني لم افكر بأن اقيس وقتي ولا لذتي . انني اعرف فقط اننا عندما نمنا كنا نسمع تغريد الفجر الخافت .

وايقظتني رائحة قهوة . وفتحت عيني وابتسمت وانا أرى على مقعد مجاور ثوبي الصوفي الازرق بين ذراعي سترة رمادية . وكان ظل الشجرة السوداء قد نبتت له اوراق تهتز على الستارة الصفراء الفاقعة . وناولني ليويس كأساً فشربت في جرعة واحدة عصير البرتقال الذي كان له هذا الصباح طعم النقاهة : لكأن اللذة مرض، أو لكأن حياتي كلها كانت مرضاً طويلاً ، انا في سبيلي للشفاء منه.

كان يوم احد ، ولأول مرة في السنة كانت الشمس تشرق على شيكاغو ، وذهبنا للجلوس على أرض معشوشبة عند ضفة البحيرة. كان هناك اطفال يلعبون لعبة الهنود بين الشجيرات وكثير من العشاق يمسكون بأيدي بعضهم البعض . وكانت يخوت تنساب على المياه المشرقة ، وطائرات متناهية في الصغر ، حمراء، وصفراء ، ومطلية كاللعب ، تحلق فوق رأسينا . وأخرج ليويس ورقة من جيبه : « منذ شهرين نظمت قصيدة عنك ... » .

– أرني .

وشعرت بلسعة صغيرة في القلب . لقد كتب هذه الابيات ، جالساً قرب النافذة ، تحت صورة فان غوخ،من اجل المجهولة الطاهرة التي رفضت له شفتيها. ولقد فكر بها ، طوال شهرين ، في حنان : وأنا لم اعد تلك المرأة . ولمح ، بدون شك ، ظلاً على وجهي لأنه قال في قلق : « ما كان يجب ان اريك اياها».

– لكن بلى ، انني احبها كثيراً . » وابتسمت في جهد : « لكنّ هاتين الشفتين لك الآن » .

فقال :

– الآن أخيراً .

وطمأنتني حرارة صوته . لقد أثرّ عليه تحفظي ، ذاك الشتاء . لكن من

الواضح انه اكثر الآن سروراً بكثير . لا فائدة من تعذيب نفسي . كان يداعب شعري ، ويقول لي كلمات بسيطة وعذبة ، ويدخل في اصبعي خاتماً نحاسياً قديماً . وكنت انظر الى الخاتم ، واسمع الكلمات الخارقة . وتحت خدي ، كنت ارصد الخفقات المألوفة لقلب مجهول . لم يكن مطلوباً مني اي شيء : كان يكفي ان اكون ما انا عليه بالضبط وكأن شهوة رجل تغيّرني الى آلة كاملة . وكان هذا مريحاً للغاية الى حد ان الشمس لو توقفت في عرض السماء ، لتركت الأبدية تنساب دون ان اتبين ذلك .

لكن الشمس كانت قد اقتربت من الأرض ، والعشب يصبح رطباً ، والشجيرات تصمت ، والبخوت تتناوم . وقال ليويس : « ستأخذين برداً . لنمشِ قليلاً ».

كان يبدو غريباً ان أجد نفسي على قدمي ثانية ، تدفئني حرارتي الخاصة ، وان يعرف جسدي كيف يتحرك ويحتل مكاناً له . طوال النهار لم يكن الا غياباً : الا سالباً : كان ينتظر الليل ومداعبات ليويس . وقال :

– اين تريدين تناول العشاء ؟ يمكننا ان نعود او نذهب الى مكان ما .

– لنذهب الى مكان ما .

كان هذا النهار شديد الزرقة ، كثير الحنان الى حد انني كنت أشعر انني عاجزة عن العذوبة . لم يكن لماضينا ست وثلاثون ساعة ، وكان افقنا يقتصر على وجه واحد ، وكان مستقبلنا فراشنا : كنت اختنق قليلاً في هذا الهواء الراكد.

– لو جربنا النادي الأسود الذي كان بيغ بيللي يتحدث عنه البارحة ؟

فقال ليويس :

– انه بعيد .

سنتنزه بذلك قليلاً .

كنت بحاجة الى تسلية . فقد كانت تلك الساعات الشديدة الكثافة قد أتعبتني . وفي الحافلة ، تناومت على كتف ليويس . لم اكن احاول ان اتعرف نفسي في هذه المدينة . لم اكن اصدق ان لها كالمدن الأخرى شرايين ثابتة

ووسائل نقل محددة . كان يجب ان اخضع لبعض الطقوس التي يعرفها ليويس ، وكانت الأمكنة تنبجس من العدم . وانبجس نادي « ديليزا » من العدم ، تحيط به هالة من النور البنفسجي . وكانت هناك مرآة كبيرة قرب البـاب وابتسمنا معاً لصورتنا المنعكسة . وكان رأسي يصل على الضبط الى كتفه ، وكنا نبـدو سعيدين وشابين ، وقلت في مرح : « يا له من زوج جميل ! » . ثم انقبض قلبي : كلا . لم نكن زوجاً . ولن نكون كذلك ابداً . كان يمكن ان يحب احـدنا الآخر ، انا واثقة من ذلك : في أي نقطة من العالم ، في أي زمن ؟ على كل حال ، ليس في اي مكان على الأرض ، ليس في اي نقطة من المستقبل .

وقال ليويس :

– نريد ان نتناول العشاء .

وقادنا رئيس خدم ، أسمر البشرة ، عليـه سحنة بطل مصارعة حرة ، الى مقصورة قرب المسرح ووضعوا امامنا سلالاً مليئة بالفراريج المشوية . لم يكن الموسيقيون قد وصلوا لكن الصالة كانت ممتلئة : بعض البيض ، وكثير من السود الذين كان بعضهم يضع على رأسه طرابيش .

– ما هذه الشواشي ؟

فقال ليويس :

– انها رابطة من تلك الرابطات الموجود منها عدد كبير . لقد وقعنـا على احد مؤتمراتهم .

– لكن هذا سيكون مملاً جداً .

– هذا ما أخشاه .

كان صوته متجهما . كان هو الآخر بلا شك متعباً من افراطنا الطويـل في السعادة . فمنذ البارحة مساء استنفدنا قوانا في البـحث والوصول ، والاعتناق . قليل جداً من النوم ، كثير من الحمى ، كثير من الذبول . وبينا كنا نـأكل في صمت ، صعد زنجي طويـل ، يضع طربوشاً ، الى خشبة المسرح وأخذ يتكلم في بعبعة .

– ماذا يقول ؟
– يتكلم عن الرابطة .
– سيكون هناك على كل حال تسليات ؟
– نعم .
– متى ؟
– لا أدري .

كان يجيب بطرف شفتيه . ولم يكن سأمنا المشترك يقرب بيننا ، وفجأة لم أعد احس بجريان في عروقي إلا جريان مـاء رمادي . لعل رغبتنا في الهرب من مخبئنا كانت غلطة : فالهواء فيه كان ثقيلاً جداً ، غنياً جداً . لكن الارض ، في الخارج ، كانت مقفرة من السكان ، والجو بارداً . وألقى الخطيب باسم ما بصوت مرح فقامت امرأة تضع قبعة حمراء وصفق جميع الناس . وانتصب وجه آخر ، ثم آخر فوق الجمهور . هـل سيقدم جميع اعضاء الرابطة واحـداً واحداً ؟ ! واستدرت نحو ليويس . كان يحدج الفراغ بنظرة زجاجية . وكان فكه الاسفل متدلياً ، وكان يشبه أسماك الحوض الخبيثة وقلت :

– اذا كان هذا سيستمر طويلاً ، فمن الافضل ان نذهب .
– لم نأتِ من مثل هذا البعد لنذهب بمثل هذه السرعة .

كان صوته جافاً . بل خيل إلي انني ألمح نوعـاً من الكراهية لم يكن التعب يكفي لتفسيره . لعله كان يتمنى عندما تركنا ضفة البحيرة ان نعود الى غرفتنا . لعله جرح لأنني لم ارغب في ان نجد فراشنا ثانية فوراً . ووجمت لهذه الفكرة . وحاولت ان اقترب منه بواسطة كلمات .

– انت متعب ؟
– كلا .
– انت سئم ؟
– انني انتظر .
– لن ننتظر هكذا طوال ساعتين ؟

– لِمَ لا ؟

كان قد اسند رأسه الى الحاجز الخشبي ، وكان وجهه قتيماً وبعيداً كوجه القمر . كان يبدو على استعداد للتناوم طوال ساعتين دون ان يفوه بكلمة . وطلبت قدح وسكي مضاعفاً لم ينجح في إنعاشي من جديد . وكانت سيدات عجائز سود معتمرات طرابيش حمراء يتبادلن التحيات ويحيين الجمهور بين التصفيق .

– ليويس ، لنعد .

– كلا ، هذا عبث .

– اذن كلمني .

– ليس لديّ ما أقول .

– لم أعد استطيع ان اتحمل البقاء هنا .

– لقد اردتِ المجيء

– ليس هذا سبباً .

كان قد سقط من جديد في خدره . وحاولت ان افكر : « انني نائمة ، هذا كابوس ، سوف استيقظ » . لكن لا . إنِ بعد الظهر هذا الشديد الزرقة هو الذي كان حلماً ، وانما الآن استيقظنا . على شاطىء البحيرة ، كان ليويس يكلمني كما لو انني لن اتركه ابداً ، ولقد طوق اصبعي بخاتم . وبعد ثلاثة ايام سأكون قد رحلت ، الى الأبد ، وهو يعرف ذلك . وكنت افكر : « انه حاقد عليّ وهذا عدل. لماذا جئت ، ما دمت لا استطيع البقاء ؟ انه حاقد عليّ ، وسيفرق حقده بيننا الى الابد » ، كنا ، لولا القليل ، على وشك الفرقة الى الأبد : وقبل وقت قليل جداً كنا مفترقين الى الأبد ! وكانت دموع تصعد الى عيني .

– انت غاضب ؟

– لكن لا .

– اذن ماذا في الأمر ؟

– لا شيء .

كنت ابحث عبثاً عن نظرته. وكنت استطيع ان اسحق سلاميات اصابعي، واحطم رأسي على هذا الجدار الأعمى، دون أن استطيع هزّه وكانت فتيات في اثواب توزيع الجوائز يصطففن على المسرح . وتقدمت فتاة نحيلة قصيرة جلدها بلون الصوف من المكرفون واخذت تدندن غانجة . وتمتمت في يأس : « انا عائدة ! » .

ولم يتحرك ليويس وكنت اتساءل غير مصدقة : « أمن الممكن ان يكون كل شيء قد انتهى ؟ هل فقدته بمثل هذه السرعة ؟ » . وبذلت جهداً للتمسك بالحس السليم : انني لم أفقده ، انني لم احصل عليه ابداً ، وليس لي الحق في التشكي لأنني لم افعل سوى مراعاته . ليكن ، انني لا اتشكى : لكني أتألم . ولمست خاتمي النحاسي . لم تكن هناك الا وسيلة واحدة لأكف عن التألم : ان أنكر كل شيء . سأعيد له الخاتم ، وغداً صباحاً سآخذ الطائرة الى نيويورك ، وهذا اليوم لن يعود الا ذكرى يتكفل الزمن بمحوها . وانساب الخاتم على طول اصبعي ورأيت من جديد السماء الزرقاء ، وابتسامة ليويس ، وكان يداعب شعري ، ويناديني : « آن ! » . وتهالكت على كتفه : « ليويس ! » .

وطوقني بذراعه وانهمرت دموعي .

ـ هل كنت حقاً رديئاً جداً ؟

فقلت :

ـ لقد أخفتني . لقد خفت للغاية !

ـ خفت ؟ هل كنت تخافين من الألمان في باريس ؟

ـ كلا ..

ـ وانا أخفتك : اني فخور جداً ...

ـ كان يجب ان تخجل . » كان يقبل شعري في رقة . كانت يده تداعب ذراعي . وتمتمت : « اردت ان اعيد لك خاتمك » .

فقال بصوت رصين :

ـ رأيت وفكرت : انني افسد كل شيء . لكن لم اكن استطيع ان أنتزع

من نفسي كلمة واحدة .

– لماذا حدث ؟

– لم يحدث شيء مطلقاً .

ولم ألح ، لكني سألت : « أتريد ان نعود الآن ؟ » .

– بالتأكيد .

وفي التاكسي ، قال فجأة : « ألا يحدث لك ابداً ان تتمنى قتل جميع الناس ونفسك معهم ؟ »

– كلا . وعلى الأخص ليس عندما اكون معك .

وابتسم ، واسندني الى كتفه . كنت قد وجدت ثانية حرارته ، وأنفاسه ، لكنه كان صامتاً وفكرت : « لم اخطىء . ان هذه الأزمة لم تنفجر بدون سبب . لقـــد فكر بأن قصتنا لا معقولة ، وهو لا يزال يفكر في ذلك ! » . وعندما رقدنا ، اطفأ النور فوراً . واخذني في الظلمة ، في صمت ، دون ان يلفظ اسمي ، دون ان يقدم لي ابتسامته . . ثم ابتعد دونما كلمة . وقلت في نفسي في ذعر : « نعم ، انه حاقد علي . سوف أفقده » . وتضرعت :

– ليويس ! قل لي على الأقل انك تشعر بالصداقة نحوي !

فقال في عنف :

– صداقة ؟ لكني أحبك .

واستدار نحو الجدار وبكيت طويلاً ، دون ان اعلم هل هذا لأنه يحبني ، أم لأنني لا استطيع ان أحبه ، أم لأنه سيكف ذات يوم عن حبي .

وقررت في الصباح وانا افتح عيني : « يجب أن أكلمه » . الآن وقد لفظت كلمة الحب ، يجب ان اشرح لليويس لمـــاذا ارفض استخدامها . لكنه جذبني إليه : « كم انت وردية ! كم انت دافئة ! » ولم يطاوعني قلبي . لم يعد لأي شيء حساب سوى سعادة كوني بين ذراعيه دافئة ووردية . ومضينا عــبر المدينة . وسرنا متشابكي الأذرع في الشوارع المحفوفة بأكواخ حقيرة خربــة تقف امامها سيارات فارهة . وكانت المنازل المبنية في الأسفل تفصلها أحيانــاً عن الطريق

المرتفعة حفرة يعلوها درج ، فيخيل للمرء انـــه يسير على سد . وتحت ارصفة ميشيغيان أفينو ، اكتشفت مدينة بلا شمس تلتمع فيهـــا طوال النهار لافتات النيون . وتنزهنا في زورق في النهر . وشربنا المارتيني في أعلى برج ترى منـــه بحيرة لا نهاية لهـــا وضواحٍ شاسعة كالبحيرة . كان لويس يحب مدينته . وكان يرويهـــا لي . المرج ، الهنود ، الأكواخ الخشبية الاولى ، الأزقة التي كانت تنخر فيها خنازير، الحريق الكبير ، ناطحات السحاب الاولى : لكأنه شهد كل شيء.

وسأل :

– اين تريدين العشاء ؟

– حيث تشاء .

– لقد فكرت اننا نستطيع العشاء في البيت ؟

فقلت :

– نعم ، لنتعشّ في البيت .

وانقبض قلبي . لقد قال « في البيت » كما لو كنا زوجاً وزوجة : وكان باقياً لنا يومان نعيشهما معاً . وكنت أردد في نفسي : « يجب ان اتكلم » . وما كان يجب ان اقوله له، هو انه كان بإمكاني ان احبه وانني لا استطيع : هل سيفهمني، ام سيكرهني ؟

واشترينا لحم خنزير، وسالامي ، وزجاجة « شيانتي » ، وبسكويتاً بالروم. وانعطفنا عند زاوية الشارع حيث كانت لافتـة شيلتز الحمراء تلتمع . وفي أسفل الدرج ، بين علب القمامة ، شدّني إليه : « آن ! أتعرفين لمـاذا احبك كثيراً ؟ لأنني أجعلك سعيدة » . وقربت شفتي لأشرب عن قرب أقرب أنفاسه عندمـا انفصل عني . وقال : « هناك شخص على الشرفة » .

وصعد امامي بخطى سريعة وسمعته يهتف في مرح :

– ماريا ! يا للمفاجأة الطيبة ! ادخلي .

فقالت ماريا :

– لا اريد ان ازعجك .

– انت لا تزعجينني .

ودخلت . كانت صغيرة ، مفرطـة السمنة قليلاً ، وكانت ستكون جميلة لو كانت أقل ماكياجاً ومسرحة شعرها بعنايـــة أكبر . وكانت بلوزتها الزرقاء تترك عاريتين ذراعيها البيضاوين اللتين كانت إحداهما ملونة بارتشاحات دموية كبيرة . ولا بد انها جاءت كجارة ، دون ان تتحمل مشقة اللبس : « صديقـة قديمة » ، ماذا يعني هذا على الضبط ؟ وجلست ، وقالت بصوت ابح قليلاً :

– كنت بحاجة لأن أكلمك ، ليويس .

وصعدت الى حلقي موجة مالحة . لقد لفظت هذا الاسم كما لو أنــه مألوف عندها كثيراً . وكانت تنظر إلى ليويس في حنان ملحاح ، بينما كان يفتح زجاجة شيانتي . وسأل :

– هل انتظرت طويلاً ؟

فقالت في استخفاف :

– ساعتين او ثلاثاً . ولقد كان النـــاس الذين في الطابق الاسفل لطفاء ، وقدموا لي قهوة . لشد ما يحسنون بك الظن . » وجرعت دفعة واحدة كأس شيانتي : « لدي اشياء هامة جداً اقولهـــا لك » . وحدجتني بنظرة : « اشياء شخصية » .

فقال ليويس :

– تستطيعين ان تتكلمي امام آن . » واضاف : « آن فرنسية ، انها قادمة من باريس » .

فقالت ماريا :

– باريس ! » وهزت كتفيها : « اعطني ايضاً القليل من الخمر » . ومـــلأ ليويس كأسها التي افرغتها في عنف . وقالت : « يجب ان تساعدني ، ليس هناك غيرك ... » .

– سأحاول .

وترددت ، وقررت :

– طيب ، سأطلعك على الأمر !

وبدوري صببت لنفسي قليلاً من الخمر وتساءلت في قلق : « هل ستبقى هنا طوال الليل ؟ » . كانت قد نهضت ، واسندت ظهرها الى المدفأة ، وراحت تروي قصة تدور عن زواج ، وطلاق ، وميل قديم . كانت تقول بصوت مطالب : « انت ، لقد نجحت . لكن الأمر بالنسبة لامرأة أصعب . يجب أن انهي هذا الكتاب . وفي الحالة التي انا فيها ، لا أستطيع ان اكتب » . كنت لا أكاد اصغي اليها . وكنت افكر في غضب انه كان على ليويس ان يجد وسيلة لنتخلص منها . كان يقول انه يحبني ، وكان يعرف جيداً ان ساعاتنا معدودة : اذن ؟ لكنه سأل في لهجة مهذبة :

– وأسرتك ؟

– لماذا تسألني هذا ؟ اسرتي ! » وبحركة عصبية جمعت ماريا الاوراق التي كانت تتناثر على الطاولة وكورتها طابة . ورمتها في عنف نحو صندوق القمامة . « انني اكره الفوضى » . وتابعت وهي تنظر الى ليويس في ثبات : « كلا ! لا استطيع ان اعتمد الا عليك » .

ونهض في سيماء من حرج : « ألست جائعة ؟ كنا سنتناول العشاء » .

فقالت :

– شكراً . لقد اكلت سندويشات بالجبنة . » ونوهت في لهجة متحدية غامضة : « جبنة اميركية » .

فسأل :

– واين ستنامين هذه الليلة ؟

– لكنك دعوتني ، أليس كذلك ؟ « وتفرست في وجهي : « بالطبع كي اقبل بالبقاء ، فيجب أن لا تدب نساء غيري في البيت » .

فقال ليويس :

– المشكلة هي ان هناك امرأة اخرى .

فقالت ماريا :

– ضعها خارجاً .

فقال ليويس في مرح :

– هذا صعب .

وفي البدء اخذتني رغبة في الضحك : ماريا هـارية من المصح ، كان يجب ان أتبين ذلك ما إن فتحت فاها . ثم اخافني عماي . مـا اكبر استعدادى للإصابة بالأذى حتى أرى في هذه الجنونة منافسة ! وبعد يومين سأكون قد رحلت ، تاركة ليويس لأسراب النساء اللواتي ستكون لهن الحرية في حبه . لم اكن استطيع تحمل هذه الفكرة .

وقالت لي ماريا بصوت آمر .

– منذ عشر سنوات لم أره . دعيه لي هذه الليلة وتستطيعين ان تناله باقي ايام حياتك . هذا إنصاف ، أليس كذلك ؟

ولبثت بدون جواب والتفتت نحو ليويس :

– اذا ذهبت من هنا فلن أعود ابداً . اذا ذهبت غداً فسأتزوج رجلاً آخر .

فقال ليويس :

– لكن آن في بيتها هنا . نحن متزوجان .

– آه ! » كان وجه ماريا قد جمد : « اعذرني . لم اكن اعرف» . وامسكت بزجاجة الشيانتي وشربت في شراهة من فمها : « أعطني موسى » .

وتبادلنا نظرة قلقة وقال ليويس :

– ليس عندي .

– هيا اذن ! » ونهضت ومشت نحـــو المغسلة . وسألتني في سخرية وهي تجلس ، منفرجة الساقين على رحب : « هذه الموسى ستصلح الأمر تمامـــاً . أتسمحين » . واخذت تحلق ساقيها في عناية عصبية : « ستكون الحال افضل هكذا ، افضل بكثير » . ونهضت من جديد ، ووقفت أمـــام المرآة وحلقت إبطيها الواحـــد تلو الآخر . وصرخت وهي تتمطى امام المرآة في ابتسامـــة ملتذة : « هذا يجعلني مختلفة عن جميع الناس . حسناً ! هاك ! غداً سأتزوج ذاك

الدكتور . لماذا لن أتزوج زنجياً ما دمت أشتغل كزنجي ؟ . »

فقال ليويس :

ــ ماريا ، لقد تأخر الوقت . سآخذك الى فندق تستطيعين ان تستريحي فيه في اطمئنان .

ــ لا اريد ان استريح . » ونظرت اليه في غضب : « لماذا ألححت علي ان ادخل ؟ لا احب ان يُسخر مني » . وارتفعت قبضتها وتوقفت على بعد أنملة من وجه ليويس : « انه على كل حال أقذر مقلب وقعت فيه في حياتي » . واضافت وهي تشير الى ارتشاحاتها الدموية : « عندما أفكر بكل ما تحملته من أجلك . »

فكرر ليويس في هدوء :

ــ تعالي ، لقد تأخر الوقت .

وتوقفت نظرة ماريا على المغسلة . « طيب سآتي . لكن سخّن ماء اولاً . سأغسل هذه الصحون . لا استطيع تحمل الوسخ » .

فقال ليويس في لهجة مستسلمة :

ــ يوجد ماء ساخن .

وأمسكت بالمغلاة واخذت تغسل الصحون في عجلة صامتة . وعندما انتهت ، مسحت يديها ببلوزتها .

ــ حسناً . انني تاركتك مع امرأتك .

فقال ليويس :

ــ انني مرافقك .

واشار لي اشارة صغيرة بينما كانت تمشي نحو الباب دون ان تلقي نظرة واحدة باتجاهي . ووضعت ادوات المائدة ، وأشعلت سيجارة . لم يعد . بعد الآن وقف تنفيذ ، فسوف يعود ليويس بعد لحظة ، وسوف اتكلم . لكن الكلمات التي كنت أمضغها منذ الصباح لم يكن يبدو لي ان لها اي معنى . روبير ، نادين ، عملي ، باريس : كل ذلك ، وهذا حقيقي ، لم يكف يوم واحد لكي يصبح كاذباً .

وعاد ليويس الى المطبخ واغلق الباب بالمزلاج بعناية ، وقال: «لقد وضعتها في تاكسي . وقالت لي : « بعد كل شيء ، الأفضل ان أعود لأنام عند الجانين ». لقد هربت عند نهاية بعد الظهر وجاءت الى هنا مباشرة » .

– لم افهم فوراً .

– لقد رأيت ذلك . انها مسجونة منذ اربعة أعوام . وقد كتبت لي في السنة الماضية لتطلب مني كتابي ، وارسلته لها مع كلمة صغيرة . انني لا أكاد اعرفها . » ونظر حواليه مبتسماً : «منذ ان سكنت هنا ، تحدث اشياء غريبة. انه هذا المكان . انه يجذب للقطط ، والجانين ، والمدمنين » . واخذني بين ذراعيه : « وبسطاء الروح » .

وذهب ليضع الاسطوانات في البيك آب ، وعاد ليجلس الى الطاولة . كان لا يزال متبقياً القليل من الشيانتي فصببته في كأسينا . وكان الفونوغراف يعزف اغنية ايرلندية بينا كنا نأكل جنباً الى جنب، في صمت . وتحت الغطاء المكسيكي كان الفراش ينتظرنا . لكأنها سهرة يومية ستتبعها الف سهرة مماثلة. وعبر ليويس بصوت عالٍ عن فكرتي : « يمكن الاعتقاد بأنني لم اكذب على ماريا » . كانت نظرته فجأة تسألني : « من يدري ؟ » كنت ، انا ، ادري . وادرت رأسي . لم اكن استطيع التراجع بعد الآن . وتمتمت :

– ليويس ، لم اكلمك بما فيه الكفاية عن نفسي . يجب ان اشرح لك ...

– نعم ؟

كان في عينيه توجُّس وكنت افكر : « كل شيء انتهى ! » . ونظرت للمرة الاخيرة الى المدفأة ، الى الجدران ، الى النافذة ، الى هذا الديكور الذي لن اعود فيه بعد قليل الا دخيلة . ثم اخذت أرمي بجمل ، كيفما اتفق ، في تلمس . ذات يوم ، في الجبل ، تدحرجت على طول هاوية ، وظننت انني سأموت ، ولم يكن في داخلي الا اللامبالاة . وكنت أتعرف هذا الاستسلام ثانية . كل ما هنالك انني وددت لو استطيع ان اغمض عيني .

وقال ليويس :

– لم افهم ان هذا الزواج لما تزل له هذه الاهمية في نظرك .

لا تزال له اهمية .

وسكت فترة طويلة . وتمتمت :

– هل تفهمني ؟

وطوق كتفي بذراعه : « أنت أعز عندي ايضاً مما كنت قبل ان تتكلمي . في كل يوم تصبحين عندي أعز » . واسندت خدي الى خده وكانت جميع الكلمات التي رفضت ان اقولها له تنفخ قلبي . وأخيراً قال :

– يجب ان تذهبي لتنامي . سأرتب قليلاً ثم ألحق بك .

ولمدة طويلة ، سمعت صوت الصحون المحركة ، ثم لم اعد أسمع شيئاً ، فقد نمت . وعندما فتحت عيني ، كان ينام الى جانبي. لم لم يوقظني ؟ ماذا ظن ؟ ماذا سيظن غداً ؟ ماذا سيظن بعد ان ارحل ؟ وخرجت من الفراش في هدوء ، وفتحت باب المطبخ واستندت الى افريز الشرفة . كانت الشجرة ترتجف تحتي . وبين السماء والأرض كان يلمع إكليل كبير من المصابيح الحمر : خزان الغاز . كان الجو بارداً وارتجفت انا الأخرى .

كلا ، لم اكن اريد الرحيل . ليس بعد غدٍ ، ليس بمثل هذه السرعة . سأبرق الى باريس . كنت استطيع ان أبقى ايضاً عشرة ايام ، خمسة عشر يوماً ... كنت استطيع ان ابقى : ثم ؟ لا بد ان اذهب في النهاية . والدليل على انه يجب ان ارحل فوراً ، هو ان هذا يكلفني من الآن كثيراً . لم تكن المسألة مسألة مغامرة سفر: اذا ما بقيت، فسيصبح هذا حباً حقيقياً، حباً مستحيلاً، وآنذاك سأتألم . لم اكن اريد ان أتألم . لقد رأيت بول تتألم عن قرب كثير . وأرقدت على اريكتي كثيراً من النساء المعذبات ما كن يتوصلن الى الشفاء . كنت افكر : « اذا رحلت ، فسوف أنسى ، سأرغم على النسيان . اننا ننسى ، هذا شيء رياضي ، اننا ننسى كل شيء ، اننا ننسى بسرعة : اربعة أيام ، من السهل نسيانها » . وحاولت ان افكر بليويس كمنسي : كان يمشي عبر البيت ، وقد نسيني . نعم ، سينسى هو الآخر . انها ، اليوم ، غرفتي ، شرفتي ، سريري ،

قلب مليء بي: ولن اكون قد وُجدت ابداً. واغلقت الباب وانا افكر في حماسة: « لن تكون غلطتي . لن أفقده بغلطتي » .

وقال ليويس :

– ألا تنامين ؟

– كلا . » وجلست على حافة الفراش ، قريباً جـداً من دفئه : « ليويس ، اذا كنت اريد ان أبقى اسبوعاً او اسبوعين آخرين ، فهل سيكون هذا ممكناً؟».

فقال :

– كنت اعتقد انهم ينتظرونك في باريس .

استطيع ان أبرق الى باريس . هل ستحتفظ بي بعض الوقت ايضاً ؟

فقال :

– احتفظ بك ؟ سأحتفظ بك طوال حياتي !

لقد رماني بهذه الكلمات بعنف كبير حتى انني ترنحت بين ذراعيه . وقبلت عينيه ، وشفتيه ، ونزل فمي على طول صدره . ولمس السرة الطفولية ، والفرو الحيواني ، والفرج الذي كان يخفق فيه قلب خفقـات صغيرة . كانت رائحته ، حرارته ، تسكرني وشعرت ان حياتي تغادرني ، حياتي القديمة مع همومهـا ، متاعبها ، ذكرياتها المهترئة . وضم اليه ليويس امرأة جديدة كليـاً . وأننت ، ليس فقط من اللذة : بل من السعادة . لقد قدرت اللذة ، في الماضي ، بثمنها . لكنني لم أكن اعرف ان عمل الحب يمكن ان يكون مبلبلاً الى هذا الحد . كان الماضي ، والمستقبل ، وكل ما يفصلنا يموت عند أسفل فراشنا : لن يفصلنا شيء بعد الآن . يا للنصر ! كان ليويس بأجمعه بين ذراعي ، وانا بين ذراعيه ، ولم نكن نشتهي شيئاً آخر : كنا نملك كل شيء الى الأبد . وكنـا معاً نقول : « يا للسعادة ! » ، وعندما قال ليويس : « احبك » ، قلت ذلك معه .

وبقيت خمسة عشر يوماً في شيكاغو . طوال خمسة عشر يوماً عشنا بدون مستقبل ودون ان نطرح على نفسينا اسئلة . كنا نصنع من ماضينـا قصصاً نرويها فيما بيننا . وكان ليويس على الاخص هو الذي يتكلم : كان يتكلم بسرعة ،

بشكل محموم قليلاً ، كأنه أراد ان يستعيد حياة كاملة من الصمت . كنت احب الطريقة التي كانت الكلمات تزدحم في فمه . كنت احب ما يقول ، وطريقته في قوله . وكنت بلا انقطاع اكتشف اسباباً جديدة لحبه : ربما لأن كل ما كنت اكتشفه فيه كنت أستخدمه ذريعة جديدة لحبي . كان الطقس جميلاً وكنا نتنزه كثيراً . وعندما كنا نتعب ، نعود الى الغرفة . وتكون الساعة التي يمحي فيها ظل الشجرة على الستارة الصفراء . وكان ليويس يضع على البيك آب كمية من الاسطوانات ، ويضم رداءه المنزلي الابيض ، وارقد في قميص على ركبتيه وننتظر الشهوة . ولم أتساءل ، انا التي تتساءل دوماً في شك عن العواطف التي توحي بها ، من كان ليويس يحب في : كنت واثقة من انها أنا . لم يكن يعرف لا بلادي ، ولا لغتي ، ولا اصدقائي ، ولا همومي : لا شيء الا صوتي ، وعيني، وجلدي . لكن لم تكن لي من حقيقة اخرى سوى هذا الجلد ، هذا الصوت ، هاتين العينين .

في العشية السابقة لرحيلي ، ذهبنا لتناول العشاء في المطعم الالماني القديم ونزلنا الى شاطيء البحيرة . كان الماء اسود تحت السماء الرمادية الحليبية . وكان الجو حاراً . كان صبيان وفتيات نصف عراة ، مبللون ، يجففون انفسهم حول نار مخيم . والى بعيد ، كان صيادون قد شرعوا قصباتهم ، ووضعوا على صخور الشاطىء اكياس نوم وزجاجات ترموس . وشيئاً فشيئاً أقفر الشاطىء . كنا صامتين . كانت البحيرة تلهث في هدوء عند اقدامنا ، كانت وحشية كما كانت ايام كان الهنود يخيمون على الضفاف المستنقعية ، ايام لم يكن للهنود وجود بعد . والى اليسار ،فوق رأسينا ، كنا نسمع جلبة مدينية كبيرة ، وكانت اضواء السيارات تكنس الشارع حيث كانت تلمع بنايات عالية . وكانت الارض تبدو عجوزاً الى ما لا نهاية ، صغيرة إطلاقاً .

وقلت :

– ما أجملها من ليلة !

فقال ليويس :

– نعم ، ليلة جميلة .» واشار نحو خوانٍ : « هل تريدين ان تجلسي هنا ؟».
– اذا اردت .

فقال ليويس بصوت مرح :

– ما ألطف امرأة تجيب دوماً : اذا اردت ! » وجلس الى جانبي وطوقني بذراعه ، وقال في حنان : « غريب ان نتفاهم كل التفاهم . لم استطع قط ان اتفاهم مع احد » .

فقلت :

– يقيناً كانت غلطة الناس الآخرين .
– كلا . كانت غلطتي . انني لست سهل المعشر .
– اما انا فأجدك سهل المعشر .
– ايتها الغولية الصغيرة المسكينة : انت لست متطلبة كثيراً !

واسندت رأسي الى صدر ليويس وسمعت خفقان قلبه . ماذا كنت اطلب اكثر من ذلك ؟ هناك هذا القلب المتين والصابر الذي يخفق تحت خدي ، وهذه الليلة الرمادية اللؤلؤية حولي : ليلة صنعت خصيصاً من اجلي . من المستحيل ان أتصور انه كان ممكناً ان لا اعيشها . وقلت في نفسي : ومع ذلك ، لو جاء فيليب الى نيويورك لما كنت هنا » . ما كنت لأحب فيليب ، انا واثقة من هذا : لكني ما كنت رأيت ليويس ثانية ، وما كان حبنا وجد . كان هذا التفكير يبلبل كما لو ان المرء حاول ان يتخيل انه ما كان سيولد او انه كان يستطيع ان يكون شخصاً آخر . وتمتمت :

– عندما افكر بأنه كان من الممكن ألا أتلفن لك ! أنه كان من الممكن الا تجيبني !

فقال ليويس :

– اوه ! لم يكن بامكاني الا التقي بك !

كان في صوته يقين عظيم حتى ان انفاسي انقطعت. ووضعت شفتي على المكان الذي كان يخفق فيه قلبه ووعدت نفسي : « ابداً لن يندم على هذا اللقاء ! » .

كنت سأرحل ، بعد يومين . وكان المستقبل موجوداً من جديد : لكننا سنصنع منه سعادة . ورفعت رأسي :

– ليويس ، اذا كنت تريد ، فإنني سأعود لمدة شهرين او ثلاثة، في الربيع.

فقال ليويس :

– عندما ستعودين ، سيكون الربيع دوماً .

ولمدة طويلة، بقينا متعانقين ننظر الى النجوم. وتهاوت نجمة عبر السماء وقلت:

– تمنّ أمنية !

فابتسم ليويس :

– لقد تمنيت .

وانقبض صدري . كنت اعلم ما تمناه ، وان هذه الامنية لن تُستجاب . هناك ، في باريس ، كانت حياتي تنتظرني ، حياتي التي بنيتها طوال عشرين عاماً والتي لم يكن هناك مجال لأطرح عنها اسئلة . سأعود في الربيع : لكن هذا سيكون لأرحل ثانية .

وأمضيت نهار الغد في التسوق . وتذكرت باريس ، وواجهاتها الكئيبة ، ونساءها القليلات العناية بأنفسهن ، وكنت اشتري من كل شيء ، مما تقع عليه عيني ، من اجل الجميع . وتعشينا خارجاً وعندما ارتقيت الدرج الخشبي مستندة الى ذراع ليويس ، فكرت : « هذه هي المرة الاخيرة ! » . كانت ياقوتات خزان الغاز تلمع بين السماء والارض ، للمرة الاخيرة . ودخلت الى الغرفة . لكأن قاتلاً قد قتل امرأة ونهب خزائنها . كانت حقيبتاي مفتوحتين ، وعلى السرير ، وعلى الكراسي ، وعلى الأرض ترقد ألبسة داخلية من النايلون ، وجوارب ، وادوات زينة ، واقمشة ، واحذية ، ومناديل . وكانت تفوح منها رائحة الحب والموت والكارثة وفي الحقيقة ، كانت قاعة جنائزية : هذه الاشياء كلها كانت بقايا ميتة ، الزاد الذي ستحمله الى العالم الآخر . ولبثت مسمرة في مكاني. واقترب ليويس من الخزانة ذات الادراج ، وفتح درجاً وأخرج منه علبة كرتون بنفسجية ناولني اياها في شيء من الخجل :

– اشتريت هذا لك !

تحت الورقة الحريرية، كانت هناك زهرة بيضاء كبيرة رائحتها تدوخ. واخذت الزهرة، وسحقتها على فمي، والقيت بنفسي على السرير منتحبة. وقال ليويس:

– يجب الا تأكليها. هل تؤكل الزهور في فرنسا ؟

نعم، ثمة احد قد مات: امرأة سعيدة كانت تستيقظ كل صباح، وردية ودافئة، وهي تضحك. وعضضت على الزهرة، وكان بودي لو يغمى علي في عطرها، لو أموت نهائياً. لكني نمت حية، وعند الفجر قادني ليويس الى زاوية الشارع الكبير: كنا قد قررنا ان نفترق هنا. واشار الى تاكسي، وصعدت، وانصفق الباب، ودار التاكسي عند منعطف الشارع. واختفى ليويس. وسألني السائق:

– أهو زوجك ؟

فقلت:

– كلا.

كان يبدو عليه انه حزين جداً !

– ليس زوجي.

كان حزيناً. وانا اذن ! لكنه لم يعد الحزن نفسه. كان كل منا وحيداً. كان ليويس يعود وحيداً الى الغرفة الفارغة. وصعدت وحيدة الى الطائرة.

ثماني عشرة ساعة، انها مدة قصيرة للقفز من عالم الى آخر، من جسد الى آخر. كنت لا ازال في شيكاغو، أسحق وجهي الملتهب على زهرة، عندما ابتسم لي روبير فجأة. وابتسمت انا الاخرى، واخذت ذراعه وبدأت أتكلم. ورويت له حرفياً كمية لا بأس بها من الاشياء. ومع ذلك، ما إن فتحت فمي، حتى شعرت انني اطلق كارثة فظيعة من إسارها: جميع تلك الايام الحية للغاية التي عشتها تحجّرت فجأة ولم يبق ورائي الا كتلة متجمدة من الماضي. واتخذت ابتسامة ليويس ثبات تكشيرة من البرونز. وكنت انا هنا، اتنزه في شوارع لم اغادرها قط، مشدودة الى روبير الذي لم افترق عنه قط، وكنت أسرد قصة

لم تحدث لأحد . كانت نهاية ايار هذه شديدة الزرقة ، وكان السوسن يباع عند جميع مفترقات الطرق ، وعلى غطاء عربات الفصول الأربعة الاخضر كانت ترقد باقات من الهليون محزومة حتى نصفها بورق أحمر : ان السوسن والهليون في هذه القارة لكنز كبير . كانت النساء يرتدين تنورات قطنية فرحة الألوان ، لكن كم كان جلدهن وشعرهن يبدو لي قاتماً ! وكانت العربات المتناثرة على الطرق الضيقة عتيقة، حقيرة، سقيمة ، وما أشحبها من معروضات على مخمل الواجهات الكابي ! لم اكن استطيع ان اخطىء : كان هذا التقشف يعلن لي انني وضعت قدمي من جديد في الواقع . وتعرفت في فمي على ذلك الطعم ، الذي لن يمكن انكاره مطلقاً عما قريب: طعم الهم . لم يكن روبير يكلمني الا عني، ويتملص من اسئلتي : كان من الواضح ان الأمور لا تسير كما كان يريد لها ان تسير . فقر ، وقلق : انني في وطني ، بلا شك .

وذهبنا الى سان – مارتان من اليوم التالي . كان الطقس عذباً وجلسنا في الحديقة . وما ان اخذ روبير يكلمني ، حتى تبينت انني لم اخطىء : كان مثقل القلب . كان الشيوعيون قد فتحوا ضده تلك الحملة التي كان يخشاها قبل سنة : وقد نشروا مقالاً من مقالات اخرى في « السندان » أصابه في الصميم . وقد جرحني انا أيضاً . كانوا يصورون روبير مثالياً هرماً ، عاجزاً عن التلاؤم مع ضرورات هذا الزمن القاسية . وكان رأيي انا انه قد تنازل للشيوعيين أكثر مما ينبغي بالأحرى وتخلى عن اشياء كثيرة من ماضيه .

وقلت :

– هذا سوء نية . ما من أحد يظن هذا بك ، حتى ولا كاتب المقال .

فقال روبير :

– آه ! لست ادري . » وهز كتفيه : « احياناً اقول في نفسي انني بالفعل اكبر سناً مما ينبغي » .

فقلت :

– انت لست مسناً ! لم تكن كذلك عندما رحلت وقد وعدتني بألا تتغير .

فابتسم : « لنقل ان لي شباباً اصبح له تاريخ » .

— ألم تردّ بشيء ؟

— كلا . كان من الممكن ان اردّ بأشياء كثيرة . لكن ليس الوقت مناسباً.

منذ الخامس من ايار ، كانت مجموعة من الأنصار المزعومين قد استفادت من فشل الشيوعيين لتدير لهم ظهورها . كانت « الحركة الجمهورية الشعبية » تنتصر، وديغول يضطرب ، والحزب الاميركي يترصد . وكان يجب اكثر من اي وقت مضى ان يتكاتف اليسار . وبانتظار استفتاء تشرين الأول والانتخابات التي ستتبعه ، فإن خير ما كان « الاشتراكي الثوري الحر » يستطيع ان يفعله ، هو ان يتناوم. لكن روبير لم يأخذ هذا القرار في قلب مرح. كانت غلطة الشيوعيين اذا لم يكن ممكناً متابعة العمل في تجمع اليسار دون ان يلحقهم أذى: كان يلومهم على تحزبهم . واذا كان يمتنع عن توبيخهم علناً ، الا انه لم يكن يحرج من ذلك في الجلسات الخاصة : وقد ثار ضدهم في عنف عدة مرات خلال هذين اليومين . وكان من الجلي ان استطاعته الحديث إلي كانت تهدئه . وكنت اقول في نفسي انه ربما لم يكن بحاجة إلي بالذات ، ولكن كان من المؤكد انها تفيده ، تلك المرأة التي أحتل مكانها : كان مكاني ، دون أدنى شك ، مكاني الحقيقي على الأرض .

لكن اذن ، لماذا لا أرقد فيه في سلام ؟ لمَ هذه الدموع ؟ كنت أمشي في الغابة ، وكان ربيعاً جميلا جداً ، وكنت في صحة طيبة ، ولم اكن محرومة من شيء : وبين الفينة والفينة ، كنت أتوقف ، وأود لو أئن وكأنني فقدت كل شيء . وكنت انادي في هدوء : « ليويس ! » . يا للصمت ! لقد كان لي ، من الغسق الى الفجر ، ومن الفجر الى الليل ، انفاسه ، صوته ، ابتسامته : لم تبق منه علامة . ألا يزال موجوداً ؟ كنت أصغي : لا همسة . وانظر : لا أثر . وما عدت أفهم . كنت أفكر انني أبكي ، الا انني هنا : ألا أحب ليويس بما فيه الكفاية ؟ انني هنا ، وها انا أبكي : ألا احب روبير بما فيه الكفاية ؟ » انني اعجب بالناس الذين يحبسون الحياة في صيغ نهائية : انهم يقولون « الحب

الجسدي ليس شيئاً » . او « ان حبـــاً ليس جسدياً ليس شيئاً » . لكن تعلقي بروبير لم يضعف لأنــني التقيت بليويس . وما كان حضور روبير ، مهما كان ضخماً ، ليعوض عن غياب ليويس .

وفي بعد ظهر السبت ، جاءت نادين مع لامبير . وفـــوراً سألتني في شك : « لا بد انك تلهيت كثيراً حتى أطلتِ هكذا إقامتك ، انت التي لا تغـير ابداً خططها » .

– انت ترين انني اغيّرها عند المناسبة .

– غريب أن تبقي مدة طويلة جداً في شيكاغو . يقال انها فظيعة .

– انهم مخطئون .

كانت قد قامت بعدة ريبورتاجات مع لامبير خلال هذه الأشهر الثـــلاثة ، وكانت تسكن عنده ، وتكلمه في حنان ساخر ، لكن ملحاح . كانت ، وهي الراضية عن حياتها ، تنقب في حياتي في عداء متردد . وهدأتها قدر استطاعـتي بحكايات من الرحلة . وبدا لي لامبير اكثر انفراجاً واكثر مرحاً منه قبل رحيلي. وقد أمضينا نهاية الاسبوع في الجناح . ونقلت اليه مطبخاً ومددت فرعاً للتلفون حتى تكون نادين مستقلة دون ان تشعر انها مقطوعة عن البيت . وقـد سُرّت كثيراً من إقامتها حتى انها اعلنت لي مساء الأحد انهما سيبقيان في سان – مارتان طوال أيام عطلتها كافة .

وسألتها :

– انت واثقة ان هذا التدبير يعجب لامبير ؟ انه لا يحب كثـيراً لا والدك ولا أنا .

فقالت في لهجة قاطعة :

– اولاً انه يحبك كثيراً . واذا كان هذا لأنك تخشين ان تحملينا على ظهرك ، فاطمئني ، سوف نبقى عندنا .

– انت تعلمين جيداً انني مسرورة من وجودك هنا . كنت اخشى فقط الا تجدا جواً من الصميمية . وانني احذرك على الأخص من انه يمكن سماع كل شيء

يقال في الحديقة من غرفتي .

– اذن ؟ بمَ تريدين ان يؤثر عليَّ هذا ؟ انني لست كتومة ، أنا ، ولا أحيط نفسي بالأسرار .

صحيح ان نادين ، على الرغم من اهتمامها الكبير باستقلالها ، وجموحها من كل نقد ، من كل نصيحة ، كانت تبسط حياتها جهاراً . ولا شك ان هذه طريقة لتظهر انها متفوقة . وسألت وهي تمتطي سرج الدراجة :

– ماما تزعم انه يسئمك ان تمضي ايام العطلة هنا : هذا صحيح ؟ فقال لامبير :

– لكن لا ، بالمرة .

فقالت لي بصوت منتصر :

– أرأيت ! انت تعقـدين كل شيء دوماً . ثم ان لامبير يُسر دوماً بفعل ما اطلب اليه ، انه صبي صغير طيب .

قالت ذلك وهي تشعث شعره . وطوقت خصره بذراعها وأسندت ذقنها في دلال الى كتفه بينما كانت الآلة تنطلق .

وبعيد أربعة ايام علمنا من نبأ في « الأمل » ان والد لامبير قد قتل بسقوطه من باب قطار . وتلفنت نادين بصوت متهجم بأنه سافر الى ليل ، وانها لن تأتي في نهاية الأسبوع . ولم أطرح عليها اسئلة . لكننا كنا مشغولي الفكر مع ذلك . هل انتحر الشيخ ؟ هل فقد صوابه من محاكمته ؟ ام ان احداً قد قتله ؟ وطوال بضعة ايام ، تهنا في التخمينات . ثم جاءتنا مشاغل أخرى. فقد رتب سكرياسين لقاء بين روبير وموظف سوفياتي اجتـاز الستار الحديدي خصيصاً ليفضح في الغرب مساوىء ستالين . وجاء سكرياسين ، عشية المقابلة ، وكان يحمل وثائق يريد ان يطلع عليها روبير قبل الغد وقد حرص على ان يسلمه إياها يداً بيـد . كنا ما عدنا نراه ، فقد كنا في كل مرة نتخاصم . لكنه ، في ذلـك الصباح ، تجنب في عناية جميع المواضيع الشائكة وانصرف بسرعة : كانت كلمات الوداع طيبة . وفوراً، اخذ روبير يقلب حزمة الأوراق الضخمة : كان بعضها مكتوبة

بالفرنسية ، وكثير منها بالانكليزية وعدد منها بالألمانية . وطلب إليّ :

– انظري اليها اذن معي .

وجلست بقربه تحت شجرة الزيزفون وقرأنا في صمت . كان فيها من كل شيء : تقارير ، قصص ، احصاءات ، مقتطفات من القانون السوفياتي ، وتعليقات ، ولم أفهم شيئاً من هذا الخليط . لكن كانت هناك بعض نصوص واضحة جداً : شهادات رجال ونساء سجنهم الروس في معسكرات اعتقال تشبه المعسكرات النازية بشكل مأساوي ، والأوصاف التي يقدمها عن هذه المعسكرات اميركيون اجتازوا مناطق كبيرة من الاتحاد السوفياتي بصفتهم حلفاء . وحسب الاستنتاجات التي حررها سكرياسين ، كان خمسة عشر الى عشرين مليون انسان يعيشون في ظروف فظة ، وكان هذا احد الأسس الأساسية لذلك النظام الذي ندعوه « الاشتراكية الروسية » . ونظرت الى روبير وقلت :

– ما الحقيقي في هذا كله ؟

فقال لي بصوت مقتضب :

– يقيناً ، أشياء كثيرة .

لم يكن ، حتى الآن ، قد علق اهمية كبيرة على اجتماع الغد ، واذا كان ذاهباً اليه فلكي لا يتهم بأنه يتهرب، لا أكثر . كان واثقاً ان كشوف الروسي ستتركه بارداً ، باعتبار انه كان يفكر بأنه لا يتوهم اوهاماً من الاتحاد السوفياتي. حسناً! كان لا بد من الظن بأنه قد توهم أوهاماً : ففجأة أصبح محتاراً . انه لم يخدع، عندما راح اصدقاؤه الشيوعيون ، في السنوات الثلاثين ، يمدحون له نظام العقوبات في الاتحاد السوفياتي . كانوا يقولون ان المجرمين ، بدل ان يسجنوا ، كان يعاد تثقيفهم باستخدامهم في أعمال نافعة . وكانت النقابات تحميهم وتسهر على ان ينالوا أجورهم حسب التعرفات النقابية . وقد كان روبير شرح لي ان هذا كان في الحقيقة وسيلة لقمع الفلاحين المتمردين مع الحصول في الوقت نفسه على يد عاملة مجانية تقريباً . فالعمل الاجباري كان هناك، كما في كل مكان ، السجن. لكن الآن بعد أن دمج الفلاحون في النظام وربحت الحرب ، كان من الممكن

أن نتصور ان الاشياء قد تغيرت : لكن هـا هم يكشفون لنـا انها تفاقمت . وناقشنا ، طويلاً ، كل واقعة ، كل رقم ، كل شهادة ، كل فرضية . وعلى الرغم من اننا أخذنا بعين الاعتبار الى أقصى حد ممكن المبالغات والأكاذيب ، فقد كانت هناك حقيقة ثقيلة تفرض نفسها . لقـد أصبحت المعسكرات مؤسسة ، تؤدي الى التكوين المنظم لبروليتاريا تحتية . وما كانوا يعاقبون الجرائم بالعمل : بل كانوا يعاملون العمال كمجرمين ليسمحوا لأنفسهم باستغلالهم .

وسألت عندما غادرنا الحديقة لنذهب لأكل قطعة في المطبخ :

– إذن ماذا ستفعل ؟

فقال روبير :

– لا ادري .

كان من الواضح ان فكرة سكرياسين هي ان يساعده روبير على نشر هـذه الوقائع : وكان يخيل إلي انه ليس لنـا الحق في ان نكتمها . وقلت في شيء من التأنيب : « لا تدري ؟ » .

– كلا .

فقلت :

– عندمـا لا يتعلق الامر الا بك ، او حتى « بالاشتراكي الثوري الحر » ، فإنني افهم ان تقبل بأشياء كثيرة دون ان تهتز . لكن الأمر يختلف هنا . اذا لم نفعل كل ما بإمكاننا ضد هذه المعسكرات ، نكون متواطئين !

فقال روبير :

– لا استطيع ان اقرر شيئاً هكذا بين عشية وضحاهـا . وقبل كل شيء ، انا بحاجة الى مزيد من المعلومات .

فقلت :

– واذا اكدت ما قد علمناه ، فماذا ستفعل ؟

ولم يجب ، وتفرست في وجهـه في قلق . ان يصمت ، فهذا يعني انه على استعداد لتقبل كل شيء من الشيوعيين . هذا يعني ان ينكر كل ما شرع فيه منذ

التحرير : « الاشتراكي الثوري الحر » ، مقالاته ، والكتاب الذي كان ينجزه .
وقلت :

– لقد اردت دوماً ان تكون مثقفاً وثورياً معـــاً . وقد اخذت كمثقف التزامات : ومنها قول الحقيقة .

فقال في شيء من نفاد الصبر :

– دعي لي الوقت لأفكر .

واكلنا في صمت . انه يحب ، عادة ، ان يتساءل امامي . ولا بد انه كان مضطرباً كثيراً ليجتر افكاره هكذا ، دون ان يقول شيئاً . وكنت كذلك أيضاً . معسكرات عمل او معسكرات موت : من البديهي ان بينهـــا بعض الفروق . لكن السجن سجن . كنت ارى ، عند جميع اولئك المعتقلين ، الجباه المشوهة نفسها ، العيون المجنونة نفسها التي يملكها المنفيّون . وانما في الاتحـــاد السوفياتي كان يحدث هذا !

واقترح روبير :

– ليست لي رغبة في العمل . هيا لنتنزه .

وعبرنا القرية ، وصعدنا الهضبة المغطاة بسنابل ناضجة واشجار تفاح مزهرة . كان الطقس حاراً بعض الشيء ، لا كثيراً . وكانت بعض غيمات صغيرة تتدحرج مثل كرات في السماء . وكنا نلمح القرية ، وأسطحتهـا التي بلون الخبز الجيد ، وقبة جرسها الطفولية . وكانت الارض تبدو وكأنهـا صنعت خصيصاً للإنسان والسعادة بمتناول جميع الايدي . ولكأن روبير سمع همس افكاري . فقد قـال على حين غرة :

– من السهل ان ننسى قسوة هذا العالم .

فقلت في أسف : « نعم ، من السهل » .

وكان بودي لو أستطيع انا أيضـــاً ان استفيد من هذه السهولة . لمَ جـاء سكرياسين يزعجنا ؟ لكن روبير لم يكن يفكر بالمعسكرات . فقد قال :

– تقولين لي انني اذا سكتُّ ، فسوف اكون متواطئاً فيقضية المعسكرات .

لكن اذا تكلمت اصبحت متواطئاً مع اعداء الاتحاد السوفياتي ، اي مع جميع الذين يريدون ان يبقوا على العالم كما هو . صحيح ان هــــذه المعسكرات شيء فظيع . لكن يجب الا ننسى ان الفظاعة في كل مكان .

وفجأة ، اخذ يتكلم بسرعة. لم يكن من النوع الذي يحب اللوحات التاريخية المفصلة ، والمشاهد الاجتماعية الشاملة الكبيرة . ومع ذلك ، وبينما كانت الكلمات تزدحم في فمه ، بعد ظهر ذلك اليوم ، جاءت تعاسة العالم كلها لتنهار على الريف المشمس : التعب ، الفقر ، يأس البروليتاريا الفرنسية ، بؤس اسبانيا وايطاليا ، عبودية الشعوب المستعمرة ، ومن اعماق الصين والهند الجاعات والاوبئة . كان ملايين البشر يموتون حولنا دون ان يكونوا قد عاشوا مطلقاً ، وكان احتضارهم يعتم السماء وكنت أتساءل كيف لا نزال نجرؤ على التنفس . وقال روبير :

– اذن ، أتفهمين ، ان واجباتي كمثقف واحترام الحقيقة ليست الا كلمات لا طائل تحتها . السؤال الوحيد هو ان نعرف هل نعمل بفضحنا المعسكرات ، من أجل البشر او ضدهم ؟

فقلت :

– ليكن . لكن ما الذي يسمح لك بالاعتقاد بأن قضية الاتحاد السوفياتي لا تزال تتحد اليوم بقضية الإنسانية ؟ يبــدو لي ان وجود المعسكرات يرغمنا على طرح الاتحاد السوفياتي على بساط البحث من جديد بأكمله .

فقال روبير :

– لا بد لذلك من ان نعرض اشياء كثيرة ! هل المشكلة هي مشكلة مؤسسة محتمة للنظام حقاً ؟ ام انها مرتبطة بسياسة معينة يمكن أن تعــدل ؟ هل يمكننا ان نأمل بأنها ستصفى بسرعة عندما يبدأ الاتحاد السوفياتي بإعادة بناء نفسه ؟ انما عن هذا كله أريد ان استعلم قبل ان أتخذ قراراً .

ولم ألح . باسم من كنت استطيــع ان احتج ؟ انني عاجزة غير مؤهلة مطلقاً. وعدنا وأمضينا السهرة في التظاهر بالعمل ، كل من ناحيته . كنت قد حملت معي من امــــيركا كثيراً من الوثائق ، والملاحظات ، والكتب عن التحليل النفسي ،

لكني لم أمسّها .

ركب روبير الاوتوبيس في الساعة العاشرة صباحاً. وترصدت ساعي البريد، في الحديقة : لا رسالة من ليويس . كان قد اخطرني انه لن يكتب قبل ثمانية أيام ، والرسائل من شيكاغو لا تصل بسرعة . يقيناً لم ينسني . لكنه كان قصيّ البعد. لا فائدة من البحث عن النجدة من هذه الناحية. النجدة ضد من؟ ودخلت الى المكتب ووضعت اسطوانة على البيك – آب. كان يحدث لي شيء لا يُحتمل: انني اشك في روبير . كنت اقول في نفسي : « في الماضي ، كان يتكلم . في الماضي ، كان صريحاً في كلامه ، ولم يكن يغض النظر عن شيء بخصوص الاتحاد السوفياتي او بخصوص الحزب الشيوعي . وأحد أسباب كونه من « الاشتراكي الثوري الحر » ، هو ان يسمح له بانتقادات بناءة . وفجأة ، راح يختار الصمت : لماذا ؟ كأنه قد جرح من نعته بأنه مثالي . وكان يحاول ان يتلاءم كواقعي مع الضرورات القاسية لهذه الايام . لكن التلاؤم ليس إلا سهلاً للغاية . انا ايضاً ، انني أتلاءم ، ولست فخورة بذلك . غض النظر دوماً ، والقبول دوماً ، هذا يصبح خيانة في النهاية . انني اقبل بالغياب واخون حبي ، واقبل بأن احيا بعد الموتى ، فأنساهم ، واخونهم . اخيراً ، ما دام الامر لا يتعلق إلا بموتى وبنفسي ، فليست هناك ضحايا جدية . لكن خيانة الاحياء ، هذا شيء خطير . »

كان روبير سيجيبني : « اذا تكلمت ، فسوف اخون آخرين » . وكانوا سيضيفون جماعياً ان الانسان لا يصنع عجة دون ان يكسر بيضاً. لكن اخيراً، من سيأكلها ، كل هذه الكميات من العجة ؟ ان البيض المكسور سيفسد فتنتن منه الارض . « لقد انتنت من الآن » . هذا صحيح . كثير من الاشياء صحيحة. انها لترعبني جميع هذه الحقائق التي تتصارع ، وانني لأتساءل كيف تتعرف نفسها في هذا الصراع . انني ، انا ، لا أعرف كيف اجمع اربعمئة مليون من الصينيين وخمسة عشر مليوناً من المحكومين بالعمل الاجباري . وبالأصل ، ربما كان الطرح اوجب . على كل الاحوال ، ان هذه العمليات خاطئة . ان رجلاً ورجلاً لا

يساويان رجلين ، انهما يساويان أبــــداً واحداً وواحداً . طيب ، انا مخطئة اذ أعتمد على الحساب. ولوضع النظام في السديم، انما يجب التوجه الى الديالكتيك. المشكلة هي تجاوز المحكومين بالعمل الاجباري الى الصينيين. ليكن. لنتجاوز. ان كل شيء يمضي ، كل شيء يتحطم ، كل شيء يمل ، كل شيء يتجاوز نفسه . المعسكرات سوف تُتجاوز وكذلك وجودي الخاص . انها لمضحكة ، هــــذه الحياةالصغيرة المؤقتة التيتقلق بخصوص تلك المعسكرات التيقد الغاها المستقبل. ان التاريخ يعتني بنفسه وبكل منا بالاضافة الى ذلك . لنبق اذن مطمئنين ، كل منا في جحره .

اذن ، لمَ لا يبقون هادئين ؟ هذا هو السؤال الذي كنت اطرحه على روبير ، قبل أكثر من عشرين سنة، عندما كنت طالبة . وقد سخر مني آنذاك. لكنني لست واثقة اليوم انه قد اقنعني تماماً . انهم يتظاهرون بالاعتقاد بأن الانسانية شخص واحد ، خالد، وانها ذات يوم ستكافأ على تضحياتها كافة وانني انا نفسي سأجد نصيبي من المكافأة . لكنني لا أقتنع : ان الموت يتأكل كل شيء . ان الاجيال المضحى بها لن تخرج من قبرها لتشترك في الولائم النهائية . ومــا يمكن ان يعزيها هو ان المختارين سينضمون اليها تحت الارض بعد فترة قصيرة جداً من الزمن . وربما لم يكن هناك ، بين السعادة والتعاسة ، كبير فرق كما يظن .

أوقفت الفونوغراف ، واستلقيت على الأريكة، واغمضت عيني ، متحررة. لشد ما هو عادل ورؤوف ، نور الموت ! كان ليويس ، وروبير ، ونادين ، قــد أصبحوا خفيفين كالظلال ، ولم يعد لهم ثقل على قلبي : كنت استطيع ان احمل ثقل خمسة عشر مليون ظل ، او اربعمئة مليون . وبعد مضي فترة من الوقت ، ذهبت على كل حال لآتي برواية بوليسية . لا بــد من قتل الوقت : لكن الوقت ايضاً سيقتلني ، هــذا هو الانسجام الحقيقي المقام مسبقاً . وعندما عاد روبير مساء ، خيل إليّ انني اراه من بعيــد من خلال منظار : صورة غير متجسمة ، يحيط بها الفراغ من الجهات كلها ، مثل دييغو من نوافذ درانسي ، دييغو الذي لم يعد من هذا العالم . كان يتكلم ، واصغي ، لكن لم تعد لي من صلة بأي شيء .

وقال روبير :

ـ أتلومينني على انني طلبت هذا التأجيل ؟

ـ انا ؟ مطلقاً .

ـ اذن ماذا هناك ؟ اذا كنت تعتقدين انها لا تحزنني ، المعسكرات تلك ، فأنت مخطئة تماماً .

فقلت :

ـ انما الأمر بالعكس. لقد فكرت اليوم اننا مخطئون حقاً إذ نقلق بخصوص كل شيء ولا شيء . ليس للأشياء مثل هذه الأهمية قط . انها تتغير ، وتنتهي ، ثم إن جميع الناس يموتون بعد كل حساب : هذا يسوي كل شيء .

فقال روبير :

ـ آه ! هذه ، بالضبط ، طريقة للهرب من المشاكل .

فأوقفته : «شريطة ألاّ تكون المشاكل طريقة للهرب من الحقيقة» .وأضفت « من البديهي ، اننا عندما نقرر ان الحياة هي الحقيقة ، فإن فكرة الموت تبدو هرباً . لكن بالمقابل ... » .

فهز روبير برأسه : « هناك فرق . اننا نثبت عندما نحيا بأننا اخترنا الإيمان بالحياة . واذا آمنا حقاً ان الموت وحده حقيقي ، يتوجب ان ننتحر . وفي الحقيقة ، حتى الانتحار ليس له هذا المعنى ابداً » .

فقلت :

ـ ربما كنا نتابع الحياة لأننا طائشون وجبناء . فهذا اسهل حل . لكنه لا يثبت شيئاً ايضاً .

فقال روبير :

ـ أولاً ، شيء مهم ان يكون الانتحار صعباً . ثم ان الاستمرار في الحياة لا يعني فقط الاستمرار في التنفس . ما من انسان ينجح في القبوع في اللامبالاة . انت تحبين أشياء ، وتكرهين اخرى ، وتسخطين وتعجبين : هذا يتضمن انك تعترفين بقيم الحياة » . وابتسم : « انني مطمئن . إننا لم ننته من التناقش حول

المعسكرات ، وسائر الامور . انت تشعرين انك عاجزة ، مثلي ، مثل جميع الناس ، امام بعض الحقائق التي ترهقك ، لهذا تحتمين بنزعة تشككية معممة : لكن هذا ليس جدياً » .

ولم اجب بشيء . من البديهي انني ، غداً ، سأناقش من جديد ، حول اشياء كثيرة : هل يثبت هذا انها ستكف عن ان تبدو لي بلا معنى ؟ واذا كان الجواب نعم ،فربما يعني هذا انني سأعاود خداع نفسي .

عاد لامبير ونادين الى سان – مارتان يوم السبت التالي : لم يكن يبدو ايضاً ان الحال تسير على ما يرام بينهما ، فنادين لم تنبس ببنت شفة طوال العشاء . وكان على لامبير ان يذهب بعد يومين الى ألمانيا ، ليستعلم عن المعسكرات في المنطقة الروسية . وباتفاق مشترك ، تجنبا ، هو وروبير ، طرق لب المشكلة ، لكنهما تناقشا في حمية حول كيفيات التحقيق العملية .

وفي المقهى ، انفجرت نادين :

– انها لمهزلة محزنة ، هذه القصة كلها ! يقيناً موجودة ، تلك المعسكرات . هذا شيء دنيء وضروري : انه المجتمع ، عجباً ، وما من احد يستطيع ان يفعل شيئاً بخصوص ذلك !

فقال لامبير :

– انت تأخذين بسهولة موقفك ! » ونظر اليها مؤنباً : « كي تتخلصي من اشياء تزعجك ، انت موهوبة حقاً ! » .

فقالت نادين بصوت عدائي :

– وانت ، لا تأخذ موقفك ! كفى اذن ! انت مسرور باستطاعتك الظن بالاتحاد السوفياتي سوءاً ؟ وبفضل هذا ستذهب لتتنزه وتتظاهر بالأهمية : انها عملية رابحة تماماً .

فهز كتفيه دون ان يجيب ، لكن لا بد انهما تخاصما في الجناح ليلاً . وفي اليوم التالي ، قضت نادين النهار بمفردها في غرفة الجلوس ، مع كتاب ما كانت تقرأ فيه . لا فائدة من تكليمها : سوف تجيبني بكلمات وحيدة المقطع . وفي المساء

دعاها لامبير من الحديقة ، ولما لم تتحرك ، دخل :

– نادين ، آن وقت الذهاب .

فقالت :

– لست ذاهبة. يكفي ان اكون في « الطواريء » غداً صباحاً في العاشرة.

– لكنني قلت لك انه يجب ان أعود الى باريس هـذا المساء : علي ان أواجه أناساً .

– واجههم . لست بحاجة إلي من اجل ذلك .

فقال في نفاذ صبر :

– نادين ، لا تكوني سخيفة ! لن ابقى معهم إلا ساعة واحدة . لقد قلنا اننا سنذهب الى المطعم الصيني .

فقالت نادين :

– بدلت رأيي ، هذا يحدث لك ايضاً . انني باقية هنا .

فقال لامبير :

– هذه سهرتنا الأخيرة .

فقالت :

– انما انت الذي قرر هذا !

فقال في لهجة متعجرفه :

– حسناً . الى الغـد .

– انني مشغولة غداً ، الى يوم عودتك .

فصاح بصوت حانق :

– اوه ! وداعاً الى الأبد اذا شئت .

واطبق الباب وراءه . ونظرت إلي نادين واخذت تصيح هي الأخرى : « على الاخص لا تقولي لي انني مخطئة ، لا تقولي لي شيئاً . انني اعرف كل ما تستطيعين ان تقوليه لي وهذا لا يهمني » .

– لم افتح فمي .

فقالت :

– ليسافر ، انني لا ابالي بذلك ! لكن كان عليه ان يستشيرني قبل ان يقرر . وانا اكره ان يُكذب علي . ان هذا التحقيق ليس عاجلاً جداً . كان يفعل حسناً لو قال لي في وجهي : ارغب في ان اكون بمفردي . لأن هذه هي الحقيقة : انه يريد ان يستطيع البكاء في اطمئنان على باباه الصغير العزيز .

فقلت :

– هذا طبيعي .

– طبيعي ؟ ان والده نذل مسن . وقبل كل شيء ، كان عليه ألا يتصالح معه . وها هو الآن يبكيه مثل طفل رضيع . » وقالت في لهجة منتصرة: «لقد بكى بدموع حقيقية ، لقد رأيته ! » .

– وماذا ؟ لا عار في ذلك .

– ما كان احد من الرجال الذين اعرفهم ليبكي . وأجمل من كل شيء هو انه يزعم ليضخم المأساة ، انهم قتلوا الشيخ عمداً .

فقلت :

– ليس هذا مستحيلاً .

فاحمرت بشدة . وقالت :

– ليس والد لامبير ! هذا سخيف .

وذهبت مباشرة بعد العشاء ، لتتجول في الريف . ولم نرها ثانية الا عند الفجر . وآنذاك ناولتني، في سيماء من عتاب وفضول، الرسالة الأولى من ليويس.

– هناك رسالة من اميركا . » واضافت وهي تتفرس في وجهي في إلحاح : « من شيكاغو» .

– شكراً .

– الا تفتحينها ؟

– ليس الأمر بعاجل .

ووضعت الرسالة بقربي وحاولت ان اشرب شايي دون ان ترتعد يدي .

كنت اجد في الإبقاء على اجزاء جسدي متجمعة المشقة نفسها التي عانيتها عندما شدني ليويس للمرة الاولى بين ذراعيه . وجاء روبير لنجدتي ، واخذ يطرح على نادين اسئلة حول « الطواريء » ، الى ان وجدت ذريعة للذهـــاب الى غرفتي . كانت اصابعي متجمدة الى حـــد انني مزقت ، عندما انتزعتها من المغلف ، الورقة الصفراء التي سينبجس منها بشكل عجائبي حضور ليويس المقلق . كانت الرسالة مضروبة على الآلة الكاتبة ، وكانت مرحة ولطيفة وفارغة ، ورحت أتأمل طويلاً بذهول في التوقيـع الذي يختمها التوقيـع الحقود كشاهدة قبر . مهما حاولت ان اعيد قراءة هذهالصفحة مئة مرة وان أقلبها،فإنني لنأستخلص منها كلمة جديدة، ولا ابتسامة، ولا قبلة.وكان بإمكاني تماماً ان اعاود الانتظار: عند نهاية انتظاري،لناصادف الا صفحةاخرىمنالورق. لقد بقيليويس في شيكاغو، وكان يتابـع الحياة ، ويحيا بدوني . واقتربت من النافـذة ، ونظرت الى السماء الصيفية ، والأشجار السعيدة ، وفهمت انني بدأت أتألم . الصمت نفسه : لكن لم يعد هناك أمل ، وسيكون دوماً الصمت نفسه . ما عـاد جسدانا يتلامسان ، ما عادت نظرتانا تمتزجان ، فماذا تبقى لدينا من شيء مشترك ؟ كان ماضي كل منا يجهل ماضي الآخر ، وكان مستقبل كل منا يهرب من مستقبل الآخر ، ومـا كانت لتتكلم حولنا باللغة نفسها ، وكانت الساعات تسخر بنا : هنا كان الصباح يلمع ، وكان الليل في الغرفة في شيكاغو ، ولم يكن بإمكاننا حتى ان نتواعـد في السماء . كلا ، لم يكن هناك أي ممر منه إلي : باستثناء هـذا النحيب في صدري وكنت أخنقه .

لقد كان حظاً ايضاً ان ترجوني بول بالتلفون ان آتي لرؤيتها هـــذا اليوم : لعلني بمشاطرتها حزنهـا سأنجح في نسيان حزني . وتساءلت ، وأنا جالسة بقرب نادين التي كانت تفكر بضربة ما خبيثة : « هل ينتهي الانسان الى ان يعتـاد ؟ هل سأعتاد ؟ » . كنت ، في شوارع باريس ، اصادف المئـــات ، الألوف من الرجال ، لهم مثل ليويس ذراعان ، ساقان ، لكن ليس لهم أبداً وجهه : مـا اكثر ما يوجد من دروب لا تؤدي الى ذراعيه ومن كلمات حب لا توجـه إليّ .

من كل مكان كانت تلامسني وعود بالعذوبة ، بالسعادة ، لكن ابداً لن يخترق جسدي ذلك الحنان الربيعي . وسرت على الأرصفة في بطء . كانت بول قد بذلت جهداً كبيراً لتجر نفسها حتى بيتي بعد عدة ايام من عودتي ، وتلقت في غبطة هداياها من اميركا. لكنها استمعت الى قصصي واجابت على اسئلتي في سحنة بعيدة . ولم اكن قد ذهبت بعد لرؤيتها في بيتها ، وانما بنوع من الدهشة وجدت ثانية الشارع المألوف على حاله لم يتبدل . ما من شيء تغير اثناء غيابي : لم يحدث شيء . كنت اقرأ لافتات الماضي ذاتها : « أخصائي في الطيور النادرة والساكسونية » ، وكان القرد الصغير المقيد بحاجز النافذة يقشر فستقاً . وكان متشرد ، جالس على درجات سلم ، يدخن سيجاراً مراقباً حزمة من الأسمال . وصدم باب الدخول ، عندما دفعته ، كالعادة علبة قمامة . وكان كل ثقب في السجارة في محله . وسمعت هاتفاً يرن في إصرار . وكانت بول متلفحة بروب دي شامبر حريري ، مهترىء قليلا .

– انت لطيفة ! انني آسفة لازعاجك ، لكن لن اجرؤ ابداً على النزول بمفردي الى قفص الأسود ذاك .

– أواثقة انني مدعوة !

– لكن بسببك انت تلفنت لي السيدة بيلوم ثلاث مرات . لقد رجتني ان اصطحبك . لديها هنري : فهي تريد دوبروي ...

وارتقت الدرج الذي يؤدي الى غرفتها وتبعتها . وقلت :

– انت لا تتصورين جمال البيت في سان – مارتان . يجب ان تأتي .

فتنهدت : « انه بعيد جداً ! » . وفتحت مصراعي خزانتها . « ماذا سألبس ؟ منذ زمن طويل لم اخرج » .

– ثوبك الأسود .

– انه قديم جداً .

– الاخضر .

– لست واثقة ان الاخضر يناسبني . » وانزلت القوس الذي كان معلقاً به

ثوبها الاسود : « لا اريد ان يبدو وجهي يأكله العث . سوف تفرح لوسي بذلك كثيراً » .

– لماذا تذهبين إليها ، انت التي لا تخرجين كثيراً !

فقالت بول :

– انها تكرهني ، في الماضي ، كنت اصغر واجمل منها ، ونلت كثيرين من عشاقها . فإذا رفضت جميع دعواتها ، فسوف تظن انني اصبحت مشوهة وسوف تهلل .

كانت قد اقتربت من المرآة وراحت تتابع بأصابعها منحنى حاجبيها الكثيفين : « كان يجب ان أنتفهما . يجب ان أتبع الموضة . سوف يجدنني سخيفة ! » .

فقلت :

– لا تخافي منهن . ستكونين دوما الأجمل .

فقالت :

– اوه ! لا بعد الآن . كلا . لا بعد الآن !

كانت تنظر الى نفسها في سيماء من كراهية ، وفجأة رأيتها أنا ايضاً ، للمرة الاولى منذ سنوات كثيرة ، بعينين غريبتين . كانت تبدو متعبة . وكانت غمازاتاها قد تلونتا بلون ضارب الى البنفسجي ، وذقنها تتهدل . وكان الحزان العميقان اللذان يحدقان بفمها يفضحان رجولة ملامحها . في الماضي ، كان لون بول القشدي ، ونظرتها المخملية ، وسواد شعرها اللامع ، تصقل جمالها : لكن وجهها كان يصبح غير مألوف عندما يحرم من هذه الجذابية المبتذلة . كان مبنياً بشكل مقصود للغاية بحيث لا يمكن غض النظر عن تذبذب منحنى ، عن تردد لون . وكان الزمن يعلم بأثر قاسٍ هذا القناع النبيل والشاذ، بدل ان تنطبع عليه آثاره خلسة ، على الرغم من انه لا يزال يستحق الاعجاب ، وإن كان سيكون في محله في متحف بدلاً من صالون .

كانت بول قد ضمت ثوبها وراحت تمشط اهدابها الطويلة .

– هل أطيل عيني ، نعم أم لا ؟
– لا ادري .
كنت ارى جيداً معايبها . لكني كنت عـاجزة عن اقتراح دواء : لم اكن حتى بواثقة من وجوده .
– المهم ان يكون قد بقي عندي زوج من جوارب لائقة ! » كانت تنقب في درج بحركات محمومة : « اترين ان هذين من لون واحد ؟ » .
– كلا . هذا اكثف من الآخر .
– وهذا ؟
– فيه خط يتدرج من الاعلى الى الاسفل .
واقتضانا البحث عن جوربين متلائمين سليمين عشر دقـائق . وكانت بول تسأل في قلق :
– انت واثقة ، هل هما متماثلان ؟
كنت قد مددت على اصابعي المتباعدة الشبكة الخفيـة وانا اهتدي بالضوء قرب النافذة :
– لا ارى اي خلاف .
– لكنهن يرين كل شيء ، كما تعلمين .
وشبكت حول قدميها نعلين عاليي الكعبين وسألتني : « أأضع عقدي ؟ » .
كان عقداً ثقيلاً من النحاس والعنبر والعظام ، حلية طريفة لا قيمة تجارية لها ستدفع بالنساء المتحليات بالماس الى ابتسامة احتقار .
– كلا ، لا تضعيه .
وترددت . على كل الاحوال ، كانت بول بقرطيها ، وثوبها الذي لا عمر له ، وقناعها ، وحذائيها العاليين ، مختلفة كثيراً عن غريماتها بحيث كان الافضل إبراز أصالتها . وقلت في نفاد صبر : « انتظري. نعم ، من الافضل ان تضعيه . آه! لا ادري . انهن لن يأكلنك ، بعد كل شيء » .
فقالت بدون ابتسام :

– اوه ! بلى ، سوف يأكلني .

وسرنا نحو محطة اوتوبيس . كانت بول ، في الشارع ، تفقد جلالهـــا كله . كانت تسير وهي تلامس الجدران في حركة متهربة . وقالت في لهجة اعتذار : « انني اكره الخروج لابسة في هذا الحي . ففي الصبـــاح ، اتسكع في نعلين خفيفين ، وهذا شيء مختلف . لكن في مثل هذه الساعة ، وفي هـذه الثياب ، فإنني اهانة » .

وحاولت ان ألهيها :

– كيف حال هنري ؟

فترددت : « انه معقد للغاية » .

فرددت في بلادة : « معقد ؟ » .

– نعم ، هذا غريب . انما الآن فقط بدأت اعرفه : بعد عشر سنوات » وساد صمت وتابعت : « لقد فعل شيئاً غريباً ، اثناء غيابك . فقد وضع بدون تمهيد تحت عيني مقطعاً من روايته يشرح فيه البطل لامرأة انها تسمم حياتـه . وسألني : « ما رأيك ؟ » .

فقلت وانا احاول ان اعطي صوتي لهجة متشوقة :

– ماذا كان يريد ان تجيبيه ؟

– سألته هل فكر بي عندما كتبه ، فاحمرّ اضطراباً . لكنني شعرت انـه تمنى للحظة ان اصدق ذلك .

– اوه ! انت تدهشينني !

فقالت مستغرقة في التفكير :

– هنري حالة مرضية . » واضافت : « انـــه يرى كثيراً الصغيرة بيلوم . ولهذا السبب ايضاً حرصت على الذهاب الى عنـد لوسي : كي لا يتصورون انني اعلق اهمية على هذه النزوة ... » .

– نعم ، لقد رأيت صورة لها ...

– لها مع هنري في « الإيل بوروميه » ! وهزت كتفيها : « هذا محزن .

انه ليس فخوراً بذلك ، اتعرفين . بل هذا غريب : لقد طلب الا ننام معاً بعد الآن » . واستنتجت في بطء : « كأنه لم يعد يشعر انه جدير بي » .

كنت ارغب في ان اقول لها : « كفـّي اذن عن الكذب على نفسك ! » . لكن بأي حق ؟ كنت على نحوٍ ما اعجب بعنادها .

وعلى الدرج ، بينما كنا نصعد الى بيت لوسي بيـــلوم ، امسكت بمعصمي : قولي لي الحقيقة : هل أبدو مقهورة ؟ » .

— انت ؟ انت تبدين كأميرة .

لكن عندما فتح لنا خادم الغرفة الباب ، شعرت ان رعب بول قد تملكني . كان يتعالى رنين أصوات ، وكان الجو يعبق بالعطر وسوء النية . انا ايضاً كنّ سيمزقنني إرباً في فرح : ليس التفكير بهذا مستطاباً . كانت بول قـد استعادت دمها البارد : فقد دخلت الى الصالون في كرامة أميرية . وفجأة ، لم أعد واثقة جداً ان جوربيها من لون واحد .

اثاث تاريخي ، سجاد عجمي ملتبس ، لوحات صدئـة أطرها ، كتب مجلدة بالرق ، كريستال ، مخمل ، ساتان : كان محسوساً ان لوسي تتردد بـين مطامحها البورجوازية ، وادعاءاتها الفكرية ، وذوقها الخاص الذي كان مبتذلاً ، رغـم ذوقها الطيب المشهور .

— ما اعظم سروري بوجودكما هنا ! » كانت متقنة في ثيابها حتى ان دوقـة وندسور لو رأتها لأصابتها عقد نقص.ولم يكن ممكناً ملاحظة دناءة فمها وعداوة نظرتها القلقة الا عند النظرة الثانية : ليس ثمة بعد جراح في الوجه يعرف كيف يصلح النظرة . وبينما كانت تبتسم كانت تتفحصني في تدقيق. والتفتت نحو بول: « يا صغيرتي بول ! منذ اثني عشر عاماً لم نتقابل ! مـــا كنا لنتعرف احـدانا الاخرى » . وللحظة ، احتفظت في يدها بيد بول التي كانت تتملاها في وقاحة، ثم جرتني : « تعالي لأقدمك » .

كانت النساء أصغر وأجمل بكثير منهن في صالون كلودي ولم تكن أي مأساة روحيـــة تشوه وجوههن المتقنة الشغل . كانت هنـــاك عارضات ازياء

كثيرات يطمعن في ان يصبحن نجيات ، ونجيات يطمعن في ان ينقلبن نجوماً . كن جيعاً في أثواب سود ، وشعور بلون السنابل ، وكعاب عالية جداً ، واهداب طويلة، ولهن شخصية ، تختلف من واحدة الى أخرى ، لكنها مصنوعة من ورشات واحدة . ولو كنت رجلاً ، لكان من المستحيل عليّ ان افضل احداهن ، ولذهبت لأتبضع من مكان آخر . وبالفعل ، كان الشبان الجميلون الذين يقبلون يدي يبدو عليهم انهم يتبادلون الاهتمام على الأخص . وكان يوجد هنا وهناك بعض الراشدين ممن لهم سحنات ذكور ، لكنهم كانوا يبدون وكأنهم يتلقون رواتب على حضورهم هذا . وبينهم كان يوجد العشيق الرسمي للوسي الذي يسميه الجميع دودول . وكان يتحدث مع سمراء طويلة بلاتينية الشعر . وقال لي :

– يبدو انك عائدة من نيويورك ؟ يا لها من بلاد مدهشة ، أليس كذلك ؟ لكأنها حلم عملاق لطفل مدلل . تلك القموع الضخمة من البوظة التي يلتهمونها ، انني أرى فيها رمز اميركا بأجمعها .

فقالت الشقراء المصبوغة :

– أنا لم أسر فيها مطلقاً ، فكل شيء نظيف جداً ، كامل جداً . انك لترغبين في النهاية أن تصادفي رجلاً في قميص وسخ ، لم يحلق لحيته من يومين .

ولم أحتج . وتركتهما يشرحان لي بالشعارات المحسوسة البلاد التي انا عائدة منها : « أطفال كبار » ، « جنة المرأة » ، « العشاق المكروهون » ، « حياة دوارة ومجموعة » . ولفظ دودول بخصوص ناطحات السحاب في جرأة كلمة «Phallus»[1] وكنت أقول في نفسي وأنا اصغي اليهما انه ليس لنا الحق في ان نعزو الى المثقفين حساسية متسفسطة . انما كان هؤلاء الناس – الناس الدنيويون والمتماثلون – هم الذين يحيلون في الوجود عيوناً أعمتها الكليشهات الرديئة وقلباً غزته عبارات شائعة مبتذلة. ان روبير وهنري يتركان نفسيهما ينطلقان في تراخ في حب ما يحبانه ، والملل مما يملانه ، واذا ما تنزه ملك عارياً تماماً فانها لن

١ – اي عضو الذكورة (المترجم) .

يعجبا بوشي معطفه . انهما يعرفان جيداً انهما يخلقان بنفسيهما النماذج التي ينسخها في اخلاص محبو الظهور الذين يتصنعون ردود فعل نجيبة . وكبرياؤهما تسمح لهما بالسذاجات كافة . في حـــين ان دودول ، ولوسي ، والشابات النحيفات والمصقولات واللواتي يتكأكأن حولها ، لا يمنحون أنفسهم أبـداً لحظة صدق . كنت أشعر نحوهن بشفقة مذعورة. كان نصيبهن الوحيد طموحاً فارغاً، وغيرة حارقة ، وانتصارات وهزائم مجردة . بينما توجد على الأرض أشياء كثيرة تحب وتكره بقوة ! وفكرت في لمح البرق : « روبير على حق تماماً . ان اللامبالاة لا وجود لها » . حتى هنا ، حيث لا يستحق هذه المشقة ، ألقيت بنفسي فوراً في الاستنكار او في الاشمئزاز . لقد أكدت ان العـــالم مليء بأشياء تحب وتكره وكنت اعلم جيداً انه ما من شيء سيقتلع هـذا اليقين من نفسي . نعم ، انمـــا تعباً ، وكسلاً ، وخجلاً من جهلي زعمت العكس في حماقة .

وسألت لوسي وهي ترشق بول باحدى ابتساماتها النحيفة :

– ألم تلتقي بابنتي قط ؟

– كلا .

– سترينها. انها جميلة جداً : تماماً من نوع الجمال الذي كان لك في الماضي.»

ورسمت لوسي ابتسامة جديدة : « لديكما أشياء كثيرة مشتركة » .

وقررت ان أكون فظة مثلها : « نعم ، يقال ان ابنتك لا تشبهك مطلقاً ».

وتفحصتني لوسي في كراهية مصممة . كان ثمة فضول شبه قلق في هـــذا التفحص وكأنها تساءلت : « هل هناك طريقة أخرى غير طريقتي في ان تكون المرأة امرأة وتستفيد من ذلك ؟ هل غاب عني شيء ما ؟». وعادت نظرتهـــا نحو بول : « يجب ان تأتي لرؤيتي ذات يوم عند آماريليس . سألبسك قليلاً. ان الثياب الجميلة تغيِّر المرأة » .

فقلت :

– ستكون خسارة ان تُغيِّر بول . نساء الموضة كثيرات ، في حين أنـــه ليس هناك الا بول واحدة » .

وبدت لوسي متحيرة قليلاً : « على كل حال ، في اليوم الذي لن تحتقري فيه الموضة ستكونين دوماً موضع ترحـــاب في صالوناتي . » وأضافت وهي تستدير على كعبيها العاليين : « وانني اعرف جرّاحاً في التجميل يصنع معجزات » .

وقلت لبول :

ـ كان يجب ان تسأليها لماذا لم تلجأ الى خدماته .

فقالت بول :

ـ لم أعرف قط كيف اجيبهنّ .

كانت غمازتاها ضاربتين الى البنفسجي ومنخراها منضمّين ، وكانت هـذه طريقتها في الشحوب .

ـ أتريدين الذهاب ؟

ـ كلا ، ستكون هزيمة .

وهرعت كلودي نحونا بعينين بارقتين لامرأة ثرثارة متحمسة ، وقـــالت : « الحمراء الصغيرة التي دخلت هي الابنة بيلوم » .

وأدارت بول رأسها . وانا كذلك . لم تكن جوزيت صغـيرة وكانت حمراء من النوع النادر : من اللواتي لهن تحت شعرهن الأصهب جلد شقراء حليبي . وكان فمها الشبق والحزين ، وعيناها الواسعتان ، تظهرها مذعورة من جمالهـا الخاص . من المفهوم ان يرغب رجل في إثارة مثل هـــذا الوجه . وألقيت على بول نظرة قلقة . كانت تمسك بيدهـــا كأس شمبانيا ، وكانت ساكنة ، شاخصة النظر ، وكأنها قد سمعت أصواتاً ، اصواتاً خبيثة .

وتمرد قلبي . ما الجريمة التي تكفـّر عنها ؟ لماذا تحرق حية في حين ان جميـع هاتيك النساء يبتسمن حولنـــا ؟ كنت على استعداد لأن اعترف بأنهـا صنعت تعاستها بنفسها . لم تكن تحاول أن تفهم هنري ، وكانت تعلل نفسها بالأوهام ، وقد اختارت الكسل مع العبودية : لكنها في النهايـــة لم تؤذِ أحداً قط ، ولا تستحق ان تعاقب بمثل هذه الوحشية . اننا دوماً انما ندفع عن اخطائنا . لكن هناك أبواباً لا يقرعها الدائنون ابداً وابواباً اخرى يقتحمونها ، هذا ظلم . كانت

بول من جانب القليلي الحظ ولم اكن استسلم لرؤية تلك الدموع التي كانت تسيل من عينيها دون ان يبدو عليها انهـــا تتبين ذلك . وأيقظتها فجأة ، وقلت وانا امسك بذراعها : « هيا بنا من هنا » .

– أجل .

وعندما وجدنا نفسينا ثانية في الشارع ، بعد كلمات الوداع السريعة، نظرت إليّ بول نظرة قاتمة . وقالت :

– لماذا لم تحذريني قط ؟

– احذرك ؟ ممَ ؟

– من أنني كنت على طريق خاطىء .

– لكني لا اعتقد هذا .

– غريب انك لم تفكري بهذا .

– تقصدين انك عشت سجينة اكثر مما ينبغي ؟

فهزت كتفيها : « لم أقل كلمتي الاخيرة . انني اعرف انني بلهـــاء قليلاً : لكن عندما افهم ، اكون قد فهمت » .

ومع ذلك ، عندمـــا نزلت من الاوتوبيس ، انتزعت من نفسها ابتسامة : « شكراً على مراقفتك لي . لقد أديت لي خدمة حقيقية . لن أنسى » .

بقيت نادين في باريس طوال الاسبوع . وعندمـــا ظهرت في سان – مارتان ثانية ، سألتها عن أخبار لامبير : كان قد كتب لها ، وسوف يعود بعد أسبوع . وأضافت بصوت متهلهل : « سيقدح الشرر : لقد رأيت جولي ثانية ونمنا معـــاً من جديد . أنت تتصورين هيئة لامبير عندما سأروي له ذلك ! » .

– نادين ! لا تروي له هذا !

فنظرت إليّ في سحنة متحيرة :

– لقد كرّرت عليّ ألف مرة ان الناس المحترمين لا يكذبون فيما بينهـــم . الصراحة أولاً !

– كلا . لقد قلت لك انه يجب ان نبني علاقات لا يمكن حـــتى أن يُتصور

فيها الكذب . ولكنك لم تصلي الى هـــذا المستوى مع لامبـير ، مطلقاً . »
وأضفت : « على كل ، انت لا تريدين ان تصاريحه ، حباً منك للصدق ، بحدث
حقيقي في حياتك : لقد اختلقت هذه القصة عمداً لتجرحيه عندما سترويتهـا
له » .

فقهقهت نادين في سيماء من تردد :

— اوه ! يا لك ! عندما تأخذين بدور الساحرة !

— أمخطئة أنا ؟

— بديهي ، لقد اردت أن اعاقبه . وهو يستحق ذلك جداً .

— انت تعترفين بنفسك انه يفعل دوماً كل ما تريدينه : لأنــه لم يخضع مرة واحدة ، تريدين ان تظهري انك ممثلة ماهرة .

— انه يفعل ما أريده لأنه يتلهى بأن يمثل دور الصبي الصغير ، هذه مهزلة . لكن في الحقيقة ، إن أي شيء أهم مني عنده : هنري ، الجريدة ، والده ، تحقيق ما ...

— انت عمياء . لامبير حريص عليك اكثر من أي شيء آخر .

— انت تقولين هذا . اما هو فلم يقل لي قط شيئاً من هذا .

— لا بد انك لم تشجعّيه ابداً .

— بديهي ، انني لم اشحذ منه اعترافات بالحب .

ونظرت اليها في شيء من الفضول :

— يحدث لكما على كل حال ان تتكلما عن عواطفكما ؟

فقالت في سحنة مصدومة :

— ليست هذه أشياء يتكلم عنها . ماذا تتصورين ؟

— الكلام يساعد على التفاهم .

— لكني افهم جيداً جداً كل شيء .

— اذن عليك ان تفهمي ان لامبير لن يتحمل ابداً ان تخونيه . ستسببين له ألماً فظيعاً وستفسدين قصتكما كلها بشكل لن يكون له علاج .

– من المزعج على كل حال ان تكوني انت التي تنصحني بالكذب . » كانت تسخر ، لكنها كانت تبدو قد اطمأنت بالأحرى : « حسناً ، ان أقول له شيئاً » .

ووصل لامبير بعد يومين وتحدث قليلاً عن رحلته ، وكان يفكر بالسفر من جديد في ايلول ليجمع معلومات ادق . وكان يبدو ان نادين قد تصالحت معه . كانا يأخذان جنباً الى جنب حمامات شمس طويلة في الحديقة ، ويتنزهان ، ويقرآن ، ويتناقشان ، ويعدّان مشاريع . وكان لامبير يترك نادين تدلله ، وينثني لنزواتها في صفاء قلب . لكنه كان يشعر بين الحين والآخر بالحاجة الى ان يثبت لنفسه استقلاله ، فكان يمتطي دراجته النارية وينطلق على الطرق في سرعة كان من الواضح انها ترعبه هو نفسه . وكانت نادين تكره دوماً عزلة الآخرين . وهكذا اختلطت غيرتها هذه المرة بالحسد . كانت ، امام مقاومة لامبير ومعارضتي الشكلية ، قد تخلت عن فكرة قيادة الدراجة . وقد حاولت على الأقل ان تتبناها : فقد دهنت مانعة الوحل بلون أحمر فاقع وعلقت دمى جالبة للسعد بالمقود . ورغم هذه الجهود ، ظلت الدراجة في نظرها رمز جميع المسرات الرجولية التي لم تكن مصدرها والتي لا تستطيع أيضاً ان تشاطرها : وكانت هذه هي الذريعة الغالبة في خصوماتها مع لامبير . لكنها لم تكن إلا منازعات غير حادة ..

وذات مساء ، بينما كنت في غرفتي أعد نفسي لليل ، جاءا ليجلسا في الحديقة . وقال لامبير :

– مجمل القول ، انت تقدرين انني لن اكون قادراً بمفردي على إدارة جريدة ؟

– لم أقل هذا . اقول اذا اتخذك فولانج رجلاً من قش فلن تدير شيئاً مطلقاً.

– وان يثق بي بما فيه الكفاية ليقترح عليّ دون فكرة مسبقة مثل هذا المنصب ، فهذا يبدو لك أمراً لا يصدق !

– انت ساذج ! ان فولانج لا يزال أجبن من ان يجرؤ على تعليق اسمه ، وهو

يعتمد على توجيهك من وراء الكواليس .
ـ اوه ! انت تظنين نفسك قويـــة جداً لأنك تمثلين دور الماجنة . لكن العداوة تعمي الانسان ايضاً . ان فولانج شخصية .
فقالت في هدوء :
ـ انه نذل .
ـ لقد اخطأ ، ليكن . » وقال في شراسة : « لكني أفضّل النـاس الذين يحملون اخطاءهم خلفهم على الذين يحملونها أمامهم » .
ـ تعني هنري ؟ انني لم اجعل منه بطلاً ابداً ، لكنه شخص نظيف ، هو .
ـ لقد كان كذلك . لكنه يترك نفسه الآن تلتهمه السياسة وشخصيته العامة .
فقالت نادين في لهجة متجردة :
ـ اعتقد انه قد ربح بالأحرى . ان تلك المسرحية التي كتبهـا ، هي أفضل ما فعله .
فقال لامبير :
ـ آه ، كلا ! انني اجدها كريهـــة . وهي عمل سيء . الأموات اموات ، فلنتركهم مطمئنين . ولا داعي لتحمل مشقة إثارة الأحقاد بين الفرنسيين ...
فقالت نادين :
ـ على العكس ! ان الناس بحاجة حقيقية الى ان تُرطّب ذاكرتهم .
فقال لامبير :
ـ ان التشبث بالماضي لا يفيد شيئاً .
فقالت نادين :
ـ انا لا أقبل بأن يُنسى . » وأضافت بصوت جاف : « ولا افهم ان تُغفر الاخطاء » .
فقال لامبير :
ـ ومن انت ، ماذا فعلت لتكوني مترمتة الى هذا الحد ؟

فقالت :

– كنت فعلت قدر ما فعلت انت لو كنت رجلا .

فقال :

– لو فعلتُ اكثر مما فعلت بعشر مرات لما سمحت لنفسي ان ادين الناس دون استئناف .

فقالت :

– حسناً ! لن نتفق على هذه النقطة أبداً . هيَّا لننام .

وساد صمت وقال لامبير في لهجة نهائية :

– انا واثق ان فولانج سيفعل أشياء كبيرة .

فقالت نادين :

– أشك في ذلك . على كل حال ، لا أرى علاقة هذا بك . ادارة جريدة غامضة لن تكون حتى لك فعلا ، ليس في هذا شيء كبير .

وفي لهجة مازحة غير واضحة ، سأل : « هل تعتقدين انني سأفعل شيئاً ما كبيراً ذات يوم ؟ » .

فقالت :

– اوه ! لا ادري ، ولا ابالي بذلك . لماذا نعلق مثل هذه الأهمية على العظمة ؟

– ان اكون صبياً صغيراً طيباً خاضعاً لإراداتك الأربع ، أهذا كل ما تنتظرينه مني ؟

– لكني لا أنتظر شيئاً : انني آخذك كما انت .

كانت لهجتها رؤوماً، لكنها كانت تعني بوضوح انها ترفض ان تقول الكلمات التي يتمنى لامبير ان يسمعها . كان يلح ، بصوت مهووس قليلاً : « ومن انا ؟ ما الامكانيات التي تعترفين لي بها ؟ » .

فقالت في مرح :

انت تعرف ان تصنع مايونيز ، وان تقود دراجة .

فقال في سخرية صغيرة :
– وشيئاً آخر ايضاً لن اقوله :
فقالت :
– اكرهك عندما تكون مبتذلاً .
وتثاءبت بصوت مسموع : «سأذهب لأنام» . وصرّت الحصباء تحت قدميها ولم اعد اسمع موسيقى الجنادب العنيدة في الحديقة .
وأصغيت اليها طويلاً : ما اجملها من ليلة ! لم تكن تنقص نجمة واحدة في السماء . لم يكن ينقص شيء في اي مكان . ومع ذلك كان في داخلي ذلك الفراغ الذي ما كان لينتهي . كان ليويس قد كتب لي رسالتين أخريين ، وكان يحدثني بطريقة افضل بكثير من الأولى. لكن كلما كنت اشعر به حياً ، واقعياً ، كانت كآبته تزداد ثقلاً . انني كئيبة انا الأخرى وهذا لا يقرّبنا . وتمتمت : « لمَ انت بعيد جداً ؟ » . فأجاب صداه : « لمَ انت بعيدة جداً ؟ » ، وكان صوته مثقلاً بالتأنيب . ان كل شيء يفرقنا وحتى جهودنا من أجل ان نجتمع ، ما دمنا مفترقين .
لكنهما ، هما ، كانا يستطيعان ان يجعلا من حبهما سعادة . وكنت استشيط غيظاً من سوء تصرفهما . لقد قررا ، هذا اليوم ، ان يذهبا لتمضية النهار والليل في باريس . وعند بداية بعد الظهر ، خرج لأمبير من الجناح ، مرتدياً طقماً انيقاً من الفلانيلا وربطة عنق منسجمة . وكانت نادين راقدة على العشب ، وكانت ترتدي تنورة مزهرة مبقعة ، وقميصاً من القطن، ونعلين كبيرين . وصاح بها في شيء من النرفزة : «اسرعي بالذهاب لتستعدّي! سوف يفوتنا الاوتوبيس».
فقالت نادين :
– قلت لك انني اريد أن اركب الدراجة ، فهذا اكثر تسلية .
– لكننا سنصل ومنظرنا سخيف على الدراجة عندما نكون لابسين بأناقة.
فقالت في لهجة نهائية :
– لا ازمع ان ألبس .

– لن تذهبي الى باريس في هذه الثياب ؟ » فلم تجب وأخذني شاهدة بصوت محزون : « يا للخسارة ! انها تستطيع ان تكون رائعـــة المنظر ، لو لم تكن تتظاهر بالفوضوية ! » وتفحّصها بعين ناقدة : « كما ان هذه الثياب غير اللائقة لا تناسبك » .

وكانت نادين تعتقد نفسها قبيحة ، وكانت تحتقر ان تبدو أنثى من قبيـــل الغضب على الاخص. وكان إهمالها الشرس لا يدع مجالاً للشك في مقدار حساسيتها بكل ملاحظة تتعلق بمظهرها الخارجي . وكان وجهها قد تكدر : « اذا كنت تريد امرأة تهتم بجلدها من الصباح الى المساء ، فتوجّه الى دائرة أخرى » .

فقال لامبير :

– لن يستغرق منك وقتاً طويلاً ان ترتدي ثوباً نظيفاً. انني لا استطيع ان آخذك الى أي مكان اذا بقيت متنكرة في ثياب امرأة متوحشة .

– لكني لست بحاجة لأن ينزهني احـــد . أتتصور انني ارغب في عرض نفسي وانا متعلقة بذراعك في أمكنة يوجد فيها رؤساء خدم ونساء عاريات ؟ خراء ، اذن ! اذا كنت حريصاً على تمثيل دور دون جوان ، فاستأجر عارضة ازياء لترافقك .

– لا ارى مـــا المقرف في الذهاب للرقص في ملهى مناسب حيث نسمع موسيقى جاز طيبة . وسألني : « أترين انت ؟ » .

فقالت :

– بالضبط، انني لا اريد ان اكون مثل قرد وسط ساحة،هذا لا يستهويني.

فقال لامبير :

– هذا سيستهويك كأية امرأة اخرى . » وصعد قليل من الدم الى وجهه : « كما يستهويك ان تلبسي ، وتخرجي ، لو كنت فقط صادقة . يقولون : هذا لا يستهويني . لكنهم يكذبون . اننا جميعاً مكبوتون ومراؤن. انني اتساءل لماذا . لماذا تكون جريمة اذا احببنا الاثاث الجميل ، والثياب الجميلة ، والترف والتسلية؟ في الحقيقة ان جميع الناس يحبون هذا » .

فقالت نادين :

– أقسم لك انني لا أبالي بكل هذا .

فتابع في حماسة بلبلني :

– وإن قلتِ ذلك ! من المضجر ان نضطر دوماً الى التصنّع في تصرفنا ، والى نكران ذواتنا . علينا الا نضحك وألا نبكي عندما نرغب في ذلك ، والا نفعل ما يحلو لنا والا نفكر بما نفكر به .

فسألت :

– لكن من يمنعك عن هذا ؟

– لا أدري ، وهذا هو الاسوأ . اننا جميعاً نخدع بعضنا البعض ، وما من أحد يعرف لماذا . اننا نزعم اننا نضحي من أجل الطهارة : لكن اين هي الطهارة ؟ ليروني اياها ! وبأسمها نرفض كل شيء ، ولا نفعل شيئاً ، ولا نصل الى شيء .

فقالت نادين بصوت ساخر :

– إلام تريد الوصول ؟

– انت تسخرين . ولكن هذا أيضاً رياء . انت حساسة بالنجاح أكثر بكثير مما تزعمين . وانما مع بيرون سافرت على كل حال وكنت ستحدثينني في لهجة أخرى لو كنت شخصية . جميع الناس يعجبون بالنجاح . وجميع الناس يحبون المال .

فقالت نادين :

– تحدث عن نفسك .

فقال لامبير :

– ولماذا لا نحرص على المال ؟ ما دام العالم كما هو ، فمن الأفضل ان نكون من جانب الذين يملكون. هيا ! لقد كنت فخورة جداً بأن يكون لديك معطف فرو في السنة الماضية ، وكنت تموتين رغبة في القيام بأسفار كبيرة . وستكونين سعيدة اذا استيقظت مليونيرة . كل ما هنالك انك لا تعترفين بذلك : انت

تخافين ان تكوني نفسك !

فقالت بصوت خاد :

ـ انني اعرف من انا وهذا يناسبني جداً . انما انت الذي يخاف ان يكون ما هو عليه : مثقفاً بورجوازياً صغيراً . امـا المغامرات الكبيرة فأنت تعرف جيداً انك لم تخلق لها . وهكذا فأنت الآن تراهن على النجاح الاجتماعي والمال وسائر الباقي . سوف تصبح مدعياً ووصولياً قذراً هذا كل شيء .

فقال لامبير وهو يستدير على عقبيه :

ـ هناك لحظات تستحقين فيها فقط صفعة طيبة .

ـ حاول اذن ! اقسم لك انه ستقوم مباراة رياضية .

وتابعت لامبير بناظري . كنت اتساءل عن سبب انفجاره . ماذا يكبت في داخله، رغماً عنه؟ طعم السهولة ؟ طموحاً مكتوماً ؟ هل يتمنى مثلاً ان يقبل باقتراح فولانج دون ان يجرؤ على المجازفة بلوم اصدقائه ؟ لعله اقنع نفسه ان النواحي التي يشعر انه مطوق بها تمنعه من ان يصبح شخصية ؟ أم انه يتمنى ان يسمح له في هدوء بألا يكون احداً ؟ وقلت :

ـ اتساءل عما كان في رأسه ؟

فقالت نادين في احتقار :

ـ اوه ! انه يخلق لنفسه أحلاماً صغيرة . لكنه عندما يريد ان يدخلني فيها ، اقول له قف !

ـ يجب ان اقول انك لا تشجعينه كثيراً .

ـ كلا . بل ان هذا مضجر . عندما اشعر انه يرغب في ان اقول له شيئاً ، فإنني سرعان ما اقول العكس . الا تفهمين هذا ؟

ـ انني افهم قليلاً .

كنت افهم جيداً جداً . كنت ، مع نادين ، على وجه التحديد ، اعرف هذا النوع من المقاومة .

ـ انه يريد دوماً ان يمنحه الآخرون اجازات : ليس عليه إلا ان يأخذها .

فقلت :

– هذا لا يمنع انك تستطيعين ان تكوني اكثر تساهلاً . انت لا تقومين ابدا بأي تنازل : يجب ان تخضعي قليلاً عندما يسألك شيئاً ما من قبيل الصدفة .

فقالت :

– اوه ! انه يسأل اكثر مما تظنين . » وهزت كتفيها في إعياء : « اولاً انه يطلب في كل مساء ان انام معه : هذا يضجرني » .

– تستطيعين ان ترفضي .

– انت لا تدركين : اذا رفضت فسيؤدي هذا الى مأساة ».وأضافت بصوت غاضب : « علاوة على ذلك ، اذا لم آخذ احتياطاتي ، فسيحبلني في كل مرة » . كانت تنظر إلي شزراً من طرف عينيها . كانت تعرف جيداً انني اكره هـــذا النوع من الاعترافات .

– علـّميه ان يأخذ حذره .

– شكراً ! اذا كان الأمر سيصبح جلسات تمارين عملية ، فهذا مرح ! انني لأفضل ان ادافع عن نفسي بمفردي . لكن من المضجر جداً ان يكون علي ان اضع سدادة في كل مرة افعل فيها الحب . بالأضافـــة الى انني كسرت فرشاة الاسنان .

– فرشاة الاسنان ؟

– ألم يروك شيئاً في اميركا اذن ؟ انها اميركية التي أهدتني تلك الآلة . أوه! انها صغيرة وهي ممتلئة ، ولكأنها قبعة رخوة صغيرة . لكن لوضعهـــا بشكل مناسب ، يلزم نوع من اداة زجاجية : وانا أسميها فرشاة الأسنان . وقـــد كسرتها . » ونظرت إلي في خبث : « أأصدمك ، أليس كذلك ؟ »

فهززت كتفي : « انني اتساءل لماذا تعاندين في عمل الحب ، مـــا دمت تعتبرينه سخرة شاقة » .

– كيف تريدين ان تكون لي قصص مع الرجال اذا لم افعل الحب ؟ ان النساء يقرفنني ، ولا الهو الا مع الذكور . لكن اذا اردت الخروج معهم فلا بد

ان انام معهم ، لا خيار لي . كل ما هنالك ، ان منهم من يفعل ذلك كثيراً أو قليلاً ، ولمدة طويلة أو قصيرة . أمـا لامبير فطوال الوقت ولا ينتهي ابداً » . وأخذت تضحك : « افترض انه اذا لم يستخدمه ، لا يعود واثقـاً من انه يملك واحداً ! » .

كان احد تناقضات نادين انها قد تنقلت بين عدد كبير من الأسرة ، وانهـا تتفوه دون ان يطرف لها هدب بكلمات خليعة كبيرة ، في حين انهـا في الوقت نفسه ، وفيما يتعلق بحياتها الجنسية ، بالغة الحساسية . فعندما كان لامبير يسمح لنفسه ، كما يفعل غالباً ، ان يشير الى علاقتهما الحميمة ، كانت تتبرم . وقلت :

– ثمة شيء يبدو انك لا تدركينه ، وهو ان لامبير يحبك .

فهزت كتفيها ، وقالت بصوت منطقي : « لم تريدي ان تفهمي قط . لقـد احب لامبير امرأة في حياته : روزا . وبعدها اراد ان يتعزى ، فالتقط أول فتاة قادمة : وكانت أنا . لكن لم يكن راغباً حتى في النوم معي ، في البداية . وانما عندما علم انهنري ينام معي خطرت له أفكار . لكني لم اكن قط نموذجية . ان تكون له امرأة خاصة به ، فهذا يبدو له اكثر رجولة من الركض حـول البغايا . وهذا مناسب اكثر أيضاً . لكن لا دخل لي في هذا » .

كانت تتقن فن خلط الصحيح بالكاذب بمهارة الى حد انني بقيت منهـدّة أمام الجهد الذي علي ان ابذله لأنقض كلامها . وقلت في ضعف : « انت تعيدين بناء كل شيء معوجاً » .

فقالت :

– كلا . انني أعرف ما اقوله .

وانتهى بها الأمر الى ارتداء ثوب نظيف وذهبا الى باريس . لكنهما عـادا متجهمين أكثر من أي وقت مضى . وسرعان ما انفجر فصل جديد . كنت اشتغل في الحديقة ، ذلك الصباح، وكانت السماء العاصفة تثقل على كتفي وتلقيني ارضاً . وبقربي ، كان لامبير يقرأ ، ونادين تشتغل بالصوف . كانت قد قالت البارحة مساء : « في الحقيقة ، إن أيام العطلة متعبة جداً. يجب كل يوم ان نخترع

كيفية استخدام وقتنا » . وكان من الظاهر انها تمل . وطوال لحظـــة ، ظلت عيناها متجهتين نحو رقبة لامبير وكأنهـــا حاولت ان تجعله يدير رأسه بقوة نظرتها . وقالت :

– الم ُتنه بعد ، اشنبغلر ؟

– كلا .

– عندما تنهيه اعطني اياه .

– نعم .

لم تكن نادين تستطيع ان ترى كتاباً بين يدي انسان دون ان تطالب به . وكانت تحمله الى غرفتها ، فيزيد بــلا جدوى في حجم كمية الكتب التي تعمر مستقبلها . وفي الحقيقة ، كانت تقرأ في بطء شديد، في نوع من الكراهيـــة ، وكانت تتعب بعد بضع صفحات. وتابعت كلامها في سخرية قليلة :

– يبدو انه سخيف للغاية !

وفي هذه المرة ، رفع لامبير رأسه :

– من قال لك هذا ؟ رفاقك الصغار الشيوعيون ؟

فقالت في تأكيد :

– جميع العالم يعرف ان اشنبغلر فرج أحمـــق . » وتمطت على الأرض ودمدمت : « تفعل أفضل اذا اخذتني للقيام بجولة على الدراجة » . فقال لامبير في جفاء :

– اوه ! لست راغباً في ذلك بالمرة .

– سوف نتناول الغداء في « مينيل » وسوف نتنزه في الغابة .

– وسوف نتلقى العاصفة كلها على ظهرنا : انظري الى السماء .

– لن تنهمر عاصفة . قل بالأحرى انه يضجرك ان تذهب للتنزه معي

فقال في نفاد صبر :

– يضجرني ان اذهب للتنزه ، نعم ، لقد قلت لك هذا .

فنهضت : « حسناً ! وانا يضجرني ان امضي النهار في مربع الملفوف هذا .

سآخذ الدراجة واقوم بجولة بدونك . اعطني مفتاح الأمان » .

– انت مجنونة . لا تستطيعين ان تقوديها .

– لقد سبق وقدتها . ليس الأمر صعباً: والدليل هو انك تعرف ان تقودها.

– عند أول منعطف ستدقّين عنقك . لا حيلة لك . ولن اعطيك المفتاح .

– انت لا تبالي بأن ادق عنقي ! انت خائف من ان اعطب لـك لعبتك ، هذا كل شيء . أيها الأناني القذر . أريد هذا المفتاح !

ولم يتنازل لامبير حتى للإجابة. وظلت نادين ساكنة لحظة ، فارغة النظرة. ثم نهضت ، والتقطت السلة الكبيرة التي تستخدمها كحقيبة ورمتني بقولهـــا : « انني اضجر هنا : سأمضي اليوم في باريس » .

– إلهي جيداً .

كانت قـــد عرفت كيف تختار انتقامها . فسوف يتألم لامبير بالتأكيد من كونه يعرف ان نادين في باريس مع رفاق يكرههم . وتبعهـا بعينيه بينما كانت تخرج من الحديقة ، وأدار رأسه نحوي . وقال في لهجة محزونة :

– لا افهم لماذا تحتدّ خصوماتنا بسرعة . أتفهمين ذلك ؟

كانت المرة الأولى التي يبادئني فيها بحديث حميم . وترددت ، لكن مـا دام على استعداد لأن يسمعني، فالافضل ، بدون شك ، ان احاول الكلام . فقلت .

– انها غلطة نادين الى حد كبير . ان اتفه شيء يغيظها . وعندئـــذ تصبح ظالمة وعدائية . لكن قل لنفسك انها جارحة لأنها سريعة الأصابة بالأذى .

فقال في حقد :

– تستطيع ان تفهم ان الآخرين قابلون للأذى ، هم ايضاً . ان إحساسيتها فظيعة في بعض الأحيان .

كان يبدو شديد الارتباك ، صغيراً جداً ، بجلده الغض ، وانفه الأقنى قليلاً ، وفمه الشره : وجه شهواني ومعذب ، موزع بين احلام عذبة جـــداً ومبادىء قاسية جداً . وقررت : « اسمع : كي ترى بوضوح في روح نادين ، فلا بد ان تعود الى طفولتها » .

ورويت للامبير ، بأفضل ما استطيع ، كل مـــا كنت كررتـه في نفسي مراراً . واصغى إلي في صمت ، في سحنة منفعلة . وعندما لفظت اسم دييغو ، قاطعني في شراهة :

ـ هل صحيح انه كان ذكياً للغاية ؟

ـ صحيح .

ـ قصائده كانت جيدة ؟ اكان موهوباً ؟

ـ اعتقد ذلك .

ـ ولم يكن يتجاوز السابعة عشرة ! اكانت نادين تعجب به ؟

ـ انها لا تعجب أبداً . كلا ، ما كان يربطها على الاخص بدييغو ، هو انـه كان يخصها دون تحفظ .

فقال في حزن :

ـ انا ايضاً احبها .

فقلت :

ـ ليست واثقة من ذلك . لقد خشيت دوماً من ان تقارنها بأخرى .

فتمتم :

ـ إنني أشدّ تعلقاً بنادين مما كنت بروزا .

وفاجأني هذا التصريح : فقد كنت ، رغم كل شيء ، قد تبنيت آراء نادين المسبقة :

ـ هل قلت لها ذلك ؟

ـ ليست هذه أشياء يمكن ان تقال .

ـ انها أشياء ، هي بحاجة لأن تسمعها .

فهز كتفيه : « انها ترى جيداً انني منذ سنة لا أعيش إلا من أجلها » .

ـ انها مقتنعة ان هذا ليس إلا نوعاً من الرفعة . كيف أشرح لك ؟ إنهـــا بصفتها امرأة تشك في نفسها : فهي بحاجة لأن تحب كإمرأة .

فتردد لامبير : « لكنها على هذا الصعيد أيضاً صعبة المعاملة . ربما كان عليّ

ألا أقول لك هـــذا : لكني لا أفهم شيئاً وانا ضائع . إذا لم يحدث بيننا شيء ذات مساء ، فإنها تشعر انهـا مهانة . لكن جميع حركات الحب الحبية تقريباً تصدمها . ولهذا فإنها تظل باردة بالطبع وتحقد عليّ ... » .

وتذكرت تصريحات نادين الشرسة :

— أواثق أنت من انها هي التي تريد ، كل مساء ...؟

فقال في سحنة متجهمة :

— واثق تماماً .

ولم أدهش كثيراً لتناقضها . لقد صادفتني أمثلة كثيرة . وهـذا يعني دوماً ان أياً من العشيقين ليس راضياً عن الآخر .

وقلت :

— نادين تشعر انها مبتورة عندما تقبل بأنوثتها وكذلك عندمـــا ترفضها . وهذا ما يجعل هذه العلاقات صعبة جداً بالنسبة لك . لكن إذا كان لديك مـا فيه الكفاية من الصبر ، فإن الأمور ستسوّى .

— أوه ! الصبر ! لديّ منه . ليتني واثق فقط انها لا تكرهني !

— يا لها من فكرة ! انها متعلقة بك بشدة .

— غالباً ما أفكر بأنها تحتقرني لأنني لست ، كما تقول ، إلا مثقفاً صغيراً . »

وأضاف في مرارة : « مثقفاً لا يملك حتى مواهب خلاقة . ولا يقرر أبداً أن يطير بجناحيه الخاصين » .

فقلت :

— لن تستطيع نادين أبداً ان تهتم إلا بمثقف ، فهي تعيد المناقشة ، وتبـادل الآراء : يلزمها ان تضع حياتها في كلمات . كلا ، صدقني ، انهـا لا تأخذ عليك حقاً إلا أنك لا تحبها بما فيه الكفاية .

فقال :

— سأقنعها . كان وجهه قد أشرق : « إذا فكرت انها تحبني قليلاً ، فإن كل الباقي عندي سواء » .

– انها تحبك كثيراً : ما كنت لأقول لك هذا لو لم أكن متأكدة منه .

وعاد الى كتابه وانا الى شغلي . كانت السماء تغيم ساعة بعد ساعة ، وكانت سوداء تماماً عندما صعدت بعد الظهر الى غرفتي لأحاول الكتابة الى ليويس . كان قد تعلم ، هو ، أن يكلمني . وكان هذا أسهل عليه منه عليّ فأولئك الناس ، وتلك الأشياء التي كان يصفها لي ، وجدت بالنسبة لي . ومن خلال الأوراق الصفر كنت أجد ثانية الآلة الكاتبة ، والغطاء المكسيكي ، والنافذة المفتوحة على أرض مشجرة ، وسيارات فارهة تجري على طول الطريق المتصدعة . لكن هذه القرية ، عملي ، نادين ، لامبير ، لم تكن شيئاً بالنسبة له . وكيف أتحدث عن روبير ، كيف أسكت عنه ؟ إن ما كان ليويس يهمسه لي بين سطور رسائله ، كان كلمات سهلة القول : « إني انتظرك ، عودي ، فأنا لك » . لكن كيف أقول : « انني بعيدة ، لن أعود قبل مدة طويلة ، انني أخص حياة أخرى » ؟ كيف أقول هذا ما دمت أريد ان يقرأ : « أحبك ! » . كان يناديني ، ولم اكن أستطيع انا ان أناديه . لم يكن لديّ شيء أمنحه إياه ما دمت أمنع عنه حضوري . وأعدت قراءة رسالتي في خجل : كم كانت فارغة مع ان قلبي مثقل جداً ! ويا لها من وعود تافهة : سأعود . لكني سأعود بعد مدة طويلة ، وسيكون هذا كي أرحل ثانية . وجمدت يدي وهي تلمس المغلف الذي ستلمسه يداه بعد أيام : يدان حقيقيتان ، اليدان اللتان شعرت بهما حقاً على جسدي . لقد كان إذن موجوداً حقاً ! كان يخيل إليّ أحياناً انه من اختراع قلبي . وكنت أتحكم به في سهولة كبيرة : كنت أجلسه قرب النافذة ، واضيء وجهه ، وأوقظ ابتسامته دون ان يدافع عن نفسه . هل سأجده ثانية ، بلحمه وعظمه ، ذلك الرجل الذي كان يفاجئني ، الذي كان يملأني ؟ وتركت رسالتي على الطاولة ، واستندت الى النافذة . كان الغسق يخيم والعاصفة تنطلق . وكنت أرى جيوشاً من الفرسان يخبون والحراب في قبضاتهم بين الغيوم بينما كانت الريح تهذي بين الأشجار . ونزلت الى غرفة الجلوس وأشعلت نار حطب كبيرة ، وبالتلفون دعوت لامبير الى المجيء لتناول العشاء معنا . عندما لا تكون نادين هنا لتؤجج

المعارك ، كان هو وروبير يتجنبان في اتفاق مشترك المسائل الشائكة . وبعد الطعام ، عاد روبير الى مكتبه ، وبينما كان لامبير يساعدني في رفع المائدة ، عادت نادين ، وشعرها مبلل بالمطر . وابتسم لها في لطف :

– تبدين كجنية ماء . هل تريدين أن تأكلي شيئاً ما ؟

فقالت :

– كلا ، لقد تعشيت مع فانسان وسامازيل . » وتناولت من على الطاولة منشفة وجففت شعرها ، « لقد تحدثنا عن المعسكرات الروسية . وفانسان من رأيي تماماً . إنه يقول انها مقرفة ، لكن إذا ما شنت حملة ضدها ، فإن البورجوازيين سيسرون كثيراً » .

فقال لامبير :

– مع هذا النوع من المنطق نذهب بعيداً ! » وهز كتفيه في غيظ : « سيحاول ان يقنع بيرون بألا يتكلم ! » .

فقالت نادين :

– بديهي .

فقال لامبير :

– آمل جداً ان يضيع وقته . لقد حذّرت بيرون من انه إذا خنق القضية، فإنني أترك « الأمل » .

فقالت نادين في سخرية :

– هذه حجة لها وزنها !

فقال لامبير بصوت مرح :

– أوه ! لا تأخذي هذا المظهر المتفوق ! انت الحقيقة لا تسيئين بي التفكير الى الحد الذي تريدينني ان أعتقده .

فقالت بدون لطف :

– لكن ربما كنت أحسن بك التفكير اقل مما تعتقد .

فقال لامبير :

– أنت لست لطيفة !

– وأنت ، أكان من اللطف ان تتركني أذهب بمفردي الى باريس ؟

فقال لامبير :

– لم يكن يبدو عليك أنك ترغبين في مجيئي !

– لم أقل انني لست راغبة في ذلك . إنما أقول انه كان بإمكانك ان تقترح ذلك علي .

ومضيت نحو الباب وغادرت الغرفة . وسمعت لامبير يقول :

– هيا ، دعينا من الخصام !

فقالت نادين :

– انني لا اخاصم !

وافترضت انهما سيتخاصمان طول السهرة .

وفي صباح اليوم التالي نزلت باكراً الى الحديقة . تحت السماء الزرقاء التي لينتها امطار الليل كان الريف لا يزال مثخناً. وكانت الطريق محفورة بالمستنقعات الصغيرة ، والارض المعشوشبة مليئة بأغصان ميتة . وكنت اضع اوراقي على الطاولة الندية عندما سمعت هدير الدراجة البخارية .. كانت نادين منطلقة على الطريق المتصدعة ، وشعرها تداعبه الريح ، وتنورتها مرفوعة عالياً على ساقيها العاريتين . وخرج لامبير من الجناح ، وركض حتى البوابة صارخاً : «نادين ! » وعاد نحوي تائه النظرة . وقال بصوت مضطرب :

– انها لا تعرف القيادة ! ومع هذه العاصفة ، توجد اغصان مكسورة ، واشجار ساقطة عبر الطريق . ستحدث مصيبة !

فقلت لأطمئنه :

– نادين حذرة على طريقتها .

كنت قلقة انا ايضاً . كانت حريصة على جلدها ، لكنها لم تكن ماهرة .

– لقد أخذت مفتاح الأمان بينما كنت نائماً . انها عنيدة جداً !

– ونظر إلي في تأنيب : « تقولين لي انها تحبني . لكن لها اذن طريقة غريبة

في الحب ! لم اكن اطلب انا الا إحلال سلام مساء أمس ، لقد رأيت جيداً . هذا لم يفد شيئاً كبيراً ! » .

فقلت :

– آه ! ليس من السهل كثيراً الوصول الى التفاهم . اصبر قليلاً .

– لا بد معها من صبر كثير !

وابتعد وفكرت في حزن : « يا لها من ورطة » . كانت نادين تجري على الطرق ، ويداها مشنجتان على المقود ، شاكية للريح : « لامبير لا يحبني . ما من أحد احبني ، باستثناء دييغو الذي مات » . واثناء ذلك ، كان لامبير يذرع غرفته طولاً وعرضاً وقلبه مليء بالشكوك . من الصعب ان يصبح المرء رجلاً في زمن أخذت فيه هذه الكلمة معنى ثقيلاً جداً : فكثير من الاخوة الكبار الذين ماتوا ، وعذبوا ، وقلدوا الاوسمة ، ونالوا الحظوة ، يقترحون انفسهم مثالاً على هذا الغلام ذي الخمسة والعشرين عاماً الذي لا يزال يحلم بحنان الأم والحماية الرجولية . كنت افكر بتلك الشعوب التي تعلم الذكور الصغار منذ سن الخامسة على غرز اشواك مسمومة في اجسادهم الحية : عندنا ايضاً ، لا بد للذكر ، ليحصل على كرامة الانسان الراشد ، من ان يعرف كيف يقتل، ويؤلم ، ويتألم. اننا نرهق البنات بالنواهي ، والصبيان بالمطالب ، وكلا هذين النوعين من الامتحان مضران . لو اراد لامبير ونادين ان يساعد احدهما الآخر ، لربما نجحا معاً في قبول سنهما ، جنسهما ، مكانهما الحقيقي على الارض . ترى هل سيقرران ارادة ذلك ؟

وتناول لامبير طعام الغداء معنا . وكان يتردد بين الخوف والغضب . وقال في اضطراب :

– هذا يتجاوز حدود المزاح ! ليس لها الحق في ان تخيف الناس هكذا . انه خبث ، انه شانتاج . صفعتان جيدتان ، هذا ما تستحقه !

فقلت :

– انها تفكر انك قلق جداً . أنت تعرف ، فلا داعي لهذا . انها بلا شك

نائمة في حقل أو تأخذ حمام شمس .

فقال :

– المهم الا تكون في الحفرة ، مفلوقة الرأس ! انها مجنونة ! مجنونة حقاً .

كان يبدو قلقاً حقاً . وكنت أفهمه . كنت أقل اطمئناناً بكثير مما ازعم . وكان روبير يقول لي : « لو كان حدث شيء ما ، لتلفنوا لنا » . لكن ربما في هذه الدقيقة بالضبط كانت الآلة تنحرف ونادين تتحطم على شجرة . وكان روبير يحاول ان ينسيني . لكنه عندما بدأ الليل يخيم ، لم يعد يخفي قلقه . كان يتحدث عن الاتصال هاتفياً برجال الدرك في الضواحي ، عندما سمعنا اخيراً صوت فرقعة . ووصل لامبير الى الطريق قبلي . كانت الآلة مغطاة بالوحل ، ونادين كذلك . وترجلت أرضاً ضاحكة فرأيت لامبير يصفعها صفعتين بكل قوته .

– ماما ! » كانت نادين قد رمت نفسها عليه ، وراحت تصفعه بدورها ، وتصيح: « ماما ! » بصوت حاد. وأمسك بمعصميها. وعندما وصلت الى مقربة منهما ، كان شديد الشحوب ، حتى اعتقدت انه سيغمى عليه . كانت نادين تنزف من انفها ، لكني كنت أعلم انها تستطيع بإرادتها ان تجعل دمها ينزف ، فهذه حيلة تعلمتها في طفولتها عندما كانت تتقابل مع الصبيان حول نوافير اللوكسمبرغ.

وقلت وانا اضع نفسي بينهما وكأنني سأفرق بين طفلين :

– الا تخجلين ؟

وكانت نادين تصرخ بصوت هستيري :

– لقد ضربني !

وطوقت كتفيها بذراعي ومسحت انفها : « اهدئي !» .

– لقد ضربني لأنني أخذت له دراجته . سأحطـّمها تحطيماً !

فكررت :

– إهدئي !

– سأحطمها .

فقلت :

– اسمعي ، لقد اخطأ لامبير خطأ كبيراً بصفعك . لكن طبيعي ان يكون قد فقد أعصابه . لقد خفنا جميعاً بشكل رهيب . لقد اعتقدنا انه قد حدث لك حادث .

– ما كان ليبالي بذلك! انه انما كان يفكر بآلته . لقد خاف ان احطمها له.

فقال لامبير في صعوبة :

– انني اعتذر ، نادين ، ما كان يجب ان أفعل ذلك . لكني كنت مضطرباً. كان بإمكانك ان تقتلي نفسك .

– انت مراءٍ ! انت لا تبالي بذلك ! انني أعرف . سواء لديك موتي أو عدمه ، فقد سبق لك ودفنت اخرى !

– نادين !

كان لونه قد انقلب من الأبيض الى الأحمر . ولم يعد في وجهه أثر من طفولة . وصاحت :

– دفنتها ، نسيتها ، فعلت ذلك بسرعة .

– كيف تجرؤين ! انت ! انت التي خانت دييغو مع الجيش الاميركي كله .

– اسكت .

– لقد خنته .

كانت دموع حتى تنسال على خدي نادين : « ربما خنته ميتاً . لكن انت ، قد سمحت لوالدك بأن يشي بروزا حين كانت حية » .

وظل لحظة صامتاً . وقال : « لا اريد ان اراك ثانية أبداً . أبداً » .

وامتطى دراجته ، فلم أجد كلمة لأوقفه . وكانت نادين تنتحب :

– تعالي لتستريحي . تعالي .

– شخص كان ابوه يشي باليهود . وقد نمت معه ! وقد صفعني ! هذا ما استحقه ! هذا ما استحقه !

كانت تصرخ . ولم يكن هناك ما يمكن عمله سوى ان اتركها تصرخ .

الفصل السابع

امضت بول الصيف لدى كلودي دي بلزونس ، وذهبت جوزيت لتلوّح جلدها في « كان » بصحبة أمها . وسافر هنري الى ايطاليا في سيارة صغيرة سنحت له . كان يحب كثيراً ذلك البلد حتى انه نجح في نسيان « الأمل » ، و « الاشتراكي الثوري الحر » ، وجميع المشاكل . وعندما عاد الى باريس ، وجد في بريده تقريراً ارسله اليه لامبير من المانيا ورزمة من وثائق جمعها سكرياسين . وقضى الليل في دراستها : وعند الصباح ، كانت ايطاليا بعيدة جداً . كان يمكنه ان يشك في وثائق وجدت في اضبارات الرايخ وتفضح وجود تسعة ملايين وثمانمئة الف سجين . وكان يمكنه ان يشتبه في تقارير المعتقلين البولونيين المحررين . لكن لكي يدحض بشكل قاطع جميع شهادات الرجال والنساء الناجين من المعسكرات ، فلا بد ان يكون قد قرر نهائياً ان يسد عينيه واذنيه . ثم ، بالاضافة الى مواد القانون التي كان هنري يعرفها ، كان هناك ذلك التقرير الذي ظهر في موسكو عام١٩٣٥ والذي يعدد الأعمال الفخمة التي انجزتها معسكرات أو غيبيو . وكان هناك مشروع السنوات الخمس الخاص بعام ١٩٤١ الذي يعهد الى المباحث بـ ١٤ بالمئة من مشاريع البناء . مناجم الذهب في كوليما ، ومناجم الفحم في يوريلك، وفوركوتا ، وحديد ستاروبلسك، ومناطق صيد السمك في كومي : كيف يعيش فيها الناس بالضبط؟ ما هو عدد المحكومين بالأشغال الشاقة ؟ كان هناك التباس كبير حول هذه النقطة. لكن ما كان اكيداً هو ان المعسكرات موجودة ، على صعيد كبير ، وبشكل قانوني. وانتهى هنري الى القول : « يجب ان أقول هذا . وإلا فسأكون متواطئاً ، ومذنباً تجاه قرائي

بسوء استغلال الثقة ». ورمى بنفسه وهو في ثيــابه على سريره وهو يفكر : « سيكون الأمر مرحاً ! ». كان سيتخاصم مع الشيوعيين، ولن يعود وضع « الأمل » سهلاً مطلقاً آنذاك. وتنهد. كان مسروراً، في الصباح، عندما كان يري عمالاً يشترون « الأمل » من الكشك المجاور : لن يشتروها بعـــد ذلك. ومع ذلك، كيف يسكت ؟ كان يستطيع ان يتعلل انه لا يعرف ما فيه الكفاية ليتكلم : انما مجموع النظام بأكمله الذي يعطي هذه المعسكرات معناهــا الحقيقي، وهو لا يملك معلومات كافية ! لكنه في الوقت نفسه لم يكن يجهل ما فيه الكفاية ليلزم الصمت. ان الجهل ليس تعلّة، ولقد فهم ذلك منـــذ زمن بعيد. كان عليه، ما دام وعد قرّاءه بالحقيقة، ان يقول لهم ما يعرفه، وإن كان شاكاً. وكان لا بد له من اسباب موضوعية ليقرر ان يكتمها عنهـم : ولم يكن نفوره من الخصومة مع الشيوعيين سبباً، فهو لا يخص احداً غيره.

ولحسن الحظ، تركت له الظروف شيئاً من الراحة. فلم يكن لا دوبروي، ولا لامبير، ولا سكرياسين في باريس. ولم يشر سامازيل الى القضية إلا اشارات مبهمة. واجتهد هنري ليفكر بالأمر أقل ما يمكنه. ولقد كانت هنــاك اشياء اخرى كثيرة بالأصل كان عليه ان يفكر فيها : اشياء تافهة لكن عاجلة. كانت مراجعات مسرحيته عاصفة. كان « ساليف » مبالغاً في سلافيته، وكثرة نزواته لا تجعله أقل إخافة، وكانت جوزيت تتحملها باكية : وكان فيرنون قد أخذ يخشى فضيحة، ويقترح حذفاً وتبديلاً لا يمكن القبول بهما. وكان قــد عهد الى بيت آماربليس بتنفيذ الثياب، وكانت لوسي بيلوم ترفض ان تفهم ان جوزيت تعتبر خارجة من كنيسة ملتهبة لا من صالون خياطة. وكان هنري يضطر الى تمضية ساعات في المسرح.

وقال في نفسه ذات صباح : « يجب على كل حال أن أتلفن لبول ». لم تكن قد ارسلت له الا بطاقات بريدية نادرة وكلها ألغاز. كانت قد عادت الى باريس منذ بضعة أيام، ولم تتصل به. لكن كان من البديهي انها تنتظر في قلق التلفون، ولم يكن تكتمها الا مناورة، وكان من الوحشية ان يستغله. الا انه عندما

طلبها ، اعطته موعداً بصوت هادىء جداً حتى انه كان يعتوره الأمل بعض الشيء بينما كان يرتقي الدرج : لعلها لم تعد تتعلق به نهائياً . وفتحت له الباب باسمة وتساءل في ذهول : « ماذا حدث لها ؟ » . كان شعرها مرفوعاً ، كاشفاً عن رقبة بدينة ، وكانت قد نتفت حاجبيها ، وكانت ترتدي ثوباً يشد عليها كثيراً ، فتبدو شبه مبتذلة . وقالت وهي تتابع الابتسام :

– لماذا تنظر إلي هكذا ؟

فابتسم بدوره ، في جهد : « ثيابك غريبة ... » .

– أأدهشك ؟ » واخرجت من حقيبتها ماسكة سجاير ووضعتها في فمها ، وقالت : « آمل كثيراً ان ادهشك » . كانت تنظر اليه بعينين لامعتين مرحاً : « وفي البدء سأعلن لك نبأ عظيماً : انني أكتب » .

فقال :

– تكتبين ! وما تكتبين ؟

فقالت :

– ستعرف ذلك ذات يوم .

كانت تعض على ماسكة السجاير في سيماء من غموض . وسار نحو النافذة . كانت بول قد مثلت عليه غالباً فصولاً مأساوية ، لكن هذا النوع من الملهاة كان غير جدير بها . ولو لم يخش التعقيدات ، لنزع منها ماسكة السجاير هذه ، ولأفسد تسريحتها ، ولهزّها . واستدار نحوها :

– أكانت عطلتك جيدة ؟

– جيدة تماماً . » وسألت في نوع من التسامح: « وانت؟ إلام صرت اليه؟».

– اوه ! انني اقضي أيامي في المسرح . وحالتنا سيئة في الوقت الراهن. ان ساليف مخرج طيب ، لكنه يغضب بسرعة .

فسألت بول :

– والصغيرة ستكون مناسبة ؟

– اعتقد انها ستكون ممتازة .

وتنشقت بول دخان سجارتهـا ، واختنقت ، وسعلت : « ألا تزال قصتك معها مستمرة ؟ » .

– لا تزال .

وتفرست في وجهه في نوع من الرعاية :

– هذا غريب .

فقال :

– لماذا ؟ » وتردد ، وقال مقرراً : « ليس الأمر بنزوة . انني عاشق لها » .

فابتسمت بول : « أتعتقد ذلك حقاً ؟ » .

فقال في حزم :

– انني متأكد ، انني أحب جوزيت .

فقالت في سيماء من دهشة : « لمَ تقول لي ذلك ، بهذه اللهجة ؟ » .

– أي لهجة ؟

– لهجة غريبة .

وبدرت عنه حركة نفاد صبر : « اروي لي بالأحرى عطلتك : فقد كتبت لي قليلا للغاية » .

– كنت مشغولة كثيراً .

– أهو بلد جميل ؟

فقالت بول :

– لقد أحببته .

كان من المتعب ان يطرح اسئلة لا تجيب عليها إلا بعبـــارات مقتضبة مثقلة بتلميحات غامضة . وغضب هنري من ذلك ، حتى إنه ذهب بعد عشر دقائق . ولم تحاول ان تمنعه ولم تطلب موعداً جديداً .

وعاد لامبير من المانيا قبل ثمانية أيام من المراجعة العامة للمسرحية . كان قد تغيّر ، فقد أصبح ، منذ موت والده ، نزقاً ومنغلقاً على نفسه . وأخـــذ فوراً يتحدث بسرعة عن تحقيقه وعن الشهادات التي جمعهـــا . ونظر الى هنري

في تشكك :

– أأقتنعت أم لا ؟

– بشكل عام ، نعم .

فقال لامبير :

– هذا يكفي ! ودوبروي ؟ ما رأيه ؟

– لم أره ثانية . انه لا يتحرك من سان – مارتان ولم يتح لي الوقت للذهاب اليه .

فقال لامبير :

– لكن لا بد ان ننتقل الى العمل بسرعة . » وقطب حاجبيه : « آمل انه سيكون حسن النية بما فيه الكفاية ليعترف ان الوقائع قد تأكدت هذه المرة».

فقال هنري :

– بالتأكيد .

ومن جديد تفرس لامبير في وجه هنري في ارتياب :

– شخصياً ، انت لا تزال عازماً على الكلام ؟

– شخصياً ، نعم .

– واذا ما عارض الشيخ ذلك ؟

– سنستشير اللجنة .

فغام وجه لامبير وأضاف هنري :

– « اسمع ، دع لي ثمانية ايام . انني في هذه الايام مشغول جداً ، لكني سأذهب للتحدث اليه فوراً بعد المراجعة العامة . وسنسوي هذه المسألة . » واضاف بصوت ودي : « انني ذاهب الى المسرح . أيستهويك ان ترافقني ؟ » .

فقال لامبير :

– لقد قرأت مسرحيتك : انني لا احبها .

فقال هنري في فرح :

– هذا من حقك . لكن من الممكن ان يسلّيك حضور مراجعة .

فقال لامبير :

– « لدي عمل . يجب ان انظم ملاحظاتي . » وساد صمت محرج ثم بدا على لامبير انه قرر ، وقال في لهجة حيادية : « لقد رأيت فولانج خلال شهر آب ، انه في سبيله الى اصدار صحيفة اسبوعيـــة كبيرة ، ويقترح عليّ منصب رئيس التحرير » .

فقال هنري :

– سمعت عن هذا المشروع . « الايام الجميلة » ، أليس كذلك ، انني افترض انه لا يجرؤ على ادارتها علناً .

– تقصد انه ينوي ان يستخدمني لحسابه ؟ في الحقيقـة ، انه يتمنى ان نهتم بالجريدة معاً . وهذا لا يجعل عرضه أقل اجتذاباً .

فقال هنري في جفاء :

– على كل حال ، انت لا تستطيـع ان تشتغل في « الأمل » وفي جريـــدة يمينية في آن واحد .

– انها ليست الا صحيفة اسبوعية ادبية محضة .

– هذا يقال دوماً . لكن الاشخاص الذين يصرحون انهم ضد السياسة ، هم رجعيون ، حتماً . وهز هنري كتفيه : « اخيراً ، كيف تأمل ان توفق بين افكارنا وافكار فولانج ؟ » .

– انا لا اشعر انني بعيد عنه كثيراً . لقد قلت لـــك مراراً انني اشاطره احتقاره للسياسة .

– انك لا تفهم ان هذا الاحتقار عند فولانج هو ايضاً موقف سياسي : الوحيد الممكن له حالياً .

وقطع هنري كلامه . كان لامبير قد اخذ سحنة عنيدة . لقد عرف فولانج دون شك كيف يرضي غروره. ثم انه كان يعرض عليه إمكانية مزج الخير بالشر بحيث يتوصل الى تبرئة والده ، ويبرر ايضاً ثروته الضخمة . وقـــال هنري في نفسه : « يجب ان انظم وقتي بحيث أراه غالباً واخاطبه » . لكن لم يكن لديه

وقت ، حالياً . وقال وهو يصافح يد لامبير : « سنتكلم عن هذا كله ثانية » .

كان يؤلمه قليلاً ان يكون لامبير قد حدّثه في جفاء كبير عن مسرحيته . لا شك في ان لامبير كان محرجاً من بعث الماضي ، بسبب والده . ولكن لمَ هذا النوع من الكراهية ؟ وقال هنري في نفسه : « يا للخسارة ! » . كان يود لو ان احداً من الخارج يحضر احدى مراجعاته الاخيرة ويقول له رأيه : فهو ما عاد يعرف اين وصل . ولم يكن ساليف وجوزيت ينقطعان عن الانتخاب ، بينما كانت لوسي بيلوم ترفض رفضاً قاطعاً ان تمزق ثوب جوزيت ، وفيرنون يعاند في تقديم عشاء بعد المراجعة العامة . ولقد احتج هنري كثيراً ، لكن لم يكن من احد ليستمع الى كلمة واحدة مما يقوله . وكان يشعر انه يسير الى كارثة . وكان يحاول ان يقول في نفسه : « بعد كل شيء ، ان مسرحية تنجح او تسقط ، فليس هذا بالأمر الخطير » . لكنه اذا كان يستطيع ان يتحمل شخصياً فشلاً ما ، فان جوزيت كانت بحاجة الى نجاح . وقرر ان يتلفن لدوبروي وزوجته اللذين عادا الى باريس : هل يستطيعان ان يأتيا غداً الى المسرح ؟ فالمسرحية تمثل بأكملها وهو مشوق لمعرفة رأيهما .

وقالت آن :

— موافقان . انه ليشوقنا كثيراً . وهذا سيرغم دوبروي على الاستراحة قليلاً : انه يشتغل كمجنون .

كان هنري خائفاً قليلاً من ان يضع دوبروي فوراً على بساط البحث قضية المعسكرات . لكن ربما لم يكن مستعجلاً هو الآخر لاتخاذ قرارات : ولم يفه بكلمة . وشعر هنري بخجل عظيم عندما بدأت المراجعة . لقد كان يحرج أصلاً عندما كان يفاجىء قارئاً يقرأ احدى رواياته . ولقد كان في جلوسه الى جانب دوبروي وهما يستمعان الى نصه ، شيء ما بذيء . وكانت آن تبدو منفعلة ، ودوبروي مهتماً : لكن بأي شيء لم يهتم ؟ ولم يجرؤ هنري على سؤاله . وسقط الجواب الأخير في صمت جليدي . وعندئذ استدار دوبروي نحو هنري وقال في حرارة :

– تستطيع ان تكون مسروراً ! ان المسرحيــة لأفضل ايضاً على المسرح منها في القراءة . لقد قلت لك ذلك مباشرة : هذا افضل ما كتبته .

وقالت آن في انطلاق :

– اوه ! بالتأكيد !

وتابعا إطلاق التقــاريظ الحماسية : كانا يقولان بالضبط الكلمات التي كان هنري يرغب في سماعها . ولقد سرّه ذلك كثيراً ، لكنه أخــافه ايضاً قليلاً . لقد بذل خلال هذه الأسابيع الثلاثة جهده ، كي تتــاح للمسرحية كافة فرصها . لكنه لم يشأ ان يتساءل عن قيمتها ، عن نجاحها . ولقد منع نفسه من الأمل أو الخوف . وكان قد شعر ، الآن ، بأن حذره يذوب . أفضل ما كتبه : هل هي جيدة ؟ هل سيجدها الجمهور جيدة ؟ كان قلبه يخفق بشدة ، مساء المراجعـــة العامة ، بيـــنما كان يسترق السمع ، مختفياً وراء الكواليس ، الى اللغط الكبير غير المفهوم الذي كان يعلو من القاعة غير المرئية . غرور وسراب : ها قد مضت سنوات وهو يرتاب بالمظاهر. لكنه لم ينسَ أحلام الشباب . المجد : لقد آمن به، ووعد نفسه بأن شده اليه ذات يوم ، ملء ذراعيه ، كما يضم الانسان حبيبه ، ولقـــد كان من الصعب إمساكه ، ولم يكن له وجه . وفكر : « لكنه ، على الأقل ، يمكن ان يكون حجة » . لقـــد سمعها ، ذات مرة . كان قد ارتقى المنصة، ونزل عنها مثقل الذراعين بالكتب، واسمه ينعكس في فرقعة التصفيق. لعله سيعرف من جديد هـــذا التمجيد الطفولي . انه لا يستطيع ان يكون متواضعاً دوماً . ولا يستطيع ان يكون متكبراً دوماً ومحتقراً جميـــع الدلائل. وإذا كان يقضي أفضل ايامه في محاولة الاتصال بالآخرين فهذا لأن لهم حساباً ، وهو بحاجة لأن يعرف، احياناً، اذا كان قد نجح في ان يكون له حساب بالنسبة لهم . انه بحاجة الى لحظات عيد حيث يجمع الحاضر في ذاته الماضي كله وينتصر على المستقبل ... وانقطعت أفكار هنري فجأة . لقد دقت الدقات الثـــلاث . وارتفع الستار عن مغارة قاتمة فيها اناس جالسون ، صامتين ، شخوص النظر . كانت هناك علاقة ضئيلة جداً بين هذا الحضور اللامتأثر وبين الضجة التي ملأت

نصف الساعة الأخير حتى ان المرء ليتساءل من أين برزوا . ما كانوا يبدون واقعيين تماماً . انما كانت الحقيقة تلك القرية المحترقة ، والشمس ، والصراخ ، والأصوات الالمانية ، والخوف . وسعل أحدهم في القاعة ، وعرف هنري انهم واقعيون ، هم ايضاً : آل دوبروي ، بول ، لوسي بيلوم ، لامبير ، آل فولانج ، وكثيرون غيرهم ممن يعرفهم ، وكثيرون غيرهم ممن لا يعرفهم . ماذا كانوا يفعلون على الضبط هنا ؟ كان يتذكر بعد ظهر يوم احمر من الشمس ، والنبيذ ، والذكريات الدامية . ولقد تمنّى لو ينتزعه من شهر آب ذاك ، لو ينتزعه من الزمن . ولقد أطاله الى احلام يقظة نبتت منها قصة ، وكذلك أفكار صبها في كلمات . ولقد تمنى لو تصبح الكلمات ، والافكار ، والقصة ، حية : هل كانت هذه الجمعية الخرساء هنا لتمنحها الحياة ؟ وانفجر هدير المدافع الرشاشة ، واجتازت جوزيت الساحة المقفرة في ثوبها الجميل أكثر مما ينبغي والمهور « آماربليس » وجاءت لتنهار على مقدمة المسرح بينما كانت تتصاعد من الكواليس صيحات وأوامر بحنّاء . وتعالى الصياح ايضاً في الصالة . وغادرت امرأة مزدانة الرأس بريش أصفر مقعدها في صخب : « كفانا من هذه الفظاعات ! » وبين التصفير والتصفيق ألقت جوزيت على هنري نظرة مذعورة وابتسم لها في هدوء. وعادت الى الكلام . كان يبتسم في حين انه كان يود لو يقفز الى مقدمة المسرح أو يهمس الى جوزيت بكلمات جديدة ، بكلمات مقنعة ، مقلقة . ولم يكن عليه الا ان يمد يده ليلمس ذراعها ، لكن أنوار مقدمة المسرح كانت تبعده عن ذلك العالم الذي كانت فيه لحظات المأساة تتابع تسلسلها بلا شفقة . وعندئذ عرف هنري لماذا دُعوا : ليلفظوا الحكم . لم تكن القضية قضية تمجيد : بل دعوى . كان يتعرف ثانية تلك الجمل التي اختارها بأمل في صمت غرفته الدمث : كان لها تلك الليلة طعم جريمة . مذنب ، مذنب ، مذنب . كان يشعر انه وحيد وحدة الرجل الذي يصغي في صمت ، في قفص محكمة الجنايات ، الى محاميه . كان يرافع مقراً بالذنب ، وكل ما كان يطلبه هو رحمة المحلفين . وصاحوا من جديد : « هذا مخجل » ، ولم يكن يستطيع ان يقول كلمة واحدة دفاعاً عن نفسه . وعندما

سقط الستار بين التصفيق الذي كان يتخلله بعض الصفير ، تبين ان يديه نديتان. وغادر البلاتو وذهب ليسجن نفسه في مكتب فيرنون . وبعد بضع دقـــائق ، فتح الباب . وقالت بول :

– قيل لي انك لا تريد ان ترى احداً . لكني افترض انني لست أحداً ما .

كان في صوتها طلاقة مدروسة ، وكانت ترتدي ثوباً اسود ، وفي هذا المساء أيضاً كانت اناقتها المزمنة تجعلها تظهر شاذة . وأضافت : «لا بد انك مسرور ! انها فضيحة جميلة » .

فقال :

– نعم ، هذا هو الانطباع الذي شعرت به .

– أتعرف ، ان المرأة التي احتجت في سويسرية أمضت طوال فترة الحرب في جنيف . ولقد حدثت ايضاً خناقة جميلة في مؤخرة الصالة . وقـد تظاهرت هوغيت فولانج بالإغماء .

فابتسم هنري : « أأغمي على هوغيت ؟ » .

– بشكل أنيق جداً . ولكن انمـــا هو الذي يجب ان تراه . يا للويس المسكين ! انه يشم رائحة النصر ، انه شاحب .

فقال هنري :

– نصر غريب . سترين ذلك : في الفصل الثـــاني ، جميع الذين صفقوا سيأخذون بالصفير .

فقالت بول في شموخ :

– « هذا أفضل ! » وأضافت : « آل دوبروي مسروررون » .

يقيناً ، كان جميع الاصدقاء يتبادلون التهـاني على هــــذا الصخب المرح : فالفضيحة تبدو دوماً للمثقفين موافقة عندما يثيرهـا غيرهم . كان هنري وحده يصاب بهذه الاحقاد وهذه الاغضاب التي اطلقهـا . لقد أحرق رجال أحياء في كنيسة ، وقد خانت جوزيت الزوج الذي كانت تحبه حباً. كان الانفعال وحقد الجمهور يحيل هذه الجرائم الورقية الى جرائم حقيقيـة : وكان هو المجرم . ومن

جديد ، راح يتفرس ، وهو مستند الى احدى عضادات الديكور ، في الظل ، في وجوه قضاته ، وكان يفكر في ذهول : « هذا مـا فعلته ! انه انا ! » . كان قد مر عام ، وكانت شمس آب لا تزال تسحق بقايا القرية ، لكن كانت صلبان قد نبتت فوق الحفر ، وكانوا يروونها بالخطابات ، وكان الجو مليئاً بالأبواق المثلثة الألوان وكانت أرامـل متدثرات بالسواد يتنزهن والزهور على أذرعهن . ومن جديد انطلق اللغط المعادي في الليل .

وفكر : « انني أسخر من تجار الجثث ، وسوف أُتهم بإهانـة الأموات » . كانت يداه جافتين الآن ، لكنه كان يشعر في حلقه ببخـار كبريت . وتساءل في اشمئزاز : « هل أنا سريع الاصابة بالأذى الى هـذا الحد ؟ » . كان للآخرين دوماً ، عندما تصافح ايديهم في الكواليس ، محيا طلق ومتوانٍ : هـل كانوا يعرفون سراً هذه الأهوال الصبيانية ؟ كيف يقارن نفسه ؟ انهم يتفاهمون ، بخصوص الباقي كله ، في رضى . ولا يترددون في اطلاع العالم على مصنف مفصل عن رذائلهم والقياسات الدقيقة لقضيبهم . لكن هذه المطامح ، هذه الخيبات ، لم يكن أي كاتب معجباً بنفسه بما فيه الكفاية او متواضعاً بما فيه الكفايـة ليكشفها علناً . وفكر هنري في نفسه : « ان صدقنا سيكون فاضحـاً كصدق الاطفال . اننا نكذب مثلهم ويخشى كل منا مثلهم ان يكون غولاً » . وسقط الستار للمرة الثانية. واتخذ هنري محياً طلقاً، متوانياً ، ليمد يده الى الفضوليين. انها تظاهرة كهنوتية حقيقية : لكن لزواج أم لدفن ؟

وصاحت لوسي بيلوم وهي تهرع اليه، عندما دخل الى المطعم الكبير حيث كان يزدحم جمهور معطر :

ــ انه لنصر ! » ووضعت على ذراع هنري يدها المتلفحة بقفاز. وعلى رأسها كان يتأرجح عصفور كبير اسود باكٍ : « اعترف ان جوزيت رائعة عندمـا تتقدم في ذلك الثوب الأحمر » .

ــ غداً مساء ، سأمرغه في الغبار ، ذلك الثوب ، وسأنهال عليـه ببضع ضربات طيبة من المقص .

فقالت لوسي في جفاء :

– ليس لك الحق ، فهو ممهور ؟ وعلى كل ، لقد وجده الجميع جميلاً جداً .

فقال هنري :

– بل هي جوزيت التي وجدوها جميلة ! » وابتسم لجوزيت التي ابتسمت له في سحنة منتحبة وبهرهما لمعان مغنيسيوم . وبدرت عنه حركة ، لكن يد لوسي انغرست في ذراعه :

– كن لطيفاً : جوزيت بحاجة للأعلان .

ولمع ضوء آخر ، ثم آخر . كانت بول تراقب المشهد وكأنها كاهنة رومانية عذراء مهانة . وفكر في غيظ : « يا لها من مسببة إحراج ! » . لم يكن يعرف أربح ام خسر دعواه . وكان لا بد له من قلب طفل، ليعرف مجد توزيع الجوائز الحكيم والموثوق . لكنه شعر فجأة انه يريد ان يكون مرحاً . لقد حدث له شيء ما ، شيء من تلك الأشياء التي كان يحلم بها بشكل مبهم قبل خمسة عشر عاماً ، عندما كان يقرأ على أعمدة « موريس » اللافتات المضيئة . لقد مثلت مسرحيته الاولى ووجدها بعض الناس جيدة . وابتسم من بعيد لآل دوبروي ، وخطا بضع خطوات نحوهما . واوقفه لويس اثناء مروره . كان يمسك في يده بكأس من المارتيني ، وكانت نظرته كدرة قليلاً .

– حسناً ! هذا ما يسمى بنجاح باريسي كبير !

فقال هنري :

– كيف حال هوغيت ؟ قيل لي انها انزعجت : هل هذا صحيح ؟ فقال لويس :

– آه ! هذا لأنك تعرّض أعصاب المتفرجين لامتحان قاس ! لاحظ ، انني لست من الذين يسخطون . فلماذا ترفض مسبقاً استخدام وسائل الميلودراما ،بل لنقل ، مع المشنعين عليك، وسائل «الغينيول الكبير» ؟ لكن هوغيت حساسة، فلم تتحمل الضربة . لقد ذهبت بعد الفصل الاول .

فقال هنري :

— انني آسف ! لم يكن واجباً عليك ان تعتقد انك مرغم على البقاء .

فقال لويس في ابتسامة مفتوحة :

— كنت حريصاً على المجيء لتهنئتك. فبعد كل شيء ، انا اقدم صديق لك. » ونظر حوله : «انا بالتأكيد الوحيد هنا الذي عرف الطالب الصغير في تول الذي كان يشتغل في شظف . اذا استحق احد ان يصل ، فهو انت » .

وخنق هنري عدة أجوبة . كلا ، لم يكن يستطيع ان يرد للويس مكراً بمكر ، فقد كان كريهاً بما فيه الكفاية ان يتخيل ما يجري في هذه اللحظة في هذا الرأس الحسود ، وكان عليه ان يتحفظ من اثارة قلاقل جديدة فيه . وقطع كلامه ، وقال وهو يبتعد في ابتسامة مقتضبة :

— شكراً على مجيئك . واعتذاراتي كافة لهوغيت .

نعم ، ذكريات الشباب والطفولة تلك التي راودته هذا المساء ، كان لويس الوحيد الذي يشاطره اياها : ولمجرد هذا أحس هنري انه مقرف . لم يكن له حظ مع ماضيه . كان يخيل اليه غالباً ان جميع السنوات الماضية لا تزال تحت تصرفه ، سليمة ككتاب أغلقه ، ويمكنه ان يعيد فتحه . كان يعد نفسه بأن حياته لن تنتهي قبل ان يكون قد لخصها . لكن لسبب او لآخر كانت المحاولة تجهض دوماً . وعلى كل حال ، لقد أساء اختيار الوقت ، ليحاول جمع نفسه بأسرها . فقد كان عليه ان يصافح الكثير من الأيدي ، وتحت تدفق التقاريظ الملتبسة ، كان يترنح .

وقال دوبروي :

— حسناً ! لقد ربحت ! نصف الناس حانق ، والنصف الآخر مسرور ، لكنهم يتوقعون جميعاً ثلاثمئة عرض .

فقال هنري :

— جوزيت كانت حسنة ، أليس كذلك ؟

فقالت آن بسرعة قليلاً :

— حسنة للغاية . وهي جميلة جداً . وأضافت في حقد : « لكن الأم ، يا لها

من امرأة شرسة قذرة ! لقد سمعتها تواً تقهقه مع فيرنون ... لا حياء عندها على كل حال » .

— ماذا كانت تقول ؟

فقالت آن :

— سأقص عليك هذا فيما بعد . وألقت نظرة الى ما حولها : « عندها اصدقاء فظيعون ! » .

فقال دوبروي :

— انهم ليسوا اصدقاءها ولا أصدقاء أحد ، انهم باريس كلها : ليس هناك أدعى للشفقة منهم . وابتسم ابتسامة اعتذار : « انني منصرف » .

فقالت آن :

— أنا باقية قليلاً ، لأرى بول .

وشد دوبروي على يد هنري : « هل تمر على البيت غداً او بعد غد ؟

فقال هنري :

— نعم . يجب ان نتخذ قرارات . هذا مستعجل .

فقال دوبروي :

— تلفن .

واستلم الباب بسرعة ، وكان مسروراً من انصرافه ، ولم يكن يخفي ذلك . كان من الجلي ان آن غير باقية الا تأدباً ، اذ كانت تشعر بالاستياء : ماذا قالت لوسي على الضبط ؟ وفكر هنري : « هذا هو السبب الذي من أجله لم يأتِ لاشوم وفانسان الى العشاء . انهم يلومونني جميعاً على التعاون مع هؤلاء الناس » . ونظر خلسة الى بول التي كانت قد تجمدت على شكل تمثال من التأنيب ، وبينما كان يتابع التسليم على المدعوين الانيقين الذين كان يقدمهم له فيرنون ، تساءل : « هل انا المخطىء ؟ أم هي الاشياء التي تغيرت ؟ » . لقد كان ثمة زمن كان الانسان يعرف فيه صديقه من عدوه ، ويحب مخاطراً بحياته ، ويكره حتى الموت . اما الآن ، فهو ينخرط في جميع أنواع الصداقة المتحفظة والعدائية ،

بعد ان انكشف الحقد، ولم يعد أحد على استعداد لأن يضحي بحياته أو يقتل.

وقال لونوار بصوت متصنع :

– انها مسرحية هامة جداً. مسرحية معقدة . » وتردد : « انني آسف فقط لأنك لم تنتظر قليلاً لتقديمها » .

فقال جوليان :

– ينتظر ماذا ؟ الاستفتاء ؟

– بالضبط . انه ليس اوان التنويه بنقاط الضعف التي يمكن ان توجد عند الأحزاب اليسارية ...

– خراء اذن ! لحسن الحظ ان بيرون قد قرر أخيراً ان ينتقل الى الهجـوم قليلاً : فالامتثالية لا تناسبه، حتى ولو كانت مصبوغة بالأحمر.» وقهقة جوليان: « سوف يسيء معاملتك الرفاق حتى انك لن تعود راغباً في الغناء في جوقاتهم».

فقال لونوار في حماسة قلقة :

– لا اعتقد ان بيرون يؤخذ بالاهانات. والله يعرف انني شخصياً قد تحملت الجحود من قبل الحزب الشيوعي . لكن لا اسمح لهم بتثبيط عزيمتي . انهـــم يستطيعون ان يهينوني ، ويفتروا علي ، الا انهم لن ينجحوا في دفعي الى معاداة الشيوعية .

فقال جوليان مقهقهاً :

– بتعبير آخر : انهم يرفسونني في مؤخرتي فأمدّ لهم الردف الثاني .

وأصبح لونوار شديد الحمرة . وقال : « الفوضوية أيضاً امتثالية . ستكتب للفيغارو ذات يوم » .

وابتعد في خيلاء ووضع جوليان يده على كتف هنري : « أتعرف ، انهـــا ليست سيئة ، مسرحيتك . لكنها كانت ستكون مسلية أكثر لو جعلتها ملهاة ساخرة » . وبحركة مبهمة ، تفرس في وجوه الحضور : « ان مسرحية عن هـذا العالم الجميل ، تستعرض احداث السنة ، ستكون مفيدة » .

فقال هنري مغتاظاً :

– اكتبها !

وابتسم لجوزيت التي كانت تعرض كتفيها الذهبيتين وسط دائرة من المعجبين. وكان يتقدم نحوها عندما اصطدم بالنظرة المذعورة لماري – آنج التي حصرها لويس بينه وبين المائدة . وكان يكلمها وعيناه في عينيها وهو يحتسي كأساً من المارتيني . كان الرجال يعترفون عادة للويس بالإغراء الفكري ، لكنه لم يعرف قط كيف يعجب النساء . وكان هناك جزع بخيل في الابتسامة التي كان يقدمها لماري آنج ، فيشعر المرء انه على استعداد لسحبها ما ان ستحدث اثرها . وكان يبدو عليه كأنه يقول : « أريدك ، لكن عجّلي بالاستسلام لأنني لا أملك وقتاً أضيعه » . وعلى بعد عدة خطوات منهما ، كان لامبير يجتر في سحنة قـــاتمة . وتوقف هنري قربه ، وقال وهو يبتسم له :

– يا له من معرض !

كان يبحث في عينيه عن مشاركة لن يلقاها . وقال لامبير :

– نعم ، معرض غريب . ان نصف الناس الحاضرين هنا لا يطلبون إلا أن يذبحوا النصف الآخر . وهذا محتم ما دمت قد راعيت الطرفين .

– أتسمي هذا مراعاة لهم ؟ لقد سببت الاستياء للجميع .

فقال لامبير :

– الجميع ، هذا كثير . انه يلغي نفسه بنفسه . إن هذا النوع من الفضيحة ، لهو إعلان فحسب .

فقال هنري في لهجة مصالحة :

– أعرف ان هذه المسرحية لا تعجبك : لكن ليس هـذا سبباً لأن تكون سيىء المزاج .

فقال لامبير :

– آه ! لكن الأمر خطير !

– ماذا إذن ؟ حتى لو فرضنا أنها فاشلة ، هذه المسرحية، فليس هذا بالعظيم الخطورة .

فقال لامبير في لهجة مكظومة الغضب :

– الخطير هو أنك انحدرت الى هذا النوع من النجاح ! ذاك الموضوع الذي اخترته . الوسائل التي استخدمتها : هذا تملق لأحط غرائز الجمهور . إن لنا الحق في ان ننتظر منك شيئاً آخر .

فقال هنري :

– أنتم تسئمونني ! أنتم جميعاً هنا بانتظار أشياء مني : ان أدخل الى الحزب الشيوعي ، ان أحاربه ، ان أكون أجل جدية ، ان أكون أكثر جدية ، ان أتخلى عن السياسة ، ان أكرس لهـــا جسدي وروحي . وأنتم جميعاً خائبون ، وتهزون برؤوسكم لائمين .

– أتريد ان نمنع انفسنا من الحكم عليك ؟

فقال هنري :

– أريد ان يحكم عليّ حسب ما افعله ، لا على مـــا لا افعله . هذا غريب : عندما يبدأ الإنسان ، يستقبل في حسن نية ، ويعترف لك القراء بالجميل على ما اتيتهم بـــه من أشياء إيجابية . وفيا بعد ، لا يعود عليك إلا ديون ، دون أي اعتماد .

فقال لامبير في لهجة ودية قليلاً :

– لا تقلق ، إن النقد سيكون بالتأكيد ممتازاً .

فهز هنري كتفيه واقترب من لويس الذي كان يلقي خطاباً بصوت عنيف أمام ماري – آنج وآن . كان يبدو ثملاً تماماً . لم يكن يتحمل الكحول ، وكان هذا فدية تقشّفه . وكان يقول وهو يشير الى ماري – آنج :

– أنظري لي الى هذا الشيء ، انها تنام مع جميع الناس ، وتصبغ وجهها ، وتظهر ساقيها ، وتحشو ثدييها ، وتحتك بالرجال لتثيرهم : وفجأة تأخذ بتمثيل دور العذراء القديسة ...

فقالت ماري – آنج بصوت شاكٍ :

– لي على كل حال الحق بأن أنام مع من يعجبني .

فصاح لويس :

– الحق ؟ أي حق ؟ من أعطاها حقوقاً ؟ انهـا لا تفكر بشيء ، ولا تحس بشيء ، ولا تكاد تختلج ، وهي تطالب بحقوق ! هـا هي ذي الديموقراطية ! انها لـ ...

فقالت آن :

– والحق في شتم جميع الناس ، من أين جئت به ؟ انظروا لي الى هـذا الشخص الذي يظن نفسه نيتشه لأنه يشتم امرأة !

فقال لويس :

– المرأة ، انما يجب ان نسجد امامها ! انت تتكلمين عن إلهة ! انهن يحسبن انفسهن إلهات ، لكن هذا لا يمنع انهن يبولن ويغوطن كجميع الناس .

فقال هنري :

– لقد شربت أكثر مما ينبغي ، انت فظ ، وتفعل حسناً اذا ذهبت لتنام .

فقال لويس بصوت يتلعثم :

– بالطبع ! انت تدافع عنهن ! فالنساء يشكلن جزءاً من مذهبك الانساني. انت تنام معهن مثـل أي انسان آخر ، فترميهن على ظهورهم وتصعد فوقهن ، ولكنك تحترمهن . شيء مضحك. هاته السيدات يرغبن كثيراً في فتح سيقانهن، لكنهن يرغبن في ان يُحترمن . هكذا الأمر ، أليس كذلك ؟ احترمني ، فأفتح ساقيّ .

فقال هنري :

– وان تكون قليل التهذيب ، أهذا يشكل جزءاً من مذهبك الصوفي ؟ اذا لم تطبق فمك فوراً ، فانني سأقودك ...

فقال لويس وهو يبتعد في سحنة قاتمة :

– انت تستغل كوني قد شربت .

وقالت ماري – آنج :

– أهو غالباً هكذا ؟

فقالت آن :

ــ دوماً . كل ما هنالك انه من النادر ان يرمي قناعه . وهو ، هذا المساء ، مجنون غيرة .

وسأل هنري :

ــ أتريدين كأساً لتستعيدي هدوءك ؟

ــ نعم . لم اكن اجرؤ على الشرب .

وناول هنري ماري ــ آنج كأساً ، ولمح جوزيت واقفة امام بول التي كانت تحدثها بسرعة : كانت عيناها تطلبان النجدة . وذهب لينتصب بين المرأتين .

ــ تبدوان في مظهر جدي . عمّ اذن تتحدثان ؟

فقالت بول في شيء من التشنج :

ــ انه حديث امرأة لامرأة .

وأنّت جوزيت :

ــ انها تقول لي انها لا تكرهني : لم افكر قط انك تكرهينني .

فقال هنري :

ــ هيا يا بول ! لا تكوني مؤثرة .

فقالت بول في ترفع :

ــ لست مؤثرة . كنت حريصة على شرح افكاري في وضوح . اني اكره الالتباس .

ــ ليس هناك أي التباس .

فقالت :

ــ هذا افضل .

وسارت نحو الباب في خطى متوانية . وقالت جوزيت :

ــ انها تخيفني . كنت انظر اليك لكي تأتي لتخليصي. لكنك كنت مشغولاً في مغازلة تلك السوداء الصغيرة ...

ــ كنت اغازل ماري ــ آنج؟ انا ؟ لكن يا عزيزتي: انظري اليها وانظري

الى نفسك .

– للرجال اذواق غريبة جداً» كان صوت جوزيت يرتجف : « تلك العجوز الكبيرة التي تشرح لي انك لها ابداً ، وانت تهزل مع فتاة معوجة الساقين ! » .

– جوزيت ، يا معبودي الصغير ! تعرفين جيداً انني لا احب سواك .

فقالت :

– ماذا اعرف ؟ هل نعرف ابداً ؟ » وقالت وهي تنظر حولها : « بعدي ستوجد غيري ، وربما كانت هنا » .

فقال في مرح :

– يخيل إليّ انني انا الذي يستطيع ان يشكو . لقد غازلوك كثيراً هذا المساء .

فارتجفت : « أتعتقد انني احب ذلك ؟ »

– لا تكوني حزينة ، لقد مثلت تمثيلاً جميلاً ، اقسم لك على ذلك .

– بالنسبة لفتاة جميلة ، لم اكن رديئة كثيراً .»وقالت في كآبة: « احياناً ، أود لو اكون قبيحة » .

فابتسم : « لا تسمعنك السماء » .

– اواه ! لا تخف ، انها لا تسمع شيئاً .

فقال مشيراً الى الحضور :

– اؤكد لك انك أدهشتهم .

– بخصوص هذا ، كلا ! انهم لا يندهشون لشيء ، فهم رديئون للغاية .

فقال :

– تعالي ، لنعد ، يجب ان تستريحي .

– أتريد العودة الآن ؟

– انت لا ؟

– اواه ! انا ، نعم . انني متعبة . انتظرني خمس دقائق .

وتبعها هنري بعينيه بينما كانت تقوم بالوداع بالدور ، وفكر : «هذا صحيح.

انهم لا يندهشون لشيء . ولا يمكن ان يثار انفعالهم ولا ان يثار سخطهم . وما يجري في رؤوسهم ليس له وزن اكثر من كلماتهم» . كانوا يستطيعون ، ما داموا ضائعين في أبعاد المستقبل ، او في ظلمة القاعة ، ان يحدثوا وهماً : لكن ما إن يراهم المرء وجهاً لوجه حتى يدرك أن ليس ثمة شيء يؤمل او يخاف منهم . نعم ، هذا ما يخيب اكثر من اي شيء آخر : لا ان يكون الحكم غير مؤكد ، لكن ان يلفظه هؤلاء الناس .. نهائياً، لم يكن لشيء مما حدث الليلة أية اهمية . ولم يكن لأحلام شبابه اي معنى . وحاول هنري ان يقول لنفسه : « انه ليس الجمهور الحقيقي » . ليكن ، فمن حين لآخر ، سيوجد في القاعة بعض رجال ، بعض نساء ، يستحقون ان يتحملوا مشقة الكلام . لكنهم سيظلون معزولين . انه لن يواجه ابداً الجمهور الأخوي ، الذي يحتوي في قلبه على حقيقتك : فهو لا وجود له ، وعلى كل حال ، ليس في هذا المجتمع .

وقال وهو يجلس الى جانب جوزيت في سيارته الصغيرة :

— لا تكوني حزينة .

ودون ان تجيب ، أسندت رأسها الى ظهر مقعدها وأغمضت عينيها في سيماء من تعب . هل من الصحيح ان الجمهور قد استقبلها في تحفظ ؟ على كل حال كانت تعتقد ذلك . ولقد كان يود كثيراً لو انها شعرت انها منتصرة، على الأقل ، مساء واحداً ! كانا يجريان في صمت في الشارع الصغير وتجاوزا امرأة كانت تسير بخطى عريضة . وتعرف هنري على آن وأبطأ :

— أتصعدين ؟ سأضعك انى تشائين .

فقالت :

— شكراً . أرغب في المشي .

ووجهت اليه إشارة ودية صغيرة وداس على جهاز السرعة : لقد رأى دموعاً في عينيها . وفكر : « لماذا ؟ من أجل لا شيء بدون شك ، ومن أجل كل شيء » . كان متعباً هو الآخر من هذه السهرة ، ومن الآخرين ، ومن نفسه . وقال في نفسه في ضيق مفاجىء : « ليس هذا ما أردته ! » ، دون ان يعرف

هل كان يفكر بدموع آن ، أم بوجه لامبير المتجهم ، أم بخيبة جوزيت ، أم بالأصدقاء ، بالأعداء ، بالغائبين ، بهذا المساء ، بهاتين السنتين ، أم بحياته كلها .

قال هنري في نفسه : « يا للصيد ! » . عندما ترمي بكتاب ليكلأه النقاد ، فانهم يعضون الواحد تلو الآخر ، واذا رميت بمسرحية ، فأنت تتلقى دفعة واحدة على وجهك ذلك الوحل الذي تمتزج فيه الزهور بالبصاق . وكان فيرنون مسروراً : حتى مقالات الشتم ستخدم نجاح المسرحية، لكن هنري كان ينظر الى قصاصات الصحف المنشورة على مكتبه في قرف يشبه الخجل . كان يتذكر كلمة قديمة لجوزيت ويفكر : « الشهرة أيضاً إذلال » . فرض الذات هو دوماً استسلام ، انحطاط . فقد كان لأي كان الحق في ان يركله بقدمه أو ينعم عليه بابتسامة . كان قد تعلم ان يدافع عن نفسه ، وكانت له حيله . كان يذكر في دقة وجوه المشنعين عليه : طامعين ، حاسدين ، فاشلين ، حمقى . ولم يكن الذين يهنئونه يزيدون أو ينقصون عن الآخرين قيمة ، كل ما هنالك ان عودتهم كان يمكن ان تعتبر تمييزاً، وبهذه الخدعة كانوا يأخذون قيمة كافية لتصبح تقاريظهم بدورها ذات قيمة . وقال هنري في نفسه : « ما أصعب خلوص النية ! » . والحقيقة انه لا الشتائم ولا المدائح تثبت شيئاً . والجرم فيها هو انها تسجن هنري في ذاته ، بشكل لا مهرب منه . لو كانت مسرحيته فشلاً نهائياً ، لاستطاع ان ينظر اليها كمجرد حادث عرضي ويتعزى عنا بالوعود . لكنه كان يتعرف نفسه فيها وكان يكشف فيها حدوده . أفضل ما كتبه » : كانت هذه الكلمات التي فاه بها دوبروي لا تزال تعذبه . لم يكن يُسر عندما يسمع ان كتابه الأول سيظل افضل كتبه جميعاً . لكن التفكير بأن هذه المسرحية ذات الصفات غير المؤكدة تعلو على جميع آثاره ، لم يكن مريحاً هو الآخر . لقد شرح ذات يوم لنادين انه يتجنب ان يقارن نفسه . لكن ثمة لحظات يرغم فيها على ذلك . ويرغمك الآخرون . وعندئذ يبدأ الانسان يطرح الأسئلة الباطلة على نفسه : « من أنا على الضبط ؟ ما قيمتي ؟ » . هذا مقلق ، هذا لا مجدٍ : وان كان من الجبن ، من الجائز ، ألا يطرحها على نفسه أبداً . وفي ارتياح، سمع هنري

طقطقة أرض الممر . وقال سامازيل :

– يمكننا الدخول ؟

وكان لوك ولامبير وسكرياسين يتبعونه .

– انتظركم .

كانوا جميعاً يبدون ، باستثناء لوك الذي كان يجر في سحنة نائمــة قدميه الكبيرتين المصابتين بالنقرس ، وكأنهم جاءوا يطلبون حسابات وجلسوا حول المكتب . وتابع هنري :

– اعترف انني لا افهم جيداً معنى هذا الاجتماع . كنت ذاهباً الى عنــد دوبروي تواً . .

فقال سامازيل :

– بالضبط . يجب ان يُتخذ قرار قبل ان تجتمع به . عندما حدثته ، بدا كثير التحفظ . انا مقتنع انه سيطلب تأجيلاً جديداً . في حين ان بيلتوف وسكرياسين يطلبان عمــلاً سريعاً ، وانا موافق تمامــاً . اريد ان يكون من المقرر ، في حال المعارضة من طرف دوبروي ، ان الجريدة ستنفصل عن « الاشتراكي الثوري الحر » وتتولى بدونه نشر الوثائق .

فقال هنري في جفاء :

– سواء قال دوبروي نعم او لا ، فسوف نرفع المسألة امام مجموع اللجنةالتي سنعمل بموجب رأيها .

– اللجنة ستتبع دوبروي .

– سأتبعه اذن ايضاً . على كل ، لا أدري لماذا نضيع الوقت في المناقشة قبل ان نعرف جوابه .

فقال سامازيل :

– لأن جوابه مكشوف مسبقاً . سيتخذ من الاستفتاء والانتخابات ذريعــة ليتهرب .

فقال هنري :

– سأحاول ان أمنعه . لكني لن اتخلى عن تضامني مع « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال سامازيل :

– ألا يزال « الإشتراكي الثوري الحر » وجود ؟ ها قد مضت ثلاثة أشهر وهو نائم .

فقال سكرياسين :

– منذ ثلاثة اشهر لم يفعل « الاشتراكي الثوري الحر » شيئاً ليعرقل الهجوم الشيوعي. ومنذ ثلاثة اشهر لم يهاجم دوبروي من قبل الصحافة الشيوعية. ولهذا سبب طيب يلقي على الموقف نوراً جديداً تماماً . وسكت سكوتاً مسرحياً : « دوبروي مسجل في الحزب الشيوعي منذ نهاية حزيران » .

فقال هنري :

– هيا اذن !

فقال سكرياسين :

– لديّ براهين ؟

– أي براهين ؟

– لقد شوهدت بطاقته وإضباراته . » وابتسم سكرياسين ابتسامة راضية : « منذ ١٩٤٤ ، وجد في الحزب مجموعة من الاشخاص ليسوا ، في الحقيقة ، ستالينين اكثر مني او منك ، وقد بحثوا عن وسيلة ليفكوا الحصار عنهم . وانا أعرف أكثر من شخص من هذا النوع ، وفي باطنهم لا يطلبون الا ان يتكلموا . ودوبروي مشبوه عندي منذ زمن بعيد . وقد طرحت أسئلة واجابوني » .

فقال هنري :

– وشاتك اخطأوا او كذبوا . لو أراد دوبروي ان يتسجل في الحزب الشيوعي ، لبدأ بمغادرة « الاشتراكي الثوري الحر » ، شارحاً السبب .

فقال سامازيل :

– لقد حرص دوماً على ألا يصبح « الاشتراكي الثوري الحر » حزباً . والشيوعي يستطيع مبدئياً ان ينضم الى حركة . وبالعكس : ان عضو الحركة

يستطيع ان يظن ان له الحق في الانتساب الى الحزب الشيوعي .

فقال هنري :

ــ لكنه ، في النهاية ، كان سيخطرنا . فالحزب الشيوعي ليس سرياً .

فقال سكرياسين :

ــ انت لا تعرفهم ! ان للحزب الشيوعي مصلحة في ان يعتبر الناس بعض أعضائه مستقلين . والدليل انني لو لم أفتح عينيك ، لوقعت في الفخ .

فقال هنري :

ــ لا اصدقك .

فقال سكرياسين :

ــ أستطيع ان أجمعك بأحد الذين يمدونني بالمعلومات .

ومد يده نحو التلفون . فقال هنري :

ــ سأطرح السؤال على دوبروي وعليه وحده .

فقال سكرياسين :

ــ وهل تتخيل انه سيجيب بشرف ؟ إما انك ساذج ، وإما ان لك اسباباً خاصة بك للتهرب من الحقيقة .

فقال سامازيل :

ــ اعتقد ان هذه الحقيقة الجديدة تقلب علاقاتنا مع « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال هنري :

ــ انها ليست حقيقة .

فقال لوك :

ــ ولماذا يقوم دوبروي بهذه المناورة ؟

فقال سكرياسين :

ــ لأن الحزب الشيوعي يطلب اليه ذلك ولأنه طموح .

فقال سامازيل :

– لعله يعتقد بسبب الشيخوخة ان سعادة البشرية بين يدي ستالين .

فقال سكرياسين :

– انه ثعلب عجوز يقدر ان الشيوعيين قد ربحوا وانه من الأفضل ان يقف الى جانبهم ، وبمعنى ما ، انه على حق ، فلا بد ان تكون محباً للاستشهاد حتى تحتفظ بموقف منتقد دون ان تفعل شيئاً لمنعهم من الوصول الى الحكم : وعندما سيصلون اليه ، سترى ان عدم المنطق هذا سيكلفك .

فقال هنري :

– ان هذه الاعتبارات الشخصية لا تؤثر علي .

فقال لامبير :

– ومعسكرات العمل ، هل تؤثر عليك أم لا ؟

– هل رفضت ان اتكلم عنها ؟ لقد قلت انني سأفعل ذلك بالاتفاق مع دوبروي ، هذا كل شيء . وهذه كلمتي الأخيرة . ان هذه المناقشة باطلة تماماً .

وقال هنري وهو يلتفت نحو سكرياسين : « من الآن الى يومين او ثلاثة ستكون اللجنة قد استشيرت وسنبلغك جوابها » .

فقال سامازيل وهو ينهض :

– ربما ستقدم ادارة « الأمل » جواباً آخر .

– هذا ما سنراه .

وساروا نحو الباب لكن لامبير لبث واقفاً امام مكتب هنري ، وقال :

– كان عليك ان تقابل مخبر سكرياسين . ان دوبروي صديقك . لكنه ايضاً المسؤول الرئيسي عن حزبك . وبحجة انك تثق به ، تخون الثقة التي وضعها آخرون فيك .

فقال هنري :

– لكن هذه حكاية تجعل الانسان ينام وهو واقف ، هذه القصة !

في الحقيقة ، لم يكن واثقا الى هذا الحد . اذا كان دوبروي قد قرر نهائياً ان يتسجل في الحزب الشيوعي ، فإنه ما كان ليستشير هنري . كان يمضي في

طريقه دون ان يستشير احداً ، دون ان يهتم لأحد ، ولم يكن هنري ليتعلل بالأوهام حول هذه النقطة . لو سد عليه كل منفذ ، لربما تردد في الكذب . لكن لم يطرح عليه بعد أي سؤال ، وكان ضميره يكتفي دون ادنى شك بتقييد عقلي .

وقال لامبير في حزن :

– ستترك نفسك تخدع بسفسطاته . أما بالنسبة لي ، فانني أقدر أن عدم كشف الحقيقة كاملة ، وفوراً ، في هذه الحالة ، لهو جريمة . لقد حذرتك في حزيران : اذا لم تنشر هذه النصوص ، فانني سأبيع حصصي ، وستتصرف بها كما تشاء . فعندما دخلت الى الجريدة ، انما كان ذلك بأمل ان تتخلى قريباً عن أي تعاون مع الحزب الشيوعي . فاذا ما تابعت ، فليس علي إلا ان اذهب منها .

– انني لم أتعاون مع الحزب الشيوعي .

– انني ادعو هذا تعاوناً. لو كان الامر يتعلق باسبانيا، باليونان ، بفلسطين، بالهند الصينية ، لرفضت من اليوم الأول ان تلزم الصمت . أخيراً ، أتدرك ذلك ! انهم ينتزعون رجلاً من اسرته ، من حياته دون ظل من حكم ، ويرمونه في سجن ، ويرغمونه على العمل حتى اقصى حدود قوته، وهم لا يكادون يقدمون اليه ما يسد الرمق ، واذا ما سقط مريضاً ، فانهم يتركونه يموت جوعاً . أتقبل بهذا ؟ جميع الاشخاص ، العمال ، المسؤولين ، الجميع يعرفون ان هذا يمكن ان يحدث لهم بين دقيقة واخرى ، وهم يعيشون وهذا الرعب فوق رؤوسهم . وكرر لامبير : « أتقبل بهذا ؟ » .

فقال هنري :

– لكن لا !

– اذن اسرع بالاحتجاج . تحت الاحتلال ، لم تكن ليناً مع الناس الذين ما كانوا يحتجون !

فقال هنري في نفاد صبر :

– سأحتج ، هذا مفهوم .

فقال لامبير :

– قلت انك ستتبع دوبروي . ودوبروي سيعارض هذه الحملة .

فقال هنري :

– انت مخطىء . انه لن يعارضها .

– لنفترض انني لا أخطىء ؟

فقال هنري :

– آه ! يجب أولاً ان اكلمه ، ثم سنرى فيما بعد .

فقال لامبير وهو يسير نحو الباب :

– نعم ، سنرى !

واصغى هنري الى وقع خطاه وهو يتلاشى في الممشى : كان يخيل اليه انه شبابه الخاص الذي جاء يناديه . لو كان رآهم بعينيه وهو في العشرين ، اولئك الملايين من العبيد المسجونين خلف الاسلاك الشائكة ، لما فكر لحظة واحدة في ان يصمت . ولقد نفذ لامبير الى أعماقه ورأى : كان يتردد . لماذا ؟ كان ينفر من ان يبدو عدواً في أعين الشيوعيين . وبشكل اعمق من ذلك ، كان يود لو يخفي على نفسه ان في الاتحاد السوفياتي شيئاً منتناً : لكن هذا كله كان جبناً . ونهض ونزل في الدرج . وفكر : « ان للشيوعي الحق في ان يختار الصمت . فمواقفه المسبقة صريحة ، وحتى عندما يكذب ، فانه بمعنى ما لا يخدع أحداً . لكن انا الذي يجاهر بالاستقلال ، اذا ما ستغللت اعتمادي لخنق الحقيقة ، فانني محتال . انني لست شيوعياً ، بالضبط لأنني اريد ان اكون حراً في قول ما لا يريد وما لا يستطيع الشيوعيون ان يقولوه : انه دور جاحد غالباً ، لكنهم في الحقيقة يعترفون بفائدته بأنفسهم. يقيناً ان لاشوم مثلاً سيحمد لي انني تكلمت : هو ، وجميع الذين يتمنون الغاء المعسكرات دون ان يكون مسموحاً لهم بالاحتجاج علناً ضدها . ومن يدري ؟ لعلهم سيحاولون بصفة غير رسمية شيئاً ما . ولعل ضغطاً قادماً من الأحزاب الشيوعية نفسها سيقود الاتحاد السوفياتي

الى تعديـــل نظام العقوبات : فليس الأمر سواء ان يضطهد البشر سراً او امام العالم . وصمتي لن يكون الا من قبيل اختيار الهزيمة . ومعنــاه انني ارفض ان انظر الى الأشياء من وجهها ، وان انكر ان بالامكان تغييرها، في آن واحد. معناه ادانة الاتحاد السوفياتي نهائياً بحجة عدم الحكم عليه . واذا لم يكن هنـاك حقاً اي حظ في ان يصلح ما كان يجب ان يكون عليه ، فما عـــاد على الأرض وجود لأي أمل ، وما عاد لما نفعله ، ولما نقوله ، أي اهمية . وكان هنري يردد في نفسه وهويرتقي درج دوبروي : « نعم : أما أن للكلام معنى ، واما ان ما من شيء له معنى . يجب ان أتكلم . اللهم ان لم يكن دوبروي عضواً فعلياً في الحزب ، فانه مرغم على ان يكون من هــذا الرأي » . وضغط هنري على زر الجرس : « اذا كان دوبروي متسجلاً ، فهل سيقول لي ذلك ؟ » .

وقال دوبروي :

– اذن الحال على ما يرام ؟ كيف تسير المسرحية ؟ ان النقد ، في مجموعـه ، طيب جداً ، كلا ؟

وشعر هنري ان هذا الصوت الودي زائف الوقع : ربما لأن شيئاً مـــا في داخله كان زائف الوقع . وقال :

– انه طيب » وهز كتفيه : « سأقول لك انهــا صدعت رأسي ، هــذه المسرحية . كل ما اطلبه هو ان استطيع التفكير بشيء آخر » .

فقال دوبروي :

– انني اعرف هذا ! يوجد شيء مـــا مقبض للقلب في النجاح . وابتسم : « اننا لا نكون مسرورين ابداً : والفشل ليس لطيفاً أيضاً » .

وجلسنا في المكتب وتابع دوبروي :

– حسناً لدينا شيء آخر نتحدث عنه .

فقال هنري :

– نعم . وانا اكاد افقد الصبر لمعرفة ما تفكر به . لكني مقتنع حاليــاً ان بيلتوف ، بخصوص ما هو اساسي ، قد قال الحقيقة .

فقال دوبروي :

– بخصوص ما هو أساسي ، نعم . ان تلك المعسكرات موجودة . انها ليست معسكرات موت كمعسكرات النازيين ، لكنها على كل حال معتقلات . وللبوليس الحق في ان يرسل الرجال الى المعتقلات لمدة خمسة أعوام ، دون حكم. لكني ، بعد هذا ، اود لو أعرف عدد المعتقلين ، وعدد السياسيين منهم، وعدد المحكومين مؤبداً منهم : ان ارقام بيلتوف تعسفية تماماً .

فوافق هنري برأسه وقال : « برأيي ، يجب علينا الا ننشر تقريره . سوف نثبت معاً الوقائع التي تبدو لنا اكيدة ونكتب استنتاجاتنا الخاصة وسوف نتكلم باسمنا ، مع التحديد التام لوجهة نظرنا » .

فنظر دوبروي الى هنري : « رأيي انا ، أن لا ننشر شيئاً مطلقاً. وسأشرح لك لماذا ...» .

وأحس هنري بصدمة صغيرة في قلبه . وقال في نفسه : « هكذا فإن الآخرين هم الذير تبينوا الحق » وقاطع دوبروي : « أتريد ان تخنق القضية؟».

– انت تعرف جيداً انها لن تخنق، فالصحافة اليمينية ستعرف كيف تستغلها، فلنترك لها هذه المسرة: «ليس علينا نحن ان نفتح دعوى ضد الاتحاد السوفياتي». وبدوره ، اوقف هنري بحركة : « مهما اخذنا من احتياطات خيالية ، فإن ما سيراه الناس حتماً في مقالاتنا هو اتهام للنظام السوفياتي . ولا أريد هذا بأي ثمن » . ولزم هنري الصمت . كان دوبروي قد تكلم في لهجة قاطعة . لقد تم حصاره ، ولن يتزحزح عنه ، ولا فائدة من النقاش . لقد اتخذ قراراته بمفرده ، وسوف يفرضها على اللجنة : لن يكون على هنري إلا ان يخضع لها في وداعة . وقال :

– يجب ان اطرح عليك سؤالاً .

– هيا .

– ثمة أناس يزعمون انك تسجلت مؤخراً في الحزب الشيوعي .

فقال دوبروي :

– يقولون هذا ؟ من ؟

– انها شائعة تنتشر .

فهز دوبروي كتفيه : « وهل اخذتها بعين الجد ؟ » .

فقال هنري :

– ها قد مضى شهران على آخر حديث لنا . ولا افترض انك كنت سترسل لي بطاقة إبلاغ .

فقال دوبروي في حدة :

– يقيناً انني كنت سأرسل بطاقات إبلاغ . هذا غير معقول: كيف يمكنني ان أتسجل دون ان اخطر « الاشتراكي الثوري الحر » ودون ان أشرح علناً اسبابي ؟

فقال هنري :

– كان يمكنك ان ترجىء هذا الشرح بضعة أسابيع .»واضاف بسرعة : « يجب ان أقول ان هذا كان سيدهشني ، لكني اردت على كل حال ان اطرح عليك السؤال » .

فقال دوبروي :

– تلك الشائعات كلها ! ان الناس يقولون اي شيء كان .

كان يبدو صادقاً : لكن هذا ما كان سيبدو عليه او انه كذب . وفي الحقيقة ، لم يكن هنري يفهم لمَ يكون قد فعل ذلك . ومع ذلك فقد كان سكرياسين يبدو واثقاً مطلق الثقة مما كان يقوله . وقال هنري في نفسه : « كان يجب ان ارى ذلك المخبر » . ان الثقة لا تقلد : فنحن نملكها او لا نملكها . ولقد كان رفضه بادرة كاذبة النبل لأنه لم يعد واثقاً بدوبروي. وتابع بصوت حيادي:

– في الجريدة ، الجميع متفقون على كشف الحقيقة . ولقد قرر لامبير ان يترك « الأمل » إذا لم نتكلم .

فقال دوبروي :

– لن تكون خسارة كبيرة .

— سيجعل هـذا الموقف دقيقاً للغاية ، باعتبار أن سامازيل وتراريو على استعداد للانفصال عن « الاشتراكي الثوري الحر » .

ففكر دوبروي ثانية ، وقـال : « حسناً ! إذا ذهب لامبير ، فإنني اشتري حصصه » .

— انت ؟

— الصحافة لا تستهويني . لكن هذه أفضل طريقة للدفاع عـن أنفسنا . ستقنع لامبير بالتأكيد ببيعي حصصه . اما المال فسوف أتدبره .

وظل هنري محتاراً . لم تكن هذه الفكرة تعجبه ، مطلقاً . وفجـأة هبط عليه الوحي . « انها ضربة مدبرة ! » . لقد أمضى دوبروي الصيف مع لامبير ، وهو يعرف ان هذا الاخير يستعد للاستقالة . كان كل شيء يصبح منسجماً تماماً. لقد عهد الشيوعيون الى دوبروي بعرقلة حملة محرجة لهم ، وبإلحاق « الأمـل » بهم بالتغلغل في إدارة الجريدة . ولم يكن يستطيع ان ينجح إلا إذا اخفى بعناية انتسابه الى الحزب .

وقال هنري في جفاء :

— ليس هناك إلا شيء واحد لا يسير . وهو انني انا ايضاً اريد الكلام .

فقال دوبروي :

— أنت مخطىء ! ادرك هـذا . إذا لم يكن الاستفتاء والانتخابات نصراً لليسار ، فإننا نجازف بدكتاتورية ديغولية : ليس هـذا اوان خدمة الدعاية المعادية للشيوعيين .

فتفرس هنري في وجه دوبروي . لم تكن المسألة معرفة هل هو صادق النية ام لا . وسأل :

— وبعد الانتخابات ، هل ستوافق على الكلام ؟

فقال دوبروي :

— في ذلك الحين ، ستكون القضية قد كشفت ، على كل الاحوال .

فقال هنري :

— نعم ، سيكون بيلتوف قد حمل معلوماته الى « الفيغارو » ، وهـذا يعني ان مصير الانتخابات ليس هو موضع الرهـان ، بل موقفنا الخاص فقط . ومن وجهة النظر هذه ، لا أرى ما الفائدة من تركنا اليمين يبـــاده . سنرغم على كل حال على تحديد موقفنا : فماذا سنفعل ؟ سنحاول ان نخفف من حدة الهجومات المعادية للشيوعية دون ان نعطي الحق في صراحة الاتحاد السوفيـاتي ، وسنبدو كأحجار لعب زائفة . .

فقاطع دوبروي هنري : « أعرف جيداً ما سنقوله . ان قناعتي هي ان هذه المعسكرات لا يتطلبها النظام كما يزعم بيلتوف . إنها مرتبطة بسياسة معينـــة يمكن ان ننتقدها دون ان نتهم النظـــام نفسه . سنفرق بين الشيئين . سندين العمل الإصلاحي ، لكننا سندافع عن الاتحاد السوفياتي » .

فقال هنري :

— لنفترض هذا . ولكن من الواضح انه سيكون لكلماتنـا وزن أثقل إذا كنا اول من يفضح المعسكرات . وعندئذ لن يستطيع احد ان يفكر اننا نلقي درساً محفوظاً . سوف يصدقنا الناس وسنقطع العشب تحت اقـدام الشيوعيين : انهم هم الذين سيظهرون بمظهر الانصار عندما سيحملون علينا .

فقال دوبروي :

— اوه ! هذا لن يغير من الأمر شيئاً ، وسوف يصدقهم الناس على كل حال. وسيأخذون من تدخلنا حجة : حتى المناصرون قد ثار استنكارهم الى حـد انهم تحولوا ضد الاتحاد السوفياتي ، هذا ما سيقولونه ؟ وهذا سيزرع الشك في نفوس الناس الذين ما كانوا ليمشوا معهم بدون هذا .

فهز هنري رأسه : « يجب على اليسار بنفسه ان يأخذ بيده هـذه القضية . لقد تعود الشيوعيون على افتراءات اليمين ، وهي لا تحرك منهم ساكنـاً . لكن إذا ثار اليسار كله ، عبر اوروبا كلها ، ضد المعسكرات ، فإن هذا يمكن ان يبلبلهم . ان الموقف يتبدل عندما يصبح سر ما فضيحة : وقد ينتهي الأمر بالاتحاد السوفياتي إلى إعادة النظر في نظام عقوباته ... » .

فقال دوبروي بصوت محتقر :

– هذا ، ليس إلا حلماً !

فقال هنري في غضب :

– اسمع ، لقد قبلت دوماً بأننا نستطيع ان نمارس بعض الضغط على الشيوعيين : هذا هو معنى حركتنا بالذات . هي ذي الفرصة لمحاولة العملية او لن تتاح لنا أبداً . حتى ولو لم يكن لنا الا حظ قليل في الوصول ، فيجب أن نجازف به .

فهز دوبروي كتفيه : « إذا شننا هذه الحملة ، فاننا سنجرد انفسنا من كل امكانية للعمل مع الشيوعيين : سوف يصفوننا كمعادين للشيوعية ، ولن يكونوا مخطئين » . وتابع دوبروي : « انظر ان الدور الذي نحاول ان نلعبه ، هو دور أقلية معارضة ، خارجية عن الحزب ، لكنها متحالفة معه . وإذا ما توجهنا الى الأغلبية لمحاربة الشيوعيين حول أي نقطة كانت ، فإننا لن نعود معارضة : سندخل في حرب ضدهم ، وسنغير *معسكرنا* . وسيكون لهم الحق في معاملتنا كخونة » .

وتفرس هنري في وجه دوبروي . انه ما كان ليتكلم بطريقة أخرى لو كان شيوعياً مكتوماً . كانت مقاومته تثبت هنري في فكرته : إذا كان الشيوعيون يتمنون ان يظل اليسار محايداً ، فهذا يثبت ان له سيطرة عليهم ، إذن فإن لتدخله حظاً في ان يكون ناجعاً . وقال : « باختصار ، انت ترفض ، احتفاظاً بفرصة للثأر على الشيوعيين ذات يوم ، الفرصة التي تتقدم اليوم . ان المعارضة غير مسموح لنا بها إلا بمقدار ما تكون غير فعالة » . وأضاف بصوت حاسم : « حسناً ! انني لا اقبل بهذا . ان فكرة أن الشيوعيين سيبصقون علينا ليست ألطف علي مما هي عليك ، لكني فكرت كثيراً : ان لا خيار لنا » . وأوقف دوبروي بحركة : انه لن يترك له الكلام قبل ان يفرغ جعبته : « الا تكون شيوعياً أو ، فهذا يعني شيئاً ما أو لا يعني شيئاً . فإذا لم يكن هذا يعني شيئاً ، فلنصبح شيوعيين أو هيا لنزرع ملفوفنا . وإذا كان لهذا معنى ، فهذا يتضمن

بعض واجبات : ومن بينها ان نعرف عند الحاجة ان نتخاصم مع الشيوعيين . أما مراعاتهم بأي ثمن ، دون الانضمام اليهم صراحة ، فهذا يعني اختيار اسهل راحة اخلاقية ، انه جبن » .

كان دوبروي يربت على نشافته في نفاد صبر ، وقال :

– ان هذه اعتبارات شخصية لا تؤثر علي . انني اهتم بنتائج اعمالي ، لا بالوجه الذي تعطيني إياه .

– ليست المسألة مسألة وجه ...

فقال دوبروي في حدة :

– بلى ، ان صميم المشكلة هو انه يزعجك ان يبدو عليك انك تترك نفسك تؤخذ بتهديدات الشيوعيين ...

فتصلب هنري : « يزعجني بالفعل ان نترك انفسنا نؤخذ بتهديداتهم : فهذا مناقض لكل ما حاولناه منذ سنتين » .

كان دوبروي يتابع التربيت على نشافته في سيماء من حزم واضاف هنري بصوت جاف : « انت تضع المناقشة على صعيد غريب. انني استطيع ان اسألك لماذا تخاف الى هذا الحد من اغضاب الشيوعيين » .

فقال دوبروي :

– انني لا أبالي أأعجبتهم أم أغضبتهم . انني لا اريد ان اشن حملة معادية للسوفييت . وعلى الأخص ليس في هذا الوقت : انني لأجد هذا إجرامياً .

فقال هنري :

– وأنا أجد ان من الأجرام ألا افعل ضد المعسكرات كل ما باستطاعتي . ونظر الى دوبروي : « كنت أفهم موقفك بشكل افضل بكثير لو كنت مسجلاً في الحزب . انني لأقبل بأن ينكر الشيوعي المعسكرات ، بل ان يدافع عنها » .

فقال دوبروي بصوت مغضب :

– قلت لك انني لست مسجلاً . أهذا لا يكفيك ؟ .

ونهض وخطا عدة خطوات عبر الغرفة . وفكر هنري : « كلا ، نهائياً هذا لا يكفيني . لا شيء يمنع دوبروي من الكذب عليّ في كلبيـة : فقد سبق له ان فعل ذلك . والاعتبارات الأخلاقية لا تؤثر عليه » . وقـال في نفسه في حقد : « لكني هذه المرة لن أتركه ينالني » .

كان دوبروي لا يزال يذرع الغرفة طولاً وعرضاً . هل شعر بارتياب هنري؟ ام كانت معارضته فقط هي التي تغضبه ؟ كان يبدو عليـه انه لا يكاد يضبط نفسه ، وقال : « حسناً ! ليس امامنا الا ان نجمع اللجنة . وقرارهـا سيبطل تعادل صوتينا » .

فقال هنري :

– سوف يتبعونك، انت تعرف ذلك جيداً !

فقال دوبروي :

– إذا كانت اسبابك جيدة ، فسوف تقنعهم .

فقال هنري :

– هيا إذن ! شارلييه وفيريكو يصوتان دومـاً معك ، ولونوار يركع على قدميه امام الشيوعيين . ان رأيهم لا يهمني .

فسأل دوبروي :

– إذن ماذا ؟ ستعمل ضد قرار اللجنة ؟

– إذا اقتضى ذلك ، نعم .

فقال دوبروي بصوت ابيض :

– أهو تهديد ؟ اما ان تترك حر اليدين او تنفصل «الأمل» عن « الاشتراكي الثوري الحر » ، أليس الأمر كذلك ؟

– انه ليس تهديداً . انني مزمع على الكلام ، وسوف أتكلم، هذا كل شيء.

فقال دوبروي :

– أتدرك ما تعنيه هذه القطيعة ؟ كان وجهه في بياض صوته : « انها نهاية « الاشتراكي الثوري الحر » وستنقل « الأمل » الى صف المعسكر المعـادي

للشيوعية » .

فقال هنري :

ــ ان « الاشتراكي الثوري الحر » ، في الساعة الراهنة ، صفر ، و « الأمل» لن تصبح أبداً معادية للشيوعية ، اعتمد عليّ .

وتبادلا النظرات الثاقبة للحظة في صمت . وأخيراً قال دوبروي :

ــ سأجمع اللجنة فوراً . واذا وافقت معي ، فسوف ننكرك علناً .

فقال هنري :

ــ ستوافق . ومضى نحو الباب : « انكروني : سوف أرد عليكم » .

فقال دوبروي :

ــ فكر ايضاً . ان ما ستفعله ، يدعى خيانة .

فقال هنري :

ــ لقد فكرت وانتهيت .

واجتاز الدهليز وأطبق وراءه ذلك الباب الذي لن يعبره ثانية أبداً .

كان سكرياسين وسامازيل ينتظرانه في قلق في الجريدة .ولم يخفيا سرورهما مطلقاً . وخفت حماستهما عندمـا أعلن هنري لهما انه يزمع ان يتولى بنفسه ، في حرية كاملة ، كتابة المقالات عن المعسكرات فإما أن يقبلا بهذا ، وإمـا ان تطوى القضية . وحاول سكرياسين النقاش ، لكن سامازيل اقنعه بسرعـة بالقبول . وبـدأ هنري فوراً في العمـل . ووصف ، معتمداً على النصوص ، الخطوط الكبرى لنظام العقوبات في الاتحاد السوفياتي . ونوه بطابعـه الفاضح . لكنه اعتنى عناية كبيرة بالقول إن أخطاء الاتحاد السوفياتي لا تبرر بأي شكل أخطاء الرأسمالية من جهة اولى وان وجود المعسكرات يدين من جهة ثانية سياسة معينة ، لا النظام بأجمعه . فهي تمثل ، في بلاد تواجه اسوأ المصاعب الاقتصادية، حلا سهلاً بدون شك . ومن الحق لنا ان نأمل في زوالها . ولهذا يجب على جميع الذين يجسد الاتحاد السوفياتي بالنسبـة لهم أملاً ، بما فيهم الشيوعيون انفسهم ، ان يعملوا كل ما بإمكانهم لإلغائها . وكان مجرد كشف وجودهـا يغير الموقف .

وإنما لهذا شرع هنري في الكلام : فالصمت لن يكون إلا تهرباً وجبناً .

وظهر المقال في صباح اليوم التالي . وأعلن لامبير أنه مستاء منه للغاية . شعر هنري ان المناقشة حامية في قاعـــة التحرير . وفي المساء ، حمل رسول رسالة دوبروي التي تقول ان لجنـــة « الاشتراكي الثوري الحر » قد فصلت بيرون وسامازيل ، وان الحركة لم تعد لها أي علاقـة بـ « الأمل » وكانت تنكر ان تستغل لحساب دعاية معادية للشيوعية وقائع لا يمكن ان يحكم عليها الا من خلال نظرة شاملة للنظام الستاليني ، وان الحزب الشيوعي يظل اليوم ، مهما كانت قدرته الحقيقية ، الأمل الوحيد للبروليتاريا الفرنسية ، وإذا ما اختار المرء ان يقلل من أهميته فهذا يعني انه يختار خدمة الرجعية . وكتب هنري فوراً رداً ، اتهم فيه « الاشتراكي الثوري الحر » بالاستسلام لإرهاب الشيوعية وخيـانة برنامجه المبدئي .

وتساءل هنري في اليوم التالي في نوع من الذهول عندما اشترى « الأمل » : « كيف وصلنا الى هذا الحد ؟ » لم يكن يتمكن من إشاحة نظره عن الصفحة الاولى تلك . لقـد كان ذا رأي ، ودوبروي ذا رأي آخر . ولقد حدثت ضجة اصوات ، وبعض حركات نافدة الصبر ، بـين جدران أربعة : وفجأة كأن ينبسط ، تحت أنظار الجميع ، الأسود فوق الأبيض ، هذان العمودان المحشوان بالشتائم .

وقالت له سكرتيرته عندما قدم الى الجريدة حوالي الساعة الخامسة :

— التلفون لا يكف عن الرنين . ثمـة سيد يدعى لونوار قال انه سيمر في الساعة السادسة .

— ستدعينه يدخل .

— وسوف ترى هذا البريد : انني لم انته حتى من تصنيفه .

وقال هنري في نفسه وهو يجلس امام مكتبه : « حسناً ! انها تثير حمـاسة الناس ، هذه القضية ! » . لقد ظهر المقال الأول البـارحة ، وها هي مجموعة من القراء تهنئه ، وتشتمه ، وتندهش . وكانت هناك بطـاقة برقية من فولانج :

« ايها العزيز العجوز ، انني اشد على يدك ». وكان جوليان ايضاً يهنئه في اسلوب مهذب مدهش تماماً. والمزعج انه يبدو على جميع الناس انهم يظنون ان « الأمل » ستصبح نسخة عن « الفيغارو » : لا بد من اعادة الأمور الى نصابها. ورفع هنري رأسه. كان باب المكتب قد فتح ، وكانت بول امامه. كانت ترتدي معطفاً قديماً من الفرو ، وكان وجهها وجه الأيام الرديئة. وقال هنري :

– أهي انت ؟ ماذا حدث ؟

فقالت بول :

– هذا ما جئت لأسألك عنه. وألقت على الطاولة بنسخة « الأمل » : « ماذا يحدث ؟ ».

فقال هنري :

– حسناً ! هذا مشروح في الجريدة. لم يكن دوبروي يريد ان ينشر هذه المقالات عن المعسكرات السوفياتية ، ومع ذلك نشرتها ، وتخاصمنا. وأضاف في نفاد صبر : « كنت سأقص عليك الأمر غداً عند الغداء. لماذا جئت اليوم ؟ ».

– أهذا يزعجك ؟

– بل تسرني رؤيتك. لكني انتظر لونوار بين دقيقة وأخرى ، ولديّ عمل كثير. سأعطيك التفاصيل غداً : ليس الأمر عاجلا كثيراً.

فقالت :

– بلى ، انه عاجل. انني بحاجة للفهم. لِمَ هذه القطيعة.

– لقد قلت لك ذلك. وابتسم في اجتهاد : « لا بد انك مسرورة ، فقد كنت تتمنينها منذ زمن بعيد ».

فنظرت اليه بول في سحنة مهتمة : « لكن لِمَ الآن ؟ ان المرء لا يتخاصم مع صديق له منذ ٢٥ عاماً لأنه على خلاف معه حول قصة سياسية تعيسه ».

– ومع ذلك ، فهذا ما حصل. وفي الحقيقة ، ان هذه القصة التعيسة هامة جداً.

فانقبض وجه بول : « انت لا تقول لي الحقيقة ».

ـ أؤكد لك ان اجل .

فقالت :

ـ منذ زمن بعيد لم تعد تقول لي شيئاً . اعتقد انني حزرت لماذا ؟ لهذا جئت لأكلمك : يجب ان تعود لي ثقتك .

فقال :

ـ لك ثقتي كلها . وبعد ان تأكد لك ذلك ، فسوف نتكلم غداً . ليس لدي وقت الآن .

فلم تتحرك بول ، وقالت : « لقد اغضبتك اذ تفاهمت مع جوزيت ، ذلك المساء ، انني اعتذر عن ذلك » .

ـ انما انا الذي يعتذر : لقد كنت سيىء المزاج ...

ـ على الأخص لا تعتذر ! ورفعت إليه وجهاً يرتجف ذلاً : « ليلة المراجعة العامة تلك وفي الايام التالية ، فهمت أشياء كثيرة . ليس هناك قياس مشترك بينك وبين سائر الناس ، وبينك وبيني . وانا اريدك كما قد حلمت بك لا كما انت حقاً ، فهذا يعني انني كنت افضل نفسي عليك . كان هذا خيلاء . لكنه انتهى . ليس هناك غيرك : وانا لست شيئاً . انني اقبل بألا أكون شيئاً ، انني اقبل بكل شيء منك » .

فقال في حرج :

ـ اسمعي ، لا تتحمسي . انني اقول لك اننا سنتكلم غداً .

فقالت بول :

ـ ألا تعتقدني صادقة ؟ انها غلطتي . لقد كانت كبريائي كبيرة . ذلك لأن طريق التخلي ليس سهلاً . لكني الآن اقسم لك : انني لن اطالب بشيء من اجلي . انت فقط موجود ، وتستطيع ان تطلب كل شيء مني .

وفكر هنري : « يا إلهي ! بشرط ان تذهب قبل ان يأتي لونوار ! » . وقال بصوت عالٍ : « انني اصدقك . لكن كل ما اطلبه منك حالياً هو ان

تصبري حتى الغد وان تتركيني أعمل » .
فقالت بول بصوت عنيف :
– انت تسخر مني ! ولان وجهها من جديد : « اكرر عليك انني كلياً لك. ماذا استطيع ان افعل لأقنعك ؟ هل تريد ان اقطع احدى اذنيّ ؟ » .
فقال هنري وهو يحاول المزاح :
– وماذا سأفعل بها ؟
– ستكون علامة . وصعدت دموع الى عيني بول : « انني لا استطيع ان احتمل فكرة انك تشك في حبي ؟ » .
وانفرج الباب : « السيد لونوار . هل ادخله ؟ » .
– لينتظر خمس دقائق . وابتسم هنري لبول : « انني لا اشك في حبك . لكن كما ترين ، عندي مواعيد ، يجب ان تذهبي » .
فقالت بول :
– لن تفضل على كل حال لونوار عليّ ! من هو بالنسبة لك ؟ وانا ، احبك . كانت تبكي الآن بدموع كبيرة : « إذا كنت اعاشر الناس ، وإذا كنت قد حاولت الكتابة ، فهذا حباً بك » .
– أعرف جيداً .
– ربما قيل لك انني اصبحت مغرورة ، وانني لم أعد اعلق اهمية الا على عملي : إن الشخص الذي قال لك هذا مجرم . غداً ، سألقي الى النار بجميع مخطوطاتي ، تحت بصرك .
– سيكون هذا حماقة .
فقالت :
– سأفعل ذلك . واضافت في حدة : « سأفعل ذلك فوراً حين أعود » .
– لكن لا . ارجوك . هذا لا يفيد شيئاً .
فوهن وجه بول من جديد : « تقصد أن لا شيء يمكن ان يقنعك بحبي ؟ » .
فقال :

ـ لكني مقتنع به . انني مقتنع به بعمق .

فقالت باكية :

ـ آه ! انني اضجرك . ما العمل! يجب مع ذلك ان يتبدد سوء التفاهم هذا!

ـ ليس هناك اي سوء تفاهم .

فقالت :

ـ هو ذاك ، انني اتابع ، اتابع إضجارك ولن تعود ترغب في رؤيتي !

ففكر في اندفاع : « كلا ، لم أعد أريد » . وقال بصوت عالٍ : « يقيناً ان أجل » .

ـ سينتهي بك الأمر الى كرهي وستكون على حق . يكفي انني فعلت معك فصلاً ، انا !

ـ انت لا تفعلين معي أي فصل .

فقالت وهي تنفجر منتحبة :

ـ انت ترى جيداً ان بلى .

فقال بأعذب صوت :

ـ اهدئي ، يا بول . كان يتمنى ضربها . واخذ يداعب شعرها : « اهدئي » .

وتابع مداعبته طوال بضع دقائق وقررت اخيراً ان ترفع رأسها . وقالت:

ـ طيب ، انني ذاهبة . ونظرت اليه في قلق : « ستأتي للغداء غداً هذا وعد ؟ » .

ـ هذا قسم .

وقال في نفسه عندما اطبقت الباب وراءها : « ان لا أراها ثانية مطلقاً ، هذا هو الحل الوحيد . لكن كيف أجعلها تقبل بالمال إذا لم أعد أراها ؟ . ان امرأة موسوسة لا تقبل بمعونة رجل إلا بشرط ان تفرض عليه حضورها . سأتدبر أمري » . وقرر : « لكني لم أعد أريد ان أراها » .

وقال للونوار :

– اعذرني على انني جعلتك تنتظر .

وبدرت حركة صغيرة من يد لونوار : « هذا لا أهميـة له » . وسعل ، وكان أحمر اللون . لقد أعد دون شك كل كلمـة من هجوه ، لكن حضور هنري كان يفكك جمله : « انت تشك في موضوع زيارتي » .

– نعم . انت متضامن مع دوبروي وموقفي يصدمـك . لقد شرحت اسبابي : انني آسف على أنني لم أقنعك .

فقال لونوار :

– انت تقول انك لم تشأ ان تخفي الحقيقة عن قرائك . لكن عن اي حقيقة تتكلم ؟ كان قد وجد الكلمات الأساسية في خطابه ، وسوف يتدفق الباقي كلـه في سهولة . حقيقة ملتبسة حقيقة جزئية : كان هنري يعرف الأغنية . واستيقظ عندما تخلى لونوار عن عمومياته : « ان الاضطهاد البوليسي لا يلعب في الاتحاد السوفياتي غير الدور الذي يلعبه في البلدان الرأسمالية الضغط الاقتصادي . وإذا كان يلعبه بطريقة منظمة اكثر، فإنني لست ارى في هذا إلا مكاسب،ان نظاماً ليس العامل فيه مهدداً بالطرد ولا مسؤولاً عن الإفلاس مرغم علىاختراع اشكال جديدة من العقوبات » .

فقال هنري :

– ليس بالضرورة هذه الاشكال . ولن تقارن بين ظروف العاطل عن العمل وبين ظروف العمال في المعسكرات .

– على الأقل ، إن حياتهم اليومية مضمونة . أنا مقتنع ان مصيرهم أقـل فظاعة مما تزعمه دعاية مغرضة . كما أننا ننسى ان عقلية الإنسان السوفياتي ليست عقليتنا : انه يجـد من الطبيعي مثلاً ان ينقل من مكان الى آخر حسب حاجات الإنتاج .

فقال هنري :

– مهما كانت عقليته ، فإنه مـا من إنسان يجد من الطبيعي ان يُستغل ، ويُنقص غذاؤه ، ويُحرم من جميع حقوقـه ، ويسجن ، ويبلد بالعمل ، ويحكم

بالموت من البرد وداء الحفر والإنهاك . وفكر : « انها جميلة على كل حال السياسة ! » . وفي الحقيقة ما كان لونوار ليتحمل ان يرى ذبابة تتألم ومع ذلك ، كان يقبل في قلب مرح بفظاعات المعسكرات .

وقال لونوار :

– ما من أحد يريد الشر للشر . والاتحاد السوفياتي أقل من أي نظام آخر . فإذا كانوا يتخذون هذه التدابير ، فلأنها ضرورية . واشتد احمرار لونوار : « كيف تجرؤ على ادانة مؤسسات بلد تجهل حاجاته ، ومصاعبه ؟ انها خفة لا تغتفر » .

– لقد تحدثت عنها ، هذه الحاجات وهذه المصاعب . وأنت تعرف جيداً انني لم أدن النظام السوفياتي كتلة واحدة. لكن القبول به دفعة واحدة، بشكل أعمى ، فهذا جبن . انك لتبرر اى شيء كان بدعوى فكرة الضرورة هذه . لكنها سلاح ذو حدين . فعندما يقول بيلتوف ان المعسكرات ضرورية ، فهذا ليثبت ان الاشتراكية طوبائية .

فقال لونوار :

– من الممكن أن تكون ضرورية اليوم دون ان تكون كذلك الى الأبد . انت تنسى ان الموقف في الاتحاد السوفياتي موقف حرب . والدول الاستعمارية لا تنتظر الا الوقت لتثب عليه .

فقال هنري :

– حتى ولو كان الأمر كذلك ، فما من شيء يثبت انها مؤقتة . ان ما من أحد يريد الشر للشر ، ومع ذلك يحدث غالباً ان يفعل الناس ذلك بلا جدوى . انت لن تنكر انه في الاتحاد السوفياتي كما في أي مكان آخر ، قد ارتكبت اخطاء : مجاعات ، ثورات ، مجازر كان يمكن ان تتجنب . حسناً ؟ انني أعتقد ان هذه المعسكرات ايضاً خطيئة . وأضاف : « أتعرف ، حتى دوبروي منهذا الرأي » .

فهز لونوار برأسه ، وقال : « سواء اكانت ضرورة ام خطيئة ، فقد

ارتكبت على كل حال عملاً سيئاً . فالهجوم على الاتحاد السوفياتي لا يبدل شيئاً مما يجري في الاتحاد السوفياتي وهو يفيد الدول الرأسمالية . لقد اخترت ان تعمل لحساب اميركا ولحساب الحرب » .

فقال هنري :

– لكن لا ! يمكننا ان ننتقد الشيوعية ، دون ان تسوء صحتها لذلك ، فهي أقوى من هذا .

فقال لونوار :

– لقد أثبت مرة أخرى انك لا تستطيع ان ترغب في ان تكون خارجاً عن الشيوعية دون ان تصبح موضوعياً معادياً للشيوعية . ليس هناك طريق ثالث. لقد كان محكوماً على «الاشتراكي الثوري الحر» منذ البداية اما بالتحالف مع الرجعية او الموت .

– اذا كان هذا ما تعتقده،فلم يبق عليك الا ان تتسجل في الحزب الشيوعي.

فقال لونوار :

– نعم ، هذا ما بقي عليّ ان افعله ، وهذا ما سأفعله . كنت حريصاً على ان يكون الموقف واضحاً : يجب ان تعتبرني من الآن فصاعداً خصماً .

فقال هنري :

– انني آسف لذلك .

وتبادلا للحظة النظرات الثاقبة وقال لونوار :

– الوداع اذن .

فقال هنري :

– الوداع .

نعم ، كان هذا احد الردود الممكنة : انكار الوقائع ، والأرقام ، والعقل والمنطق بفعل إيمان اعمى : كل ما يفعله ستالين يُفعل جيداً . وقال هنري في نفسه : « لونوار ليس شيوعياً : لهذا فانه يتطرف في الاخلاص » . ان ما كان يفيده ، هو ان يتكلم مع لاشوم ، أو مع أي شيوعي آخر ذكي وغير متعصب

وسأل فانسان :

– أرأيت لاشوم في الايام الاخيرة ؟

– نعم .

كان فانسان قد تحرك لقضية المعسكرات . وكان يعتقد في البداية انه لا يجب الكلام ، ثم انضم الى رأي هنري . وسأل هنري :

– ما رأيه بمقالاتي ؟

فقال فانسان :

– انه بالاحرى غاضب منك . انه يقول انك تمارس معاداة الشيوعية .

فقال هنري :

– آه ! والمعسكرات ؟ أهذا لا يحرجه ! ما رأيه بالمعسكرات ؟

فابتسم فانسان : « انها غير موجودة . انها مؤسسة ممتازة . انها ستختفي من نفسها » .

فقال هنري :

– انني ارى !

يقيناً ، ان الناس لا يحبون ان يطرحوا على انفسهم الاسئلة . انهم يتدبرون أمرهم جميعاً ليحافظوا على انظمتهم . وذهبت الشيوعية الى حد نظم المدائح بمؤسسة كانوا يعمدونها باسم : معسكرات الإنهاض والعمل الاصلاحي . ولم يكن خصوم الستالينية يرون في هذه القضية الا ذريعة لإثارة الاستنكارات الراسخة من جديد .

وقال سامازيل وهو يلقي بالبرقيات على مكتب هنري :

– مزيد من برقيات التهنئة !

واضاف في سيماء من غبطة :

– يمكننا ان نقول اننا أثرنا الرأي العام . واضاف : « سكرياسين ينتظر في المشى . انه مع بيلتوف وشخصين آخرين » .

فقال هنري :

– مشروعه لا يهمني .

فقال سامازيل :

– يجب على كل حال ان تستقبلهم .

ووقّع اوراقاً كان قد وضعها أمام هنري : « وأود كثيراً لو تلقي نظرة على هذه المقالات المرموقة التي ارسلها لنا فولانج » .

فقال هنري :

– فولانج لن يكتب ابداً في « الامل » .

فقال سامازيل :

– يا للخسارة !

وانفتح الباب ، ودخل سكرياسين مبتسماً في سحنة مغرية : « ألديك خمس دقائق ؟ ان اصدقاءنا يفقدون الصبر . لقد أتيت بيلتوف ، وبينيت وهو صحفي اميركي أمضى خمسة عشر عامــاً كمراسل في موسكو ، ومولتبرج الذي كان لا يزال يناضل كشيوعي في فيينا يوم تركت الحزب . أأستطيع ان أدخلهم ؟ » .

– أدخلهم .

دخلوا ، وكانت نظرتهم مثقلة بالتأنيب ، سواء لأن هنري جعلهم ينتظرون ، وسواء لأن العالم لا يعطيهم حقهم . وبحركة ، دعـــاهم هنري الى الجلوس وقال مخاطباً سكرياسين : « اخشى ان يكون هذا الاجتماع لا مجدياً تماماً . لقد بينت ذلك في المحادثات التي أجريناها وفي مقالاتي : انني لم اصبح معادياً للشيوعية . اما مشروعك ، فيجب ان تأخذه الى الاتحاد الديغولي ، وليس إلي » .

فقال سكرياسين :

– لا تحدثني عن ديغول . فعندما نال السلطة ، كان أول عمل له ان طـــار الى موسكو : هذا شيء يجب الا ينسى .

وقال مولتبرج في تأنيب :

– لم يتح لك الوقت دون شك للنظر في إمعان الى برنامجنا . اننا أشخـــاص يساريون . والحركة الديغولية مدعومـــة بالرأسمالية الكبيرة ولا مجال لنتحالف

معها . اننا نريد ان نجمع ضد الحكم الروسي القوى الحية للديموقراطية . وبحركة مجاملة أبعد اعتراضات هنري : « انت تقول انك لم تصبح معادياً للشيوعية : لقد كشفت بعض الاستغلال وانت لا تريد ان تذهب أبعد من ذلك . لكنك في الحقيقة لا تستطيع ان تتوقف في منتصف الطريق : ان التزامنا يجب ان يكون مطلقاً ضد بلد يقوم على الحكم المطلق » .

وعاد سكرياسين الى الكلام في حدة : « لا تقل لي انك بعيد جداً عنا . لقد أنشيء « الاشتراكي الثوري الحر » على كل حال لمنع أوروبا من السقوط في يدي ستالين . وانها لأوروبا المستقلة تلك التي نريدها نحن أيضاً . كل ما هنالك اننا فهمنا انها لا تستطيع ان تتحقق دون معونة اميركا » .

فقال هنري :

– يا لها من قشة ! وهز كتفيه : اوروبا مستعمرة من قبل اميركا ، هذا بالضبط ما كان « الاشتراكي الثوري الحر » يريد ان يتجنبه ، بل كان هو أول اهدافنا ، لأننا لم نفكر قط بأن ستالين يأمل في ابتلاع أوروبا » .

فقال بينيت بصوت قاتم :

– انني لا أفهم هذا الحكم المسبق ضد أميركا . لا بد للانسان ان يكون شيوعياً كي لا يرى فيها الا حصن الرأسمالية : انها ايضاً بلد عمالي كبير . وهي بلد التقدم ، والازدهار والمستقبل .

– انها البلد الذي يقف بشكل قياسي ، في كل مكان ، ودوماً ، الى جانب اصحاب الامتيازات : في الصين ، في اليونان ، في تركيا ، في كوريا ، عم يدافعون ؟ انه ليس الشعب ، كلا ؟ انه الرأسمال ، الملكية الكبيرة . عندما افكر بأنهم يدعمون فرانكو وسالازار ...

كان هنري قد علم في هذا الصباح بالذات ان اصدقاءه البرتغاليين المسنين قد أثاروا تمرداً كانت نتيجته تسعمئة معتقل .

وقال بينيت :

– انت تتكلم عن سياسة وزارة الخارجية . انت تنسى ايضاً أن هناك

شعباً اميركياً . اننا نستطيع ان نشق بالنقابات اليسارية وبكل ذلك الجزء من الأمة الذي يحب باخلاص الحرية والديموقراطية .

فقال هنري :

– لم تعلن النقابات قط عن عدم تضامنها مع السياسة الحكومية .

فقال سكرياسين :

– يجب ان ننظر الى الأمور من الأمام . ان أوروبا لا تستطيع ان تدافع عن نفسها ضد الاتحاد السوفياتي الا بدعم من اميركا. واذا منعت اليسار الاوروبي من قبوله ، فلا بد ان يتوطد التباس مؤسف بين مصالح اليمين ومصالح الديموقراطية .

فقال هنري :

– اذا مارس اليسار سياسة يمينية ، فانه لا يعود يساراً .

فقال بينيت في لهجة مهددة :

– باختصار ، بين اميركا والاتحاد السوفياتي ، انت تختار الاتحاد السوفياتي؟

فقال هنري :

– نعم . ولم اخفِ ذلك قط .

فقال بينيت :

– كيف تستطيع ان توازن بين استغلال الرأسمالية الاميركية ، وبين فظاعة اضطهاد بوليسي . والتهب صوته ، واخذ يتنبأ ، وكان مولتبرج يدعمه ، بينما كان سكرياسين وبيلتوف يتكلمان بالروسية في بعبعة. لم يكن هؤلاء الرجال متشابهين بالمرة ، لكنهم جميعاً كانت لهم نفس النظرة الضائعة في حلم مطالب وفظيع يرفضون ان يستيقظوا منه ، وكانوا جميعاً يريدون انفسهم عمياً وصماً عن العالم ، يسيطر عليهم ماضٍ من الفظاعة ،. كانت اصواتهم جميعاً ، الحادة ، او الخطيرة ، أو الاحتفالية ، أو الساخرة ، تتكهن بالمستقبل . وربما كان أكثر ما يقلق في شهاداتهم ضد الاتحاد السوفياتي هو هذه السيماء المتشككة ، الغاضبة ، المطاردة ابداً ، التي علمتها التجربة الستالينية على أوجههم . وما كان يجب ان

تحاول إيقافهم عندما يأخذون في إلقاء ذكرياتهم في وجهك . كانوا أذكى من ان يأملوا في انتزاع قرار بواسطة الحكايا المتتابعة : انما كانت بالأحرى ازمة لفظية مفيدة لنظامهم الصحي الداخلي . وسكت بينيت فجأة ، وكأنه أنهك . وقال على حين غرة :

– لا أرى ما نفعله هنا !

فقال هنري :

– لقد حذرتكم من اننا سنضيع وقتنا .

ونهضوا . ونظر مولتبرج ملياً الى هنري في عينيه ، وقال بصوت شبه حنون :

– لعلنا سنلتقي ثانية بأقرب مما تظن .

وعندما غادروا المكتب ، انبرى سامازيل : « من الصعب النقاش مع هؤلاء المتحمسين . والمؤلم أكثر من أي شيء آخر ، هو انهم يكرهون بعضهم بعضاً : فكل منهم يعتبر خائناً من بقي ستالينياً مدة أطول منه قليلا . والحقيقة انهم جميعاً مشبوهون . لقد ظل بينيت خمسة عشر عاماً في موسكو كمراسل : فلو كان ساخطاً ضد النظام الى الحد الذي يزعمه اليوم ، فيا له من جبن ! » وختم كلامه في سحنة راضية : « انهم رجال موصومون » .

فقال هنري :

– ان لهم ، على كل حال ، شرف عدم ارادة التورط مع الديغولية .

فقال سامازيل :

– انهم يفتقرون الى الحس السياسي .

كان سامازيل قد سقط الى اليسار : ولم يكن يبدو له أي شيء طبيعياً أكثر من الانضمام الى اليمين ما دام لا يهتم الا بعدد مستمعيه لا بمعنى خطاباته . كان قد اقترح على هنري مقالات فولانج ، وكان يتكلم في مودة متزمتة عن برنامج الاتحاد الديغولي . وكان هنري يتظاهر بأنه لا يفهم تلميحاته . لكنها كانت حيلة لا مجدية . إذ لم يتردد سامازيل طويلاً في المهاجمة صراحة . وقال في سحنة

مفتوحة :

ستكون هناك مباراة جميلة لمن يريد مخلصاً ان يتشكل في يسار مستقل . أن سكرياسين على حق اذ يفكر ان اوروبا لن تستطيع ان توجد الا بدعم الولايات المتحدة الاميركية . ان دورنا هو ان نجمع جميع القوى التي تعارض وقوع الغرب تحت النفوذ السوفياتي ، من أجل اشتراكية أصيلة : فلنقبل بالمعونة الاميركية ما دامت تأتينا من الشعب الاميركي ، ولنقبل بالتحالف مع الاتحاد الديغولي ما دام يمكن ان يُوجَّه نحو سياسة يسارية . هو ذا البرنامج الذي سأقترحه على أنفسنا .

كان يحدج هنري بنظرة قاسية وآمرة . وقال هنري :

— لا تعتمد عليّ لتنفيذه . سأتابع النضال بكل قواي ضد السياسة الاميركية . انت تعرف تماماً ان الديغولية هي الرجعية .

فقال سامازيل :

— أخشى ان تكون غير مدرك للموقف جيداً . فمهما تحط نفسك بالإحتياطات ، فها نحن قد صنفنا كمعادين للشيوعية . وهذا يحذف لنا نصف قرائنا . ان الحظ الوحيد للجريدة هو ان تكسب قراء غيرهم . ومن اجل هذا يجب الا نتوقف في منتصف الطريق : يجب ان نندفع في الاتجاه الذي اخذنا بالسير فيه .

فقال هنري :

— أي ان نصبح فعلياً جريدة معادية للشيوعية . لا مجال لهذا . إذا كنا سنفلس ، فسوف نفلس ، لكن سنحتفظ دوماً بخطنا حتى النهاية .

ولم يجب سامازيل بشي . كان من البديهي ان تراريو من رأيه ، لكنه كان يعرف ان لامبير ولوك سيؤيدان هنري دوماً : لم يكن يستطيع شيئاً ضد هذا التحالف .

وسأل في غبطة بعد يومين :

— هل رأيت « السندان » ؟ والقى الجريدة الأسبوعية على مكتب هنري :

« إقرأها » .

فقال هنري في تراخٍ :

– وماذا من خاص في « السندان ؟ » .

فقال سامازيل :

– مقال للاشوم عنك . وكرر : « اقرأ » .

فقال هنري :

– سأقرأه فيما بعد .

وما أن غادر سامازيل المكتب ، حتى فتح الجريدة : « سقطت الأقنعة » ، كان هذا هو عنوان المقال . وكلما امعن في قراءته ، كان هنري يشعر ان حلقه ينقبض غضباً . كان لامبير يشرح عن طريق استشهادات مبتورة وملخصات مغرضة ان جميع آثار هنري تفضح حساسية فاشية وتخفي عقيدة رجعية . وكانت مسرحيته على الأخص إهانة للمقاومة . وإن لديه احتقاراً أساسياً لسائر البشر : والمقالات الكريهة التي نشرها في « الأمل » تثبت ذلك بوضوح . وكان سيكون أكثر شرفاً لو أعلن صراحة انه معادٍ للشيوعية بدلاً من ان يؤكد مودته تجاه الاتحاد السوفياتي في الوقت الذي يشن فيه حملة الافتراء تلك : ان فظاظة هذه الحيلة تظهر جيداً اي نظرة محتقرة ينظر بها إلى أقرانه . ولم تكن كلمات خائن ومباع مكتوبة بحبر اسود على الورق الأبيض ، لكنها كانت تقرأ بين السطور . وكان لاشوم الذي كتب هذا . لاشوم . كان هنري يراه من جديد وهو يلمع أرض استديو بول ، يوم كان يعيش متخفياً فيه . كان يراه في محطة ليون ، متدثراً بمعطف طويل اكثر مما ينبغي ، محرجاً من انفعاله لحظة الوداع . كانت سنابل عيد الميلاد تطقطق ، وكان يقول وهو جالس الى طاولة في « البار الأحمر » : « يجب ان نعمل جنباً الى جنب » « ثم بعد قليل ، في تلبك : « لم نهاجمك أبداً » . وحاول ان يفكر : « انها ليست غلطته . المذنب هو الحزب الذي اختاره عمداً لهذه المهمة » . ثم صعد غضب أحمر الى عينيه . كان هو نفسه الذي اخترع هذه الجمل واحدة واحدة واحدة : ان المرء لا يكتفي

بالطاعة ، بل بخلق ثانية . وكان عذره أقل من شركائه لأنــه كان يعلم جيداً انه يكذب . انه يعرف انني لست فاشياً وانني لن أصبح فاشياً أبداً .

ونهض . لا مجال للرد على هذا المقال : لم يكن لديه مــا يقوله غير ما يعرفه لاشوم سلفاً . وعندما لا يعود للكلمات من معنى ، فإن الشيء الوحيد الذي يبقى عليه ان يعمله ، هو أن يضرب . وركب سيارته . في هــذه الساعة ، لا بد ان يكون لاشوم في البار الأحمر . واندفــع هنري نحو البار الأحمر . ووجد فانسان الذي كان يشرب مع رفاق . لا أثر للاشوم .

– لاشوم ليس هنا ؟

– كلا .

فقال هنري :

– اذن لا بد ان يكون في « السندان » .

فقال فانسان :

– لست ادري . ونهض وتبع هنري نحو البــاب : « معك سيارتك ؟ انني ذاهب الى الجريدة » .

فقال هنري :

– لكني لست ذاهباً اليها . انني ذاهب الى « السندان » .

فخرج فانسان وراءه وقال : « دعك منه » .

فسأل هنري :

– أقرأت مقال لاشوم ؟

– قرأته . لقد أراني اياه قبل ان يطبعه . وتخاصمت معه . انها دناءة جميلة . لكن ماذا يفيدك ان تثير فضيحة ؟

فقال هنري :

– لا تأخذني الرغبة كثيراً في القتال . لكن هــذه المرة ، انها حاجة . ولا بأس اذا كنت سأثير فضيحة .

فقال فانسان :

– انت مخطىء . سيستفيدون من ذلك ، وسيذهبون الى أبعد ايضاً .

فقال هنري :

– الى ابعد ؟ لكنهم وصفوني بأنني فاشي . انهم لا يستطيعون الذهاب الى أبعد من هذا . وفتح باب السيارة . فأمسك فانسان ذراعه ، وقال :

– أتعرف ، عندما يقررون ان ينالوا من أحد ، فإنهم لا يتراجعون امام شيء ، ثمة نقطة ضعيفة في حياتك . وسوف يذهبون للبحث فيها .

فنظر هنري الى فانسان : «نقطة ضعيفة ؟ تريد أن تتكلم عن جوزيت وعن تلك الشائعات التي تشاع عنها ؟ » .

– نعم انت لا تشك في ذلك ، لكن جميع الناس مطلعون .

فقال هنري :

– على كل حال لن يجرؤوا .

– أتعتقد انهم سيحرجون ! وتردد: «لقد شتمت لاشوم كثيراً عندما أراني مقاله حتى انه حذف منه عشرة سطور . لكنه في المرة القادمة ، لن يتردد في الكلام » .

فلزم هنري الصمت . أيتها المسكينة جوزيت ، ما أشد قابليتك للأذى ! كان البرد يتغلغل في ظهره حين يتصورها وهي تقرأ تلك السطور العشرة التي حذفها لاشوم .

وجلس امام المقود : « اصعد . سنذهب الى الجريدة . لقد ربحت ». وشغل المحرك وأضاف : « اشكرك ! » .

فقال فانسان :

– ما كنت لأصدق هذا من لاشوم .

فقال هنري :

– لا من لاشوم ولا من شخص آخر . إن الهجوم على شخص في حياته الخاصة ، وبهذه الطريقة ، هذا على كل حال دنيء جداً .

فقال فانسان :

– هذا دنيء . وتردد : « لكن ثمة شيء يجب ان تفهمه : لم تعد لك حياة خاصة » .

فقال هنري :

– كيف ! بالتأكيد إن لي حياتي الخاصة ، وهي لا تعني أحداً غيري .

– انت رجل عام . وكل ما تفعله يصبح عاماً : وهـذا هو البرهان ! يجب ان تكون غير قابل للتهجم عليك ، على طول الخط .

فقال هنري :

– ليس هناك دفاع ممكن ضد الافـتراء . ومضيا لبعض الوقت في صمت ، وقال هنري : « عندما افكر انهم اختاروا لاشوم للقيام بهـذه المهمة . لاشوم بالضبط ! هذا تطرف » . واضاف : لا بد انهم يكرهونني !» .

فقال فانسان :

– انت لا تتصور انهم يحبونك .

ووصلا امام الجريدة . ونزل هنري من السيارة ، وقـال : « سأذهب لشراء بعض الأشياء . سأكون هنا بعد خمس دقائق »

لم يكن يريد ان يشتري شيئاً ، بل كان يريد ان يكون وحده خمس دقائق. ومضى على قدميه ، في استقامة أمامه . « انت لا تتـصور انهو يحبونك ! » . كلا ، لم يكن يتصور ذلـــك . لكنه لم يكن يعرف مقدار كراهيتهم . كانت شعارات بالية قد عامت بين قلبه وشفتيه : خصم شريف ، قتـال نبيل . كانت كلمات مضت عليها قرون عدة . ولم يعد انسان يفهم معناها . كان يعرف ان الشيوعيين سيهاجمونه رسمياً : لكنه كان يقول في نفسه ان كثيرين سيحتفظون له في سرهم بتقديرهم، بل انه سيجعلهم يفكرون. وقال في نفسه : « في الحقيقة، انهم يكرهونني ! » كان يسير أمامه ، دونما هدف ، وكانت باريس جميلة وكئيبة مثل مدينة « بروج الميتة » ، تحت أشعة الخريف الذهبية المدخنة ، وكان الحقد في أعقابه . كانت تجربة جديدة فظيعة بمـا فيه الكفاية . وفكر هنري : « ان الحب لا يتوجه اليك أبداً كلياً، والصداقة مؤقتة كالحياة : لكن الحقد لا يخطىء

رجله وهو أكيد كالموت » . من الآن فصاعداً ، أنى ذهب ، ومهما فعل ، فإن هذا اليقين سيرافقه في كل مكان : انا مكروه ! » .

كان سكرياسين ينتظر هنري في مكتبه . وقال هنري في نفسه : « لقد قرأ « السندان » وهو يفكر انه يجب ان يطرق الحديد وهو حام ! » . وسأل :

– لديك ما تحدثني عنه ؟ وأضاف في اهتمام مصطنع : « شيء ما لا يسير على ما يرام ؟ وجهك متعب » .

فقال سكرياسين :

– بي صداع فظيع : لا كفاية من النوم ، وكثير من الفودكا ، لا شيء خطيراً . وانتصب على كرسيه وأعاد الثبات الى وجهه : « جئت أسألك اذا كنت غيّرت رأيك منذ ذلك اليوم ؟ » .

فقال هنري :

– كلا . لن اغيّره .

– ألا تجعلك تفكر ، تلك الطريقة التي يعاملك بها الشيوعيون ؟ فأخذ هنري يضحك : « اوه ! انني افكر . افكر كثيراً . لا أفعل شيئاً سوى ذلك ! » .

فصعّد سكرياسين تنهدة عميقة : كنت آمل انك ستنتهي الى ان ترى بوضوح » .

فقال هنري :

– هيا ! لا تحزن . انت لست بحاجة إلي .

فقال سكرياسين :

– لا يمكن الاعتماد على أي انسان . لقد فقد اليسار حرارته . ولم يتعلم اليمين شيئاً . وأضاف بصوت متشائم : ثمة لحظات اود فيها لو انسحب الى الريف » .

– انسحب .

فقال سكرياسين :

– لا أشعر ان لي الحق بذلك . ومرر يده على جبينه في إعيـاء : « يا له من صداع ! » .

– هل تريد حبة من الاورتيدرين ؟

– كلا ، كلا . يجب ان اجتمع حالاً ببعض الناس ، برفاق قدامى . هـذا ليس مستلطفاً كثيراً أبداً . إذن فأنا لا أحرص على ان أكون في كامل وعي .

وساد صمت . وسأل سكرياسين :

– هل سترد على لاشوم ؟

– بالتأكيد كلا .

– هذه خسارة . فعندما تريد ، تعرف كيف تدافع عن نفسك . لقـد كان الرد على دوبروي سديداً .

فقال هنري :

– نعم . لكن هـل كان صحيحاً ؟ واستجوب سكرياسين بالنظر : « انني لأتساءل هل مخبرك جاد حقاً ؟ » .

فقال سكرياسين وهو يمر يداً متألمة على وجهه :

– أي مخبر ؟

– ذاك الذي رأى بطاقة دوبروي وإضبارته .

فقال سكرياسين :

– اوه ! وابتسم ابتسامة صغيرة : « لم يكن له وجود قط ! » .

– غير ممكن ! هل اخترعت هذا !

– في نظري ، ان دوبروي شيوعي ، سواء أكان مسجلاً ام لا . لكن لم تكن لديّ وسيلة لأشاطرك قناعتي ، لهذا غششت قليلاً .

– ولو قبلت بأن اجتمع بالشخص ؟

– كانت أبسط مبادىء علم النفس تضمن لي انك سترفض .

ونظر هنري الى سكرياسين في عبوس . لم يكن يصل حتى الى الغضب عليه .

لكذبة اعترف بها بمثل هذه البساطة ! وابتسم سكرياسين ابتسامة مرتبكة : « أنت غاضب ؟ » .

فقال هنري :

– انني لا أتصور انه يمكنك ان تفعل اشياء مماثلة !

فقال سكرياسين :

– في الحقيقة ، لقد أديت لك خدمة .

فقال هنري :

– ستسمح لي بألا أشكرك .

فابتسم سكرياسين دون ان يجيب. ونهض: « يجب ان اذهب الى موعدي».

ولبث هنري فترة طويلة ساكناً ، شاخص النظر . لو لم يخترع سكرياسين تلك القرية ، فماذا كان سيحدث ؟ ربما كانت الامور انتهت الى النتيجة نفسها : وربما لا . على كل حال ، كان يكره ان يفكر انه قد لعب بأوراق مغشوشة : كان هذا يثقله برغبة مفترسة في ان يسترجع ضربته . وقال في نفسه على حين غرة : « لماذا لا احاول ان اشرح امري لنادين ؟ » . كان فانسان يراها أحياناً . وقرر أن يسأله تاريخ موعدها القادم .

عندما دخل يوم الخميس التالي الى المقهى كانت نادين تنتظر . وشعر هنري انه منفعل بطريقة مبهمه ، مع انه لم يعلق قط أهميـة كثيرة على حكم نادين . وانتصب أمام طاولتها : « السلام » .

فرفعت عينيها وقالت بلا مبالاة : « السلام » . ولم يكن يبدو عليها حتى الدهشة .

– سيتأخر فانسان قليلا : لقد جئت لأخطرك . أأستطيع الجلوس ؟

فحنت رأسها دون ان تجيب وقال هنري مبتسماً :

– انني مسرور جـداً من استطاعتي مكالمتك . كانت لنا ، نحن الاثنين ، علاقاتنا الشخصية . لهذا اريد ان اعرف اذا كان خصامي مع والدك يجعلني على خصام معك ايضاً .

فقالت نادين في برود :

– اوه ؟ تبعاً للعلاقات الشخصية ، فاننا نرى بعضنا البعض عندما نلتقي . وانت لم تعد تأتي الى « الحيطة » ، لهذا لم نعد نرى بعضنا البعض : ليست هناك مشكلة .

فقال هنري :

– اسألك العفو ، فهناك مشكلة بالنسبة لي . اذا لم نكن متخاصمين ، فلا شيء يمنعنا من شرب قدح معاً بين الحين والآخر .

فقالت نادين :

– ولا شيء يرغمنا على ذلك ايضاً .

فقال هنري :

– على ما أراه ، فإننا متخاصمان ؟ فلم تجب بشيء . وأضاف : « مع ذلك فأنت ترين رأي فانسان الذي هو رأيي ذاته » .

فقالت نادين :

– فانسان لم يكتب الرسالة التي كتبتها .

فقال هنري في حـــدة : « اعترفي بأن رسالة والدك لم تكن لطيفـــة هي الاخرى ! » .

– ليس هذا سبباً . ولقد كانت رسالتك قبيحة للغاية .

فقال هنري :

– ليكن . هذا لأنني كنت غاضباً . ونظر الى نادين في عينيها : « لقـــد أقسموا لي مع الاعتماد على الأدله بأن والدك مسجل في الحزب الشيوعي . وكنت حانقاً من اخفائه ذلك علي : ضعي نفسك مكاني » .

فقالت نادين :

– لم يكن عليك إلا أن تصدق هذه السخافات .

عندما تبدو عنيدة على هذا النحو ، فعليه ألا يأمل بإقناعها . وبالأصل مـــا كان هنري ليستطيع تبرير نفسه دون ان يضع دوبروي موضع اتهام . فتراجع .

وسأل :

– أأنت غاضبة علي بسبب تلك الرسالة فقط ؟ ام أن زملاءك الشيوعيين قد اقنعوك بأنني اشتراكي خائن ؟

فقالت نادين :

– ليس لي زملاء شيوعيون . وثبتت على هنري نظرة جليدية : « سواء أكنت اشتراكياً خائناً ام لم تكن ، فأنت لم تعد مَنْ كنته » .

فقال هنري في غضب :

– انها لبلاهة ما تقولينه . انني انا نفسي بالضبط .

كلا .

– ما الذي تغير فيّ ؟ منذ متى ؟ ماذا تأخذين علي ؟ إشرحي رأيك .

فقالت نادين :

انت اولاً تعاشر عالماً قذراً. وفجأة ارتفع صوتها : « كنت اعتقد انك انت على الاقل تريد ان تتذكر . انك تقول اشياء جيدة جداً في مسرحيتك : انه يجب ألا ننسى ، وكل شيء . وفي الحقيقة انت مشابه للآخرين تماماً ! » .

فقال هنري :

– آه لقد روى لك فانسان قصصاً !

– ليس فانسان : بل سيزوناك . وقدحت عينا نادين شرراً : « كيف تستطيع ان تلمس يد تلك المرأة الطيبة ! لو كنت انا ، لفضلت ان يسلخ جلدي وأنا حية ... » .

– سأقول لك ما قلته في اليوم الماضي لفانسان : ان حياتي الخاصة لا تعني احداً غيري . ومن جهة أخرى ، لقد مضت سنة على تعرفي بجوزيت : لست انا الذي تبدل ، بل انت .

– انني لم أتبدل . كل ما هنالك انني في السنة الماضية لم اكن اعرف ما أعرفه . واضافت في لهجة متحدية : « ثم انني كنت اثق بك ! » .

فقال هنري في غضب :

- ولماذا كففت ؟

فخفضت نادين رأسها في سحنة مغلقة .

— لقد أخذتِ موقفاً ضدي في قضية المعسكرات ؟ هذا من حقك . لكن ان تقرري انني نذل ، فهذه مبالغة . وأضاف بصوت غاضب : « هذا بدون شك رأي والدك . لكنك ما كنت معتادة على اعتبار كل ما يقوله كلام انجيل » .

فقالت نادين بصوت هادىء :

— ليس من النذالة انك تحدثت عن المعسكرات . بل انني شخصياً ، أجد هذا قابلاً للدفاع . انما المسألة هي معرفة لماذا فعلت ذلك .

— لقد شرحت رأيي ، كلا ؟

فقالت نادين :

— لقد قدمت اسباباً عمومية . لكن اسبابك الخاصة بك ، لا نعرفها . ومن جديد ثبتت على هنري نظرة جليدية : « اليمين كله يغطيك بالزهور . هذا محرج ، ستقول لي انك لا تستطيع شيئاً : هذا على كل حال محرج » .

— اخيراً ، نادين ، انت لا تفكرين جدياً بأن تلك الحملة كانت مناورة لأتقرب من اليمين ؟

— على كل حال ، انه يتقرب منك .

فقال هنري :

هذه حماقة ! لو أردت ان انتقل الى اليمين ، لكنت فعلت ذلك ! انت ترين جيداً أن « الأمل » لم تغير خطها : وأقسم لك انني استحق التقدير على ذلك . ألم يشرح لك فانسان كيف تسير الأمور ؟

— فانسان أعمى عندما يتعلق بأصدقائه . يقيناً انه يدافع عنك : هذا يثبت طهارة قلبه ولا شيء آخر .

فقال هنري :

— وأنت ، عندما تتهمينني بأنني نذل ، هل لديك أدلة ؟

– كلا . ولهذا أتهمك : بل أرتاب ، هذا كل شيء . وابتسمت بدون مرح: « انني كثيرة الريب بطبيعتي » .

فنهض هنري : « حسناً : ارتابي ما شئت . أما أنا فعندما أشعر ببعض الصداقة نحو إنسان ، فإنني احاول بالأحرى ان اثق به : لكن بالفعل ليس هذا نوعك . لقد اخطأت بمجيئي ، انني اعتذر » .

وقال في نفسه وهو عائد الى غرفته : « الريبة ، ليس هنال أسوأ منها . انني لأحب اكثر أيضاً ان أمرغ في الوحل كما فعل لاشوم ، فهذا اكثر صراحة». وكان يتخيلهم جلوساً في المكتب وهم يتناولون قهوتهم : دوبروي ، نادين ، آن . ما كانوا يقولون : « إنه نذل » ، كلا، فضميرهم لا يطاوعهم على هذا : بل يرتابون ، بمَ يمكن الرد على إنسان يرتاب ؟ ان المجرم يستطيع على الأقل ان يبحث لنفسه عن إعتذار : لكن المشبوه ؟ إنه مجرد من السلاح تماماً . وقال في نفسه في غضب في الأيام التالية : « نعم ، هذا ما فعلوه بي : مشبوه . وعلاوة على هذا فإنهم يأخذون عليّ جميعاً ان لي حياة خالصة !» . لكنه لم يكن محامياً عن حقوق الشعب ولا حامل علم ، وهو حريص على حياته ، حياته الخاصة . اما السياسة ، بالمقابل ، فان رأسه مصدوع بها . ان المرء لا ينتهي منها أبداً ، فكل تضحية تخلق واجبات جديدة . في البداية الجريدة ، والآن يريدون ان يحرموه من متعه كافة ، من رغباته كافة .با سم ماذا ؟ على كل حال، اننا لا نفعل شيئاً مما نريد ان نفعله ، بل اننا نفعل العكس : اذن ، لا داعي لتحمل مشقة الحرج . وقرر الا يتحرج وان يتصرف كما يحلو له : ولم يكن لهذا اي اهمية ، عند النقطة التي وصل إليها .

ومع ذلك ، وفي المساء الذي وجد فيه نفسه جالساً الى الطاولة بين لوسي بيلوم وكلودي دي بلزونس امام زجاجة شمبانيا حلوة كثيراً ، اندهش هنري فجأة : « ماذا افعل هنا ؟ » . لم يكن يحب الشمبانيا ، ولا الثريات ، ولا المرايا ، ولا مخمل المقاعد، ولا هاته النسوة اللواتي يعرضن في سخاء جلداً مهترئاً ، ولم يكن يحب لا لوسي ، ولا كلودي ، ولا دودول ، ولا فيرنون ، ولا الممثل

الشاب المشرف على الكهولة الذي يقال انه عشيقه .

كانت كلودي تروي :

– عندئذ دخلت الى الغرفة ، ورأته راقداً على السرير ، عارياً ، مع ذنب صغير ... وقالت وهي تشير الى اصبعها الصغيرة : « هكذا ... وسألت : اين يوضع هذا في الانف ؟ » . وضحك الرجال الثلاثة في صخب وقالت لوسي بصوت جاف قليلاً : ظريفة جداً ! » . كانت مزهوة بمعاشرة امرأة قد ولدت ، لكنها كانت تغضب من اللهجة الخشنة التي كانت كلودي تتبناها عن طواعية عندما تخرج مع من هم ادنى منها . وكانت لولو تبذل جهوداً مؤثرة لتلفت إليها انتباهاً يكون في مستوى اناقتها . واستدارت نحو هنري وهمست مشيرة الى الشاب الجميل الذي كان يحتسي قدح الشيري غوبلر الخاص بفيرنون بواسطة انبوب من الورق المشمع :

– ريبري سيكون حسناً في دور الزوج .

– اي زوج ؟

– زوج جوزيت.

– لكنه لا يظهر : انه يموت في مطلع المسرحية .

– اعرف . قصتك كئيبة اكثر من اللازم من اجل السينما : بريو يقترح ان يهرب الزوج ، وان يختبىء في الغابات وان يغفر في النهاية لجوزيت .

فهز هنري كتفيه : « سيخرج بريو مسرحيتي او لا شيء على الاطلاق » .

– لن تبصق على مليونين لأنه يطلب إليك ان تبعث ميتاً !

فقالت كلودي :

– انه يتظاهر باحتقار المال . مع اننا بحاجة إليه بعيد ان بلغ سعر الزبدة ما بلغه : كل ما هنالك انها كانت تكلف اقل ايام الالمان .

فقالت لوسي :

– لا تتكلمي هكذا أمام مقاوم .

وفي هذه المرة ، ضحكوا جميعاً معاً وابتسم هنري معهم. لو رأوهم وسمعوه،

للاموه جميعاً ، لامبير مثل فانسان ، وفولانج بقدر لاشوم ، وبول ، وآن ، ودوبروي ، وسامازيل وحتى لوك ، وسائر الجمهور الغفل ممن ينتظرون شيئاً منه . وإنما لهذا بالضبط هو هنا ، مع هؤلاء الناس : لأنه كان عليه ألا يكون معهم . لقد كان مخطئاً جذرياً ، دون تحفظ ، دون عذر : يا للراحة ! اننا لننتهي الى السأم من التساؤل بلا انقطاع : هل انا محق ام مخطىء ؟ وكان هذا المساء على الأقل يعرف الجواب : انني مخطىء تماماً . لقد تخاصم الى الابد مع دوبروي ، وأنكره « الاشتراكي الثوري الحر » ، ويرتعد معظم اصدقائه القدامى رعدة استنكار عندما يفكرون به . وفي « السندان » يدعوه لاشوم ورفاقه – وكثيرون غيرهم عبر باريس – والاقاليم – خائناً . وفي كواليس الاستديو ٤٦ ، كانت الرشاشات تطقطق ، والالمان يحرقون قرية فرنسية ، والغضب والاشمئزاز يستيقظان في القلوب المتخدرة . في كل مكان كان الحقد يلتهب . وكانت هذه مكافأته : الحقد . ولم تكن هناك أي وسيلة للتغلب عليه . فليشرب : انه يفهم سكرياسين . وملأ كأسه من جديد . وقالت لوسي :

– انها لشجاعة ما فعلته .

– ماذا اذن ؟

– فضح تلك الفظاعات كافة .

فقال هنري :

– أوه ! على هذا المقياس ، يوجد آلاف الابطال في فرنسا . عندما يهاجم الانسان الاتحاد السوفياتي اليوم ، فإنه لا يجازف بأن يعدم .

فتفرست في وجه هنري في شيء من الحيرة : « نعم ، لكنك صنعت لنفسك بالأحرى موقفاً الى جانب اليسار . لا بد انها تورطك ، هذه القصة » .

– لكن فكري بالمواقف التي استطيع ان استعيدها لدى اليمين !

فقال دودول :

– اليمين، اليسار ، انها مفاهيم بالية. إن ما يجب إفهامه للبلاد هو ان تعاون الرأسمال والعمل ضروري لنهضتها . لقد اديت عملاً نافعاً بدحضك احدى

الاساطير التي يعارضون بها التوفيق بينها .

فقال هنري :

ـ لا تهنئني بسرعة كبيرة !

كانت هذه اسوأ عزلة : ان ينال موافقة هؤلاء الناس . الحادية عشرة والنصف ، ارهب ساعة . كان المسرح يفرغ . وكانت جميع تلك العقول التي امسك بها أسيرة طوال ثلاث ساعات تنطلق من عقالها معاً ، ودفعة واحدة تتحول ضده : يا للمجزرة !

وقالت كلودي في سيماء من رضى :

ـ لا بد ان الشيخ دوبروي يزبد .

فقالت لوسي :

ـ قل اذن ، زوجته مع من تنام ؟ لأنه ، في النهاية ، يكاد يكون هرماً .

فقال هنري :

ـ لست ادري .

فقالت لوسي :

ـ لقد شرفتني مرة بالمجيء الى بيتي . انها لامرأة سليطة اللسان ! آه انني اكره هاتيك النساء اللواتي يلبسن كالعاملات ليظهرن ان لديهن أفكاراً اجتماعية .

كانت آن سليطة اللسان . وكان دودول هو الذي رأى العالم يشرح ان البرتغال جنة ، وكانوا يفكرون جميعاً ان الغنى استحقاق وانهم يستحقون غناهم . لكن لم يكن على هنري الا ان يصمت ما دام قد جاء ليجلس الى جانبهم .

وقالت جوزيت وهي تضع على الطاولة حقيبة صغيرة من القش :

ـ ... الخير . » كانت ترتدي ثوبها الأخضر الذي يكشف بسخاء عن كتفيها . ولم يكن هنري يتوصل الى الفهم لمَ تعرض نفسها في مثل هذا الكرم على انظار الذكور ، ما دامت رغبتهم تجرحها . ولم يكن يحب ان يكون هذا اللحم العذب عاماً عمومية اسم . وجلست الى جانبه في طرف الطاولة وسأل : « أسار الأمر على ما يرام ؟ ألم يصفروا ؟ » .

فقالت :

— ! انه لنصر بالنسبة لك .

لم يكن النقد ، في مجموعه ، سيئاً كثيراً بالنسبة لها : انها بدايـــة كسائر البدايات الكثيرة العدد . وكانت امامها ، بهذا الجسم ومع الصبر ، جميع الفرص لتشق طريقها بشكل محـــترم . لكنها كانت مخيبة الأمل . وانتعش وجهها : (أرأيت ؟ الى الطاولة في الصدر ، توجد فيليسيا لوبيز : ما اجملها !) .

فقالت لوسي :

— لديها على الأخص مجوهرات جميلة جداً .

— إنها جميلة !

فقالت لوسي مبتسمة بطرف اسنانها :

— يا صغيرتي ، لا تقولي أبـداً أمام رجل أن إمرأة اخرى جميـــلة . لأنه يستطيع ان يتخيل انك أقل جمالاً . وكوني على ثقة انه مـا من امرأة ستكون حمقاء بما فيه الكفاية لترد عليك بالمثل .

فقال هنري :

— جوزيت تستطيع ان تسمح لنفسها بأن تكون صريحة . ليس لديها مـا تخشى منه .

فقالت لوسي في لهجة مبهمة الاحتقار :

— معك ، من الجائز . لكن هناك آخرون لا يسليهم ان يكون امامهم هذا الوجه النواح . صبّ لها اذن لتشرب : ان المرأة الجميلة يجب ان تكون مرحة .

فقالت جوزيت :

— لا أريد ان اشرب . » وتهدج صوتها : « هناك بثر على زاوية شفتي ، انها الكبد بالتأكيد : سأشرب ماء فيشي .

فقالت لوسي وهي تهز كتفيها :

— يا له من جيل !

فقال هنري :

ـ المفيد في الشرب هو ان الإنسان ينتهي الى السكر .

فقالت جوزيت في قلق :

ـ لست سكران ؟

ـ آه ! السكر بالشمبانيا ، إنه عمل هرقلي .

ومد يده نحو الزجاجة وأوقفت ذراعه :

ـ هذا أفضل . لأن لدي شيئاً أقوله لك . » وترددت : « لكن عدني أولاً بألا تغضب » .

فضحك : « لا استطيع على كل حال ان اعد دون ان أعرف » .

فنظرت اليه في نفاد صبر : « إذن أنت لم تعد تحبني » .

ـ هيا .

ـ حسناً ! لقد اعطيت مقابلة لـ « حواء الحديثة » قبل أيام ...

ـ ماذا رويت أيضاً ؟

فقالت في حدة :

ـ قلت إننا مخطوبان . ليس هذا مطلقاً لأرغمك على الزواج مني . فسوف نعلن القطيعة عندما تشاء . لكنهم يروننا معاً دوماً. والخطوبة ، تمنحني راحة، وانت تفهم . » ومن حقيبتها الحمراء اللامعة ، اخرجت صفحة مجلة نشرتها امامه في سيماء من رضى : « للمرة الأولى ، كتبوا مقالاً لطيفاً » .

فقال هنري :

ـ أريني » . وتمتم : « آه ! مظهري جيد ! » .

كانت جوزيت ، في ثوب يكشف عن مساحة كبيرة من كتفيها ، تضحك الى جانب هنري أمام كؤوس شمبانيا ، وكان يضحك هو الآخر . .وفكر في غضب : « تماماً كما في مثل هذه اللحظة . وبين هذا وبين تخيل انني أمضي ليالي في تجرع الشمبانيا واني مباع لأميركا ، ليس هنا إلا خطوة واحدة : وسوف يخطونها » . إلا أنه لم يكن يحب هذه الضجة الموبوءة . كان يتردد على الأمكنة المشهورة ليسرّ جوزيت ، لكن ليس لهذا حساب ، فهذه اللحظات تظل على

هامش حياته الحقيقية . كان لا يزال يشخص بنظره الى الصورة : « الحقيقة ان هذا انا واني هنا » .

وقالت جوزيت :

— أأنت غاضب ؟ لقد وعدت بألا تغضب .

فقال :

— لست غاضباً على الاطلاق . » وفكر في حزم : « ليذهبوا جميعاً ليتغوطوا ! » . لم يكن مديناً لأحد ، وكان يضع جميع الأخطاء على كاهله : انما هذه هي الحرية الحقيقية ! وقال : « تعالي نرقص » .

وسارا عدة خطوات على الساحة المزدحمة بالرجال الذين في ثياب السهرة ، وبالنساء شبه العاريات ، وسألت جوزيت : « صحيح انه يضجرك عندما أبدو حزينة ؟ » .

— يزعجني ان تكوني حزينة .

فهزت كتفيها : « انها ليست غلطتك » .

— هذا يزعجني على كل حال . ليس هناك سبب ، أتعرفين . ان حديثك للصحافة ممتاز ، اؤكد لك انه سيكون لديك عقود ...

— نعم . هذه حماقة ، وانما هذا لأنني حمقاء: كنت أظن ان كل شيء سيتغير فجأة ، غداة المراجعة العامة . كأن لا تجرؤ امي مثلاً بعد ذلك على تكليمي كما تكلمني . ثم انني سأشعر انني مختلفة في داخلي .

— بعد ان تمثلي كثيراً ، وتتأكدي من موهبتك ، سيبدو لك كل شيء مختلفاً آنذاك .

— كلا . ما كنت أتصوره . » وترددت : « كان سحرياً » . كانت مؤثرة عندما كانت تحاول ان تلبس بالكلمات افكارها غير الواضحة : « عندما يقع إنسان في حبك ، انسان يحبك حقاً ، فهذا سحر ، ان كل شيء يتحول . كنت أظن ان الأمر سيكون هكذا بعد المراجعة العامة » .

— قلت لي ذات يوم انه ليس ثمة إنسان قد وقع في حبك ؟

فاجرت : « اوه ! مرة . لقد حدث ذلك مرة واحدة . عندما كنت صغيرة ، كنت خارجة من المدرسة الداخلية ، لم أعد حتى لأذكر » .

فقال هنري في لطف : « الا انه يبدو عليك انك تذكرين . من كان ؟ » .

— رجلاً شاباً . لكنه رحل الى أميركا ، لقد نسيته . هذه قصة قديمة .

فسأل هنري :

— ونحن الاثنان ؟ أليس في هذا شيء من السحر ؟

فنظرت اليه في نوع من التأنيب : « اوه ؟ انت لطيف ، انت تقول لي أشياء لطيفة . لكنها ليست قضية حياة او موت بالنسبة لك » .

فقال هنري في شيء من الغيظ : « ولا الشاب ايضاً ما دام قد رحل » .

فقالت جوزيت بصوت مغضب لم يكن هنري يعرفه عنها :

— آه ! دعني مطمئنة من هذه القصة . لقد رحل لأنه لم يكن يستطيع ان يفعل شيئاً آخر .

— لكنه لم يمت من ذلك ؟

فقالت :

— ماذا تعرف عنه ؟

فقال مدهوشاً من عنفها :

— اعذريني ، يا عزيزتي . أمات ؟

— لقد مات . مات في أميركا . أأنت مسرور ؟

فتمتم هنري وهو يعيدها نحو الطاولة :

— لم اكن اعرف ، لا تغضبي .

هل كانت قادرة إذن ، بعد عشر سنوات ، على الاحتفاظ بمثل هذه الذكريات المؤلمة جداً ؟ وتساءل في ضيق : « هل تستطيع ان تحب اكثر مما تحبني ؟ من الأفضل الا تحبني ، فهكذا لا تقع عليّ مسؤولية ، ولا أكون مخطئاً » . وجرع عدة كؤوس الواحدة تلو الاخرى . وفجأ ، أخذت جميع الاشياء حوله تهذر : كانت ساحرة تلك الرسائل التي كانت تبعث بها في سرعة مخيبة والتي كان

الوحيد الذي يلتقطها . ولقد كان ينساها مع الأسف فوراً . ان هـذا القضيب الخشبي الموضوع عن إهمال في احدى الكؤوس، لم يعد يذكر ما كان يعنيه. والثريا، تلك البلورات الكبيرة المتدلية من الكريستال ، مـاذا كانت تمثل ؟ العصفور الذي كان يتأرجح على رأس لوسي كان نصباً مأتمياً : فبعد ان مات ، وحنط ، أصبح هو نفسه ضريح ذاته : مثـل لويس . لماذا لم يتنكر لويس في إهـاب عصفور ؟ لقد كانوا في الحقيقة جميعاً حيوانات متنكرة . وبـين الحين والحين كانت تحدث في عقولهم هزة كهربائية صغيرة ، فتخرج عندئذ كلمـات من أفواههم .

وقال لجوزيت :

– انظري . لقـد حوّلوها جميعهـا الى بشر : الشمبانزي ، والكلب ، والنعامة ، والفوقة ، والزرافة ، وهم يتكلمون ، يتكلمون لكن ما من احـد يفهم ما يقوله الآخرون . أترين ، انت لا تفهمينني : نحن الأثنـان أيضاً ، لسنا من النوع نفسه .

فقالت جوزيت :

– كلا ، لا أفهم .

فقال في تسامح :

– لا يهم ، هذا لا يهم مطلقاً . » ونهض : « تعالي نرقص » .

– لكن ماذا يحدث لك ؟ انت تدوس على ثوبي . هل شربت كثيراً ؟

فقال :

– ابداً ليس كثيراً . ألا تريدين حقاً ان تشربي قليلاً ؟ انني لأشعر انني على أتم ما يرام . ويمكنني ان أفعل أي شيء : ان اضرب دودول أو أقبل امك...

– لن تقبل ماما ؟ ماذا بك ؟ لم أرك قط هكذا .

فقال :

– سترينني .

كانت كمية من الذكريات ترقص كما يحلو لها في رأسه .

وعادت الى ذاكرته كلمة قالها لامبير ، فقـــال في تبجح : « أترين ، انني ادمج الشر ! » .

– لكن ماذا تروي ؟ تعال اجلس .

– كلا ، لنرقص .

ورقصا ، وجلسا . ورقصا أيضاً . كانت جوزيت آخـــذة بالمرح رويداً رويداً . وقالت بصوت مبهور : « انظر الى الرجل الطويل الذي دخل ، انـه جان كلود سلفر . انها لحسنة حقاً ، هذه الحانة ، سنعود اليها » .

فقال هنري :

– نعم ، انها حسنة .

ونظر حوله في دهشة . ماذا كان يفعل على الضبط هنـا ؟ كانت الاشياء قد صمتت فجأة ، وكان يشعر بالنعاس وبخثورة في معدته . « لا بد ان هـــذا هو التهتك » . إننـــا لنهرب على الأقل : كان سكرياسين العارف في هذه الامور يقول : يمكننـا ان نهرب ذات ليلة ، بقليـــل من الحظ وكثير من الوسكي . والشمبانيا ايضاً لا بأس فيها ، ننسى أخطاءنا وأسبابنا ، ننسى الحقـد ، ننسى كل شيء .

وكرر هنري :

– إنها حسنة . ثم ، أليس كذلك ، كما يقولون ، إننا لا نلهو لنلهو. سنعود. يا عزيزتي سنعود .

الفصل الثامن

انه لمشروع غريب جداً ان يعيش الإنسان حباً يرفضه . كانت رسائل ليويس تمزق قلبي . كان يكتب لي : « هل سأتابع حبك أكثر فأكثر يوماً بعد يوم ؟ » . وكتب لي مرة أخرى : « انه لمقلب غريب ذاك الذي لعبته عليّ . انني لم أعد استطيع ان آتي الى بيتي بنساء لا تدوم علاقتي بهن إلا ليلة واحدة . واللواتي كنت استطيع ان امنحهن قطعة صغيرة من قلبي، لم يعد لديّ ما أقدمه لهن » . كم كنت أرغب ، وانا اقرأ هذه الكلمات، أن القي بنفسي بين ذراعيه ! ولما كان هذا محرماً علي ، فقد كان علي ان أقول له : « انسني » . لكني ما كنت اريد ان اقول هذا . كنت أريد ان يحبني . اريد كل الألم الذي اسببه له . كنت أرزح تحت كآبته وضميري يؤنبني . وكنت اتألم أيضاً لحسابي الخاص . ولكم كان الوقت يمر ببطء ، ولكم كان يمر بسرعة ! وكان ليويس دوماً بعيداً عني كثيراً . لكني كنت أقترب يوماً فيوماً من شيخوختي . وكان حبنا يشيخ ، وسيموت ذات يوم دون ان يكون قد عاش . كانت هذه فكرة لا تحتمل . كنت مسرورة بمغادرة سان — مارتان ، وبمقابلة المرضى من جديد في باريس ، والاصدقاء ، والضجيج ، والمشاغل التي كانت تمنعني من التفكير بنفسي .

لم أكن قد رأيت بول ثانية منذ حزيران . وكانت كلودي قد اولعت بها ودعتها الى تمضية الصيف في قصرها البورغوني : وعلى دهشة كبيرة مني قبلت بول . وعندما تلفنت لها عند عودتي الى باريس، بلبلني التهذيب المقصود والمترفع في صوتها :

— بالتأكيد ، سأكون مسرورة برؤيتك ثانية . هل ستكونين حرة غداً

للذهاب الى حفلة افتتاح معرض ماركاديه ؟

– افضل لو أراك بشكل أهدأ . أليس عندك وقت آخر ؟

– هذا لأنني مشغولة جداً . انتظري . هل تستطيعين ان تمري غداً بعد الغداء ؟

– هذا يناسبني تماماً . اتفقنا .

ولأول مرة منذ سنوات عديدة ، كانت بول في ثياب المدينة عندما فتحت لي بابها . كانت ترتدي طقماً من آخر طراز ، خيوطه كلها رمادية ، وقميصاً اسود ، وكان شعرها عالي التسريحة ، ومتهدلاً أهداباً على جبينها . وكانت قد نتفت حاجبيها . وكان وجهها قد ازداد سمكاً ومصاباً بعض الشيء بالغدة الوردية .

وقالت في مودة :

– كيف حالك ؟ أأمضيت عطلة طيبة ؟

– ممتازة . وانت ؟ هل كنت مسرورة ؟

فقالت في لهجة بدت لي مثقلة بالتعريض :

– مسرورة . » كانت تتفرس في وجهي في حرج وتحدِ في آن واحد : « الا تجدينني قد تغيرت ؟ » .

فقلت :

– تبدين في أتم صحة . وثوبك جميل حقاً .

– انها كلودي التي اهدتني إياه : انه مجلوب من « بالمان» .

لم يكن هناك ما يقال ضد هذا القماش الرقيق ، وهذين الخفين الانيقين . وربما كان هذا فقط لأنني لم اكن معتادة على اسلوبها الجديد : وكانت بول تبدو لي اكثر وقاحة مما تبدو عليه في طريقة لبسها البالية التي كانت تخترعها لنفسها فيما مضى . وجلست ، وصلبت ساقيها ، وأشعلت سيجارة . وقالت في ضحكة صغيرة : « أتعرفين ، انني إمرأة جديدة » .

ولم أعرف ما أجيب به وقلت في بلاهة :

– أهو تأثير كلودي ؟

فقالت :

لم تكن كلودي إلا ذريعة . على الرغم من انها إمرأة مرموقة للغـــاية . » وحلمت لحظة : « ان الناس اظرف مما كنت اظن. وما إن تكفين عن معاملتهم بتحفظ ، حتى لا يطلبوا الا ان يكونوا لطفـاء » . وتفحصتني في انتقـــاد : « يجب ان تخرجي اكثر » .

فقلت في جبن :

– ربما . من كان هناك ؟

فقالت بصوت مبهور :

– اوه ! جميع الناس .

– هل ستأخذين بالمثابرة على صالون خاص بك ؟

فضحكت : « أتعتقدين انني لن اكون قادرة ؟ » .

– على العكس .

فرفعت حاجبيها : « على العكس ؟ » . وساد صمت قصير . وقالت بصوت جاف : « على كل حال ، فالمسألة ، حالياً ، تتعلق بشيء آخر » .

– ماذا إذن ؟

– انني اكتب .

فقلت معبئة صوتي حماسة :

– هذا حسن !

فقالت في ابتسامة :

– انا ، لم أكن أرى نفسي مطلقاً امرأة ادب . لكن هناك ، قالوا لي جميعاً انها لجريمة ان أترك هذا القدر من المواهب يضيع .

فقلت :

– وماذا تكتبين ؟

– يمكنك ان تسمي ذلك كما تشائين : أقاصيص أو قصائد . إنهـا غير قابلة

للتصنيف .
– أأريت هنري عملك ؟
– بالتأكيد لا . قلت له انني أكتب ، لكني لم أره شيئاً . » وهزت كتفيها :
« انا واثقة انه سيتبلبل . انه لم يسع قط الى اكتشاف أشكال جديدة . على كل ، ان التجربة التي أقوم بها ، يجب ان أقوم بها بمفردي » . ونظرت إلي في وجهي وقالت في أبهة : « لقد اكتشفت العزلة » .
– أما عدت متعلقة بهنري ؟
– بلى ، لكني احبه كشخص حر . » ورمت سيجارتها في المدفأة الفارغة :
« لقد كان رد فعله غريباً » .
– هل تبين انك تغيرت ؟
– بديهي انه ليس أحمق .
– بالفعل .

وكنت أنا أشعر انني حمقاء . وسألت بول بالنظر . فقالت بصوت مسرور :
– في البداية ، عند عودته لم أتصل به . وانتظرت ان يتلفن . وهذا ما فعله وشيكاً . » واستجمعت افكارها لحظة : « كنت قد ارتديت ثوبي الجميل ، وفتحت له الباب في سحنة مطمئنة تماماً ، وعلى الفور ، تغير وجهه . وشعرت انه مضطرب . وأسند جبينه الى النافذة مديراً لي ظهره ليخفي وجهه بينما كنت احدثه في هدوء عنا ، وعني . ثم نظر الى في سحنة غريبة جداً . وفهمت انه قرر ان يضعني موضع امتحان » .
– ولماذا يضعك موضع امتحان ؟
– كاد ، لحظة ، ان يقترح علي استئناف حياتنا المشتركة : ثم سيطر على نفسه . انه يريد ان يكون واثقاً مني . وله الحق في ان يشك : لم اكن طيعة معه خلال هاتين السنتين .
– إذن ؟
– شرح لي في خطورة انه يحب الصغيرة جوزيت . » واخذت تضحك في

مبالغة : « أتدرين ذلك ؟ » .

فترددت : « ان له قصة معها ، أليس كذلك ؟ » .

– بالتأكيد . لكنه لم يكن بحاجة ليأتي ويروي لي انه يحبها . لو كان يحبها، لما قال لي ذلك بالتأكيد . لقد وضعني موضع مراقبة ، أتفهمين . لكنني ربحت سلفاً لأنني أكفي نفسي بنفسي الآن .

فقلت :

– انني أفهم .

وجمعت شجاعتي كلها في ابتسامة كبيرة واثقة . وقالت في مرح :

– والأطرف من كل شيء ، هو انه كان ، في الوقت نفسه ، متدللاً بشكل لا يتصور : انه لا يريد ان أثقل عليه ، لكن إذا كففت عن حبه ، فأنني أعتقد انه سيكون قادراً على قتلي . اليك ، لقد حدثني عن متحف غريفان .

– بأي مناسبة ؟

– هكذا على حين غرة . يبدو ان هناك اكاديمياً مجهولاً – موررياك أو ديهاميل – سيكون له تمثاله في متحف غريفان . ولا أظنك تحسبين انه يهتم لذلك . في الحقيقة ، لقد كان هذا تلميحاً الى بعد ظهر ذلك اليوم الشهير الذي وقع فيه في حبي . انه يريد ان أتذكر .

فقلت :

– هذا معقد .

فقالت :

– لكن لا . هذا بسيط ، على كل حال ، لا يوجد ما يعمل إلا شيء بسيط للغاية . بعد أربعة أيام ستجرى المراجعة العامة : سأتكلم مع جوزيت .

فسألت في قلق :

– لتقولي لها ماذا ؟

فقالت بول في ضحكة خفيفة :

– اوه ! لا شيء وكل شيء . سأقوم بغزوها . » ونهضت : « ألا تريدين

حقاً ان تأتي الى حفلة الافتتاح تلك ؟ » .

— ليس لديّ وقت .

فوضعت على رأسها قلنسوة سوداء مسطحة ، وضمت قفازين .

— صدقاً كيف تجدينني ؟

ليس في داخلي ، انما في وجهها بحثت عن جوابي . واجبت في اقتناع : « انت رائعة ! » .

فقالت :

— سنلتقي يوم الخميس عند المراجعة العامة . ستأتين للعشاء ؟

— بالتأكيد .

ونزلت معها . كانت مشيتها ايضاً قد تغيرت . كانت تمشي في استقامة امامها في ثقة ، ولكنها كانت ثقة الماشية في نومها .

وقبل ثلاثة ايام من المراجعة العامة ، حضرت مع روبير مراجعة «الأحياء». ولقد انفعلنا كلانا . انني لأحب جميع كتب هنري ، وهي تؤثر علي شخصياً . لكني اعترف إنه لم يكتب افضل من هذه المسرحية قط . كان شيئاً جديداً لديه ، ذلك العنف اللفظي ، تلك الغنائية الهزلية والسوداء في آن واحد . ثم لم يكن هناك هذه المرة أي مسافة بين العقدة والأفكار : اذ يكفي ان تكون منتبهاً للحبكة ، حتى يفرض معنى المسرحية نفسه عليك . ولما كان هذا المعنى يلتحم بقصة غريبة ومقنعة ، فقد كان له غنى الواقع . وكان روبير يقول : « هذا مسرح حقيقي ! » وكنت آمل ان جميع المتفرجين سيكون رد فعلهم مثلنا . الا ان هذه الدراما ، التي كانت تنبع من الهزلة والتراجيديا ، كان لها طعم لحم نيء يهدد بأن يفزعهم . وعندما ارتفع الستار ، مساء المراجعة العامة ، شعرت بقلق كبير . كان من الواضح ان الصغيرة جوزيت تفتقر الى الوسائل ، لكنها تماسكت جيداً عندما أخذ بعض الناس يتقلقلون . وبعد الفصل الأول، تعالى تصفيق حاد . وزاد أيضاً عند النهاية ، ولقد كانت المسرحية نصراً حقيقياً . يقيناً ، إن لفي حياة كاتب ليس سيء الحظ الى حد كبير ، اوقات

فرح جدية . ولا بد ان ينفعل كثـــيراً عندما يعلم هكذا دفعة واحدة انه نجح في عمله .

حين دخلت الى المطعم ، شعرت باندفاع ودي كبير نحو هنري ، انها لنادرة جداً ، البساطة الحقيقية ! كان كل شيء حـــوله زائف الوقع ، الابتسامات ، الأصوات ، الكلمات ، اما هو فقد كان مماثلاً لنفسه تماماً . كان يبدو سعيداً ، محرجاً بعض الشيء ، وكنت اود لو اقول له اشياء كثيرة لطيفة . لكن ما كان يجب علي ان انتظر : فبعد خمس دقائق ، كانت حنجرتي معقودة . ويجب ان اقول انني أخفقت في مسعاي . فقد وقعت على لوسي بيلوم في اللحظة التي كانت تقول فيها لفولانج وهي تشير الى ممثلتـــين يهوديتين شابتين : لم يكن لديهم محارق لجثث الأموات ، الألمـــان ، بل كان لديهم حاضنات ! » كنت أعرف النكتة . لكني لم اسمعها قط بأذني : واشمأززت في آن واحد من لوسي بيلوم ومن نفسي . ولمت هنري على ذلك . كان ، في مسرحيته ، يقول اشياء جميلة جداً عن النسيان : لكنه كان بالاحرى نسّاء هو الآخر . كان فانسان يزعم ان الأم بيلوم قد جز شعرها وانها كانت تستحق ذلك . وفولانج : ماذا يفعل هنا ؟ ولم تعد بي رغبة في تهنئة هنري . واعتقد انه شعر بحرجي . وبقيت مدة قصيرة بسبب بول، لكني كنت غير مرتاحة على الاطلاق حتى انني شربت بدون وعي: ولم يساعدني هـــذا مطلقاً . كنت اذكر الكلمات التي قالهـــا لامبير لنادين . وتساءلت : « بأي حق أعانه في التذكر ؟. لقد فعلت اقل مما فعله الآخرون ، وتألمت أقل مما تألم الآخرون : وإذا كانوا قـــد نسوا ، إذا كان يجب ان ننسى ، فليس علي إلا ان انسى انا ايضاً » . ولكن لم تكن هنـــاك فائدة من تبكيت نفسي : فقد كنت راغبة في إهانة انسان ما او في البكاء . ان نتصالح ، ونغفر ! يا لها من كلمات مرائية ! اننا ننسى ، هذا كل شيء . ولم يكفي ان ننسى الموتى فحسب . فنحن الآن ننسى جرائم القتـــل ، ننسى القتلة . ليكن ، ليس لي اي حق : لكن إذا ما تصاعدت دموع الى عيني ، فهذا لا يخص احداً غيري .

وتكلمت بول ملياً مع جوزيت ، في ذلك المساء . ولم اعرف ما قالته لها .

وخلال الأسابيع التالية ، خيل إليّ انهـــا تتجنبني . كانت تخرج ، وتكتب ، وكانت مشغولة وهامـــة . ولم أقلق لأجلها مطلقاً : فقد كنت مشغولة كثيراً ، بأشياء كثيرة . وعند عودتي الى البيت بعد ظهر أحـــد الأيام ، وجدت روبير ابيض من الغضب . كانت المرة الأولى في حياتي التي أراه فيها خارجاً عن نفسه : لقد تخاصم مع هنري . وروى لي القصة في بضع جمل مقطعة وقـــال لي بصوت قاطع :

ـ لا تحاولي ان تعذريه . انه غير قابل للمعذرة .

ولم احاول فوراً ، فقد كنت بلا صوت . خمسة عشر عاماً من الصداقة تمحى في ساعة واحدة ! لن يجلس هنري ابداً على هذا المقعد ، ولن ننتظر أبداً صوته المرح . ما اشد مـــا سيكون روبير وحيداً ! وهنري : اي فراغ في حياته ! كلا ، لا يمكن لهذا ان يكون نهائياً . وتمكنت من الكلام ، وقلت :

ـ هـــذا غير معقول . لقد ثار غضبكما كليكما . كنت تستطيع ، في مثل هذه الحالة ، ان تلقي على هنري الخطأ سياسياً دون ان تسحب منه صداقتك . انا متأكدة انه حسن النيـــة . ليس من السهل جداً ان يرى الانسان بوضوح . يجب ان اقول انه لو كان عليّ ان اتخذ قرارات على مسؤوليتي الخاصة ، لشعرت بحرج شديد .

فقال روبير :

ـ يبدو عليك انك تظنين انني طردت هنري ركلاً بقدمي . لم اكن اطلب إلا تسوية الامور بطريقة ودية . إنما هو الذي انصرف صافقاً الباب خلفه .

فقلت :

ـ هل انت واثق من انك لم تترك له خيـــاراً بين ان يستسلم لك او يقطع صلته ؟ عندما طلبت ان تصبح « الأمل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » ، كان مقتنعاً انه لو رفض لخسر صداقتك . وفي هذه المرة ، لما لم يكن يريد ان يستسلم ، فقد فضل بدون شك ان ينتهي من المسألة فوراً .

فقال روبير :

— انت لم تحضري الفصل . منذ البداية ، كان جلياً انـه يسيء النية . انا لا أقول ان المصالحة كانت سهلة : لكن كان بالامكان على الاقل ان نحـاول تجنب انفجار . وبدلاً من هذا ، دحض كافة حججي ، ورفض ان يتناقش مع اللجنة . ولقد بلغ به الحد الى التعريض بأنني مسجل سرياً في الحزب الشيوعي . هـل تريدين ان اقول لك : لقد سعى الى هذه القطيعة .

فقلت :

— يا لها من فكرة !

لقد أضمر هنري بالتأكيد كراهيـة جدية ضد روبير ، لكن مضى زمن طويل على هذا . فلمَ الخصام الآن ؟

ونظر روبير الى بعيد في سحنة قاسية : « انني أحرجه ، أتفهمين » .

فقلت :

— كلا ، انني لا افهم .

فقال روبير :

— انه في سبيله الى القيام بعملية غريبة . هـل رأيت نوع الناس الذين يعاشرهم ؟ اننا ضميره المؤنب . وهو لا يطلب إلا الخلاص منه .

فقلت :

— انت ظالم ! انا ايضاً ، كنت مشمئزة ، ذلك المساء ، لكنك أظهرت لي انت بنفسك ان تقديم مسرحية اليوم يرغم بالضرورة على القيام ببعض تنازلات. وليس بأعمق من هذا عند هنري . انه يعاشرهم على كره منه ، اولئك الناس . انه ينام مع جوزيت : لكن يمكنك ان تكون مطمئناً الى انهـا ليست هي التي تؤثر عليه .

فقال روبير :

— ان ذلك العشاء ، في حد ذاته ، لم يكن خطيراً ، موافق. لكنه إشارة. ان هنري شخص يفضل نفسه ، وهو يريد ان يستطيع تفضيل نفسه في اطمئنان تام ، دون ان يكون عليه ان يؤدي حساباً لأحد .

فقلت :

— يفضل نفسه ؟ انه يقضي وقته في فعل أشياء تسئمه . لقد اعترفت غالباً بأنه متفانٍ للغاية .

— عندما يحلو له هذا ، نعم . لكن الحقيقة هي ان السياسة تسئمه . انـــه ليس مشغولاً جدياً إلا بنفسه . » وقاطعني روبير بحركة نافذة الصبر : « هذا ما آخذه عليه اكثر من أي شيء آخر : انه لم يفكر ، في تلك القضية ، إلا في ما سيقوله الناس عنه » .

فقلت :

— لا تقل لي ان وجود المعسكرات يتركه لا مبالياً .

فقال روبير :

— وانا ايضاً ، انه لا يتركني لامباليـــاً ، ليست هذه هي المسألة . » وهز كتفيه : « هنري لا يريد ان يتهم بأنه يترك الشيوعيين يخونونه . انه يفضل ان ينتقل فعلياً الى معسكر اعـداء الشيوعية . وفي هذه الشروط ، انه ليناسبه ان يتخاصم معي . انه يستطيع ان ينحت لنفسه دون إكراه وجهاً جميلاً لمثقف كبير القلب ، سيصفق له اليمين كله » .

فقلت :

— لا يستهوي هنري ان يعجب اليمين .

— انه يريد ان يعجب نفسه ، وهذا سيجره حتماً الى اليمين : لأن الوجوه الجميلة لا تجد هواة كثيرين بين اليسار . » كان روبير يرفع يـــده نحو التلفون : « سأدعو اللجنة لعقد اجتماع غداً صباحاً » .

وطوال السهرة قلب روبير الفكر ، في سحنة شريرة ، في الرسالة التي كان يريد ان يقدمها للجنة . ولقد غرق قلبي في الحداد صباحاً حين بسطت « الأمل » فوجدت الرسالتين اللتين كانا يتبادلان فيهما هو وهنري الاستنكارات المقذعة ، مطبوعتين فيها . ولقد تجهمت نادين ايضاً . كانت قـــد احتفظت بكثير من الصداقة تجاه هنري ، ولم تكن تتحمل ، من جهة اخرى ، ان يهاجم والدهـــا

علانية . وقالت لي في حنق :

– انه لامبير الذي دفع هنري .

كان بودي لو أفهم مـــاذا حدث في رأس هنري . كانت تفسيرات روبير معادية اكثر مما ينبغي . وكان ما يسخطه اكثر من أي شيء آخر ، هو ان هنري لم يكلمه في ثقة . وقلت في نفسي : لكن بعد كل شيء ، لقد قـــدم له بعض الاسباب ليرتاب . انه سيقول لي انه كان على هنري ان يمحو كل شيء منذ زمن بعيد ؟ هذا جميل جـداً ، لكن الماضي لا ينسى عن إرادة ! وانني اعرف بالتجربة ان المرء يكون ظالماً بسهولة مع الناس الذين لم يتعود الحكم عليهم . انا نفسي ، بحجـــة ان روبير قد شاخ قليلاً في الأشياء الصغيرة ، حدث لي ان شككت فيه : انني ادرك اليوم انه إذا كان قـــد قرر ان يسكت عن قضية المعسكرات ، فإن لهذا أسباباً قوية ، لكني اعتقد ان هذا كان عن ضعف منه . اذن انني افهم هنري . لقد اعجب هو الآخر بروبير ، بشكل أعمى . وعلى الرغم من انه عرف نزعته التسلطية ، فقد تبعه دوماً ، في كل شيء ، حتى عندما كان هذا يرغمه على ان يعيش رغماً عن قلبه . ولا بد ان قضية تراريو قـــد وصمته ، على الضبط بسبب هذا : لقد ظن هنري ، مـــا دام روبير قد استطاع ان يخيب أمله مرة ، انه اصبح قادراً على اي شيء مهما كان .

اخيراً ، لم تكن هناك فائدة من الانتقاد ، إذ لم يعد التراجع ممكناً . وكانت المسألة المطروحة حالياً هي معرفة إلامَ سيصير اليه « الاشتراكي الثوري الحر » . فهو ، بعد ان انقسم ، ودبت اليه الفوضى ، وخسر جريدته ، محكوم عليه بأن يتبدد بسرعة . واقترح لافوري ، بواسطة لونوار ، اندماجه بالفئات المناصرة للشيوعية . وأجاب روبير بأنه يريد ان ينتظر الانتخابات قبل ان يقرر اي شيء . لكني كنت اعلم انه لن يقبل . صحيح أن اكتشاف وجود المعسكرات لم يتركه لامبالياً ، اذ لم تكن لديه اي رغبـة في التقرب من الشيوعيين . وكان اعضـــاء « الاشتراكي الثوري الحر » احراراً في التسجل في الحزب الشيوعي ، لكن الحركة ستكف كما هي بكل بساطة عن الوجود .

وكان لونوار اول من تسجل . وكان يهنيء نفسه على ان انفجار « الاشتراكي الثوري الحر » قد ازال الغشاوة عن عينيه . وتبعه آخرون كثيرون : كان هائلا عدد الناس الذين زالت الغشاوة عن اعينهم في تشرين الثـاني ، بعد الانتصارات الشيوعية . وجاءت الصغيره ماري – آنج تسأل روبير مقابلة لـ « السندان » . وقلت :

– لكن منذ متى أصبحت شيوعية ؟

فأجابتني وهي تحدجني بنظرة تفوق سئم :

– منذ ان فهمت انه لا بد ان نتخذ موقفاً .

ورفض روبير لها المقابلة . كانت جميع تلك الاحاديث حوله تغيظه . وعلى الرغم من حقده على هنري ، فقد اشمأز من مقال لاشوم . وعندما عاد لونوار الى المسألة ، اصغى اليه في نفاد صبر . وقال لونوار بصوت متحمس :

– انه اجمل رد يمكن للشيوعيين ان يجيبوا به على تلك الحملة الرعناء : نجاح الانتخابات . ان بيرون وعصبته لم ينجحوا في ابعاد صوت واحد . » ونظر الى روبير نظرة مشجعة : » ان « الاشتراكي الثوري الحر » سيتبعك حالياً كرجل واحد اذا اقترحت عليه الاندماج الذي كنا نتكلم عنه في اليوم السابق » .

فقال روبير :

– لقد مات « الاشتراكي الثوري الحر » . ولم اعد انا اشتغل بالسياسة .

فقال لونوار :

– هيا اذن . » وابتسم : أعضاء « الاشتراكي الثوري الحر » لا يزالون احياء . وتكفي كلمة توجيه واحدة منك لضمهم » .

فقال روبير :

– لست انوي ان اقولها . انني لم اكن اصلاً على اتفـاق مع الشيوعيين قبل قضية المعسكرات : ولن اذهب لألقي بنفسي بين اذرعهم الآن .

فقال لونوار :

– المعسكرات : لكن ، اسمع لقد رفضت ان تسهم في هذه الخدعة .

فقال روبير :

– لقـــد رفضت ان أتكلم عن المعسكرات ، لكني لم أرفض ان اؤمن بوجودها . وقبلياً ، يجب دومـاً ان نؤمن بالأسوأ ، فهذه ، هي الواقعيـــة الحقيقية .

فقطب لونوار حاجبيه . وقـال : « يجب ان نعرف كيف نواجه الأسوأ ، ونتجاوزه ، انا موافق . لكن عندئذ ، وبّخ الشيوعيين على كل ما تريده : فهذا يجب ألا يمنعك من السير معهم » .

فكرر روبير :

– كلا . لقد انتهى الأمر بيني وبين السياسة . انني عائد الى حجري .

كنت اعلم جيداً ان « الاشتراكي الثوري الحر » لم يعد له وجود وانه ليس لدى روبير اي مشروع جديد . ومع ذلك فقد شعرت بصدمة صغيرة عندما سمعته يصرخ انه عائد الى حجره . وما ان ذهب لونوار ، حتى سألت :

– هل انتهيت حقاً من السياسة ؟

فابتسم روبير : « اشعر انهـــا هي التي انتهت مني . ماذا استطيع ان افعل ؟ » .

فقلت :

– انا واثقة انك لو بحثت لوجدت .

فقال :

– كلا . ثمة شيء بدأت اقتنع به : وهو ان الأقلية لم تعد لها فرصها اليوم.»

وهز كتفيه : « انني لا اريد ان اعمل مع الشيوعيين ولا ضدهم . إذن ؟ » .

فقلت في مرح :

– اذن ، كرّس نفسك للأدب .

فقال روبير بدون حماسة :

– نعم .

– لا تزال تستطيع ان تكتب مقالات في « الطواريء » .

— عند المناسبة سأكتب . لكن ما نكتبه لا يزن ثقيلاً ، نهائياً . وصحيح ما كان يقوله لونوار ، ان مقالات هنري لم يكن لها أي تأثير على الانتخابات .

فقلت :

— يبدو على لونوار انه يعتقد ان هنري آسف لذلك . لكن هذا ظلم كبير : فهو ، حسب ما قلته لي بنفسك ، لم يكن يتمنى ذلك .

فقال روبير بصوت متعجرف :

— انني لا اعرف ما كان يتمناه . انني لست واثقاً انه نفسه عرف ذلك .

فقلت في حدة :

— على كل حال ، ستعترف ان « الامل » لا تسير مع اعداء الشيوعية .

فقال روبير :

— حتى الان ، كلا . يجب ان ننتظر البقية .

كان يغضبني ان افكر ان روبير وهنري قد تخاصما بسبب قصة كانت تنتهي كذنب سمكة . لم يكن هناك مجال ليتصالحا ، لكن من الجلي ان روبير كان يشعر بوحدة كبيرة . لم يكن شتاء سعيداً . كانت الرسائل التي أتلقاها من ليويس مرحة ، لكنها ما كانت تشدد من عزيمتي . كانت تثلج في شيكاغو ، وكان الناس يتزحلقون على البحيرة ، وليويس يقضي اياماً دون ان يخرج من غرفته ، ويروي لنفسه قصصاً : يروي لنفسه اننا في شهر أيار سنهبط الميسيسيبي في مركب ، واننا سننام معاً في كوخ ، يهدهدنا خرير الماء . وكان يبدو عليه انه يصدق ذلك . ولم يكن الميسيسبي ، دون شك ، يبدو من شيكاغو بعيداً جداً . لكني كنت أعرف ان هذا النهار البارد والرمادي الذي يبدأ مع كل يقظة سيبدأ دوماً الى ما لا نهاية بالنسبة لي . وكنت افكر : ابداً لن نلتقي ثانية . ولن يكون هناك ربيع » .

وذات مساء من تلك الأماسي التي بدون مستقبل سمعت بالتلفون صوت بول . كانت تتكلم في لهجة آمرة :

— آن ! أهذه انت ؟ تعالي على الفور ، انني بحاجة للكلام معك ، هذا

مستعجل .

فقلت :

– انني آسفة . لديّ أناس على العشاء : سأمر غداً صباحاً .

– انت لا تفهمين : يحدث لي الآن شيء رهيب وليس هناك غيرك يمكنه ان يساعدني .

– ألا تستطيعين ان تقفزي الى هنا ؟

وساد صمت : « من لديك على العشاء ؟ » .

– آل بيلوتييه وآل كانج .

– هنري ليس معهم ؟

– كلا .

– أمتأكدة ؟

– بديهي انني متأكدة .

– اذن سآتي . لا تقولي لهم على الأخص .

وبعد نصف ساعــــة قرعت ، وادخلتها إلى غرفتي . كان منديل قاتم يخفي شعرها . ولم يكن المسحوق الذي رشت وجهها به ليحجب أنفها المنتفخ. وكانت لأنفـاسها رائحة ثقيلة من النعنع والتجير . لقد كانت بول جميلة جداً حتى انني لم أتصور قط انها يمكن ان تكف عن ان تكون جميلة نهائياً : كان ثمـــة شيء في وجهها يستطيع ان يقاوم كل شيء . وفجأة اتضحت الحقيقة . فقد كان مصنوعاً كسائر الأوجه من لحم إسفنجي : اكثر من ٨٠٪ منه ماء . ونزعت منديلهـــا وتهالكت على الأريكة : « انظري ماذا استلمت » .

كانت رسالة من هنري ، بضعة سطور من كتابة واضحة على ورقـــة بيضاء صغيرة : « بول . اننـــا لا نفعل شيئاً سوى إيلام انفسنا . من الافضل ان نكف تماماً عن التلاقي . حاولي ألا تفكري بي بعد الآن . انني أتمنى ان نستطيع ذات يوم ان نصبح صديقين . هنري » .

وقالت :

– أتفهمين منها شيئاً ما ؟

فقلت :

– انه لم يجرؤ على تكليمك . وفضل ان يرسل لك رسالة .

– لكن ماذا تعني ؟

– تبدو لي واضحة .

– انت محظوظة .

كانت تنظر إليّ نظرة استفهام وتمتمت أخيراً :

– انها رسالة قطيعة .

– قطيعة ؟ هل سبق لك ورأيت رسائل قطيعة مكتوبة هكذا ؟

– ليس فيها شيء فائق للعادة :

فهزت كتفيها : « كفى ! أولاً ماذا يوجد لنقطعه بيننا ؟ مـــا دام يقبل بفكرة الصداقة وما دمت لا أتمنى شيئاً آخر » .

– هل انت واثقة انك لم تقولي له انك تحبينه ؟

فقالت بصوت عنيف ذكرني فجأة بصوت نادين :

– انني أحبه خارجاً عن هذا العالم: بمَ يحرج هذا صداقتنا ؟ ثم انه يتطلبه، هذا الحب . ان هذه الرسالة لمرائية الى حد مقرف ! اخـــيراً ، اقرئيها ثانية : « حاولي » الا تفكري بي بعد الآن . لماذا لا يقول ببساطة : لا تفكري بي بعد الآن ؟ انه يفضح نفسه ، انه يريد ان اعذب نفسي في المحاولة ، لكن ليس ان انجح فيها . وفي الوقت نفسه ، بدلاً من ان يـدعوني بابتذال : « عزيزتي بول ، يكتب : بول » . وتهدج صوتها وهي تلفظ اسمها .

– لقد خشي أن تبدو لك كلمة « عزيزتي » مرائية .

– مطلقاً . انت تعرفين جيداً انـه في الحب ، في أهيج الأوقات ، لا يقال الاسم الا عارياً تماماً . لقد أراد ان يسمعني صوته المخدعي ، أتفهمين ؟

فقلت :

– لكن لماذا ؟

فقالت وهي تنظر اليّ نظرة متهمة :

– هذا ما جئت اسألك عنه . » واشاحت بعينيها : « نحـن لا نفعل شيئاً سوى ايلام انفسنا . لقد طفح الكيل ! انه يزعم انني اعذبه ! » .

– افترض انه يتألم لأنه يجعلك تتألمين .

– ويتصور ان هذه الرسالة ستكون لذيذة علي ؟ كفى ! كفى ! انه ليس أحمق الى هذه الدرجة .

وساد صمت وسألت : « ماذا تفترضين ؟ » .

فقالت :

– انني لا أرى بوضوح . لا ارى بوضوح مطلقاً . لم اكن افترض انه يمكنه ان يكون سادياً الى هذا الحد . » ومررت يديها على خديها في سحنة منهكة : كان يخيل إلي انني ربحت تقريباً . كان قد عاد واثقاً ، ودياً ، وأكثر من مرة شعرت انه على استعداد لأن يقول لي ان الامتحان انتهى . ثم ، في يوم سابق ، كدت اقوم بمناورة خاطئة » .

– ماذا حدث ؟

– كان الصحفيون قد اعلنوا زواجه من جوزيت . وبالطبع لم أصدق ذلك لحظة واحدة كيف يمكنه ان يتزوج جوزيت ما دمت انا امرأته ؟ كان هـــذا يشكل جزءاً من الامتحان، وقد فهمت ذلك فوراً. وجاء ليعترف لي انها كذبة. نعم ؟

– ما دمت اقول لك ذلك ! هل ترتابين فيّ انت ايضاً ؟

– قلت « نعم » . لم يكن هذا سؤالاً .

– قلت : نعم؟ حسناً لنمضِ . لقد جاء. حاولت انْ اشرح له انه يستطيع ان يضع حداً لهذه المهزلة، وان ما من شيء يحدث له في هذا العالم يمكنه بعـــد الآن ان يصيبني ، وانني أحبه في نكران تام للذات . ولست ادري هــل كنت خرقاء ام انه هو المجنون . فعند كل كلمة كنت اقولها ، كان يسمع غيرها : كان هذا فظيعاً ... » .

وساد صمت طويل وسألت في حذر : « لكن ماذا تعتقدين انه يريـد منك على الضبط ؟ » .

فتفرست في وجهي في شك ، وقالت :

ـ أخيراً ، اي لعبة تلعبينها ؟

ـ انني لا العب اي لعبة .

ـ انك تطرحين عليّ اسئلة سخيفة .

وبعد صمت جديد تابعت : « انت تعرفين تماماً ماذا يريـد . انه يريد ان امنحه كل شيء دون ان اطلب منه شيئاً ، هذا بسيط . ومـا لا اعرفه هو هل كتب هذه الرسالة لأنه يعتقد انني لا أزال اطلب حبه ، ام لانه يخشى ان ارفض له حبي . وفي الحالة الاولى ، فإنها المهزلة التي تستمر . وفي الثانية ... » .

ـ في الثانية ؟

فقالت في اغتمام :

ـ انه انتقام . » ومن جديد حطت نظرتها عليّ ، مترددة ، مرتابة ، إلا انها آمرة : « يجب ان تساعديني » .

ـ كيف ؟

ـ يجب ان تكلمي هنري وان تقنعيه .

ـ لكن يا بول ، انت تعرفين جيداً انني وروبير قد تخاصمنا مع هنري .

فقالت في غموض :

ـ اعرف . لكنك ترينه على كل حال .

ـ يقيناً أن لا .

فترددت : « لنقبل ، على كل حال ، تستطيعين ان تريه : انـه لن يلقي بك الى اسفل الدرج » .

ـ سيعتقد انك انت التي ارسلتني ، وما سأقوله لن يكون له اي وزن .

ـ هل انت صديقتي ؟

ـ طبعاً !

فرمتني بنظرة مقهورة ، وفجأة انفرج وجهها وذرفت دموعهـا . وقالت : « انني اشك في كل شيء » .

فقلت :

– بول ، انني صديقتك .

فقالت :

– إذن اذهبي لتكلميه . قولي له انني عييت ، وان هذا يكفي : فمن الممكن ان اكون قد ارتكبت أخطاء . لكن قـد مضى وقت طويل على تعذيبه لي . قولي له ان يكف !

فقلت :

– لنفترض انني قمت بهذه الخطوة . عندما سآتيك بمـا قاله لي هنري ، هل ستصدقينني ؟

فنهضت ، ومسحت عينيها ، واصلحت من وضع منديلها ، وقـالت وهي تسير نحو الباب :

– سأصدقك إذا قلت الحقيقة .

كنت اعرف ان من اللامجدي تماماً ان اتكلم الى هنري . اما بخصوص بول ، فإن كل محادثة ودية ستكون بعد الآن باطلة . كان يجب ان اسطحها على أريكتي وان اعرضها للاستجواب . ولحسن الحظ لم يكن مسموحاً لنا ان نعالج شخصاً نعرفه معرفة صميمة : اذ كنت سأشعر انني ارتكب خطيئة استغلال الثقـة . ولقد ارتحت بشكل جبان عندما رفضت ان ترفع سماعـة التلفون واجابت على رسالتي بكلمة مقتضبة : « اعذريني . انني بحاجة للعزلة . سأتصل بك في اليوم المرام » .

وتابع الشتاء جر نفسه . كانت نادين لا يقر لها قرار منذ قطيعتها مع لامبير . وباستثناء فانسان لم تكن ترى احداً . وكانت قـد كفت عن ممارسة الصحافة ، وتكتفي بالاهتمام بـ « الطوارىء » . وكان روبير يقرأ كثيراً ، وكان يأخذني غالباً الى السينما ويمضي ساعات في الاستماع الى الموسيقى : كان قـد اخذ يشتري

اسطوانات بكثرة . وعندما يظهر عليه هكذا هوس جديد ، فهذا يعني ان عمله لا يسير .

ذات صباح ، بينما كنا نتناول إفطارنا ونحن نقلب الصحف ، وقعت عيناي على مقال للونوار . كانت المرة الاولى التي يكتب فيها في صحيفة شيوعية . ولقد وجه فيها ضربة جدية . كان ينفذ حكم الاعدام بجميع اصدقائـــه القدامى ، حسب القواعد . وكان روبير اقلهم سوء معاملة . وبالمقابل ، كان هائجاً ضد هنري . وقلت :

ـ انظر الى هذا .

وقرأ روبير ، ورمى الجريدة : «يجب ان اعترف بأن هنري يستحق التقدير اذ لم يصبح معادياً للشيوعية » .

ـ قلت لك انه سيتحمل الضربة !

فقال روبير :

ـ لا بد ان هناك تجاذباً في الجريدة . فمن الملموس حسب مقالات سامازيل انه لا يطلب الا الالتحاق باليمين . وكذلك تراريو ، بالطبع . ولامبير اكثر من مشكوك في أمره .

فقلت :

ـ اواه ! هنري لا يرفل في الحرير ! » وابتسمت : « في الحقيقة ، ان موقفه موقفك نفسه تقريباً : فكلاكما متخاصمان مع العالم كله » .

فقال روبير :

ـ لا بد ان هذا يحرجه اكثر مني .

كانت في صوته لطافــة تقريباً . وشعرت ان حقده على هنري اخذ يتبدد .

وقلت :

ـ لن اتوصل ابداً الى ان افهم لماذا تخاصم معك على ذلك النحو . انا واثقــة انه يعض على البنان ندماً اليوم .

فقال روبير :

– لقد اعدت التفكير في هذا كثيراً . في البداية كنت آخذ عليه انه اهتم اكثر مما ينبغي بنفسه ، في تلك القضية ؛ والآن اقول لنفسي انه لم يكن مخطئاً الى هذا الحد . في الحقيقة كان علينا ان نقرر ماذا يمكن وماذا يجب ان يكون دور المثقف ، اليوم . وكان الصمت يعني ان تختار حلاً متشائماً جداً : ومن الطبيعي ، في سنه ان يغضب .

فقلت :

– الغريب هو ان هنري أقل حرصاً منك بكثير على القيام بدور سياسي .

فقال روبير :

– لعله فهم ان اشياء اخرى مطروحة على بساط البحث .

– ماذا اذن ؟

فتردد روبير : « أتريدين لب فكرتي ؟ » .

– بالطبع .

– لم يعد للمثقف اي دور يلعبه .

– كيف هذا ؟ انه يستطيع على كل حال ان يكتب ، أليس كذلك ؟

– اوه ! يمكننا ان نلهو بضم كلمات ، كما نضم لآلىء ، مع الحرص الكبير على ألا نقول شيئاً . لكن حتى هكذا ، هذا خطر .

فقلت :

– لنرَ ، انت في كتابك تدافع عن الأدب .

فقال روبير :

– آمل ان ما قلته فيه سيعود حقيقياً من جديد ذات يوم. اما حالياً ، فإنني اعتقد ان خير ما نستطيع ان نفعله ، هو انْ نجعل العالم ينسانا .

فسألت :

– الا انك لن تكف عن الكتابة ؟

– بلى . بعد ان انهي تلك الدراسة ، لن اكتب .

– لكن لماذا ؟

فقال روبير :

– ولماذا اكتب ؟ لأن الانسان لا يعيش بالخبز وحده ولأنني أؤمن بضرورة هذه الفضالة . انني اكتب لإنقاذ كل ما يهمله العمل : الحقائق الراهنة ، الفرد ، ما هو مباشر . وكنت افكر حتى الآن ان هـــذا العمل يندمج بعمل الثورة . لكن لا : انه يحرجه . ففي الساعة الراهنة ، يستغل كل ادب يهـدف الى منح البشر شيئاً آخر غير الخبز ، لإثبات انهم يستطيعون ببساطة ان يستغنوا عـن الخبز .

فقلت :

– لقد تجنبت دوماً سوء التفاهم هذا .

فقال روبير :

– لكن الاشياء تغيرت . » وتابع : « أتفهمين ، ان الثورة اليوم في ايدي الشيوعيين وفي ايديهم وحدهم ، والقيم التي كنا ندافع عنها لم يعد لها مكانها فيها . ربما سنجده ثانية ، لنأمل ذلك . لكن اذا عاندنا في المحافظة عليها ، في هـــذا الوقت ، فإننا سنخدم اعداء الثورة .

فقلت :

– كلا ، لا اريد ان اصدق هذا . ان لهم الحقيقة ، واحترام الأفراد ، ليس مؤذياً على الاطلاق .

فقال روبير :

– عندما رفضت ان اتكلم عن معسكرات الشغل ، فهذا لأن الحقيقة بدت لي مؤذية .

– كانت هذه حالة خاصة .

فقال :

– حالة خاصة تشبه مئات الحالات الاخرى . كلا اننا نقول الحقيقـة او لا نقولها . واذا لم نكن عازمين على قولها دوماً ، فيجب الا ندسّ أنفسنا فيهـا : الأفضل ان نسكت .

فتفرست في وجه روبير : « أتعرف ما أعتقده ؟ انت لا تزال ترى انه يجب التزام الصمت حول المعسكرات الروسية ، لكن هذا قد كلفك على كل حال . والتضحيات، انت مثلي في ذلك: نحن لا نحبها، وهي تسبب لنا تبكيت ضمير . وانما لتعاقب نفسك تتخلى عن الكتابة » .

فابتسم روبير : « لنقل بالأحرى انني بتضحيتي ببعض الاشياء – وبشكل موجز ، ما تسمينه واجباتي كمثقف – وعيت بطلانها » . وأضاف : « أتذكرين سهرة ميلاد ١٩٤٤ ؟ كنا نقول انه ربما سيأتي يوم يخسر فيه الأدب حقوقه . حسناً ! ها قد وصلنا . ليس ما نفتقر اليه هم القراء. لكن الكتب التي أستطيع ان اقدمها لهم اما ان تكون مضرة ، او لا معنى لها » .

فترددت : « ثمة شيء غير منطقي في هذا الكلام » .

– ماذا اذن ؟

– اذا كانت القيم القديمة تبدو لك باطلة الى هذا الحد ، فقد كنت ستسير مع الشيوعيين .

فهز روبير برأسه : « انت على حق : ثمة شيء غير منطقي . سأقول لك ماذا : انني مسنّ » .

– ما دخل عمرك بهذا ؟

– انني أتبين جيداً ان كثيراً من الاشياء التي حرصت عليها لم تعد موضع رهان . انني مقاد الى ارادة مستقبل مختلف جداً عن الذي كنت أتصوره . كل ما هنالك انني لا استطيع ان أتغير: اذن فأنا لا أرى لي مكاناً في ذلك المستقبل.

– بتعبير آخر ، انت تتمنى انتصار الشيوعية ، مع علمك انك لا تستطيع ان تعيش في عالم شيوعي ؟

– هذا هو الأمر تقريباً . » وأضاف : « سأحدثك عن ذلك ثانية . سوف اكتب عن هذا الموضوع : سيكون هذا خلاصة كتابي .

فقلت :

– ثم ، عندما سينتهي الكتاب ، ماذا ستفعل ؟

– سأفعل كسائر الناس. هناك مليارات ونصف مليار من البشر لا يكتبون.

ولم أشأ ان اقلق كثيراً . كان على روبير ان يصفّي « الاشتراكي الثوري الحر » ، وكان في ازمة ، وسوف يتمالك نفسه ثانية . لكني أعترف انني لم اكن احب هذه الفكرة : ان نعيش كسائر الناس . ان نأكل لنعيش ، وان نعيش لنأكل ، كان هذا كابوس مراهقتي . واذا كان لا بد من العودة الى هذه النقطة ، فالأفضل ان اشعل الغاز فوراً . لكني افترض ان جميع الناس يعتقدون ايضاً بهذه الاشياء . لنشعل الغاز فوراً . وما كنا لنشعله .

وشعرت انني منحطة بالأحرى ، في الايام التالية ، ولم اكن أرغب في رؤية احد . ولقد دهشت كثيراً عندما وضع مستخدم بين ذراعي ذات صباح باقة ضخمة من الورود الحمر . وكانت عليها رسالة صغيرة من بول ، مشكولة بالورق الشفاف :

– « رائع ! لقد تبدد سوء التفاهم ! انني سعيدة وارسل لك وروداً . الى بعد ظهر اليوم ، عندي » .

وقلت لروبير : « ليست الحال بأفضل » .

– ليس هناك اي سوء تفاهم ؟

– مطلقاً .

وكرر عليّ ما سبق وقاله لي عدة مرات :

– يجب ان تأخذيها الى « ماردروس » .

– لن يكون من السهل دفعها الى تقرير ذلك .

لم اكن طبيبتها . لكني لم اكن صديقتها ايضاً ، بينما كنت ارتقي درجها مع اكاذيب على طرف شفتي ، ونظرة احترافية قابعة في اعماق عينيّ . وبدت لي الابتسامة التي اصطنعتها وانا اقرع بابها خيانة ، ولقد ازداد خجلي عندما بدرت عن بول وهي تستقبلني حركة غير معتادة : فقد قبلتني . كانت ترتدي ثوباً من اثوابها الطويلة التي بدون عمر ، وكانت قد علقت وردة حمراء بشعرها المحلول ، ووردة اخرى على صدرها . وكان الاستديو مليئاً بالزهور .

وقالت بول :

– ما ألطفك بمجيئك ! انت دوماً لطيفة جداً . انني لا استحق ذلك حقاً: فقد كنت نتنة معك . » وأضافت في لهجة اعتذار « لقد فقدت المنطق تماماً ».

– انما علي انا ان اشكرك : فقد ارسلت لي وروداً عظيمة .

فقالت بول :

– آه ! انه يوم عظيم ! لقد حرصت على ان تشاركي في العيد . » وابتسمت لي في سحنة سعيدة : « إنني انتظر هنري بين دقيقة واخرى : كل شيء يبدأ من جديد » .

كل شيء يبدأ من جديد ؟ انني لأشك في ذلك كثيراً . وكنت افترض بالأحرى ان هنري قد قرر هذه الزيارة بدافع الشفقة . على كل حال ، لم اكن اريد ان أجتمع به . وخطوت خطوة نحو الباب :

– قلت لك اننا تخاصمنا مع هنري . سيحنق عندما يراني هنا . سأعود غداً .

فقالت :

– ارجوك !

كان في عينيها رعب عظيم حتى انني ألقيت بحقيبتي وقفازي على الاريكة . ليكن ، انني باقية . وسارت بول نحو المطبخ بخطى عريضة حريرية وعادت حاملة على صينية كأسين وزجاجة شمبانيا : « سنشرب نخب المستقبل » .

وطارت السدادة ، وقرعنا كأسينا . وسألت :

– ماذا حدث ؟

فقالت بول في مرح :

– يجب ان اكون بلهاء حقاً . منذ زمن بعيد ، وجميع الدلائل معي في يدي . ولكن لم تتضح الصورة وتتشكل إلا هذه الليلة . لم اكن نائمة لكني كنت مغمضة عيني وفجأة رأيت ، كما يرى الانسان بوضوح على البطاقة البريدية، الحوض الكبير لقصر دي بلزونس . ومن الفجر أرسلت بطاقة الى هنري .

نظرت إليها في قلق . نعم ، لقـد فعلت حسناً ببقائي . فلم تكن الحـــال أفضل ، بل لم تكن على ما يرام مطلقاً . وقالت بول :

ــ ألا تفهمين ؟ هذا سخيف مثل مسرحية فودفيل ! إن هنري غيور .

وضحكت في مرح حقيقي : « هذا يبدو غير معقول ، أليس كذلك ؟ » .

ــ بالأحرى .

ــ حسناً ! انها الحقيقة . انه يتلهى سادياً بتعذيبي ، والآن انني اعلم لماذا . »

وأصلحت من وضع الوردة الحمراء في شعرها : « عندما أعلن لي فجأة انـه يجب ان نكف عن النوم معاً ، اعتقدت ان هذا من قبيل سرعـــة التأثر الاخلاقي . وكنت مخطئة تماماً : فقد تصور في الحقيقة انني أصبحت باردة ، لقد جرحـــه ذلك بفظاعة في كبريائه . ولم احتج بما فيه الكفاية من القناعة ممـا زاد في غضبه ايضاً . وعندئذ ، اخذت اخرج ، وألبس ، واغتاظ من ذلك وقلت له الى اللقاء في مرح ، في مرح كثير ، اكثر مما تتحمله طبيعته . وذات مرة ، في بورغونيا ، ارتكبت غباوات هائلة ، واقسم لك انني لم افعل ذلك عمداً » .

وفي تلك اللحظة ، قرع الباب في لطف . ونظرت إليّ بول بوجـــه دفعني للنهوض والذهاب لأفتح . كانت امرأة تمسك بيدها سلة . وقالت :

ــ عفواً ، المعذرة ، انني لا أجد البوابة . اريد اجراء عملية لهر .

فقلت :

ــ العيادة في الطابق الارضي ، الباب الذي الى اليسار .

واغلقت البـــاب وتجمدت ضحكتي عندمـــا صادفت نظرة بول التائهة .

وقالت :

ــ ما معنى هذا ؟

فقلت :

ــ ألاّ تكون البوابة موجودة ، هذا يحدث لها .

ــ لكن لماذا قرعت هنا بالذات ؟

ــ انها صدفة : كان لا بد لها ان تقرع احد الأبواب .

فقالت بول :

– صدفة ؟

فابتسمت في سحنة مشجعة : « كنت تحدثينني عن عطلتك . مـاذا فعلت إذن لجرح هنري ؟ » .

– آه ! نعم . » كان صوتها قد خلا من كل حماسة : « حسناً . ! لقد أرسلت له بطاقة بريدية اولى . حدثته فيهـا عن مشاغلي وكتبت هذه الجملة التعيسة : انني اقوم بنزهات طويلة في هذا البلد الذي يشبهني على ما يقال . وبديهي ، فقد ظن فوراً ان لي عشيقاً » .

– لست ارى ...

فقالت في نفاذ صبر :

– « يقال » . صيغة المجهول هـذه كانت مشبوهة . فعندمـا تشبه امرأة بمشهد ، فهذا يعني بشكل عام ان من يشبهها عشيقها . وبعد ذلك ارسلت إليـه في البندقية ببطاقة اخرى تمثل حديقة بلزونس مع حوض في وسطها .

– واذن ؟

– لقد أعلمتني بنفسك ان الينابيع ، والأحواض ، والبرك ، رمز نفساني . وفهم هنري انني القي في وجهه كوني قد اتخذت عشيقاً ! ولا بد انه علم ان لويس فولانج كان هناك : ألم تلاحظي ، في عشاء المراجعة العامـة ، اي نظرة كان يصعقني بها عندما كنت أتكلم مع فولانج ؟ هـذا واضح وضوح ان اثنين واثنين يساويان أربعة . وبدءاً من هنا ، كل شيء يتسلسل .

– أهذا ما قلته له في بطاقتك ؟

– نعم . انه يعرف الآن كل شيء .

أأجابك ؟

ولِمَ ذلك ؟ سوف يأتي ، انه يعلم تماماً انني انتظره .

ولزمت الصمت . كانت بول ، في اعماقها ، تعرف انه لن يأتي : لهذا تضرعت إليّ بأن ابقى . فقد كان لا بد لها ، في لحظة معينة ، ان تعترف في نفسها انه لم

يأت ، وعندئذ سوف تنهار . وأملي الوحيد ان يكون هنري قد فهم انهـــا في سبيلهـــا الى ان تصبح مجنونة فيمر لرؤيتها شفقة وبانتظار ذلك ، لم أكن أجد شيئاً اقوله . كانت تنظر الى الباب في شخوص مـــا عدت استطيع احتماله . وكانت رائحة الورود تبدو لي رائحة موت . وسألت :

– ألا زلت تشتغلين ؟

– نعم .

فقلت وقد حلّ علي إلهام مفاجيء :

– لقد وعدت بأن تريني شيئاً ما . ثم لم تفعلي ذلك ابداً .

– أهذا يهمك حقاً ؟

– بالتأكيد .

وسارت نحو مكتبها واخرجت منه رزمة من أوراق زرق مغطاة بكتابـة مستديرة . ووضعتها على ركبتي . كانت ترتكب دوماً أخطاء املائية ، ولكن ليس مثل هذا العدد الكبير ابداً . وتصفحت ورقة . كان ذلك يمنحني ثقـة ، لكن بول لا تزال تنظر إلى الباب . وقلت :

– انني لا احسن قراءتك . ايزعجك ان تقرئي بصوت عال ؟

فقالت بول :

– كما تشائين .

واشعلت سيجارة . كنت اعرف ، بينما هي تقرأ على الاقل ، ما الأصوات التي كانت تتشكل في حنجرتها . لم أكن انتظر شيئاً كبيراً ، لكني فوجئت على كل حال : كانت كتابتها مرهقة للنفس. وفي منتصف جملة ، قرع الباب السفلي. وقالت في لهجه منتصرة : « أرأيت ! » . وضغطت على الزر الذي يتولى فتح الباب . ولبثت واقفة ، وعلى وجهها تعبير وَجد .

– بطاقة هوائية[١] .

---

١ – في باريس ، وبعض المدن الاوروبية الكبيره ، ترسل الرسائل المستعجلة بواسطة جهاز للهواء المضغوط ، ينقش في مختلف انحاء المدينة . « المترجم » .

– شكراً .
واطبق الرجل الباب خلفه وناولتني الورقة الزرقاء : « افتحيها واقرئيها لي » .
كانت قد جلست على الأريكة . وكانت غمازتاها وشفتاها قد اصبحت بنفسجية .
« بول . لم يقع أي سوء تفاهم مطلقاً . سنصبح صديقين عندما تقبلين بأن حبنا مات . وبانتظار ذلك ، لا تكتبي لي . الى اللقاء » .
وتهاوت بطولها كله بعنف كبير حتى ان إحدى الورود فوق المدفأة تناثرت اوراقها . وأنّت : « انني لا أفهم . لم اعد افهم شيئاً » . كانت تنتحب ، ووجهها مختبىء بين الوسادات ، ورحت ألقي عليها بكلمات خالية من المعنى ، كي اسمع مواء صوتي فحسب : « سوف تشفين ، يجب ان تشفي . الحب ليس كل شيء ... » . مع علمي بأنني ، مكانها ، ما كنت لأود ابداً ان اشفى وان أدفن حبي بيدي .
كنت عائدة من سان – مارتان حيث قضيت نهاية الاسبوع عندما تلقيت بطاقتها الهوائية : « العشاء يقام غداً في الساعة الثامنة » ورفعت سماعة التلفون . وبدا لي صوت بول جليدياً .
– آه ! أهذه انت ؟ ما الأمر !
– كنت اريد ان اقول لك فقط انني موافقة على غد مساء .
فقالت :
– بالطبع ، موافقة . » ووضعت السماعة .
كنت أنتظر سهرة صعبة ومع ذلك حين فتحت بول لي الباب ، صُدمت . لم اكن قد رأيت وجهها قط بدون ماكياج . وكانت ترتدي تنورة قديمة ، وكنزة رمادية عتيقة ، وكان شعرها مشدوداً الى الخلف بشكل كريه . وكانت قد وضعت على الطاولة ، التي اضافت اليها الواحاً خشبية والتي تمتد من طرف الاستديو الى طرفه الآخر ، اثني عشر صحناً ومثلها من الاقداح . وقالت لي

مكشرة وهي تمد لي يدها :
- أجئت تقدمين لي تعازيك ام تهانيك ؟
- بأية مناسبة ؟
- قطيعتي مع عشيقي .
ولم اجب وسألتني وهي تشير من فوق كتفي الى الممشى الخاوي :
- اين هم ؟
- من ؟
- الآخرون ؟
- اي آخرين ؟
فقالت بصوت متردد وهي تطبق الباب .
- آه ! كنت اظن ان عددكم اكبر بكثير . » والقت نظرة على الطـاولة .
« ماذا تريدين ان تأكلي ؟ » .
- اي شيء مما لديك .
فقالت .
- لأنه ليس لدي شيء ، الا العجة من الجائز ؟
فقلت في استعجال .
- على كل الاحوال ، لست جائعة .
فقالت بصوت معرّض .
- استطيع ان اقدم لك عجة دون ان اؤذي احداً .
- كلا حقاً . يحدث لي غالباً ألا أتعشى .
وجلست ، ولم اكن استطيع ان اشيح بناظري عن مائدة المـأدبة تلك . وكانت بول قد جلست ايضاً ، وراحت تتفرس في وجهي في صمت . لقـد سبق لي ورأيت في عينيها تأنيباً ، شكاً ، جزعاً ، اما اليوم فلم يكن بالإمكان ان اخطىء : كان الحقـد ، اسود ، بارداً قاسيـاً . وغضبت نفسي على الكلام . وقلت :

– من كنت تنتظرين ؟

– كنت انتظركم جميعاً ! » وهزت كتفيها : « لا بد انني نسيت ان ارسل الدعوات » .

فسألت :

– جميعاً : من تعنين ؟

فقالت :

– تعرفين جيداً . انت ، هنري ، فولانج ، كلودي ، لوسي ، روبير ، نادين : التحالف كله !

– تحالف ؟

فقالت بصوت قاسٍ :

– لا تتظاهري بالبراءة . انتم جميعاً متحالفون . والسؤال الذي كنت اريد أن أطرحه عليكم هذا المساء ، هو هـذا : لأية غاية عملتم ؟ اذا كانت لصالحي ، فإنني سأشكركم وسأرحل الى افريقيا للاعتناء بالبرصى وإن لم يكن ، فـلم يبق علي الا ان انتقم » ونظرت إليّ في ثبات : « سيتوجب علي ان انتقم اولاً من الذين كانوا أعز النـاس علي . فيجب اذن الا أقرر إلا وانا واثقـة » . كان في صوتها هوس قـاتم جداً حتى انني رحت انظر خلسة الى الحقيبة التي وضعتها على ركبتيها والتي كانت تلعب بعصبية بقفلها اللامع . وفجأة ، كان كل شيء قـد اصبح ممكناً . هذا الاستديو الاحمر ، ما أجمله من ديكور لجريمة قتل ! وقررت ان اشن هجوماً معاكساً :

– اسمعي يا بول، تبدين متعبة جداً هذه الايام . انت تقيمين عشاء ، وتنسين ان تدعي الناس ، وتنسين ان تعدّي الطعام . وها انت الآن تخترعين بحراناً من الاضطهاد. يجب ان تذهبي لرؤية طبيب حالاً. سآخذ لك موعداً مع ماردروس.

وللحظة ، بدت متحيرة وقـالت : « بي صداع رأس ، لكن هـذا شيء ثانوي . يجب اولاً ان اضع الامور تحت النور » . وفكرت : « اعرف ان لي مزاجاً يحب التفسيرات . لكن الواقعة واقعة » .

– اين هي الوقائع ؟
– لماذا وجهت كلودي رسالتها الاخيرة الى شارع سنجر ؟ لمـاذا كان هناك قرد يكشر لي في البيت المواجه ؟ لمـاذا اجبتني حين قلت انني لا أعرف كيف ادير صالوناً . على العكس ؟ انتم تتهموني بأنني قلدت هنري بمحاولة الكتابـة ، بأنني قلدت كلودي ، في تسريحاتها وحياتهـــا الدنيوية . انتم تلومونني على انني قبلت مـال هنري وازدريت المساكين . لقد اتحدتم لتقنعوني بسفالتي . » ومن جديد حدجتني بنظرة مهددة : « هل كان ذلك لإنقاذي ام لتهديمي ؟ » .
فقلت :
– ما تسمينه وقائع ليس الا صدفاً لا تعني شيئاً .
– هيا ، هيا ! انها ليست غيومـــاً تلتقي ! » واضافت في نفاد صبر : « لا تنكري . اجيبني بصراحة ، او لن تخرج من هنا ابداً » .
فقلت :
– لم يفكر احـــد مطلقاً بهدمك . اسمعي ، لمـــاذا اريد بك شراً . نحن صديقتان .
فقالت بول :
– هذا ما كنت اقوله في نفسي في الماضي . فما إن أراكم ثانية ، حتى اكف عن الايمان بشكوكي . لكأن هذا سحر . » ونهضت فجأة وتغير صوتها وقالت . « انني استقبلك اسوأ استقبال . لا بد ان يكون قد بقي عندي قليل من البورتو في مكان ما» . وذهبت لتأتي بالبورتو، وملأت قدحين ، وكشرت عن ابتسامة . « كيف حال نادين ؟ » .
– هكذا وهكذا . وهي متخاذلة بالاحرى منذ قطيعتها مع لامبير .
– مع من تنام ؟
– اعتقد انه ليس لديها احد حالياً .
فقالت بول .
– نادين ؟ اعترفي ان هذا غريب .

– ليس كثيراً الى هذا الحد .

– أتخرج كثيراً مع هنري ؟

فقلت .

– قلت لك اننا تخاصمنا .

فقالت بول في نوع من الضحك :

– آه ! انني انسى قصة الخصام تلك ! » وتوقف الضحك : « لست مخدوعة، أتعرفين » .

– لنرَ : لقد قرأت رسالتي هنري وروبير في « الأمل » .

– لقد قرأتها في عدد « الأمل » الذي وقع تحت يدي ، نعم .

فتفرست في وجهها : « تقصدين ان ذلك العدد قد اختلق عمداً ؟ » .

فقالت بول :

– بديهي ! » وهزت كتفيها : « كان ذلك ، بالنسبة لهنري ، لعبة طفل ».

ولزمت الصمت . لم يكن هناك اي معنى للمناقشة . وهاجمت من جديد :

– وهكذا حسب ما تقولين ، لم تعد نادين ترى هنري ؟

– كلا .

– لم تحبه قط ، أليس كذلك ؟

– ابداً .

– لماذا ذهبت معه الى البرتغال ؟

– تعرفين جيداً : كان يستهويها ان تكون لها قصة معه ، وكانت ترغب في السفر على الأخص .

كنت اشعر انني اتعرض لاستجواب بوليسي . وبين لحظـــة وأخرى كانوا سيثبتون عليّ ويقودونني الى السجن . وقالت بول :

– وتركتها تذهب هكذا .

– منذ موت دييغو ، تركتها دوماً حرة .

فقالت بول :

— انت امرأة غريبة . يتكلمون كثيراً عني ، وليس بما فيه الكفاية عنك . »
وملأت قدحي من جديد : « انهي اذن هذا البورتو » .
— شكراً .
لم أكن ارى الى اين تريد الوصول ، لكني كنت ازداد ضيقاً أكثر فأكثر .
ماذا لديها على الضبط ضدي ؟ وقالت :
— منذ زمن بعيد ما عدت تنامين مع روبير ، أليس كذلك ؟
— منذ زمن بعيد جداً .
— ولم يكن لك عشاق ابداً ؟
— حدث لي هذا ... قصص بلا اهمية .
فكررت بول في بطء :
— قصص بلا أهمية . ولديك واحدة الآن منها ، قصة بلا أهمية ؟
ولا أدري لماذا شعرت انني مرغمة على الاجابة ، كأنني كنت آمل أن تكون للحقيقة القدرة على تجريد جنونها من سلاحه . وقلت : « عندي قصة هامة جداً في اميركا مع كاتب ، انه يدعى لويس بروغان ... » .
كنت على استعداد لأن اروي لها كل شيء لكنها اوقفتني قائلة : « اوه ! اميركا بعيدة . انما اقصد في فرنسا » .
فقلت :
— انني احب ذلك الاميركي . سأعود لاراه في ايار . فلا مجال لأن تكون لي قصة اخرى .
فسألت بول :
— وما رأي هنري بذلك ؟
— وما دخل هنري في هذا ؟
فنهضت بول وقالت :« هيا ! لنكف عن هذه اللعبة . انت تعرفين جيداً انني اعرف انك تنامين مع هنري. وما اريده ، هو ان تقولي لي متى بدأ هذا ».
فقلت :

– اسمعي ، انها نادين التي نامت مع هنري . ليس انا .

فقالت بول .

– لقد القيت بها بين ذراعي هنري لتحتفظي به . لقد فهمت هذا منذ زمن طويل . انت قوية جداً ، لكنك ارتكبت مع ذلك اخطاء .

كانت بول قد تناولت حقيبتها ، وراحت تتابع اللعب بالقفل اللامع ولم اعد استطيع ان اشيح بنظري عن يديها . ونهضت بدوري وقلت .

– اذا كنت تفكرين هكذا ، فمن الأفضل ان اذهب .

فقالت بول .

– لقد حزرت الحقيقة في تلك الليلة في ايام ١٩٤٥ عندما زعمتما انكما ضعتما بين الجماهير . ثم قلت لنفسي انني كنت اهذي . ما أشد ما كانت بلاهتي !

فقلت .

– كنت تهذين . انت تهذين .

فاستندت الى الباب وقالت . «لننته من الأمر . هل دبرتم هذه المهزلةللتخلص مني ، ام لصالحي ؟ » .

فقلت .

– اذهبي لرؤية طبيب . ماردروس او غيره ، اياً كان . لكن اذهبي لرؤية أحدهم واروي له كل شيء . سيقول لك انك في أتم هذيان .

فقالت بول .

– أترفضين مساعدتي ؟ اوه ! كنت انتظر ذلك . لا يهم . سأنتهي الى ان أرى بوضوح دون مساعدتك .

– لا استطيع ان اساعدك ، انت ترفضين تصديقي .

وطوال لحظة بدت لي لامتناهية ، ثبتت نظرها في نظري : « أتريــــدين الذهاب ؟ اينتظرونك ؟ » .

– لا أحد ينتظرني . لكن لا فائدة من بقائي .

فابتعدت عن الباب : « اذهبي . تستطيعين انـ تكرري عليهم كل شيء :

ليس لدي ما أخفيه » .

فقلت وانا أمد لها يدي :

ـ صدقيني يا بول ، انت مريضة يجب ان تعالجي نفسك .

فمدت لي يدها : « شكراً على زيارتك . الى لقاء قريب » .

ـ الى لقاء قريب .

ونزلت الدرج بأسرع ما أمكنني .

وفي اليوم التالي بعد الغداء كنا نحتسي القهوة عندما قرع الباب . كانت كلودي .

ـ اعذريني . فليس من المناسب أبداً ان آتي هكذا دونما إخطار . » كان صوتها مضطرباً وخطيراً : « جئت أراك بخصوص بول . اشعر ان ثمة شيئاً ما ليس على ما يرام » .

ـ ماذا حدث ؟

ـ كان يجب ان تتناول الغداء في البيت . وفي الساعة الواحدة والنصف لم تكن هناك . فتلفنت فأجابتني بقهقهة كبيرة. وقلت لها اننا سنجلس الى المائدة فصرخت : « اجلسوا الى الطاولة ! اجلسوا إذن الى الطاولة ! » وهي تضحك كأنها اصيبت بالهستيريا .

كان نذير بشؤم فرح يجعل عيني كلودي الكبيرتين تلمعان . ونهضت : « يجب ان نمر عليها » .

فقالت كلودي :

ـ هذا ما فكرت به . لكني ما كنت لأجرؤ على الذهاب بمفردي .

فقلت :

ـ هيا اليها معاً !

ووضعتنا سيارة كلودي بعد دقيقتين أمام بيت بول . وبدت لي اللافتة المألوفة « غرف مؤثثة » محملة اليوم بمعنى مشؤوم . وقرعت . ولم ينفتح الباب . ومن جديد ، قرعت طويلاً . وطرقت خطا البلاط وظهرت بول . كان

شعرها مخيفاً تحت شال بنفسجي. واخذت تضحك : « لستم الا اثنين ؟ » كانت تبقي على الباب منفرجاً وتتفحصنا بعينيها الشريرتين .

— لم اعد بحاجة لكما ، شكراً .

واطبقت البـاب في عنف وسمعتهـــا تصرخ بصوت عالٍ وهي تبتعد : « يا للمهزلة ! » .

وبقينا مزروعتين على الرصيف . وقالت كلودي :

— اعتقد انه يجب ان نخطر العائلة . » كانت عيناها قد كفتا عن اللمعـان : « في مثل هذه الحالات ، هذا افضل ما يفعل » .

— نعم ، إن لها . اختاً . » وترددت . « سأحاول مع ذلك ان اكلمها » .

وفي هذه المرة ، ضغطت على الزر الاول ، وانفتح الباب آليـاً . واوقفتني البوابة عنـد مروري . كانت امرأة قصيرة نحيفة ورصينة تشرف منـــذ زمن طويل على تدبير بيت بول . « أصاعدة عند الآنسة ماروي ؟ » .

— نعم . لا يبدو عليها انها في صحة جيدة .

فقالت البوابة .

— على الضبط ، كنت منزعجة . منذ خمسة ايام على الاقل لم تأكل شيئـــاً مطلقاً ، ومستأجرو الطابق السفلي قالوا لي انها تسير طول الليل طولاً وعرضاً . وعندما اقوم بتدبير منزلها ، تتمتم دوماً لنفسهـــا باشياء بصوت عالٍ ، ولقد كنت معتادة على هذا . لكنها في الأيام الأخيرة ، اصبحت غريبة تماماً .

— سأحاول ان آخذها لستتريح .

وارتقيت الدرج ، وصعدت كلودي خلفي . كانت الظلمة مخيمة على سطح الدرج العلوي . وفي الظلمة كان ثمة شيء يلمع . صفحة بيضاء كبيرة مثبتة بالباب بدبابيس . وبأحرف مطبوعة ، كان مكتوباً على الورق . « القرد الدنيوي » . وقرعت ، بلا جدوى .

وقالت كلودي .

— يا للفظاعة ! انتحرت !

والصقت عيني بثقب القفل . كانت بول راكعة امام المدفأة ، وكان حولها رزم من الورق ، وكانت تلقي بها في النار . وقرعت من جديد بعنف .

ـ افتحي ، أو اقتحم الباب !

فنهضت ، وفتحف ووضعت يدها خلف ظهرها .

ـ ماذا تريدين مني ؟

ومن جديد ، ركعت أمام النار . كانت دموع تتدحرج على خديها ومخاط ينسال من انفها . كانت تلقي بمخطوطاتها ، وبرسائل، الى النار . ووضعت يدي على كتفيها فانتفضت في اشمئزاز :

ـ دعيني .

ـ بول ستأتين معي عند الطبيب ، حالاً . انت في سبيلك الى الجنون .

ـ اذهبي . أعرف انك تكرهينني . وانا ايضاً اكرهك . اذهبي . ونهضت واخذت تصيح : « اذهبا من هنا » .

وكانت على وشك العواء . فمضيت نحو الباب وخرجت مع كلودي .

وابرقت كلودي الى اخت بول ، وتلفنت الى ماردروس لأسأله النصيحة ، وارسلت كلمة الى هنري . وعند المساء ، اثناء العشاء ، انتفضنا لرنين جرس . وقفزت نادين نحو باب الدخول : لم يكن إلا صبياً صغيراً ناولني قطعة من الورق وقال : « من طرف الآنسة ماروي . انا حفيد بوابتها » . وقرأت بصوت عالٍ : « لا اكرهك ، انني انتظرك . تعالي حالاً » .

وقالت نادين :

ـ لن تذهبي ؟

ـ يقيناً أن بلى .

ـ هذا لن يفيد شيئاً .

ـ من يدري ؟

فقالت نادين :

ـ لكنها خطرة . » واضافت : « طيب . إذا ذهبت ، فأنا ذاهبة معك » .

فقال روبير :

ـ انا الذي سيذهب . نادين على حق ، من الأفضل ان نكون اثنين .

واجتججت في ضعف .

ـ ستجد بول هذا غريباً .

ـ ثمة اشياء كثيرة تبدو لها غريبة .

والحق انني حين وجدت نفسي ثانية امام ذلك المنزل المعتوه ، وحين ارتقيت من جديد الدرج المهترىء السجادة ، شعرت بسرور لمجيء روبير معي . لم تكن اللافتة على الباب . ولم تمد بول لنا يدها ، لكن وجهها كان وضيئاً . وقامت بحركة احتفالية :

ـ تفضّلا بالدخول .

وكتمت شهقة . كانت جميع المرايا محطمة، والسجادة مليئة بشظايا الزجاج، وكانت رائحة قماش محترق حادة تملأ الغرفة . وقالت بول بصوت رنان : « حسناً ، كنت اريد ان اشكركما » واشارت الى كراسي : « أريد ان اشكركم جميعاً : لأنني الآن فهمت » .

كان صوتها يبدو صادقاً . لكن الابتسامة التي كانت توجهها إلينا كانت تلوي شفتيها وكأنها لم تعد قادرة على جعلها تطيعانها . وقلت :

ـ ليس عليك ان تشكريني . لم أفعل شيئاً .

فقالت :

ـ لا تكذبي . لقد تصرفت لصالحي ، انني اقبل بهذا ، لكن يجب ان تكفي عن الكذب علي . » ودققت النظر فيّ : « كان ذلك لصالحي ، أليس كذلك ؟ » .

فقلت :

ـ نعم .

ـ نعم ، انني اعرف ذلك . لقد استحققت هذا الامتحان . ولقد كنتم على حق بتعريضي له . انني اشكركم على انكم وضعتموني تجاه نفسي . لكن الآن ،

يجب ان تعطوني نصيحة : هل يجب ان اتناول حامضاً بروسياً ام احاول ان افتدي نفسي ؟

فقال روبير :

– بدون حامض بروسي .

– طيب . إذن كيف سأعيش ؟

فقلت :

– ستتناولين اولاً مهدّئاً وتنامين . فأنت ما عدت تستطيعين الوقوف .

فقالت في عنف :

– ما عدت اريد ان اهتم بنفسي . انني لم افعل سوى التفكير اكثر مما ينبغي بنفسي ، ولا تقدّمي لي نصائح كاذبة .

وتركت نفسها تتهاوى على كرسي . لم يكن علي الا ان انتظر ، فبين لحظة وأخرى كانت ستنهار ، وسأضعها في السرير مع قرصين . ونظرت حولي : هل لديها حقاً حامض بروسي تحت يدها ؟ انني لأذكر انها في عام ١٩٤٠ ارتني زجاجة صغيرة رمادية ، وشرحت لي انها حصلت على سمّ « لكل صدفة » . ربما كانت الزجاجة في حقيبتها . ولم اجرؤ على لمس هذه الحقيبة . وعادت نظرتي نحو بول . كان فكها الأسفل متدلياً ، وقد تراخت ملامحها كافة . لقد رأيت وجوهاً كثيرة في هذه الحالة . لكن بول لم تكن مريضة ، كانت بول ، وكان يؤلمني ان اراها هكذا . وبذلت جهداً وقالت :

– اريد ان اشتغل . اريد ان اسدد لهنري ماله . وما عدت اريد ان يهينني المتشردون .

فقال روبير :

= سنجد لك عملاً .

فقالت :

– فكرت بأن اصبح مدبرة منزل . لكنها ستكون منافسة ظالمة . ما هي المهن التي ليس فيها تنافس ؟

فقال روبير :

– سنجد .

ومررت بول يدهـا على جبينها : « كل شيء صعب للغايـة ! منذ قليل ، بدأت أحرق اثوابي . لكن ليس لي الحق » . ونظرت إليّ : اذا بعتها لجامعي الخرق ، فهل تعتقدين انهم سيكفون عن كراهيتي ؟ » .

– إنهم لا يكرهونك .

وفجأة ، نهضت ، وسارت نحو المدفأة والتقطت حزمة من الملابس : أثواب الحرير اللامع ، الطقم الرمادي ، كلها لم تعد إلا مزقاً رثة . وقالت :

– سأذهب لتوزيعها فوراً . لننزل جميعاً معاً .

فقال روبير :

– الوقت متأخر كثيراً .

– مقهى المتشردين يظل مفتوحاً الى ساعة متأخرة جداً . .

وألقت بمعطف على كتفيها : كيف السبيل إلى منعها من النزول ؟ وتبادلت نظرة مع روبير . ولقد فاجأتها بدون شك إذ قـالت بصوت متعب : « نعم ، انها مهزلة . فالآن ، انا اقلد نفسي » . وخلعت معطفها ، ورمته على كرسي : « هـذا أيضاً مهزلة : لقد رأيت نفسي ، وانا ألقي بالمعطف » . وغرزت في عينيها قبضتيها المطبقتين : « انني لا اتوقف عن رؤية نفسي ! » .

وذهبت لأملأ قدح مـاء وحللت فيه قرصاً ، وقلت : « اشربي هـذا . وارقدي ! » .

وترنحت نظرة بول . وتهـاوت بين ذراعي : « انني مريضة ؟ انني مريضة جداً ! » .

فقلت :

– نعم . لكنك ستعالجين نفسك وستشفين .

– عالجوني ، يجب ان تعالجوني !

كانت ترتجف ، ودموع تتدحرج على خديها ، وكانت محمومة ومبللة الى حد

خيل إليّ معه انها بعد لحظة ستذوب بأجمعها ، تاركة مكانها بقعة من القـــار ، سوداء كعينيها . وقلت :

– غداً ، سآخذك الى عيادة . وبانتظار ذلك ، اشربي .

فتناولت الكأس :

– هل سينيمني ؟

– بالتأكيد .

فأفرغت الكأس بجرعة واحدة .

– والآن اصعدي للنوم .

فقالت في وداعة :

– انني صاعدة .

وصعدت معها ، وأثناء وجودها في غرفة الحمام ، فتحت الحقيبة اللامعـــة القفل : في اسفلها كانت توجد زجاجة رمادية صغيرة دسستها في جيبي .

وفي صباح اليوم التالي ، تبعتني بول في وداعة الى العيادة ووعدني ماردروس بأنها ستشفى : انها مسألة بضعة أسابيع او بضعة أشهر . سوف تشفى . لكني كنت أتساءل في قلق حين وجدت نفسي في الشارع ثانيـة : ممَ سيشفونهـــا على الضبط ؟ من ستكون بعد ذلك ؟ اوه ! قصارى القول ، كان هذا سهل التنبؤ . ستكون مثلى ، مثل ملايين الآخرين : امرأة تنتظر ان تموت دون ان تعرف بعد الآن لماذا تعيش .

وها هو شهر ايار قد جاء أخيراً . هناك ، في شيكاغو ، سأجد نفسي ثانيةفي إهاب امرأة عاشقة ومحبوبة : لم يكن هـــذا يبدو لي معقولاً . وكنت لا أزال غير مصدقة ، وانا جالسة في الطائرة. كانت طائرة قديمة قادمة من أثينا ، تحلق على علو منخفض جـــداً . وكانت مليئة بأصحاب دكاكين يونانيين ذاهبين للبحث عن الثروة في اميركا . ولم اكن ، انا ، اعرف ما كنت ذاهبة للبحث عنه هناك . فلا صورة حية في قلبي ، ولا رغبة في جسدي . ولم يكن ليويس ينتظر هـــذه المسافرة الواضعة قفازين : لم اكن منتـَظرة من اي إنسان . وفكرت عندمـــا

انعطفت الطائرة عائدة فوق المحيط : « كنت اعلم هذا : ابداً لن اراه ثانية » . كان محرك قد توقف ، وعدنا الى « شانون » . وامضيت يومين على شاطىء « فيورد[1] » ، في قرية مصطنعة صبيانية البيوت . وكنت عند المساء اشرب وسكي ايرلندياً ، وفي النهار اتنزه في ريف اخضر ورمادي ، كئيب على النفس . وعندما حططنا في جزر آسور ، انفجر اطار وحبسونا طوال اربع وعشرين ساعة في قاعة طويلة ممددة بالكرتون . وبعد « غاندر » ، سقطت الطائرة في عاصفة ، واضطر الطيار كي يهرب منها ، الى الطيران نحو « ايكوسيا الجديدة » . وشعرت ان باقي ايام حياتي ستنقضي في الدوران حول الأرض ، وأنا آكل فراريج باردة . وحلقنا فوق هوة من المياه القاتمة تكنسها أشعة منارة ، ومن جديد حطت الطائرة : ساحة اخرى ، وقاعة . نعم ، كان محكوماً علي بأن اطوف الى ما لا نهاية من ساحة الى ساحة والضجيج يملأ رأسي وحقيبة امتعة صغيرة زرقاء عند قدمي .

فجأة لمحته : ليويس . كنا قد اتفقنا ان ينتظرني عنده . لكنه كان هنا ، بين الجمهور الذي كان يترصد باب الجمرك . كان يضع قبة قاسية ونظارة ذهبية ، وكان هذا غريباً . ولكن الاغرب من كل شيء هو انني رأيته ولم أشعر بشيء . كل تلك السنة من الأنتظار ، وتلك التأسفات ، وتلك التبكيتات ، وهذه الرحلة الطويلة : وربما كنت سأتعلم انني لم اعد أحبه . وهو ؟ ألا يزال يحبني ؟ كنت اود لو اركض نحوه . لكن رجال الجمرك ما كانوا ينتهون . كانت حقائب الحانوتيات اليونانيات الصغيرات مليئة بالمحرمات ، وكانوا يكشفون عنها واحدة واحدة ، مازحين . وعندما اطلقوا سراحي اخيراً ، كان ليويس قد ذهب . واخذت تاكسي وأردت ان اعطي عنوانه للسائق : لم اعد اذكر الرقم . كانت اذناي تطنان ولم يكن ذلك الضجيج في رأسي يتوقف . ووجدت اخيراً : ١٢١١ . واقلع التاكسي . شارع ، وشارع آخر ، ولافتات نيون ، ولافتات

---

١ – كلمة نروجية تعني وادياً جلمودياً قديماً غزاه البحر والفيوردات منتشرة في الزويج « المترجم » .

نيون اخرى . لم اكن قد تعرفت نفسي مطلقاً في هذه المدينة ، لكن كان يخيل إلي ، على كل حال ، ان المسافة ما كان يجب ان تكون بمثل هـذا الطول . لعل السائق سيأخذني الى نهايـة طريق مسدود ويصرعني : وكان هذا يبدو لي ، في المزاج الذي كنت عليه ، طبيعياً اكثر من رؤية ليويس ثانية . والتفت السائق :

– ١٢١١ : هذا لا وجود له .

– انه موجود : انني اعرف البيت جيداً .

فقال السائق :

– لعلهم غيروا الرقم . سنعبر الشارع من جديد من الاتجاه المضاد .

واخذ يتدحرج في بطء على طول الرصيف . كان يخيـــل إليّ انني اتعرف مفارق طرق ، واراضي بوراً ، وسكك حديد: لكن سكك الحديد والأراضي البور تتشابه جميعاً . وبدا لي حوض وقنطرة مألوفين . لكأن الاشياء مـا زالت هناك ، لكنها غيرت مكانها . كنت افكر : « يا للجنون ! » . اننـــا نرحل ، ونقول : « سأعود » ، لأن من القسوة الشديدة ان نرحل الى الأبـــد . لكننا نكذب على انفسنا : فنحن لا نعود . تمر سنة ، وتنقضي أشياء ، ولا يعود شيء كما كان . كان ليويس اليوم يضع قبة قاسيـــة : ولقد رأيته دون ان يخفق قلبي خفقاناً اسرع . ولقد تبخر بيتـه . ونفضت ذهولي وقلت في نفسي : ليس علي إلا ان اتلفن ، ما هو الرقم ؟ » . لقد نسيته . وفجـأة لمحت لافتـــة حمراء : « شيلتز » : ووجوهاً ساذجة تضحك فوق إعلان وصحت :

– قف ! قف ! انه هنا .

فقال السائق :

– انه الرقم ١٢١٢ .

– ١٢١٢ : انه هو ؟

وقفزت من التاكسي ، ولمحت ، في فرجة النافذة المضيئة ، وجهاً منحنياً . كان يترصد ، ويترصد، ويهرع ، كان هو . لم يكن يضع ياقة قاسية ولا نظارة، بل كانت على رأسه قبعة بيزبول وكانت ذراعاه تخنقانني : « آن » .

– ليويس !
– أخيراً ! لشد ما انتظرت ! ما اطول ذلك ؟
– نعم ، كان ذلك طويلاً ، كان طويلاً للغاية !

اني اعرف انه لم يحملني ، ولا اذكر انني استخدمت قدمي لأرتقي الدرج . لكن هـــا نحن نتعانق وسط المطبخ الاحمر : المدفأة ، اللينيليوم ، الغطـــاء المكسيكي ، جميع الاشياء كانت هنا ، في مكانها . وتمتمت :

– ماذا تفعل بهذه العمرة ؟
– لست ادري . كانت هنا .

وانتزع العمرة والقاها على الطاولة .

– لقد رأيت شبيهك في المطار : كان يضع نظارة وياقة قاسية صناعية. لقد اخافني : ظننت انه انت ولم اكن اشعر بشيء .

– انا ايضاً ، خفت . فمنذ ساعة ، مر رجلان تحت النافـذة ، وكانا يحملان امرأة ميتة أو مغمى عليها ، وظننت انها انت .

فقلت :

– الآن ، انك انت ، انني انا .

وضمني ليويس بقوة شديدة ثم ارخى عناقه : « أأنت متعبة؟ أأنت ظمأى؟ أأنت جائعة ؟ » .

– كلا ..

والتصقت به من جديد . كانت شفتاي ثقيلتين جداً ، باردتين للغاية ، حتى انهما ما كانتا تتركان الكلمات تمر . وأسندتها الى فمه . وارقـــدني على السرير : « آن ! كل الليالي انتظرتك ! » .

واغمضت عيني . كان جسد رجل ينبطح علي من جديد ، ثقيلاً بكل ثقتـه وبكل رغبته . كان ليويس ، ولم يكن قد تغير ، ولا انا ، ولا حبنا . كنت قد رحلت لكني عدت : لقد وجدت مكاني ثانية وتخلصت من نفسي .

وقضينا النهار التالي في إعداد الحقائب وفي عمل الحب : نهار طويـــل دام

حتى صباح اليوم التالي . ونمنا في القطار خداً الى خد . ولم اكن قد صحوت من النوم تماماً حين لمحت على رصيف اوهيو المركب ذا المجاذيف الذي كان ليويس قد حدثني عنه في رسائله . كنت قد فكرت فيه كثيراً دون ان اؤمن بوجوده حتى انني كنت اجد مشقة حالياً في تصديق عيني . إلا انه كان حقيقياً جداً ، وصعدت إليه . وتفحصت في حنو مقصورتنا . كنت ، في شيكاغو ، اقيم عند ليويس . اما هنا فهي مقصورتنا ، انها لنا نحن الاثنين : هذا يعني اذن اننا زوج حقاً . نعم . انني اعرف حالياً : يمكنني ان اعود ، وسوف اعود كل سنة ، وسيكون على حبنا في كل سنة ان يجتاز ليلاً اطول من الليل القطبي : لكن السعادة ستشرق ذات يوم كيلا تغيب ثانية خلال ثلاثة او اربعة اشهر . ومن اعماق الليل سوف ننتظر ذلك النهار ، سوف ننتظره معاً ، ولن يفرق بيننا الغياب بعد الآن : كنا مجتمعين الى الأبد .

وقال ليويس :

ــ اننا راحلان : تعالي بسرعة !

وارتقى الدرج راكضاً فتبعته ، وانحنى من فوق حاجز المركب ، وكان رأسه يدور في كل الاتجاهات :

ــ انظري ما اجمل ذلك : السماء والارض اللتان تمتزجان في الماء .

كانت انوار « سنسناتي » تتألق تحت سماء كبيرة مرصعة بالنجوم ، وكنا ننساب فوق ألسنة لهيب . وجلسنا ، ولبثنا ملياً ننظر الى لافتات النيون تشحب وتختفي . وقال :

ــ تصوري انني لم أؤمن قط بهذا كله .

ــ كل ماذا ؟

ــ ان احب وأكون محبوباً .

ــ بمَ كنت تؤمن ؟

ــ بغرفة ثابتة ، ووجبات منتظمة ، ونساء لليلة واحدة : بالأمن . كنت اظن انه يجب الا اطلب اكثر من ذلك . كنت اظن ان جميع الناس وحيدون ،

دوماً . وها انت !

كان فوق رأسينا مكبر صوت يصيح بأرقام : كان المسافرون يلعبون بالبنجو . كانوا جميعاً مسنين للغاية حتى انني فقدت نصف عمري . كنت في العشرين . وكنت اعيش حبي الأول وكانت رحلتي الاولى . كان ليويس يقبل شعري ، عيني ، وفمي :

– لننزل : أتريدين ؟

– انت تعرف جيداً انني لا اقول لا ابداً .

– لكن احب كثيراً ان أسمعك تقولين : نعم . انت تقولينها بلطف كبير !

فقلت :

– نعم . نعم .

يا له من فرح ألا اقول إلا : نعم . كنت ، مع حياتي التي اهترأت ، ومع جلدي الذي لم يعد جديداً ، اصنع السعادة للرجل الذي احبه : يا لها من سعادة !

وقضينا ستة ايام في نزول الاوهيو والميسيسيبي . وكنا ، عند المحطات ، نهرب من المسافرين الآخرين ، ونسير حتى تنبهر انفاسنا عبر المدن الدافئة والسوداء . وكنا ، فيما تبقى من الوقت ، نتحادث ، ونقرأ وندخن دون ان نفعل شيئاً ، مستلقيين على الجسر تحت الشمس . كان المنظر نفسه من الماء والعشب يومياً ، الضجة نفسها من الآلة والماء : لكننا كنا نحب ان ينبعث صباح واحد من صباح الى صباح ، ومساء واحد من مساء الى مساء .

إنما هذه هي السعادة : كان كل شيء طيباً . كنا فرحين بمغادرة المركب . كنا نعرف كلانا اورليانس الجديدة ، لكنها لم تكن المدينة نفسها بالنسبة لليويس ولي . وأراني الأحياء الشعبية حيث كان يبيع قطع الصابون قبل خمسة عشر عاماً ، وأحواض السفن حيث كان يغذي نفسه بالموز المسروق ، وشوارع المواخير الصغيرة التي كان يجتازها خافق القلب . ملتهب القضيب ، فارغ الجيوب . وكان يبدو بين حين وآخر انه آسف تقريباً على ايام البؤس تلك ، والغضب ، وعنف رغباته غير المشبعة . لكن حين كنت انزهه في المربع

الفرنسي ، وحين كان يتبختر كسائح في باراته وعرصاته ، كان يهلل وكأنه يعد مقلباً طيباً للقدر . ولم يكن قد ركب الطائرة قط . فكان طوال الرحلة ، يحتفظ بأنفه ملتصقاً بالنافذة ، ويضحك للغيوم .

وكنت انا ايضاً اطير فرحاً . يا لها من غربة ديار ! حين كانت النجوم الثابتة تأخذ بالرقص في السماء ، وتتخذ الأرض جلداً جديداً ، كنت تشعر وكأنك تغير جلدك انت نفسك . لم تكن « اليوقاطان » بالنسبة لي الا اسماً بدون حقيقة ، مسجلاً بأحرف صغيرة على اطلس . لم يكن شيء يربطني بها ، حتى ولا رغبة ، ولا صورة ، وها انا اكتشفها بعيني . وتثاقلت الطائرة ، وانقضت نحو الارض ، ورأيت لساناً من ارض قاحلة من مخمل رمادي اخضر يمتد من طرف السماء الى طرفها الآخر ، يحفر فيه ظل الغيوم بحيرات سوداء . وجريت على طريق متحدب بين حقول نبات الباهرة الزرقاء التي كان يتفجر فوقها من بعيد الى بعيد اللون الأحمر القاني لأشجار اللوامع المسطحة الذرى . وسرنا في شارع محفوف ببيوت صغيرة مبنية من التراب المصلب ، تبنية السقوف . وكانت الشمس لاظية . وتركنا حقائبنا في بهو الفندق ، وهو عبارة عن مصرى[1] غناء قابعة تنام فيها طيور نحام وردية ، جاثمة على قدم واحدة . وانطلقنا ثانية . كان رجال في ملابس بيض يحملون تحت قبعات من القش ، في الساحات البيضاء ، في ظل الأشجار المطلية . كنت أتعرف سماء وصمت توليدا وآفيلا . كان يذهلني ان اجد اسبانيا ثانية من هذا الجانب من المحيط اكثر مما يذهلني ان اقول في نفسي : « انني في اليوقاطان » .

وقال ليويس :

— لنأخذ احدى هذه العربات الصغيرة .

كان يوجد في زاوية الساحة صف من العربات السوداء ، ذوات الظهور المشدودة . وايقظ ليويس احد السائقين وجلسنا على المقعد الضيق . واخذ

---

١ — المصرى : بناء من زجاج تستنبت فيه نباتات البلاد الحارة التي لا تتحمل البرد.
« المترجم »

ليويس يضحك : « والآن ، اين نذهب ؟ أتعرفين ، انت ؟ » .

– قل للسائق ان ينزهنا وان يأخذنا الى البريد : انني انتظر رسائل .

كان ليويس قد تعلم في كاليفورنيا الجنوبية بضع كلمات اسبانية . وألقى على السائق خطاباً صغيراً ، واخذ الحصان بالسير ، خبباً . وسرنا في شوارع فخمة ومتهدمة . كان المرض والفقر قد قرضا الفيلات المبنية على اسلوب قشطالي قاسٍ . وكانت التماثيل تتعفن وراء بوابات الحدائق الصدئة . وكانت ازهار غناء ، حمراء ، بنفسجية وزرقاء ، تحتضر عند أقدام الاشجار نصف العارية . وكانت طيور سوداء كبيره ، مصطفة على اعلى الجدران ، تترصد . كانت رائحة الموت تفوح من كل مكان . ولقد سررت بأن وجدت نفسي عند مشارف السوق الهندية : فقد كان جمهور حي جداً يدب تحت الخيمات التي تصفعها الشمس . وقلت لليويس :

– انتظرني خمس دقائق .

وجلس على احدى درجات الدرج ودخلت الى البريد . كان ثمة رسالة من روبير ، وفضضت الغلاف فوراً . كان يصحح المسوّدات الاخيرة ، من كتابه ، ويكتب مقالاً « للطوارىء » ، مقالاً سياسياً . وإذن ، فقد كنت على حق اذ لم اقلق كثيراً : فمهما ارتاب في السياسة والكتابة ، فانه ليس على استعداد للتخلي عنهما . كان يقول ان الجو في باريس رمادي . ووضعت الرسالة في حقيبتي وخرجت : ما كان أبعد باريس ! ما أشد زرقة السماء ! وأخذت ذراع ليويس : « كل شيء على ما يرام » .

وشققنا طريقنا بين الجم الغفير ، في ظل الخيمات. كانت تباع ثمار ، واسماك ، ونعال وملابس قطنية . وكانت النساء يرتدين تنورات طويلة مطرزة ، وكنت احب ضفائرهن اللامعة واوجههن التي لا يتحرك فيها شيء ، اما الهنود الصغار فكانوا يضحكون كثيراً مكشرين عن اسنانهم . وجلسنا في حانة لها رائحة سمك بحري ، وقدمت لنا على برميل بيرة سوداء ومزبدة . ولم يكن فيها إلا رجال ، كلهم شبان . وكانوا يثرثرون ويضحكون . وقلت :

– يبدو انهم سعداء ، هؤلاء الهنود .

فهز ليويس كتفيه : « هذا سهل القول . ايطاليا الصغيرة ايضاً ، عندما تتنزهين فيها في يوم مشمس جميل ، يبدو الناس فيها سعداء » .

فقلت :

– هذا صحيح . يجب ان ننظر اليهم عن قرب أكثر .

فقال ليويس :

– كنت افكر بذلك وانا انتظرك . فكل شيء بالنسبة لنا يأخذ مظهر عيد ، لأن السفر عيد . لكني واثق انهم ليسوا في العيد. » وبصق نواة زيتونة: « عندما نمر هكذا كسواح ، لا نفهم شيئاً من شيء » .

وابتسمت لليويس : « لنشترِ بيتاً صغيراً. سوف ننام في أراجيح ، وسوف اصنع لك تورتيلا ، وسوف نتعلم الكلام بالهندية » .

فقال ليويس :

– سأحب ذلك كثيراً .

فقلت مبتسمة :

– آه ! يجب ان تكون لنا عدة حيوانات .

فنظر إليّ ليويس ، وقال في ابتسامة صغيرة : « انت لا تسيئين تدبير امرك كثيراً » .

– كيف ذلك !

– انت تدبرين امرك كي تكون لك حياتان ، على ما يبدو لي .

وصعد الدم الى خدي . لم يكن صوت ليويس حاقداً، لكنه لم يكن ودوداً كثيراً أيضاً . أكان ذلك بسبب رسالة باريس تلك ، وتبينت فجأة إنني لم اكن الوحيدة التي تفكر بقصتنا : كان يفكر بها أيضاً ، على طريقته الخاصة به . كنت أقول في نفسي : لقد عدت ، سوف أعود دوماً . لكنه إذا كان يقول في نفسه : سترحل ثانية دوماً. بمَ أجيبه ؟ كنت قد أُخذت على حين غرة . وقلت في قلق :

– لنويس ، لن نكون عدوين ابداً ، أليس كذلك ؟
– عدوين ؟ من يمكنه ان يكون عدوك ؟
كان يبدو عليه بوضوح انه مذهول ، ان هذه الكلمات التي جاءت الى شفتي كانت سخيفة ، كان يبتسم لي ، فابتسمت له . لكن فجأة شعرت بالخوف :هل سأعاقب ذات يوم على انني جرؤت على الحب دون ان اهب حياتي كلها ؟
وتناولنا العشاء في الفندق ، بين طائري نحام ورديين . وكانت الوكالة السياحية لميريدا قد بعثت الينا بمكسيكي صغير كان ليويس يستمع اليه في نفاد صبر . ولم اكن اصغي . وتابعت التساؤل : ماذا يجري في رأسه ؟ لم نكن نتحدث مطلقاً عن المستقبل ، ولم يكن ليويس يطرح علي اسئلة : ربما كان علي ان اطرح عليه انا . لكن قبل سنة ، على كل حال ، قلت له كل ما لدي لأقوله له . ولم يكن ثمة جديد اضيفه. ثم ان الكلمات خطرة، واننا لنجازف بتشويش كل شيء . كان يجب ان نعيش هذا الحب . وفيما بعد ، حين يكون قد صار له ماضٍ طويل وراءه ، سيحين اوان الحديث عنه .
وقال المكسيكي الصغير :
– السيدة لا تستطيع الذهاب الى « شيشن اتزا » في الاوتوبيس . » وابتسم لي ابتسامة كبيرة : « ستكون السيارة طوال النهار تحت تصرفكما لتتنزها بين الخرائب وسيكون السائق بمثابة دليل لكما » .
فقال ليويس :
– اننا نكره الادلاء ونحب المشي .
– ان لفندق مايا تعرفة مخفضة لزبائن الوكالة .
فقلت :
– سننزل في « فيكتوريا » .
فقال المكسيكي :
– هذا مستحيل : ان « فيكتوريا » نزل مكسيكي وطني .
وامام صمتنا ، انحنى في ابتسامة منقبضة : « ستقضيان يوماً كثير العناء » .

في الحقيقة كان الاوتوبيس الذي قادنا في مساء اليوم التالي الى « شيشن اتزا » مريحاً تماماً . وشعرنا بالكبرياء لعنادنا حين تجاوزنا حديقة فندق مايا حيث كانت تهذر اصوات اميركية . وقال لي ليويس : « اتسمعينهم ! انني لم آت على كل حال الى المكسيك لأرى اميركيين ! » .

كان يمسك بيده حقيبة سفر صغيرة ، وكنا نتقدم متلمسين طريقنا تلمساً على درب موحل . وكان ماء ثقيل يقطر من اشجار كانت تحجب عنا السماء . ولم نكن نرى شيئاً ، وكنت مدوخة من رائحة شجية ، رائحة دبال ، وأوراق شجر منتنة ، وازهار محتضرة . وكانت هرر لامرئية لامعة العيون تثب في الظلمات . واشرت الى هذه الحدقات التي بدون جسد : « ما هذا ؟ » .

— حباحب . يوجد منها ايضاً في الالينوا . احبسي خمسة منها في زجاجة مصباح ، وسترين بما فيه الكفاية من الوضوح للقراءة .

فقلت :

— سيكون هذا مفيداً جداً ! انني لا ارى شيئاً . اواثق انت انه يوجد فندق آخر ؟

— واثق تماماً !

كنت قد بدأت اشك في ذلك . لا بيت ، لا صوت انسانياً . واخيراً سمعنا اصواتاً اسبانية. وكنا نميز بشكل مبهم جداراً: لا نور . ودفع ليويس حاجزاً، لكننا ما كنا نجرؤ على التقدم : كانت خنازير تنخر ودواجن تصيت، وفي مكان ما كانت توجد جوقة من الضفادع . وهمست : « انها لمهلكة » .

وصاح ليويس : « أهو فندق هنا ؟ » .

وتعالى لغط ، واضاءت شمعة . ثم انتشر الضوء . كنا في باحة نزل ، وكان رجل يبتسم لنا في ادب وقال اشياء بالاسبانية. وقال لي ليويس : « انه يعتذر. كان هناك عطل في الكهرباء . لديه غرف » .

كانت الغرفة تطل من ناحية على الباحة ، ومن الاخرى على الدغل ، وكانت عارية ، لكن الأغطية كانت بيضاء تحت الكلل البيضاء . وعند العشاء قدمت

لنا تورتيلا كانت تلتصق بالأسنان ، وفول بنفسجي ، وفروج نحيـــف احرقت مرقته حلقي. كانت غرفة الطعام مزدانة ببورسلين مشوب وملون. وعلى تقويم، كان هنود نصف عــراة ، متزينون بالريش ، يلعبون بكرة السلة وسط ملعب قديم . وكان مكسيكي ، جالس على مقعد في الباحة ، بين الخنازير والدجــاج ، يعرك قيثاراً .

وقلت :

– ما ابعد شيكاغو ! وباريس . ما ابعد كل شيء !

فقال ليويس بصوت منتعش :

– نعم ، لقد بدأنا الآن حقاً في السفر .

وشددت على يده . كنت أعرف جيداً ، في تلك اللحظة ، مــا في رأسه : صوت القيثار ، جوقة الضفادع ، وانا . كنت اسمع الضفادع ، والقيثار ، وكنت كلي له . لم يكن لشيء وجود بالنسبة له ، بالنسبة لي ، بالنسبة لنا إلا نحن .

طوال الليـــل دخل نقيق الضفادع الى غرفتنا ، وعند الصباح كانت آلاف العصافير تثرثر. وعندما دخلنا الى الأرض المسورة حيث تنتصب المدينة القديمة، كنا وحيدين . وركض ليويس نحو المعابـــد وتبعته بخطا صغيرة . كنت ايضاً أكثر حيرة مما كنت عليه عند وصولي الى اليوقاطان . كانت الحضارة القديمة قد امتزجت بالنسبة لي حتى الآن بالبحر المتوسط . وكنت قد تأملت بدون دهشة على الاكروبول ، في الفوروم ، ماضيَّ الخاص . لكن لم يكن ثمـــة شيء يربط « شيشن اتزا» بتاريخي . وقبل ثمانية أيام، كنت اجهل حتى اسم مكة الهندسية الضخمة هذه ذات الصخور المشبعة بالدم . ولقد كانت هنا ، ضخمة ، خرساء ، ساحقة الارض تحت ثقل هندساتها الدقيقة وتماثيلها المتعصبة . معابد ، هياكل ، الملعب المصور على التقويم ، سوق ذات الف عمود ، معابد اخرى دقيقة الزوايا ، ذات تصاوير ناتئة مجنونة . وبحثت عن ليويس بناظري ، ولمحته على أعلى الهرم الكبير . كان يحرك يده ، وكان يبدو قصيراً للغاية . كان الدرج شاهقاً وارتقيته دون ان أنظر الى تحتي ، شاخصة العينين نحو ليويس . وقلت :

ــ اين نحن ؟

ــ انني لأتساءل عن ذلك .

من وراء اسوار الجدران، كنا نلمح على مد النظر الغاب الأخضر حيث يسطع من بعيد الى ابعد اللون الاحمر لشجرة لامعة . ليس ثمة من حقل . وقلت : « لكن اين يزرعون الذرة اذن ؟ » .

فقال ليويس بلهجة متعجرفة : « ماذا علموك في المدرسة اذن ؟ اثناء البذر يحرقون قطعة من الغاب ، وبعد الجني ، تنبت الاشجار من نفسها ثانية فوراً ، ولا يرى أثر للندوب » .

ــ من اين تعرف هذا ؟

ــ اوه ! لقد عرفت ذلك دوماً .

واخذت اضحك : « انت تكذب ! لقد قرأت ذلك في كتاب ، هذه الليلة دون شك بينما كنت نائمة . ولولا ذلك ، لقلته لي البارحة ، في الاوتوبيس » .

وبدا عليه الارتباك : « هذا على كل حال غريب ، حتى في الاشياء الصغيرة، تفشّلين لعبتي دوماً . نعم ، لقد وجدت كتاباً مساء البارحة في الفندق وكنت اريد ان ابهرك » .

ــ ابهرني . ماذا تعلمت ايضاً ؟

ــ الذرة تنبت من نفسها . ليس الفلاحون بحاجة الى العمل اكثر من بضعة اسابيع في السنة . وهكذا اتيح لهم ان يبنوا مثل هذا العدد الكبير من المعابد.» واضاف في عنف مباغت : « أتتصورين هذه الحيوات ! اكل التورتيلا ، وحمل الصخور ، تحت هذه الشمس ! الأكل والعرق ، العرق والأكل ، يوماً بعد يوم ! لم يكن هناك من التضحيات الانسانية اكثر من ذلك، انها ليست اسوأ التضحيات . لكن فكري بأولئك الملايين من التعساء الذين جعل منهم المحاربون والكهنة دواب ركوب ! ولماذا ؟ عن غرور أحمق ! » .

كان ينظر في كراهية الى هذه الاهرامات التي كانت تندفع في الماضي نحو الشمس والتي تبدو لنا اليوم مرهقة للارض . لم اكن اشاطره غضبه ، ربما لأنه لم يتحتم

علي ان اعرق لا كل ولأن كل هذه التعاسة كانت مغرقة في القدم . لكني لم اكن استطيع ايضاً ، كما كنت سأفعل ذلك قبل عشر سنوات ، ان اتيه دون فكرة مسبقة في تأمل هذا الجمال الميت . ان هـــذه الحضارة التي ضحّت بكثير من الحيوات الانسانية من اجل ألعابها الصخرية ، لم تترك خلفها شيئاً . كان جدبها يغضبني اكثر من وحشيتها . اذ لم تعد هناك الا قبضة من المهندسين والجماليـــين للاهتمام بهذه الانصاب التي يصورها السائحون آلياً . وقلت :

– ماذا اذا نزلنا ؟

– كيف ؟

لكأن الجـدران التي تسند السطح كانت كلها ، الاربعة ، عمودية . وكان احدها متثلماً بالظلال والأنوار التي لا يستطيع احد ان يفكر بوضع قدمه عليها. واخذ ليويس يضحك : « ألم اقل لك ابداً انني اصاب بدوار رهيب ما اناكون على علو مترين عن الارض ؟ لقد صعدت دون ان انتبه لذلك، لكني لن استطيع الهبوط ابداً » .

– لا بد من ذلك حتماً !

فتراجع ليويس الى وسط السطح :

– مستحيل .

وابتسم من جديد : « منـــذ عشر سنوات في لوس انجلوس ، كنت اموت جوعاً . ثم وجدت عملاً : تجصيص اعلى مدخنة مصنع . ورفعوني في سلة: فبقيت ثلاث ساعات دون ان اقرر الخروج منها . وانتهى بهم الامر الى انزالي ورحلت فارغ الجيوب . مع انني لم اكن قد اكلت شيئاً منذ يومين . أتصدقين ذلك ! ».

فقلت :

– غريب ان تصاب بالدوار ! لقـد رأيت الكثير من الاشياء ، من جميـــع الألوان : كنت اظنك اكثر تمرساً ! » وتقدمت نحو الدرج : «ثمة اسرة اميركية تستعد للصعود : لننزل ! » .

– ألست خائفة ؟

– بلى ، اني خائفة .

فقال ليويس :

– اذن دعيني امرّ امامك .

ونزلنا الدرج يداً في يد ، ونحن متماسكان مواربة . كنا نسيل عرقاً حين وصلنا الى الاسفل . وكان دليل يشرح لزمرة من السياح اسرار روح مايا . وتمتمت : « ما اغرب السفر ! » .

فقال ليويس :

– نعم ، انه لغريب . » وسحبني : « لنعد لتناول كأس » .

كان بعد الظهر حاراً جداً . فتناومنا في ارجوحتين ، امام باب غرفتنا . ثم دفعني الفضول ، فضول وحشي وكأنه عصب مثار ، الى ادارة رأسي نحو الغابة. وقلت :

– انني راغبة كثيراً في الذهاب للقيام بجولة في هذه الغابات .

فقال ليويس :

– لمَ لا ؟

وخضنا في صمت الغابة الكبيرة الرطبة . ليس ثمة من سائح . كان نمل احمر يحمل على اكتافه تبناً مدبباً يسير جماعات جماعات نحو قلاع لامرئية . كنا نصادف ايضاً مجموعات من الفراشات تتطاير ، وردية ، زرقاء ، خضراء،صفراء، من وقع اقدامنا . وكان ماء راكد على العرائش يتساقط علينا في قطرات ضخمة. وكنا نلمح من هنا وهناك ، عند نهاية درب مشجر ، ضريحاً غامضاً : كان عبارة عن معبد ، او قصر خرب مطمور تحت غطائه الخصب . وكانت بعض الحجارة نصف منبوشة : لكن الاعشاب كانت تخنقها . وقلت :

– يمكن الاعتقاد بأن ما من احد قد جاء الى هنا قط .

فقال ليويس بدون حرارة :

– اجل .

– انظر عند نهاية الدرب : انه معبد كبير .

فقال ليويس ايضاً :

– اجل .

كان معبداً كبيراً جداً. وكانت حراذين مذهبة تتدفأ بين الحجارة . وكانت التماثيل مشوهة ، باستثناء تنين مكشر عن اسنانه . وأريتــه لليويس الذي ظل ميت الوجه :

– أرأيت ؟

فقال ليويس :

– انني ارى .

وعلى حين غرة رفس التنين في شدقه .

– ماذا تفعل ؟

فقال ليويس :

– لقد رفسته .

– لماذا ؟

– كان ينظر إليّ بطريقة لم تعجبني . » وجلس ليويس على صخرة وسألت: « ألا تريد ان تدور حول المعبد ؟ » .

– افعلي ذلك بدوني .

ودرت حول المعبد . لكن قلبي لم يكن معي . فلم أرَ إلا احجاراً منضدة بعضها فوق بعض ولا تعني شيئاً . وعندما عدت ، لم يكن ليويس قــد تحرك ، وكان وجهه فارغاً للغاية ، حتى انه كان يبدو انه قد غاب عن نفسه . وسأل :

– أرأيت ما فيه الكفاية ؟

– أتريد العودة ؟

– اذا كنت قد رأيت ما فيه الكفاية .

فقلت :

– نعم بما فيه كل الكفاية . لنعد .

كان المساء يرخي سدوله . واخذنا نميز اول الحباحب . وقلت في نفسي في

قلق انني بعد كل شيء لا اعرف ليويس جيداً . كان تلقائياً للغاية ، صادقاً، حتى انه كان يبدو لي بسيطاً : لكن من هو ! عندمـــا رفس تلك الرفسة ، لم يكن يبدو طيباً . ودواره ، ماذا يعني هذا ؟ كنا نسير في صمت : بمـن كان يفكر ؟ وقلت :

— بمن تفكر ؟

— انني افكر ببيت شيكاغو . لقـــد تركت المصباح مضاء ، فالناس الذين يمرون يظنون ان فيه احداً : وليس فيه احد .

كان في صوته كآبة . فقلت :

— أأنت آسف على انك هنا ؟

فضحك ليويس ضحكة صغيرة : « هل انا هنا ؟ هذا غريب : انت كطفل، كل شيء يبدو لك واقعياً ، في حين انني اشعر وكأنني في حلم: حلم يحلم به انسان آخر » .

فقلت :

— الا انك انت . وانا نفسي .

فلم يجب ليويس . وخرجنا من الغابة . كان الليل مخيماً تمامــاً . كانت بروج قديمة ترقد في السماء متشابكة بين نجوم جديدة متناثرة . وحين لمح ليويس انوار النزل ابتسم : « اخيراً ؟ كنت احس بنفسي ضائعاً » .

— ضائعاً ؟

— انها لقديمة جداً تلك الخرائب ! قديمة للغاية .

فقلت :

— انا ، انني لأحب ان احس نفسي ضائعة .

— ليس انا . لقد ضعت مدة طويلة جداً ، وظننت انني لن اجد نفسي ثانية ابداً . والآن لن اعاود ذلك مقابل اي شيء .

كانـ في صوته تحدٍ ، وشعرت انني مهددة بشكل غـــامض . وقلت : « يجب ان نعرف في بعض الاحيان كيف نضيع انفسنا : اذا لم نجازف بشيء ،

فلن نملك شيئاً » .

فقال ليويس بلهجة قاطعة :

– انني افضل الا املك شيئاً على ان اقوم بهذه المجازفة .

كنت افهمه : لقد تحمل مشقة كبيرة في الحصول على شيء من طمأنينة فهو حريص قبل كل شيء على الحفاظ عليها . ومع ذلك ، يا للتهور الذي احبني به ! هل سيندم على ذلك ؟ وسألت :

– تلك الرفسة التي رفستها ، اكان ذلك لأنك كنت تحس نفسك ضائعاً ؟

– كلا . لم اكن احب ذلك الحيوان .

– كنت تبدو رديئاً حقاً .

فقال ليويس :

– هذا لانني رديء .

– ليس معي .

فابتسم : « هــذا صعب معك . لقد حاولت مرة ، في السنة الماضيـة ، فبكيتِ فوراً » .

كنا ندخل الى غرفتنا وسألت : « ليويس ، ألست غاضباً عليّ ؟ » .

فقال :

– ممَ ؟

– لست ادري . من كل شيء ، من لا شيء . من ان لي حياتين .

فقال ليويس :

– لو لم تكن لك إلا حياة واحدة لما كنت هنا .

فنظرت إليه في قلق :

– أأنت غاضب عليّ لذلك ؟

فقال ليويس :

– كلا . انني لا ألومك . » وشدني إليه : « انني اريدك » .

وقلب الكلة ورماني على السرير وحين اصبحنا عـاريين ، جسداً الى جسد ،

قال بصوت سعيد :

– هذه اجمل اسفارنا ؟

كان وجهه قد اضاء . ولم يعد يحس نفسه ضائعاً . كان حقاً حيث كان ، في جسدي . لم اعـــد قلقة . سيكون السلام والفرح اللذان نجدهما في اذرع بعضنا اقوى من كل شيء .

ان نسافر ، ان نقطع العالم لنرى بأعيننا ما لم يعد له وجود ، ما لا يخصنا ، فهذا نشاط مريب حقاً . كنا متفقين على هذه النقطة ، انا وليويس . إلا ان هذا لا يمنع ان ذلك كان يستهوينا كلينا ، كثيراً . كان يوم احد في « اوكسمال » وكان الهنود يفرغون سلال الرحلات في ظل المعابد . وتسلقنا الأدراج المنهارة متشبثين بسلاسل خلف نسوة يرتدين تنورات طويلة . وبعد يومين ، حلقنا فوق غابات سكرى بالمطر . وارتفعت الطائرة عالياً في السماء ولم تهبط : انمـــا هي الارض التي صعدت للقيانا . وقدمت لنا بحيرة زرقـــاء ومدينة مسطحة ذات مربعات منتظمة انتظام مربعات دفتر طالب ، راقدتين في الخضرة : غواتيمالا ، الفقر الجاف لشوارعها المحفوفة بمنازل طويلة واطئة ، بسوقها الرابلة ، بفلاحيها الحفاة ، المرتدين اسمالاً ملكية ، الحاملين على رؤوسهم سلالاً من الازهار والثمار . وفي حديقـــة فندق آنتيغا ، كان وابل من الزهور الحمراء ، والبنفسجية ، والزرقاء ، ينهال على طول جذوع الاشجار ويغرق الجدران . وكان المطر يهطل بشدة ، كثيفاً ودافئاً ، وكان ببغاء مقيد يجري من اعلى قفصه الى اسفله ضاحكاً . وعلى ضفة بحيرة آتيتلان ، كنا نرقد في عزبة مزهرة بباقات ضخمة من القرنفل . وقـــادنا مركب الى سانتياغو حيث كانت نسوة تحيط بهن هـــالة من الشريط الحريري الاحمر يهدهدن اطفالاً رضعـــاً متلفحين من رؤوسهم الى اكتافهم في برانس مخروطية . واقلعنا ذات يوم خميس الى وسط سوق « شيشيكاستينانغو » . كانت الساحة مغطـــاة بخيمات وواجهات عرض . وكانت نسوة مرتديات قمصاناً مطرزة وتنورات ساطعة متقلبة اللون يبعن حبوباً ، وطحيناً ، وخبزاً ، وثماراً جافـــة ، ودواجن نحيلة ، وآنية خزفيـــة ، واكياساً ، واحزمة ، ونعالاً ،

وكيلومترات من اقمشة ملونة بألوان زجاج الكنائس والسيراميك ، جميلة للغاية حتى ان ليويس نفسه كان يجسها في تهلل . وكان يقول :

– اشتري اذن هذا القماش الاحمر ! او الاخضر ، مع كل عصافيره الصغيرة .

فقلت :

– انتظر . يجب ان نرى كل شيء .

كانت اروع هذه الروائع القمصان العتيقة جداً التي كانت ترتديها بعض الفلاحات . وأريت ليويس صدرية من تلك الصداري ذات التطاريز القديمة التي يمتزج فيها ازرق « شارتر » بحنان مع الالوان الحمراء والذهبية الكامدة : « هذا ما اريد ان اشتريه ، إذا كان للبيع » .

فتفحص ليويس الهندية ذات الضفائر الطويلة :

– لعلها ستبيعها .

– لن اجرؤ ابداً على اقتراح ذلك عليها . ثم بأية لغة ؟

وتابعنا التجول . كانت نسوة يعجنّ بين راحاتهن عجين التورتيلا ، وكانت قدور مليئة بنقيع لحم اصفر تغلي على نيران . وكانت اسر تأكل . وكانت الساحة مجنحة بكنيستين بيضاوين ، يدخل إليها المرء بواسطة ادراج . وكان ، على الدرجات ، رجال يرتدون ملابس مصارعي ثيران تمثيلية ، يهزون مباخر . وصعدنا نحو الكنيسة الكبيرة ، من خلال الأدخنة الكثيفة التي ذكّرتني بطفولتي التقية . وسألت :

– هل لنا الحق في الدخول ؟

فقال ليويس :

– ماذا يستطيعون ان يفعلوا لنا ؟

ودخلنا وامسكت بخناقي رائحة عطور ثقيلة . لا كراسي ، لا خوانات ، لا مقعد . كانت الأرض المبلطة تعكس ألسنة لهيب الشموع الوردية . وكان الهنود يدندنون بصلوات متناقلين من يد الى يد عرانيس الذرة . وكانت ترقد على الهيكل مومياء مغطاة بالبروكار والزهور . ومقابلها ، كان يوجد مسيح مصلوب كبير

دامٍ معذب الوجه ، مرهق بالأقمشة والجوهرات . وقال ليويس :

— لو كنا نستطيع على الأقل ان نفهم ما يقولونه !

كان ينظر الى شيخ حرش القدمين كان يبارك نسوة راكعات . وسحبته من ذراعه : « لنخرج . هذا البخور كله يوجع رأسي » .

وعندما وجدنا نفسينا خارجاً من جديد قال لي ليويس :

— كلا ، كما ترين ، لا اعتقد ان هؤلاء الهنود سعداء . ان ثيابهم مرحة : لا هم .

واشترينا احزمة ، ونعالاً ، واقمشة . كانت العجوز ذات الصدرية الرائعة لا تزال هنـاك ، لكني لم اجرؤ على الاقتراب منها . وكان بعض الهنود ، في مقهى بقالية الساحة ، يشربون حول طاولة . وكانت نساؤهم جالسات عند اقدامهم . وطلبنا تيكيلا قدمت لنـا مع الملح وليمونات صغيرة خضراء . وكان شابان هنديان يرقصان مترنحين : كان يبدو عليهما انهما عاجزان عن اللهو الى حد ان القلب كان ينفطر لهما . وكان التجار ، في الخارج ، قد اخذوا يطوون خيامهم . وكانوا يرفعون بآنيتهم الخزفيـة بنايات معقدة يحملونهـا على ظهورهم . وكانوا يمضون خبباً ، وجبهاتهم محزومة بعصابات جلدية تساعدهم على تثبيت احمالهم . وقال ليويس :

— انظري لي الى ذلك ! انهم يظنون أنفسهم دواب ركوب .

— افترض انهم أفقر من ان يستطيعوا الحصول على حمير .

— افترض . لكن يبدو عليهم انهم مرتاحون تماماً في بؤسهم : هذا ما يغيظ فيهم . » واضاف : ماذا لو عدنا ؟ » .

— لنعد .

وعدنا الى الفندق ، لكنه تركني أمام الباب : « نسيت أن اشتري سجاير . سأعود حالاً » .

كان في مدفأتنا نار كبيرة . كانت هذه المدينة الصغـيرة المشمسة منصوبة عالياً أعلى من أية بلدة في فرنسا وكان الليل يهدد بأن يكون بارداً . ورقـدت

أمام ألسنة اللهيب التي كانت تفوح منها رائحة صمغ طيبة . كانت تعجبني ، هذه الغرفة ، بجدرانها المجصصة باللون الوردي وسجادها . وفكرت بليويس : كنت مسرورة بانفرادي خمس دقائق ، لأن ذلك كان يسمح لي بالتفكير به . يقيناً ، ان ليويس لا يأبه لما هو غريب . فاذا ما رأى معابد ، او مناظر ، او اسواقاً ، فانه ينظر اليها جانبياً فوراً : فيرى البشر . كانت لديه أفكاره عما يجب أن يكون عليه الانسان : قبل كل شيء شخص لا يستسلم ، شخص له رغبات ويناضل لإشباعها . كان ، هو نفسه ، يكتفي بالقليل ، لكنه كان قد رفض بعنف ان يحرم من كل شيء . كان في رواياته مزيج غريب من الحنان والقسوة لأنه كان يكره بالقدر نفسه تقريباً المضطهدين وضحاياهم القانعة أكثر مما ينبغي . وكان يقف مودته على الناس الذين يحاولون على الأقل تهربات شخصية في الأدب ، والفن ، والمخدر ، وعند الحاجة الجريمة ، وفي افضل الحالات السعادة . ولم يكن يعجب حقاً الا بكبار الثوريين . لم يكن رأسه سياسياً أكثر مني ، لكنه كان يحب بشكل عاطفي جداً ستالين ، وماوتسي تونغ ، وتيتو . وكان شيوعيو اميركا يبدون له سذجاً ورخوين ، لكني افترض انه كان سيكون شيوعياً في فرنسا : على الأقل كان سيحاول . وأدرت رأسي نحو الباب : لماذا لا يعود ؟ وكنت على وشك نفاد الصبر حين دخل أخيراً ، تحت ذراعه حزمة . وقلت :

– ماذا فعلت إذن ؟

– كنت مكلفاً بمهمة خاصة .

– من قبل من ؟

– من قبل نفسي .

– وهل نفذتها ؟

– بالتأكيد .

ورمى لي بالحزمة . ونزعت الورق . وملأ أزرق « شارتر » عيني : كانت الصدرية الرائعة . وقال ليويس :

– انها بالأحرى وسخة !

كنت اتابع بإصبعي في حبور الرسم الجامح والمدروس للتطاريز : « انها عظيمة . كيف حصلت عليها ؟ »

— لقد أخذت معي بواب الفندق فقام بالمساومة كلها . لم تكن العجوز تريد أن تعرف شيئاً لبيع خرقتها لكن حين اقترح عليها مبادلتها مقابل صدرية جديدة ، رضيت . بل لقد بدا عليها انها تعتبرني أحمق . لكني ، بعد ذلك، اضطررت الى تقديم كأس للبواب ، فما عاد يتركني : انه يريد الذهاب لجمع ثروة في نيويورك .

وتعلقت برقبة ليويس : « لمَ انت لطيف جداً معي ؟ » .

— لقد قلت لك انني لست لطيفاً . اناني جداً . كل ما هنالك انك قطعة صغيرة مني .» وطوقني بقوة أعظم : « أنت عذبة جداً للحب » .

آه ! كان جسدانا مفيدين للغاية في هذه اللحظات التي يخنقنا فيها الحنان . والتصقت بليويس . كيف يمكن لجسده ان يكون مألوفاً ومقلقاً للغاية في آن واحد ؟ وفجأة ألهبني دفئه من جلدي الى عظامي . وتهالكنا على السجادة امام ألسنة اللهيب المتقلصة .

— آن ! أتعرفين كم احبك ؟ أتعرفين ذلك مع انني لا اقوله لك غالباً ؟

— انني اعرف . انت تعرف ايضاً ، أليس كذلك ؟

— اعرف .

ورمينا بثيابنا في زوايا الغرفة الاربع . وقال ليويس :

— لماذا ارغب فيك كثيراً ؟

— لأنني ارغب فيك كثيراً .

واخذني على السجادة . واخذني ثانية على السرير ولبثت طويلاً راقدة في ظل أبطه .

— كم احب ان اكون ملتصقة بك !

— كم احب ان تكوني ملتصقة بي !

وبعد فترة نهض ليويس على احد مرفقيه :

– حلقي جاف . وانت لا ؟
– سأشرب كأساً بكل رضى .
ورفع سماعة التلفون وطلب كأسي وسكي . وضممت ثوب غرفتي وضم هو برنسه الابيض . وقلت :
– يجب ان ترمي هذه الفظاعة .
فتلفح بقوة في النسيج النافش :
– ابداً ! سأنتظر ان يتركني .
لم يكن بخيلاً البتة ، لكنه كان يكره ان يرمي الاشياء ، وعلى الاخص ملابسه القديمة . وجيء لنا بالوسكي وجلسنا عند ركن النار ، كانت السماء قد اخذت تمطر ، في الخارج ، وكانت تمطر كل الليالي . وقلت :
– انني مرتاحة !
فقال ليويس :
– انا ايضاً . » وطوق كتفي بذراعه وقال : « آن ! ابقي معي » .
وتوقف نفَسي في حلقي : ليويس ! انت تعرف كم اود ذلك ! اود كثيراً ! لكني لا استطيع » .
– لماذا ؟
– شرحت لك في السنة الماضية .
وافرغت كأسي بجرعة واحدة وانهارت كل المخاوف القديمة علي : خوف نادي ديليزا ، خوف ميريدا ، خوف شيشن اتزا ، وغيرها ايضاً مما خنقتها بسرعة كبيرة . هذا ما كنت اشعر بنذيره . ذات يوم سوف يقول لي : ابقي ، وسيكون علي ان اجيب لا . ماذا سيحدث آنذاك ؟ السنة الماضية ، لو فقدت ليويس لاستطعت ان اتعزى عنه . اما الآن فحرماني منه يعادل دفني حية .
وقال :
– انت متزوجة . لكنك تستطيعين الطلاق . نستطيع ان نعيش معاً دون ان نتزوج . » ومال عليّ : « انت زوجتي ، زوجتي الوحيدة » .

وصعدت الدموع الى عيني وقلت : « انني احبك . انت تعرف كم احبك . لكني في مثل عمري لا استطيع ان ارمي حياتي كلها الى عرض البحر : لقد فات الأوان . لقد التقينا بعد فوات الأوان » .

فقال :

— ليس بالنسبة لي .

فقلت :

— هل تعتقد ؟ اذا سألتك ان تأتي للعيش في باريس للأبد ، فهل تأتي ؟

فقال ليويس بحدة :

— انني لا اتكلم الفرنسية .

فابتسمت : « انها تُتعلم . ان الحياة ليست اغلى في باريس منها في شيكاغو ، والآلة الكاتبة ، انها سهلة النقل . هل ستأتي ؟ » .

فغام وجه ليويس : « لن استطيع الكتابة في باريس » .

فقلت :

— افترض ان لا . » وهززت كتفي : « كما ترى ، لن تستطيع الكتابة في الخارج ولن يعود لحياتك معنى . انني لا اكتب . لكن ثمة اشياء لها اهميتها عندي لا تقل اهمية عن كتبك بالنسبة لك » .

فلزم ليويس الصمت لحظة . وقال : « الا انك تحبينني ؟ » .

فقلت :

— نعم . سأحبك حتى موتي » . واخذت يديه : « ليويس، استطيع المجيء كل سنة . اذا كنا واثقين من اننا سنلتقي كل سنة ، فلن يعود هناك فراق ، بل انتظارات فقط . اننا نستطيع الانتظار في السعادة حين نحب بعضنا حباً قوياً بما فيه الكفاية » .

فقال ليويس :

— اذا كنت تحبينني كما احبك، فلماذا نضيع ثلاثة ارباع حياتنا في الانتظار؟

فترددت ، وقلت : « لأن الحب ليس كل شيء . عليك ان تفهمني : بالنسبة

لك ايضاً ليس هو كل شيء » .

كان صوتي يرتجف ونظرتي تتضرع الى ليويس : ليفهم ! ليحتفظ لي بهـذا الحب الذي لم يكن كل شيء والذي مع ذلك لن اعود شيئاً بدونه .

وقال ليويس :

– كلا ، ليس الحب كل شيء .

كان ينظر اليّ بوجه متردد . فقلت بحماسة :

– انني لا احبك اقل لحرصي ايضاً على اشياء اخرى . يجب ألا تحقد عليّ لذلك . يجب الا يكون حبك لي اقل .

فلمس ليويس شعري : « افترض انه لو كان الحب كل شيء بالنسبة لك لما احببتك بهذا القدر : فأنت لن تعودي نفسك » .

فامتلأت عيناي بالدموع . اذا كان يقبلني بكاملي، مع ماضيّ، وحياتي ، مع كل ما يفصلني عنه ، فان سعادتنا قد انقذت . ورميت بنفسي بين ذراعيه :

– ليويس ! كان الامر سيكون فظيعاً لو لم تفهم ! لكنك تفهم.يا للسعادة !

فقال ليويس :

– لماذا تبكين ؟

– لقد خفت : اذا خسرتك ، فلن استطيع الحياة .

فسحق دمعة على خدي : « لا تبكي . انما انا الذي يخاف حين تبكين » .

فقلت :

– انني الآن ابكي لأنني سعيدة . لأننا سنكون سعيدين . عندما سنكون معاً ، سنختزن من السعادة ما يكفي للسنة كلها ، أليس كذلك ، يا ليويس ؟

فقال بحنان :

– اجل ، يا غوليتي الصغيرة . » وقبّل خدي المبلل : « هذا غريب ، تبدين لي أحياناً امرأة عاقلة جداً ، واحياناً مجرد طفلة .

فقلت :

– أفترض انني امرأة بلهاء . لكن هذا عندي سيان اذا كنت تحبني .

فقال ليويس :

– انني احبك ، ايتها الغولية الصغيرة البلهاء .

كان قلبي مبتهجاً صباح اليوم التالي في الاوتوبيس الذي كان يقودنا الى « كتزالتينانغو » . ما عدت اخشى المستقبل ، ولا ليويس ، ولا الكلمات ، ما عدت اخشى شيئاً . وللمرة الاولى رحت اجرؤ على التفكير بمشاريع بصوت عالٍ : في السنة القادمة ، سيستأجر ليويس بيتاً على بحيرة ميشيغان وسنمضي فيه الصيف . وبعد سنتين سيأتي الى باريس ، وسأريه فرنسا وايطاليا ... كنت امسك بيده مطبقة في يدي وكان يوافق باسماً . كنا نعبر غابات ملتفة . وكان يهطل مطر دافىء جداً وذو رائحة فواحة حتى انني انزلت الزجاج لأحس به على وجهي . كان رعاة ينظرون إلينا نمر ، بلا حراك تحت قبعاتهم القشية : لكأنهم ينقلون اكواخاً على ظهورهم .

وقال ليويس :

– أصحيح حقاً اننا على ارتفاع ٤٠٠٠ متر ؟

– يبدو ذلك .

فهز رأسه : « لا اصدق ذلك . كنت اصبت بالدوار » .

من بعيد ، كانت تلك الهضاب المرتفعة ارتفاع كتل الجليد والمغطاة بأشجار غناء تبدو لي دوماً كأنها معجزة مستحيلة . اما الآن فإنني اراها ، وهي تصبح طبيعية كأنها مرج فرنسي . وفي الحقيقة ان غواتيمالا العليا مع براكينها النائمة ، وبحيراتها ، ومراعيها ، وفلاحيها المتطيرين ، تشبه مقاطعة « اوفرني » . وكنت قد اخذت اتعب منها ، ولقد سررت حين نزلنا ، بعد يومين ، نحو الساحل : نزول عظيم ! وعند الفجر كانت اسناننا تصطك على الطريق المتعرجة التي تحفها مراعٍ نضرة . ثم اختفت النباتات التي تتجدد سنوياً تحت امواج من نبات قاتم ذي اوراق قاسية ولامعة . وعند سفح المراعي الجبلية المتلألئة بصقيع ابيض ظهرت قرية اندلسية حجرية مزهرة بالبامية والنباتات المتسلقة . وبعد دورات من الدولاب ، اجترنا ايضاً عدة متوازيات ، والتهبت السماء ، وعبرنا

مزارع الموز ، التي تتناثر فيها اكواخ تتجول حولها هنديات عاريات الصدور . وكانت محطة « موتزاتينانغو » ميدان معرض . كانت نسوة جالسات على الخطوط الحديدية بين تنوراتهن ، وامتعتهن ، ودواجنهن . وقرع جرس من بعيد ، واخذ موظفون يصيحون ، وظهر قطار صغير ، تسبقه ضجة عريقة في القدم للبخار والحديد .

واقتضانا قطع المئة والعشرين كيلومتراً التي تفصلنا عن غواتيمالا عشر ساعات . وفي اليوم التالي ، نقلتنا طائرة ، في خمس ساعات ، فوق جبال قاتمة وساحل بارق بالشرر ، الى مكسيكو .

وقال ليويس في التاكسي :

– اخيراً مدينة حقيقية ! مدينة تحدث فيها اشياء ! » وأضاف : « انني احب المدن ! » .

– انا ايضاً .

كنا قد اخترنا مسبقاً فندقنا ، وكانت رسائل تنتظرنا فيه. وقرأت رسائلي في الغرفة ، جالسة الى جانب ليويس : انني استطيع الآن ان أفكر بحياتي في باريس دون ان اشعر انني اسرق منه شيئاً ما ؛ انني اشاطره الآن كل شيء حتى ما يفصلنا . كان روبير يبدو حسن المزاج ، ويقول ان نادين حزينة لكن هادئة ، وان بول قد شفيت تقريباً : كان كل شيء على ما يرام . وابتسمت لليويس :

– من كتب لك ؟

– ناشرو كتبي .

- ماذا يقولون ؟

– يريدون تفاصيل عن حياتي . من اجل طرح الكتاب الى السوق : انهم يفكرون بطرح كميات كبيرة منه .

كان صوت ليويس كالحاً . فسألته بنظرتي :

– هذا يعني انك ستربح كثيراً من المال ، أليس كذلك ؟

فقال ليويس :

– لنأمل ذلك ! » ودس الرسالة في جيبه : يجب ان اجيبهم فوراً » .

فسألت :

– لماذا فوراً ؟ لنذهب اولاً لرؤية مكسيكو .

فأخذ ليويس يضحك : رأس صغير جداً ! وعينان لا تتعبان أبداً من النظر ! ».

كان يضحك ، لكن شيئاً ما في لهجته أقلقني . فقلت : « اذا كان الخروج يزعجك ، فلنبقَ » .

فقال ليويس :

– ستأسفين كثيراً !

وسرنا محاذين « الآلاميدا » . كانت نسوة على الرصيف يضفرن أكاليل مأتمية كبيرة ، وغيرهن يتسكعن . وكانت كلمة « الكازار [1]» تلمع في بهجة على مثلث في أعلى قاعة مأتمية . وسرنا في شارع عريض شعبي ثم في شوارع صغيرة قريبة . وللوهلة الأولى ، اخذت مكسيكو تعجبني . لكن ليويس كان مشغولاً . لم يكن ذلك يدهشني . ثمة أشياء يقررها دفعة واحدة ، لكن يحدث له غالباًأن يتردد طوالساعات أمام حقيبة يجب أنتهيأ او رسالةيجب انتكتب. وتركته يفكر بصمت طوال العشاء كله . وما ان عدنا الى الغرفة حتى جلس أمام صفحة من ورق أبيض : كان بفمه نصف المفتوح وعينيه الزجاجية ، يشبه سمكة . ونمت قبل ان يخط كلمة واحدة .

وسألته صباح اليوم التالي :

– أانتهت رسالتك ؟

– اجل .

– لماذا تزعجك الكتابة كثيراً ؟

– انها لا تزعجني . » واخذ يضحك : « آه ! لا تنظري إليّ وكأنني أحد

---

١ – اي القصر ، والكلمة عربية الأصل . « المترجم » .

مرضاك . تعالي لنتنزه » .

وتنزهنا كثيراً ، خلال ذلك الاسبوع . تسلقنا الأهرام الكبيرة واجرنا في قوارب زهرية ، وتسكعنا في شارع جالسيكو ، في أسواقه البائسة ، ومراقصه ، وملاهيه الموسيقية ، وتجولنا في المنطقة وشربنا من التيكيلا في البارات السيئة السمعة . وكنا نزمع البقـــاء بعض الوقت ايضاً في مكسيكو ، وقضاء شهر في زيارة البلد والعودة لشيكاغو لمدة بضعة ايام . لكن بعد ظهر أحد الأيام ، قال لي ليويس على حين غرة ، حين عدنا لغرفتنا بغية القيلولة :

ــ يجب ان أكون يوم الخميس في نيويورك .

فنظرت اليه في دهشة : « في نيويورك ؟ لماذا ؟ » .

ــ ناشريّ يطلبون ذلك .

ــ أتلقيت رسالة جديدة ؟

ــ نعم ، انهم يدعونني لمدة خمسة عشر يوماً .

فقلت :

ــ لكنك لست مرغماً على القبول .

فقال ليويس :

ــ بالضبط ، انني مرغـم .» واضاف : « لعــــل الأمور لا تجري على هذا النحو في فرنسا ، لكن الكتاب هنا قضية ، فإذا اردت ان يغـلّ ، فيجب ان تهتمي به . يجب أن أرى أناساً ، وأحضر حفـلات ، وأعطي مقابلات . ليس هذا ظريفاً جداً ، لكن الأمر هكذا » .

ــ ألم تخطرهم انك لست حراً قبل تموز ؟ ألا يمكن تأجيل هذا كله حـــتى تموز ؟

ــ لا يكون الوقت مناسباً في تموز ، وعندئذ يجب ان انتظر حتى تشرين الأول : وهذا موعد متأخر أكثر ممـــا ينبغي . » وأضاف ليويس في نفـاد صبر : « منـــذ اربعة اعوام وانا اعيش على نفقة ناشريّ . واذا كانوا يريدون ان يسددوا تكاليفهم ، فليس علي انا ان اعرقل عملهم . انني بحاجة الى المـال ، انا

ايضاً ، اذا كنت اريد ان اتابع كتابة ما يعجبني ».

فقلت :

— انني افهم .

— كنت افهم ، الا انني كنت اشعر بفراغ غريب في جوف معدتي . واخذ ليويس يضحك :

— ايتها الغولية الصغيرة المسكينة ! لكم يثير منظرهـا الحزن حين لا تنفذ كافة رغباتها !

واحمر وجهي . كان صحيحاً فعلاً ان ليويس لا يفكر قط إلا في ارضائي . واذا كان قد ابدى اهتماماً بمصالحه الخاصة ذات لحظة ، فقد كان علي الا اشعر انني مضطهدة . كان يجدني انانية ، لهذا كان صوته عدائياً بعض الشيء .

وقلت :

— انها غلطتك . لقد دللتني كثيراً . » وابتسمت وقلت : « اوه ! من الرائع ان نتنزه معاً في نيويورك . كل ما هنالك ان ذلك سبب لي صدمة ، اعني فكرة تغيير جميع مشاريعنا ، ولقد اعلنت لي ذلك دون ان تقول لي خذي حذرك ».

— كيف كان يجب ان اعلن ذلك لك ؟

فقلت في مرح :

— انني لا اؤنبك على شيء . » وسألت ليويس بنظرتي : « أكانوا قد دعوك في رسالتهم الاولى ؟ » .

فقال ليويس :

— نعم .

— لمَ لم تقل لي ذلك ؟

فقال ليويس :

— كنت اعرف ان هذا لن يسرك .

وألان قلبي منظره المرتبك . انني افهم الآن لماذا تردد كثيراً في جوابه . كان يحاول ان ينقذ رحلتنا الى المكسيك ، وكان مزمعاً كل الازماع على النجاح في

ذلك حتى انه بدا له انه لا جدوى من اقلاقي . لكنه فشل . لذلك فهو يحاول الآن ان يواجه الحظ العاثر بقلب طيب . وكانت تأسفاتي تغيظه قليلاً : كان يفضل ان يغتاظ على ان يكتئب ، انني أفهمه .

وقلت :

ــ كنت تستطيع ان تخبرني ، انني لست هشة الى هذا القدر . » وابتسمت له في حنان : « انت ترى جيداً انك تدللني كثيراً » .

فقال ليويس :

ــ ربما .

ومن جديد ، شعرت انني محيّرة ، وقلت : «سنبدل هذه الحال حين نصبح في نيويورك ، سأقوم انا بتنفيذ كافة رغباتك » .

فنظر اليّ ليويس ضاحكاً :

ــ أهذا صحيح ؟

ــ نعم ، هذا صحيح . كل بدوره .

ــ اذن ، لا ننتظر نيويورك . لنبدأ فوراً . » وأمسكني من كتفي وقال في شيء من التحدي : « تعالي نفـّذي كافة رغباتي » .

كانت المرة الاولى التي افكر فيها وانا أهبه فمي : « كلا » . لكني لم اكن معتادة على ان أقول لا ، ولم اعرف كيف اقولها . ثم ان الاوان كان قد فات لأتدارك نفسي دون مشكلة. يقيناً ، لقد حدث لي مرتين او ثلاثاً ان قلت: نعم ، دون ان اكون راغبة في ذلك حقاً . لكن قلبي كان دوماً راضياً . أما اليوم ، فالأمر مختلف . فقد كان في صوت ليويس وقاحة جمدتني . لم تكن حركاته وكلماته لتصدمني قط ، لأنها كانت تلقائية كشهوته ، ولذته ، وحبه . ولقد اشتركت اليوم وانا مرتبكة في الرياضة المألوفة التي بدت لي غريبة ، باطلة ، ماجنة . وتبينت ان ليويس لم يقل لي : « احبك » . متى قالها آخر مرة ؟

ولم يقلها في الأيام التالية . لم يكن يتحدث الا عن نيويورك . كان قد امضى فيها يوماً ، في عام ١٩٤٣ ، حين كان مقلعاً الى اوروبا ، وكان يتلظى رغبة في

ان يراها ثانية . كان يأمل كثيراً من الاشياء . ان للمستقبل والماضي قيمة اكثر من الحاضر في نظر ليويس . كنت قربه ، وكانت نيويورك بعيدة : لكنها كانت نيويورك المسيطرة عليه . لم اكن اغتم لذلك كثيراً ، لكن مرحه كان يحزنني على كل حال . ترى أليس نادماً على خلوتنا ؟ كان لدي الكثير من الذكريات القريبة العهد كي لا اخشى ان يكون قد تعب مني : لكنه ربما اعتاد على ذلك أكثر مما ينبغي قليلاً .

كانت نيويورك شديدة الحر . لقد انتهت الامطار الكبيرة الليلية . كانت السماء تحترق من الصباح. وغادر ليويس الفندق في ساعة مبكرة وبقيت متناومة على هرير المروحة . وقرأت ، واخذت دوشات : وكتبت بضع رسائل . وفي الساعة السادسة كنت مرتدية ثيابي ، انتظر ليويس . ووصل في السابعة والنصف ، ملؤه الحماسة . وقال لي :

ـ لقد وجدت فلتون !

كان قد حدثني كثيراً عن فلتون هذا ، الذي يدق الطبل في الليل ، ويقود تاكسياً في النهار ، ويتناول المخدرات ليل نهار . وكانت زوجته تمارس البغاء وتتناول المخدرات معه . كانا قد تركا شيكاغو لأسباب صحية آمرة . ولم يكن ليويس يعرف عنوانها تماماً . وما ان انتهى من وكلائه وناشريه ، حتى أخذ يبحث عنه ؛ وبعد الف قصة تمكن من مكالمة فلتون بالهاتف . وقال ليويس :

ـ انه ينتظرنا . سوف يرينا نيويورك .

كنت افضل لو اقضي السهرة بمفردي مع ليويس لكني قلت في طلاقة : « يستهويني كثيراً ان أتعرف اليه » .

ـ ثم إنه سيأخذنا الى عدد من الزوايا لن نكتشفها ابداً بدونه . » واضاف ليويس في مرح :« زوايا لم يرك إياها اصدقاؤك الاطباء والنفسانيون بالتأكيد!».

كان الجو مشبعاً ، في الخارج ، بحرارة كبيرة رطبة . وكانت الحرارة اشد ايضاً في غرفة فلتون . كان رجلاً طويلاً شاحب الوجه ، يضحك غبطة وهو يهز يد ليويس . وفي الحقيقة ، لم يرنا شيئاً كبيراً من نيويورك . وجاءت زوجته،

مع شابين وعلب جعة . وافرغوا علبة اثر علبة وهم يتحدثون عن مجموعة من الناس أجهل عنهم كل شيء ، سجنوا ، أو سيخرجون من السجن ، يبحثون عن مركب تخديري : او وجدوا مركباً . وتكلموا أيضاً عن تجارة المخدر والنفقة التي تتطلبها الشرطة هنا . وكان ليويس يستمتع كثيراً . وذهبنا لتناول اضلاع خنزير في حانة في الشارع الثالث . وتابعوا الكلام طويلاً . وكنت أشعر بسأم كثير واشعر انني منهكة بالأحرى .

وبقيت على هذه الحالة في الأيام التالية . انني لم اخطىء في نقطة واحدة على الأقل ! لقد فقد ليويس شيئاً من حماسته، في نيويورك . لم يكن يحب نوع الحياة الذي يفرض عليه هنا ، ولا الدنيويات ، ولا الأعلان . وكان يذهب بدون فرح الى حفلات غدائه ، ورقصه، وكوكتيلاته، ويعود منها مقطباً . ولم اكن ، انا ، اعرف ماذا افعل بنفسي . كان ليويس يقترح علي برخاوة ان ارافقه ، لكن اللقاءات التي بدون غد لم تكن تستهويني هذه السنة ، ولم يكن يستهويني ايضاً ان ارى ثانية اصدقائي القدامى . كنت اتنزه في الشوارع ، بمفردي ودون قناعة كبيرة : كان الحر شديداً ، والزفت يذوب تحت قدمي ، وكنت أرشح عرقاً فوراً ، وافتقر الى ليويس . واسوأ من ذلك ، اننا حين كنا نلتقي ، لم تكن الحال بأكثر مرحاً . كان ليويس يضجر من حكاية حفلاته المضجرة ، ولم يكن لدي شيء ارويه . وعندئذ كنا نذهب الى السينما ، الى مباراة ملاكمة ، الى مباراة بيزبول ، وكان فلتون يأتي معنا غالباً .

وسألني ليويس ذات يوم :

– ألا تشعرين بمودة كبيرة نحو فلتون ؟

فقلت :

– ليس لدي على الاخص ما اقوله له ولا هو لي . » وتفرست في وجه ليويس بفضول : « لمَ اصدقاؤك المفضلون هم من النشالين او المدمنين أو القوادين دوماً ؟ » .

فهز ليويس كتفيه : « انني اجدهم مسلّين اكثر من الآخرين ».

– لكن انت ، ألم تحاول قط ان تدمن على المخدرات ؟

فقال في حدة :

– اوه ! كلا ! تعرفين جيداً : انني أعبد كل ما هو خطر ، لكن من بعيد .

كان يمزح ، لكنه كان يقول الحقيقة . كان ما هو خطر ، مبالغ فيه ، لا معقول ، يسحره ، لكنه قرر ان يعيش بلا مجازفة ، في اعتدال وعقل . وكان هذا التناقض هو ما يجعله غالباً قلقاً ومتردداً . ألم يكن هذا التناقض وراء موقفه تجاهي ؟ كنت اتساءل عن ذلك في قلق . لقد احبني ليويس باندفاع ، بعدم تحفظ : ترى هل يلوم نفسه على ذلك الآن ؟ لم اعد استطيع ، على كل حال ، ان اخفي ذلك عن نفسي : لقد تغير منذ بعض الوقت .

كان يبدو على مزاج طيب جداً ، ذلك المساء ، حين دخل الى الغرفة . كان قد امضى بعد الظهر في تسجيل مقابلة للإذاعة وكنت اتوقع اسوأ الحالات لكنه قبلني في مرح :

– ارتدي ثيابك بسرعة ! سأتعشى مع جاك موراي وستأتين معي . انه يموت رغبة في التعرف إليك وانا اريد ان تتعرفي إليه .

ولم اخف خيبتي : « هذا المساء ؟ ليويس ، ألن نقضي سهرة واحدة بمفردنا، انت وانا ؟ » .

فقال ليويس :

– سنتركه باكراً ! » وأفرغ على الطاولة جيوب سترته واخرج من الخزانة ثوبه الجديد . وقال : « انني في اغلب الاحيان لا أشعر بمودة نحو كاتب . اذا قلت لك ان موراي سيعجبك ، تستطيعين تصديقي » .

فقلت :

– انني اصدقك .

وجلست امام مرآة زينتي لأتجمل . وقال ليويس :

– سنتعشى في الهواء الطلق ، في « سانترال بارك » . يبدو ان المكان جميل جداً وان الطعام فيه جيد . ما قولك ؟

فابتسمت : « اقول اننا إذا كنا حقاً حرين، انت وانا ، في ساعة مبكرة ، فهذا رائع » .

فنظر إليّ ليويس متردداً : « اود كثيراً ان يعجبك موراي » .

– لمَ ذلك ؟

فقال ليويس بصوت مرح :

– آه ! لقد اعددنا مشاريع ! لكن يجب ان يعجبك ، والا فلن تنجح ! » .

فسألت ليويس بعيني ، فقال :

– لديه منزل في قرية صغيرة ، قرب بوسطن . انه يدعونا اليه ما طاب لنا من الزمن . هذا أفضل بكثير من العودة الى شيكاغو : فلا بد ان الحر في شيكاغو أشد مما هو هنا أيضاً .

ومن جديد شعرت بفراغ كبير في جوف معدتي : « أهو يسكن في ذلك المنزل ، او لا يسكنه ؟ » .

– انه يسكنه مع زوجته وولديه . » وأضاف ليويس في لهجة هازئة قليلاً: « لكن لا تخافي ، ستكون لنا غرفة خاصة بنا » .

فقلت :

– لكني ، يا ليويس ، لست أرغب في قضاء هذا الشهر الأخير مع أناس آخرين ! انني أفضل أن اتحمل الحر الشديد في شيكاغو واكون وحدي معك .

فقال ليويس بصوت عنيف :

– لا أرى لمَ يجب ان نبقى ليل نهار معاً بحجة اننا متحابّان ! » وقبل ان استطيع الجواب ، كان قد دخل الى غرفة الحمام وأغلق الباب .

وتساءلت في قلق : « ماذا يعني هذا ؟ أيضجر حقاً معي ؟ » . وارتديت قميصاً مزركشاً ، وتنورة حفحافة اشتريتها من مكسيكو ، واحتذيت نعلين ذهبيين ، وبقيت مزروعة وسط الغرفة ، محتارة تماماً . أيضجر ؟ أم ماذا ؟ ولمست المفاتيح التي ألقاها على الطاولة ، وحافظة النقود ، وعلبة سجاير « كامل»: كيف يمكن ألا أحسن معرفة ليويس مع انني أحبه كثيراً! ولاحظت

بين الأوراق المتنافرة ، رسالة مدموغة بشعار ناشريه . ونشرتها : « العزيز ليويس بروغان . ما دمت تفضل ان تأتي فوراً الى نيويورك فنحن موافقون . سنتخذ جميع الترتيبات الضرورية . نحن موافقون على يوم الخميس ظهراً » . وقرأت البقية من خلال ضباب ، ولم يكن للبقية من فائدة . « تفضل ان تأتي فوراً الى نيويورك ، تفضل ، تـ ... » . في المساء الذي أقامت فيه بول مأدبتها الوهمية شعرت بالأرض تهتز تحت قدمي . أما اليوم فالحال أسوأ . لم يكن ليويس مجنوناً : لا بد انني أنا المجنونة ! وتهالكت على مقعد . كان قد كتب رسالته بعد ثمانية أيام فقط من ليلة « شيشيكاستينانغو » ، تلك الليلة التي كان يقول فيها : « انني احبك ، ايتها الغولية الصغيرة الحمقاء » . كنت أتذكر كل شيء : لهيب النار ، السجاد ، برنسه القديم ، المطر على الزجاج . وكان يقول : « احبك » . كان ذلك قبل ثمانية أيام من وصولنا الى مكسيكو : وخلال تلك الفترة ، لم يحدث شيء . اذن لماذا قرر ان يختصر خلوتنا ؟ لماذا كذب عليّ ؟ لماذا ؟

وقال ليويس عندما خرج من غرفة الحمام :

— اوه ! لا تقطّبي هكذا !

كان يظن انني غاضبة بسبب دعوة موراي . ولم أحرره من وهمه ، فقد كان من المستحيل علي ان انتزع من نفسي كلمة . واثناء رحلة التاكسي لم ننبس ببنت شفة .

كان الجو رطباً جداً في مطعم « سنترال بارك » أو كانت الخضرة ، والاسمطة المزركشة ، والآنية المليئة بالثلج ، وأكتاف النساء العارية توحي على الأقل ، بالرطوبة . وشربت كأسين من المارتيني ، وبفضل ذلك استطعت حين جاء موراي ان ألفظ بضع جمل بلباقة . كنت سأسر حتماً بلقائه لو كان ذلك في الأيام التي كنت احب فيها اللقاءات التي بدون غد . كان كل شيء فيه مستديراً ، رأسه ، ووجهه وجسده ، ولهذا كنت أشعر انني اود لو اتشبث به كما يتشبث المرء بجهاز طوف . وكم كان صوته لطيفاً ! وتبينت عند سماعه كم أصبح صوت ليويس جافاً . وحدثني عن كتب روبير ، وكتب هنري ،

وكان يبدو عليه انه مطلع على كل شيء ، وكان الحديث سهلاً معه . كانت ضربات المطرقة لا تزال تقرع رأسي : « تفضل أن تأتي الى نيويورك ، تفضل نيويورك » لكنه كان كابوساً يستمر بدوني بينما كنت اتناول مزيجاً من القريدس وأحتسي نبيذاً أبيض . وسألني موراي عن رأي الفرنسيين في اقتراحات مارشال ، وأخذ يتناقش مع ليويس عن الموقف المرجح للاتحاد السوفياتي : كان يرى انه سيرفض اقتراحات مارشال وانه سيكون على حق في ذلك . كان يبدو اكثر خبرة في السياسة من ليويس . وبشكل عام كان عقله اكثر تنظيماً وثقافته اكثر متانة . وكان ليويس سعيداً للغاية بأن يجد آراءه الخاصة ثانية في فم رجل يعرف كيف يحسن الدفاع عنها . نعم ، كان موراي يستطيع ان يفيده أكثر مني ، على عدة مستويات . كنت أفهم رغبة ليويس في أن يجعل منه صديقاً ، وكنت أفهم عند الضرورة ان يتمنى قضاء هذا الشهر معه : لكن هذا لا يفسر كذبة مكسيكو ، هذا لا يفسر ما هو أساسي .

وسأل موراي وهو يتجه نحو مرأب السيارات :

– هل أستطيع ان اضعكما في مكان ما ؟

– كلا ، انني أرغب في السير .

فقال موراي في ابتسامة كبيرة :

– اذا كنت تحبين السير ، فيجب ان تأتي حتماً الى « روكبور » . هناك مجال لنزهات رائعة . انا واثق ان المكان سيعجبك . وسأكون مسروراً للغاية بمجيئكما الى هناك كليكما !

فقلت في حرارة :

– سيكون هذا حسناً !

فقال موراي :

– بدءاً من يوم الاثنين القادم ، ليس عليك إلا ان تجيئي . وليس هناك حاجة لإخطاري .

وصعد الى سيارته وانطلقنا على أقدامنا عبر الحديقة .

وقال ليويس في شيء من التأنيب :

– اعتقد ان موراي كان راغباً في قضاء السهرة معنا .

فقلت :

– ربما ، لكن ليس أنا .

فقال ليويس :

– ومع ذلك ، يبدو انك تفاهمت معه .

فقلت :

– انني أجده جذاباً جداً . لكن لدي أشياء أريد أن أقولها لك . » فغام وجه ليويس : « وهل الأمر هام للغاية ؟ » .

– اجـل . » واشرت الى صخـــرة مسطحة وسط الأرض المعشوشبة : « لنجلس » .

كانت سناجب رمادية تركض في العشب . ومن بعيــد كانت ناطحات السماء تلمع . وقلت بصوت حيادي :

– بينما كنت تأخذ دوشك ، قبل قليـــل ، تركت رسائل على الطاولة . » وبحثت عن نظرة ليويس: » لم يكن ناشروك يطلبون ان تأتي الى نيويورك الآن. انما انت الذي اقترح عليهم ذلك . لماذا قلت لي العكس ؟ » .

فقال ليويس بصوت ساخط :

– آه ! أتقرئين بريدي من وراء ظهري ؟

– لِمَ لا ؟ فأنت ، انك تكذب علي .

فقال ليويس في جفاء :

– انني أكذب عليك وأنت تنقبين في أوراقي : نحن متعادلان .

وفجأة تخلت عني كل قواي ونظرت اليـه في ذهول . كان هو ، كنت انا ، فكيف وصلنا الى هذا الحد ؟ وسألت في ضياع :

– ليـــويس ، انني لم أعد أفهـم شيئاً . انت تحبني ، وانا احبك . فماذا يحدث لنا ؟

فقال ليويس :

– لا شيء البتة .

فكررت :

– انني لا افهم ! إشرح لي . كنا سعيدين جداً في مكسيكو . لماذا قررت المجيء الى نيويورك ؟ انت تعرف جيداً اننا لن نستطيع ان نلتقي ثانية تقريباً .

فقال ليويس :

– دوماً هنود ، وخرائب ، كان ذلك قد بدأ يسئمني . » وهز كتفيه : « رغبت في تبديل الهواء . انني لا أرى ما المأساة في ذلك » .

لم يكن هذا جواباً ، لكني قررت مؤقتاً ان اكتفي به . وسألت : « لماذا لم تقل لي انك ضجرت من مكسيكو ؟ لمَ هذه المكائد ؟ » .

فقال ليويس :

– ما كنت لتتركيني آتي الى هنا ، كنت أرغمتني على البقاء هناك .

وانتفضت كما لو انني صفعت : أي حقد في صوته !

– أتفكر بما تقوله ؟

فقال ليويس :

– نعم .

– لكن أخيراً يا ليويس ، متى منعتك من فعل ما تريد ؟ نعم ، انك تسعى دوماً إلى إرضائي : لكن كان يبدو ان هـــذا يرضيك انت . انني لم أشعر قط انني اضطهدك .

واستعدت ماضينا في ذهني : كان كل شيء حباً ، وتفاهماً ، وسعادة تبادلنا السعادة . كان فظيعاً ان أتصور ان وراء لطف ليويس تختفي مخالب .

وقال ليويس :

– انت عنيدة جداً حتى انك لا تدركين ذلك . انـــك ترتبين الاشياء في رأسك ، ثم لا تتراجعين عنها مطلقاً ، ولا بد من المرور من حيث تريدين .

فقلت :

– لكن متى حدث ذلك ؟ اعطني أمثلة .

فتردد ليويس :

– انني ارغب في قضاء هذا الشهر عند موراي وانت ترفضين .

فقاطعته :

– انت سيء النية . متى حدث ذلك ، قبل مكسيكو ؟

فقال ليويس :

– انني اعرف جيداً انني لو لم ألجأ الى القوة لبقينا في المكسيك . فقد كان يجب ، حسب خططك ، ان نمضي فيها شهر آخراً ، وكنت ستثبتين لي انه يجب ان نفعل ذلك .

فقلت :

– اولاً ، كانت خططنـا نحن الأثنين . » وفكرت : « افترض انني كنت سأناقش ، لكن ما دمت راغباً الى هذا الحد في المجيء الى نيويورك ، فقد كنت سأذعن حتماً » .

فقال ليويس :

– هذا سهل القول . » وأوقفني بحركة : « على كل حال ، كان لا بد من عمل مضنٍ لإقناعكِ . ولهذا كذبت كذبة صغيرة لكسب الوقت : ليس هذا خطيراً جداً . »

فقلت :

– اما انا فأجده خطيراً . كنت اعتقد انك لا تكذب علي قط .

فابتسم ليويس في شيء من الحرج :

– في الواقع ، اجل ، انها المرة الاولى . لكنك مخطئة اذ تصعقين . فسواء أكذبنا ام لم نكذب فيما بيننا ، فإن الحقيقة لا تقال ابداً .

فتفرست في وجهه في حيرة . يقينـاً . إن لفي رأسه افكاراً غريبة ! لقد كان قلبه مثقلاً . لكن ممَ على الضبط ؟ وهززت رأسي .

وقلت :

– لا اعتقد ذلك . يمكننا ان نتحدث فيما بيننا . يمكننا ان نتعارف . يكفي قليل من الإرادة الطيبة .

فقال ليويس :

– اعرف ان هذه فكرتك . لكن هذا بالضبط اسوأ كذبة : الزعم بأننا نقول لبعضنا الحقيقة .

ونهض :

– واخيراً لقد قلت لك رأيي في هذه النقطة وليس لديّ ما اضيفه . لعلنا نستطيع الذهاب من هنا .

– لنذهب .

واجتزنا الحديقة في صمت . إن هذا التفسير لم يفسر لي شيئاً البتة . كان شيء واحد واضحاً : كراهية ليويس . لكن ما هو مصدرها ؟ كانت كراهيته أعظم من ان يقول لي ذلك ، فلا فائدة مطلقاً من سؤاله .

وسأل ليويس :

– اين نذهب ؟

– حيث تريد .

– ليس عندي فكرة .

– ولا أنا .

فقال ليويس :

– كان يبدو ان عندك خططاً لهذه السهرة .

فقلت :

– لا شيء خاصاً . كنت افكر بأننا سنذهب الى بار صغير هادىء ، واننا سنتحدث .

فقال في جفاء :

– ان الحديث لا يأتي هكذا على الطلب .

فقلت :

– لنذهب للاستماع الى الجاز في « كافيه سوسايتي » .
– ألم تسمعي ما فيه الكفاية من الجاز في حياتك ؟
فصعد الغضب الى رأسي وقلت :
– طيب ، لنعد للنوم .
فقال ليويس في لهجة بريئة :
– لا أشعر بنعاس .
كان يتلهى بتنكيدي ، لكن دون صداقة . وفكرت في حقد : « انه يتعمد إفساد هذه السهرة ، انه يتعمد إفساد كل شيء ! » .
وقلت بجفاء :
– اذن لنذهب الى « كافيه سوسايتي » ما دمت راغبة في ذلـــك وانت لا رغبة لك في شيء .
وأخذنا سيارة . وتذكرت ما قاله لي ليويس قبل سنة : انه لا يتفاهم مـــع أحد بخطيئته . هذا إذن صحيح ! كانت له علاقات طيبة مع تيدي ، وفلتون ، وموراي لأنه كان نادراً ما يراهم . لكنه ما كان ليتحمل حياة مشتركة طويلاً . كان قد أحبني بطريقة طائشة : وقد أخذ الحب يبدو له إرغاماً . ومن جديد ضيّق الغضب انفاسي : كان ذلك معزياً بالأحرى . كنت افكر : كان عليه ان يتوقع ما يحدث له . كان عليه ألا يدعني أنخرط جسداً وروحاً في هذه القصة . وليس له الحق في ان يتصرف بالشكل الذي يتصرف به الآن . اذا كنت اثقل عليه ، فليقل ذلك . انني استطيع العودة الى باريس ، انني مستعدة للعودة » .
وكانت الاوركسترا تعزف قطعة لدوك الينغتون . وطلبنا وسكي . وتفرس ليويس في وجهي بشيء من القلق :
– أأنت حزينة ؟
فقلت :
– كلا ، لست حزينة . انني غاضبة .
– غاضبة ؟ لك طريقة هادئة جداً في الغضب .

– لا تثق بها .

– بمَ تفكرين ؟

– افكر انه إذا كانت هذه القصة تثقل عليك ، فليس عليك الا ان تقول ذلك . انني أستطيع ان استقل الطائرة الى باريس منذ الغد .

فابتسم ليويس ابتسامة صغيرة :

– ان ما تقترحينه لخطير .

فقلت :

– لأول مرة نخرج فيها بمفردنا ، يبدو عليك انك لا تحتمل ذلك . افترض ان هذا مفتاح سلوكك كله : انت تضجر معي . فالأفضل ان اذهب .

فهز ليويس رأسه وقال بصوت جاد :

– انني لا اضجر معك .

وغادرني غضبي كما جاءني ، وشعرت من جديد انني بدون قوة ، وقلت :

– اذن ماذا هناك ؟ هناك شيء ما : ماذا ؟

وساد صمت وقال ليويس :

– لنفترض انك تغطينني بعض الشيء من حين لآخر .

فقلت :

– انني مدركة ذلك جيداً . لكن أود ان اعرف لماذا .

فقال ليويس في سرعة مفاجئة :

– لقد شرحت لي ان الحب ليس كل شيء بالنسبة لـك . ليكن : لكن لمَ تطلبين اذن ان يكون كل شيء بالنسبة لي ؟ اذا رغبت في المجيء الى نيويورك ، ورؤية اصدقاء ، فهـذا يغضبك . انك تريدين ان تكوني الوحيدة التي لهـا حساب ، وان لا يوجد شيء غيرك ، وان اكرس لك كل حياتي في حين انك لا تضحين بشيء من حياتك . هذا ليس عدلاً !

ولزمت الصمت . كان هناك الكثير من النية السيئة في هـذا التأنيب ، والكثير من اللاانسجام ، لكن لم تكن هـذه المسألة . وللمرة الأولى في هذه

السهرة ، لمحت بصيص نور : لكن لم يكن فيه ما يطمئن . وتمتمت :

ــ انت مخطيء . انني لا اطلب شيئاً .

ــ اوه ! بلى ! انك ترحلين وتعودين حين يحلو لك . لكن ما دمت هنا ، فيجب ان اؤمن لك السعادة الكاملة ...

فقلت :

ــ انما انت الظالم . » واختنق صوتي في حلقي . لقد قفزت الحقيقة امام عيني فجأة : كان ليويس حاقداً علي لأنني رفضت البقاء معه ابداً . ان هذه الرحلة الى نيويورك ، والمشاريع التي اعدهـا مع موراي ، ليست إلا ثأراً !

وقلت :

ــ انت حاقد علي ! لماذا ؟ انها ليست غلطتي ، انت تعرف ذلك جيداً .

ــ انا غير حاقد عليك . انني افكر فقط انه يجب ألا نطلب اكثر مما نعطي .

فكررت :

ــ انت حاقد علي ! » ونظرت الى ليـويس في يأس : « ولكننا عندما تكلمنا في شيشكاستينانغو كنا على وفـاق ، كنت تفهمني . فماذا حدث منذ ذلك ؟

فقال ليويس :

ــ لا شيء .

ــ اذن ؟ كنت تقول انك ما كنت لتحبني بهـذا القدر لو كنت مختلفة . كنت تقول اننا سنكون سعيدين ...

فهز ليويس كتفيه :

ــ لقد قلت ما كنت تريدين ان اقوله .

ومن جديد شعرت انـني أتلقى صفعة على وجهي . وتمتمت : « كيف ذلك ؟ » .

ــ كنت اريد ان اقول اشياء كثيرة اخرى ، لكنك اخذت تبكين فرحاً،

فأخرس ذلك فمي .

نعم ، انني لأذكر . كانت ألسنة اللهب تتقلص وكانت الدموع في عيني . صحيح انني اسرعت في البكاء فرحاً على كتف ليويس . لقد تركته بلا حيلة ، هذا صحيح . وقلت :

– كنت خائفة جداً ! كنت خائفة جداً من ان افقد حبك !

– اعرف . كان يبدو عليك الرعب . وهذا ايضاً خنق كلماتي . » واضاف في حقد : « ولكم اطمأننت حين فهمت انني سأفعل كما تريدين ! أما الباقي فلم تكن له عندك أهمية ! » .

وعضضت على شفتي . ما كان يجب ان ابكي هذه المرة : بأي ثمن . الا أن ما يحدث لي كان فظيعاً . السنة اللهب ، السجاد ، المطر على الزجاج ، ليويس في برنسه الأبيض : هذه الذكريات كلها كاذبة . كنت أتمثلني باكية على كتفه ، وكنا متحدين الى الأبد : لكنني كنت متحدة بنفسي فقط . انه على حق : كان علي ان اهتم بما يدور في رأسه ، بدلاً من الاكتفاء بالكلمات التي كنت انتزعتها منه . لقد كنت جبانة ، انانية وجبانة . ولقد عوقبت على ذلك اكبر عقاب . وجمعت كل شجاعتي . انني لن استطيع بعد الآن أن أتهرب من نفسي . وسألت :

– ماذا كنت ستقول لو لم ابك ؟

– كنت قلت انني لا استطيع ان احب بالطريقة نفسها انساناً كله لي وانساناً ليس كذلك .

فتصلبت وحاولت ان ادافع عن نفسي : « لقد قلت العكس تماماً : قلت انني لو كنت مختلفة لما أحببتني بهذا القدر » .

فقال ليويس :

– ليس في هذا تناقض . » وهز كتفيه : « او انه يمكن للعواطف ان تتناقض » .

لا فائدة من المناقشة ، فلا دخل للمنطق هنا. لا شك في أن عواطف ليويس

كانت في البداية غامضة ، ولكي يكسب الوقت ، قـال لي كلمات مهدئة . او لعله اخذ يحقد علي بعد ذلك . ليس هذا المهم . انه اليوم لا يحبني بالطريقة نفسها التي كان يحبني بها في السابق : فكيف استطيـع ان ارضخ لذلك ؟ كان اليـأس يخنقني . وتابعت الكلام ، كي أمنع نفسي من التفكر .

– ألم تعد تحبني كما في السابق ؟

فتردد ليويس : « أعتقد ان الحب أقل أهمية مما كنت أظن » .

فقلت :

– انني ارى ما دام عليّ ان أرحل ، فليس هناك كبير فرق بـين ان اكون هنا او لا أكون .

فقال ليويس :

– شيء كهذا . » ونظر إليّ وتغيّر صوته فجأة وقال بانفعال : « ومع ذلك فقد انتظرتك كثيراً ! طوال السنة كلها ، لم افكر بشيء آخر. لكم اردتك ! ».

فقلت بحزن :

– نعم . والآن ...

فطوق ليويس كتفي بذراعه : « والآن لا ازال اريدك » .

فقلت :

– اوه ! بهذه الطريقة فقط .

– ليس بهذه الطريقة فقط . » وتشنجت اليـد فوق ذراعي : « انني على استعداد للزواج منك حالاً » .

فأطرقت برأسي . وتذكرت النجمة الهاويـة ، فوق البحيرة . لقد تمنى امنية ، ولم تلبّ هـذه الامنية . لقد خيبت امله بشكل لا علاج له ، انا التي اخذت على نفسها ألا تخيب امله ابداً . كنت المذنبة الوحيدة . انني لن استطيع ابداً ان ألومه ، على اي شيء .

ولم نتكلم ثانية . استمعنا الى شيء من الجاز وعدنا . لم أنم . كنت أتساءل في قلق هل سأنجح في انقاذ حبنا . انـه لا يزال يستطيع الانتصار على الغياب ،

على الانتظار ، على كل شيء ، لكن بشرط ان نريـــد ذلك كلانا . فهل سيريد ليويس ذلك ؟ كنت اقول في نفسي : « انـــه يتردد حالياً . انـه حريص على تجنيب نفسه التأسفات ، والألم ، وفراغ الروح : لكنـــه ، وهو الذي ينفر من اطراح برنس قديم ، لن يتخلص بسهولة كبـيرة من ماضينا » . وكنت اقول في نفسي ايضاً كي أتشجع : « انـــه كريم اكثر منه متكبراً ، طموح اكثر منه حذراً ، يتمنى ان تحدث له اشياء » . كل ما هنالك انني كنت اعرف ايضاً اي اهمية يعلقها على امنه ، على استقلاله ، وكم يعتز بأنـه يعيش في اعتدال وعقل . والحب عبر محيط قـــد يبدو لا معقولاً . نعم ، هذا مـا يبدو لي انه مخيف في ليويس : جنون الحكمة ذاك الذي يستولي عليه من حين لآخر . هذا مـا عليّ ان اظهر لليويس انه سيربح اكثر مما سيخسر في هذه القصة . وعند تناول طعـــام الإفطار ، بادرته :

– ليويس ! لقد فكرت بنا طوال الليل .

– كان من الأفضل ان تنامي .

كان صوته ودياً . كان يبدو منفرجاً . لقد خفف عنه بدون شك ان يقول لي ما كان يثقل على قلبه . وقلت :

– لقد قلت لي البارحة انني اغيظك لانني اطلب اكثر ممـا اعطي . نعم ، هذا خطأ : لن افعل ذلك ثانية . سآخذ ما ستعطينيه ولن اطلب شيئاً مطلقاً .

فأراد ليويس ان يقاطعني ، لكني تابعت . سنذهب اولا الى موراي ، فهذه قضية منتهية . ثم انني لا اريد ان يعتقد نفسه مجبراً على ذلك الوفاء الذي فرضه على نفسه حتى الآن : فعليه ، في غيابي ، ان يشعر بنفسه حراً كما لو انني لم اكـن موجودة . واذا ما اغري يوماً بحب امرأة اخرى ، فـتر حى لي ، ولن احتج . وما دامت قصتنا لم تأته بكل مــا كان يتمناه ، فهي على الاقل لن تحرمه من شيء . وقلت :

– إذن ، لا تعتقد بعد الآن انني نصبت لك فخاً . لا تفسد بعد الآن الاشياء لمجرد لذة إفسادها !

كان ليويس قد أصغى إليّ بانتباه ، ثم هز رأسه :

– ليس الامر في مثل هذه البساطة .

فقلت :

– اعرف · فعندمـا نحب لا نعود احراراً . لكن ليس الشيء نفسه على كل حال ان تحب انساناً يعتقد ان له حقوقاً عليك او انساناً لا يعتقد ان له اي حق.

فقال ليويس :

– اوه ! سواء عندي ان تعتقد امرأة مـــا ان لها حقوقاً عليّ إذا كنت لا اعترف لها بها . » واضاف : « دعينا من الحديث عن هذا . ان حديثنا عن الاشياء لا يزيدها الا تشويشاً » .

فقلت :

– انها تشوش ايضاً عندما نسكت . » وملت نحوه : ثمـة شيء اريد ان اسألك عنه : هل انت آسف على انك لاقيتني ؟ » .

فقال :

– كلا . كوني مطمئنة . لن آسف على ذلك ابداً .

فشجعتني لهجته :

– ليويس ، سنلتقي ثانية ، أليس كذلك ؟

فابتسم :

– هذا مؤكد اكثر من اي شيء آخر في العالم .

وعاد الأمل الى قـــلبي . كنت اعرف ان كلامي لم يقنعه الا نصف اقناع . وبالفعل ، كان من الخداع ان اكلمه عن الحرية في الوقت الذي اطلب اليه فيه ألا يطردني من قلبه . كنت اقول في نفسي : « يكفي الا يعاند في حقده وسأثبت له ان حبنا يمكن ان يكون سعيداً » . ولقد لمست بـــدون شك نقطة حساسة فيه ، أو ان شكاواه قد تبخرت في اللحظة التي صاغها فيهـــا : فقد اخذني الى « كوناي آيلند » بعـد الظهر ، وكان مرحاً وحنوناً على عادته في أجمل الأيام . وفجأة ، اخذ يروي لي ألف شيء : عن الحياة الادبية في نيويورك ، عن الناس ،

عن الكتب . كان يتكلم ويتكلم وكأننا قد التقينا بعد غياب . ولو كان قال فقط « احبك » ، لاعتقدت في تلك الليلة ان كل شيء لهو كما في الماضي تماماً .

وسألني يوم الاثنين بصوت متردد قليلاً :

– ألا يضجرك حقاً ان نقصد موراي ؟

– مطلقاً هذا يستهويني .

– اذن لنذهب هذا المساء .

فنظرت اليه في دهشة :

– كنت اظن انه لا يزال عندك هنا اشياء كثيرة تريد ان تفعلها . فأخذ ليويس يضحك :

– لن أفعلها .

ومنذ صباح اليوم التالي كنا نشرب القهوة عند آل موراي في استديو ذي فتحات واسعة زجاجية. كانت الدار بعيدة عن القرية، مبنية على نتوء صخري. وكانت زرقة السماء وهدير البحر يدخلان من النوافذ . وكان ليويس يتكلم حتى تلهث انفاسه وهو يلتهم خبزاً محمصاً مطلياً بالزبدة : كان وجهه الفرح بأنه يحقق اخيراً أعز احلامه . ولا بد من الاعتراف بأن كل شيء كان كاملاً : الموقع ، الطقس ، الافطار ، ابتسامة مضيفنا . ومع ذلك لم اكن اشعر بالارتياح داخلياً. كانت ايلين ، رغم لطفها ، تفزعني . كانت اناقتها المتحفظة ، وسحر بيتها ، وولداها العامران بالصحة تشهد على انها امرأة شابة متقنة : ان النساء اللواتي يوفقن بنجاح كبير بين جميع تفاصيل حياتهن يخفنني قليلاً دوماً . وها انني سأسقط من الشبكة المشدودة لهذه الحياة التي ليس لي فيها مكان : كنت اشعر في آن واحد انني مربوطة وانني أعوم بعيداً عن الشاطىء .

كان الصبي الصغير في الثامنة ، وكان يدعى ديك : ولقد شعر فوراً بصداقة كبيرة نحو ليويس . فقادنا في درب وعر نحو خليج صغير ، عند سفح الصخور . وامضى ليويس الصباح يلعب بالكرة معه في الماء وعلى الرمل . وسبحت ، وقرأت ، ولم اكن اشعر بالضجر لكني تابعت التساؤل : « ماذا افعل هنا ؟ » .

واخذنا موراي ، بعد الظهر ، للنزهة في السيارة على طول الساحل . ولم ترافقنا ايلين . وحين عدنا ، بقينا بمفردنا مدة طويلة ، انا وليويس ، في الاستديو ، أمام كأسين من الوسكي . وتبينت فجأة انه سيحدث لنا كثيراً أن نبقى بمفردنا معاً : كان موراي مزمعاً ان يقضي أيامه أمام الآلة الكاتبة ولم تكن ايلين على ما يبدو تملك دقيقة واحدة لنفسها . واحتسيت جرعة من الوسكي ، وبدأت أشعر انني مرتاحة وقلت :

ـ ما أجمل هذا البلد ! وما ألطف موراي ! انني مسرورة .

فقال ليويس :

ـ نعم ، ان المرء ليرتاح هنا .

كان الراديو يعزف موسيقى صغيرة قديمة واستمعنا اليها لفترة في صمت . كان الثلج يقرع كأسينا ، وكنا نسمع ضحك الولدين ، وكانت رائحة معجنات طيبة تختلط برائحة البحر . وقال ليويس :

ـ هكذا يجب ان يعيش المرء ! بيت يملكه ، وزوجة يحبها ، لا أكثر مما ينبغي ، ولا أقل مما ينبغي ، واولاد .

فسألت في فضول :

ـ هل تعتقد ان موراي يحب ايلين هكذا ؟ لا اكثر مما ينبغي ولا أقل مما ينبغي ؟

فقال ليويس :

ـ هذا واضح .

ـ وهي ؟ كيف تحبه ؟

فابتسم ليويس :

ـ كثيراً وأقل مما ينبغي ، على ما افترض ، كسائر النساء .

وفكرت في شيء من الحزن : « انه حاقد عليّ من جديد » . كان ذلك بدون شك بسبب هذا الحلم الصغير من السعادة العائلية الذي راود ذهنه .

وسألت :

– أتعتقد انك ستكون سعيداً هكذا ؟

– على الأقل لن اكون تعيساً ابداً .

– ليس هذا أكيداً . ثمة اناس يتعسهم الا يشعروا انهم سعداء : اتعتقد انك منهم ؟

فابتسم ليويس وقال : « ربما » . وفكر : « على كل ، انني أحسد موراي على ان له اولاداً . ان المرء ليتعب من الغيش دوماً وحيداً ، وينتهي الأمر الى ان يبدو له كل شيء باطلاً ، وهو وحيد . انني احب الأولاد » .

فقلت :

– حسناً ! ذات يوم ، ستتزوج وسيكون لك اولاد .

فنظر إليّ ليويس في تردد وقال : « لن يكون ذلك لا غداً ولا بعد غد . لكن فيما بعد ، بعد عدة سنوات ، لِمَ لا ؟ » .

فابتسمت له وقلت :

– نعم ، لِمَ لا ؟ بعد عدة سنوات ...

كان هذا كل ما اطلبه : عدة سنوات . اما الايمان بالأبدية ، فقد كنت اسكن بعيداً جداً ، وكنت مسنة اكثر مما ينبغي ، كان يجب فقط ان يعيش حبنا بما فيه الكفاية من الزمن لينطفىء في وداعة، تاركاً في قلبينا ذكريات بدون شوائب وصداقة لن تنتهي .

كان العشاء سخياً جداً وموراي ودياً للغاية حتى انني تألمت في النهاية . كنت بشوشة المزاج حين جاء اناس ، عند موعد القهوة . كان المصطافون قليلين في روكبور في بداية هذا الفصل ، وكانوا متعارفين جميعاً ، وكانوا يطمحون إلى رؤية اوجه جديدة ، فالتفوا حولنا . وانسحب ليويس بسرعة من الحديث ، وساعد ايلين على صنع سندويشات ومزج الكوكتيل. وبذلت انا جهدي للاجابة على جميع الاسئلة التي كانت توجه إليّ . وبدأ موراي مناقشة عن العلاقات بين التحليل النفسي والماركسية . وكانت معرفتي بهذا الموضوع أفضل من الآخرين ، ولما كان يدفعني ، فقد تكلمت كثيراً . وحين عدنا الى

غرفتنا تفرس ليويس في وجهي في فضول ، وقال لي :
– سينتهي بي الأمر الى الاعتقاد بأن هناك مخاً في هذا الرأس الصغير !
فقلت :
– لقد أحسنت التقليد ، أليس كذلك ؟
فقال ليويس :
– كلا : ان لك مخاً حقاً . » كان يتابع النظر إلي وكان هناك بعض التأنيب في عينيه : « هذا غريب . انني لا افكر بك قط على انـك امرأة عقل . فأنت بالنسبة لي شيء مغاير تماماً ! » .
فقلت وانا آتي الى ذراعيه :
– انني اشعر ، معك ، انني شيء مغاير تماماً !
لكم ضمني بقوة ! آه ! فجأة لم يعد اي سؤال مطروحاً . كان هنا ، وهـذا يكفي . كانت ساقاه تعانقان ساقيّ ، وكانت انفاسه ، ورائحته ، ويداه العنيفتان على جسدي ، وكان يقول : « آن ! » بصوته القديم ، وكالماضي كانت ابتسامته تعطيني قلبه مع جسده .
عندمـــا استيقظنا ، كان البحر والسماء يقدحان شرراً . وامتطينا دراجتي آل موراي وذهبنا الى القرية . وتنزهنا على الجسر ، وقضينا وقتـــاً طويلاً في النظر الى القوارب ، والصيـادين ، والشباك ، والاسماك . كنت أتنشق رائحة المد الرطبة ، والشمس تداعبني ، وليويس يمسك بذراعي ، ويضحك .
وقلت في اندفاع : « يا له من صباح جميل ! » .
فقال ليويس بصوت حنون :
– ايتها الغولية الصغيرة المسكينة . إن القليل يكفيها لتعتقد انها في الجنة !
– السماء ، البحر ، الرجل الذي احبه : ليس هذا قليلاً الى هذا الحد .
فشد على ذراعي : « هيا ؟ انت لست كثيرة المطالب » .
فقلت :
– انني اكتفي بما لدي .

فقال ليويس :

– انت على حق . يجب ان نكتفي بما لدينا .

وازدادت السماء زرقـــة ، والشمس دفئاً ، وسمعت في نفسي رنيناً عظيماً فرحاً . وقلت في نفسي : « لقد ربحت ! » لقد كنت على حق اذ قبلت بالمجيء الى هنا . كان ليويس يشعر بنفسه حراً ، ويفهم ان حبي لا يحرمـــه من شيء . ولعب على الشاطىء ، من جديد مع ديك طوال فترة من بعد الظهر ، واعجبت بصبره . انني لم أره منفرجاً هكذا منـــذ زمن بعيد . واصطحبنا موراي الى اصدقاء ، بعد العشاء ، ولم يحاول ليويس هذه المرة ان يتنحى جانباً : بل هـــدر قواه في سخاء . في الحقيقة ، انه لن يكف ابداً عن إدهاشي ، اذ لم اكن اعتقد انه يستطيع ان يكون لامعاً على هذا النحو في المجتمع : ولقد كانـــه . وقصّ رحلتنا في ايجاز بارع وتوفيق كبير في الخيال حتى ان غواتيمالاه كانت اكثر حقيقة من غواتيمالا الحقيقية . وود الجميع لو يذهبون اليها . وحين قـــلد الهنود القصار القامة الرازحين تحت أحمالهم ، هتفت نساء :

– تستطيع ان تكون ممثلاً رائعاً !

– لكم يحسن السرد !

فتوقف ليويس فجأة وقال باسماً : « ما اعظم صبركن ! » واضاف : « انني شخصياً اكره حكايات الرحلات » .

فقالت شقراء :

– اوه ! تابع .

فقال وهو يتجه نحو المائدة :

– كلا ، لقد انهيت « نمرتي » .

وافرغ كأساً كبيرة من المانهاتن بينما كانت صبايا جميلات مذهبات الاكتـــاف ونساء اقل جمالاً تفيض عيونهن عاطفة يتزاحمن حوله . وساءني قليلاً ان ألاحظ انه يعجب النساء . كنت اظن انه اغراني بحذق بعدم قدرته على الإغراء : وها انا اكتشف انه مغرٍ . على كل حال ، إن ما كانه بالنسبة لي ، ليختلف تماماً عما

يمثله بالنسبة لاي شخص آخر . وكنت افكر في نوع من الكبرياء : « انه فريد بالنسبة لي وحدي » .

وشربت انا ايضاً ، ورقصت ، وتحدثت الى عازف قيثار ُطرد من الاذاعة لأفكاره التقدمية ، ثم الى موسيقيين ، ورسامين ، ومثقفين ، وادباء . ان روكبور ، في الصيف ، ملحقة لقرية « غرينويش » ، انها مليئة بالفنانين . وفجأة تبينت ان ليويس قد اختفى . فسألت موراي :

— أين ذهب ليويس ؟

فقال لي موراي بصوته الوديع :

— لست ادري مطلقاً .

فشعرت بقلق صغير في قلبي : هل ذهب ليقوم بجولة في الحديقة مع واحدة من معجباته الجميلات ؟ وفي هذه الحالة ، انه لن يسر كثيراً من ظهوري : ليكن ! وألقيت نظرة على البهو ، وفي المطبخ ، وخرجت من البيت . لم اكن اسمع إلا صوت الجنادب الصابر . وخطوت بضع خطوات ولمحت جمر سيجارة. كان ليويس جالساً على احد كراسي الحديقة ، بمفرده . وسألت :

— ماذا تفعل هنا ؟

— انني استريح .

فابتسمت : « ظننت ان هاتيك الاناث سيأكلنك حياً » .

فقال ليويس بلهجة محبة للانتقام :

— أتعرفين ما كان يجب عمله ؟ يجب ان نضعهن في مركب ، ونلقي بهن جميعاً الى البحر ونعود بدلاً منهن بشحنة من الهنديات الصغيرات . أتذكرين الهنديات الصغيرات في شيشيكاستينانغو ، الجالسات بحكمة على الارض عند أقدام ازواجهن : كيف كنّ صامتات ، وكيف كانت اوجههن لا تريم .

— انني اذكر .

فقال ليويس :

— ان وجوههن دوماً جميلة ، وضفائرهن سوداء : ولن نراهن ثانية أبداً . »

وتنهد : « ما ابعد هذا كله ! » .

كان في صوته الحنين نفسه الذي كان يحدثني به عن منزل شيكاغو ، عندما كنا في غابة شيشن – اتنزا . وكنت افكر : « اذا أصبحت ذكرى في قلبه ، فسوف يفكر بي بهذا الحنان » . لكني لم اكن اريد ان اصبح ذكرى .

– لعلنا سنعود لرؤية هاتيك الهنديات الصغيرات ، ذات يوم .

فقال ليويس :

– أعتقد ان لا . » ونهض : « تعالي للنزهة . ان رائحة الليل لطيبة جداً » .

– يجب ان نعود الى اولئك الناس ، ليويس ، فسوف يلاحظون غيابنا .

– وبعد ؟ ليس لدي ما اقوله لهم ولا هم لي .

– لكنهم اصدقاء لآل موراي : لن يكون لطيفاً ان نختفي هكذا .

فتنهد ليويس : « لكم سأحب زوجة هندية صغيرة ستتبعني دون احتجاج انى شئت ! » .

وعدنا الى البيت . كان ليويس قد كف عن المرح . فقد شرب كثيراً ولم يعد يجيب الا بدمدمات على الأسئلة التي كانت تطرح عليه . وجلس الى جانبي واستمع الى الحديث في سيماء من عتب . وقلت لموراي ان كثيرين من الكتّاب في فرنسا يتساءلون اليوم عما بقي للكتابة من معنى . واخذ الجميع يتناقشون في هذا الموضوع بحماسة . وكان وجه ليويس يزداد تقطيباً . انه يكره النظريات ، الأنظمة ، التعميمات . انني اعرف لماذا : ان الفكرة بالنسبة له ليست مجموعة من الكلمات ، بل هي شيء حي . كانت الافكار التي يتلقاها تتحرك فيه ، وتقلب كل شيء ، فيرغم على بذل مجهود شاق لإعادة النظام إلى رأسه : وهذا ما يخيفه قليلاً . انه يحب الأمن ، حتى في هذا الميدان ايضاً ، وهو يكره ان يشعر انه ضائع . وغالباً ما ينكمش على نفسه . وكان من الواضح انه ينكمش الآن على نفسه . وبعد فترة انفجر :

– لماذا نكتب ؟ لمن نكتب ؟ إذا بدأنا في طرح هذه الأسئلة ، كففنا عن الكتابة ! اننا نكتب ، هذا كل شيء ، فيقرأنا الناس . اننا نكتب للناس الذين

يقرأوننا . والكتّاب الذين يطرحون امثال هذه الاسئلة انما هم الكتّاب الذين لا يقرأهم احد .

وقضت هذه الكلمات على حرارة النقاش. بالاضافة إلى انه كان بين الحاضرين كتاب لا يقرأهم ولن يقرأهم أحد . ولحسن الحظ انقذ موراي الموقف . وانكفأ ليويس إلى قوقعته . وبعد ربع ساعة ، طلبنا الاذن بالانصراف .

وظل ليويس مقطباً ، طوال النهار التالي . وحين جاء ديك إلى الشاطىء ، وفي يديه مسدسان ، وهو يطلق صيحات ، نظر اليه بعين سوداء . وكان الحنق الذي يلهب قلبه هو ما دفعه إلى اعطائه درساً في الملاكمة وإلى أخذه للسباحة . وعند المساء حين كنت أتحادث مع ايلين وموراي ، غاص في قراءة الصحف . كنت أعلم ان موراي لن يأبه لمثل هـذه البادرة ، لكني كنت منزعجة بسبب ايلين . وقلت في نفسي في امل وانا ارقد : « لقد شرب اكثر من اللازم مساء الأمس ، وسيكون غداً اكثر بشاشة » :

وكنت مخطئة . ففي صباح اليوم التالي لم يوجه ليويس الي ابتسامة واحدة . وتأثرت ايلين لأنه انتزع المكنسة الكهربائية من يدها ونظف البيت من القبو الى الغرفة العلوية : لكن هـذا الانهماك المنزلي كان مشبوهاً . كان ليويس مستسلماً الى الصمت : ممَّ يهرب ؟ وبدا ودياً نسبياً اثناء الغداء ، لكنه ما ان انفرد بي على الشاطىء حتى قال لي بصوت عنيف :

– اذا جاء ذلك البرغوث القذر ليزعجني من جديد ، فسوف أدق عنقه .

فقلت في غيظ :

– انها غلطتك. لم يكن عليك إلا ان لا تظهر له كل هذا اللطف من اليوم الاول.

فقال ليويس بصوت مثقل بالضغينة :

– انني اتركهم دوماً ، في اليوم الاول ، ينالونني .

فقلت بحدة :

– نعم : لكن الآخرين ، هم ايضاً لكذلك ، يجب ان تأخذ لهذا حساباً .

وتدحرجت حصى فوق رأسينا ، كان ديك يهبط الدرب . وكان يرتدي

بنطلوناً ذا مربعات سود وبيض ، وقميصاً ناصعاً وحزام كاوبوي . وركض الى ليويس :

– لِمَ جئت الى هنا ؟ كنت انتظرك في العالي . لقد قلت أمس اننا سنتنزه على الدراجة بعد الغداء .

فقال ليويس :

– لست راغباً في التنزه .

فنظر اليه ديك في تأنيب : « بالأمس قلت : سنذهب غداً . وغداً ، هو اليوم » .

فقال ليويس :

– ان اليوم ليس غداً . ماذا علموك في المدرسة ؟ ان غداً هو غداً .

ففتح ديك فمه في تعاسة ، وامسك بذراع ليويس ، وقال : « لنذهب ! تعالَ ! » .

فحرر ليويس ذراعه بحركة عنيفة : انه تقريباً الوجه نفسه الذي كان له يوم رفس التنين الحجري . ووضعت يدي على كتف ديك :

– اسمع ، سآخذك انا للنزهة على الدراجة . سنذهب الى القرية : سننظر الى المركب وسنأكل مثلجات .

فنظر إليّ ديك بدون حماسة ، وقال مومياً الى ليويس: « لقد وعد بالمجيء» .

– انه متعب .

فاستدار ديك نحو ليويس : « ستبقى هنا ؟ ستسبح ؟ » ،

فقال ليويس :

– لست ادري .

فقال ديك :

– سأبقى معك : سوف نتلاكم . ثم سنسبح ...

كان يرفع من جديد نحو ليويس وجهاً واثقاً . وقال ليويس :

– كلا !

فأسندت يدي الى كتف ديك وقلت : « تعال . يجب ان نتركه . لديه اشياء في ذهنه يجب ان يفكر بها . وعلي انا ان اذهب الى روكبور وسأضجر بمفردي : رافقني . ستروي لي قصصاً . وسأشترى لك مجلات مصورة » واضفت في قوة اليأس : « سأشتري لك كل ما تريده ! » .

فأدار ديك ظهره لليويس واخذ يرتقي الدرب . كنت حانقة على ليويس : فالمرء لا يتصرف هكذا مع طفل ! وعلاوة على ذلك لم يكن يستهويني ان اهتم بديك . ولحسن الحظ ، انني اعرف ، بمهنتي ، ان احصل على ثقة طفل ، لذلك سرعان ما انفرجت اساريره . وقمنا بسباق على الدراجتين ، وتركته يتغلب علي في اللحظة المناسبة . وحشوته بمثلجات الكشمف ، وركبنا قارب صيد ، واخيراً ، فقد بذلت ما بوسعي حتى انه لم يشأ ان يتركني قبل ساعة العشاء .

وقلت لليويس وانا ادخل الى الغرفة :

— حسناً ! تستطيع ان تقول لي شكراً ! لقد خلصتك من ذلك الغلام . »

واضفت : « لم تكن طيباً معه » .

فقال ليويس :

— انه هو الذي يستطيع ان يشكرك . كنت حطمت عظامه ، لو بقي دقيقة اخرى .

كان راقداً على السرير في بنطلونه الكتاني القديم وقميصه القصير الكمّين ، وكان يدخن وهو ينظر الى السقف . كنت افكر في حقد انه كان عليه حقاً ان يشكرني . وخلعت ثوب سباحتي وبدأت في تسريح شعري ، وقلت : « آن ان ترتدي ثيابك » .

فقال ليويس :

— انني مرتدٍ ثيابي . ألا ترين ان على جسدي ملابس ؟ هل أبدو عارياً ؟

— انت لا تزمع النزول هكذا ، لا ؟

— انني مزمع تماماً . لا ارى لمَ يجب ان اغير ملابسي بحجة ان الشمس قد غربت .

فقلت :

– ان موراي وايلين يفعلان ذلك ، وانت عندهما . وعلاوة على ذلك ، فسوف يحضر العشاء آخرون .

فقال ليويس :

– ايضاً ! انني لم آتِ إلى هنا لأجد من جديد حياة نيويورك البلهاء .

فقلت :

– انك لم تأتِ إلى هنا لتنفر جميع الناس ! فمساء الأمس ، أخذت ايلين تنظر اليك نظرة غريبة . » وتوقفت فجأة ، وقلت : « أوه : ثم انني بعد كل شيء لا أبالي ! افعل ما يحلو لك » .

وارتدى ليويس اخيراً ثيابه ، وهو يبدي استياءه . وقلت في نفسي بغضب : « انه هو الذي فرض عليّ هذه الاقامة ، وهو يعتمد الآن ان يجعلها غير محتملة » . كنت انا ابذل جهدي ، وكان هو يفسد كل شيء . وقررت انني لن اهتم به هذا المساء ، فقد كان متعباً جداً ان اراقب بدون انقطاع تقلبات مزاجه .

وفعلت ما وعدت نفسي به : فتحدثت مع الجميع ، وتجاهلت ليويس . وبشكل عام ، وجدت أصدقاء موراي جذابين : فقضيت سهرة طيبة . وحوالي منتصف الليل ، انصرف جميع المدعوين تقريباً ، وانسحبت ايلين ، وكذلك ليويس . وبقيت مع موراي ، وعازف القيثار ، وشخصين آخرين ، وتابعنا الكلام حتى الثالثة صباحاً . وحين دخلت إلى غرفتنا ، اضاء ليويس النور ، وانتصب على سريره :

– اذن ؟ هل انتهيت من إخراج الضجيج من فمك ؟ ألم أكن اظن ان امرأة تستطيع بمفردها ان تحدث كل هذه الضجة ، ربما باستثناء السيدة روزفلت .

فقلت وانا أبدأ في خلع ثيابي :

– احب كثيراً الكلام مع موراي .

فقال ليويس :

– هذا بالضبط ما آخذه عليك ! » واحتـدّ صوته : « نظريات دومـاً نظريات ! ان النظريات لا تصنع كتباً جيدة ! هناك اناس يشرحون كيف تصنع الكتب ، وآخرون يصنعونها : انهم ليسوا انفسهم ابداً » .

– موراي لا يزعم انه روائي . انه ناقد ، ناقد ممتاز ، انت تعترف بذلـك بنفسك .

– انه ثرثار كبير ! وانت تصغين اليه في ابتسامات ذكية ! ان ذلك ليرغـّب إليّ ان أضرب رأسك بالحائط لأضع فيه شيئاً من الحس السليم ! .

وانسبت في الفراش ، وقلت : « ليلة سعيدة » .

فأطفأ النور دون ان يجيب .

وتركت عيني مفتوحتين . لم اكن حتى غاضبة : انـني لا أفهم شيئاً ! ان هذه الاجتماعات تسئم ليويس ، ليكن ، لكنهم اخيراً يدعوننا في سلام ملـكي طـوال النهار ، ولم يكن موراي في الحقيقة مغروراً البتة . وحتى اليوم كان ليويس يسر بحديثه . لمَ هـذه الكراهية المفـاجئة ؟ لا ريب في انني انا التي يستهدفها ليويس حين يختار ان يفسد هذه الاقـامة ، ولا ريب في ان ضغينته لا تزال كما هي : لكن كان عليه في هذه الحال ان يحتفظ لي وحدي بمزاجه السيء . لا بد انه غاضب على نفسه ما دام يهاجم هكذا النّاس اجمعين . لعله يـلوم نفسه على تلك الاويقات التي بدا عليه فيها انه يمنحني حنانه كله : ولقد كانت هـذه الفكرة لا تحتمل حتى انني اردت ان اناديه ، ان اكلمه . لكن صوتي تحطـم على أسناني . كنت أسمع أنفاسه المتعادلة ، كان ينـام ، لم يكن قلبي يطاوعني على ايقاظه . انه لشيء يثير الانفعال الرجل الذي ينام ، انه بريء للغاية : كل شيء يصبح ممكناً، كل شيء يمكن أن يهدأ، ان يعاود من جديد . سوف يفتح عينيه، ويقول : « احبك ، يا غوليتي الصغيرة » . ولكنه في الحقيقة لن يقولها ، فهذه البراءة ليست إلا سراباً : ان غداً سيكون مشابهاً اليـوم . وتساءلت في يأس : « أهنـاك وسيلة ما للخروج من هذا المأزق ؟ » . وانتفضت انتفـاضة تمرد : « ماذا يريد ؟ ماذا سيفعـل ، بمَ يفكر ؟ » . كنت هنا ، اعذب نفسي

بالأسئلة ، بينما كان يرقد باطمئنان ، بعيداً عن أفكاره : ان هذا لظلم فادح ! وحاولت ان ابعث الفراغ في نفسي ، لكن لا ، لم اكن استطيع النوم. ونهضت دون صوت . كان ديك قد منعني من السباحة بعد ظهر اليوم وشعرت برغبة مفاجئة في رطوبة الماء . وضممت ثوب استحمامي ، وثوب سباحتي ، وأخذت برنس ليويس القديم ونزلت حافية القدمين عبر البيت النائم . لكم كان الليل رحباً ! واحتذيت نعلي ، وركضت حتى الشاطىء وتمددت على الرمل . كان الطقس عذباً جداً ، واغمضت عيني تحت النجوم ، وخدرني هدير الماء . عندما استيقظت ، كان كوكب أحمر كبير يبرز من الماء. كان اليوم الرابع من الخليقة : كانت الشمس قد ولدت ، ولما يكتشف بعد ألم البشر والحيوانات . وامتزجت بالبحر . كنت أعوم ، ممددة على ظهري ، وعيناي مليئتان بالسماء ، وما عدت افكر بشيء .

ــ آن !

وتطلعت الى الشاطىء : ارضاً مسكونة ، رجلاً ينادي ، كان ليويس في بنطلون البيجاما ، عاري الصدر . ووجدت من جديد ثقل جسدي وسبحت نحوه : « ها انا ! » .

وسار الى لقائي ، وقد تصاعد الماء حتى ركبتيه عندما أخذني بين ذراعيه . وكان يردد :

ــ آن ! آن !

وقلت وانا أسحبه نحو الشاطىء :

ــ ستتبلل كلك ! دعني اجففك .

فلم يرخ عناقه : آن ! لكم خفت ! » .

ــ أأخفتك ؟ انه دوري !

ــ فتحت عيني ، كان السرير خاوياً وما كنت لتعودي . فنزلت ، فلم تكوني في أي مكان من البيت . فجئت الى هنا وفي البداية لم أرك ...

فقلت :

– لكنك لم تظن على كل حال انني أغرقت نفسي ؟

فقال ليويس :

– لا أدري ما كنت أظنه . كان مثل كابوس !

والتقطت البرنس الأبيض : « ادلكني ، وجفف نفسك » .

فأطاع وضمت ثوبي ، وتدثر بالبرنس . وسأل : « اجلسي بجانبي ! » .

فجلست ومن جديد طوقني : « انت هنا ! انني لم افقدك ! » .

فقلت باندفاع : « ابدا لن تفقدني بخطيئتي » .

وداعب شعري لمـــدة طويلة في صمت . وقال فجأة : « آن ! لنعد الى شيكاغو !» .

واشرقت شمس في قلبي ، اكثر سطوعاً من التي تشرق في السماء :

– اود ذلك !

فقال :

– لنعد . انني لراغب جداً في الانفراد بك ! ففي مساء وصولنـــا بالذات فهمت اي حماقة ارتكبت !

– ليويس ! انني لأود كثيراً ان اجد نفسي من جـــديد وحيدة معك ! »

وابتسمت له: « هذا ما جعل مزاجك سيئاً. أكنت آسفاً على مجيئك الى هنا ؟ ».

فهز ليويس رأسه : « كنت اشعر انني واقع في فخ . لم ارى وسيلة للتملص منه : كان ذلك رهيباً !» .

فسألت :

– والآن ، أترى وسيلة ؟

فنظر إليّ ليويس وكأنه ألهم : « انهم ينامون : فلنحزم حقائبنا ونهرب ».

فابتسمت وقلت : حـاول بالاحرى ان تتفاهم مع موراي . سوف يفهم » .

فقال ليويس :

– واذا لم يفهم ، فترحى له .

فنظرت إليه في شيء من القلق : « ليويس ! أأنت واثق تماماً انك تريـــد

العودة ؟ أليست نزوة ؟ ألن تندم على ذلك ؟ » .

فابتسم ليويس ابتسامة صغيرة وقال : « اعرف جيداً متى اتصرف بدافع النزوة . اقسم لك برأسك انها ليست نزوة » .

ومن جديد بحثت عن عينيه : « وحين سنعود الى بيتنا ، هل تعتقد اننا سنعود الى كل الباقي ؟ أسيكون الأمر كما في السنة الماضية تماماً ؟ ام تقريباً ؟ » .

فقال ليويس بصوت خطير : « تماماً كالسنة الماضية » . واخذ رأسي بين يديه ونظر إليّ ملياً : « لقد حاولت ان احبك اقل : فلم استطع » .

فقلت :

– آه ! لا تحاول بعد الآن .

– لن احاول ابداً .

لست ادري ماذا روى ليويس له ، لكن موراي كان باسماً حين رافقنا الى المطار في مساء اليوم التالي . ولم يكذب ليويس : فقد اعيد إليّ كل شيء ، في شيكاغو . وحين تركنا بعضنا عند زاوية الشارع ، ضمني بين ذراعيه قائلاً : « لم احبك قط بهذا القدر » .

الفصل التاسع

فتحت السكرتيرة الباب : « بطاقة هوائية » .

فقال هنري وهو يمسك بالورقة الزرقاء :

— شكراً .

وفكر : « بول انتحرت » : مهما كان ماردروس قد اكد له انه لا تراودها أي فكرة في الانتحار وانها شفيت تقريباً ، فقد كان يتطير من رنين التلفون ، وعلى الاخص من البطاقات الهوائية . وعاد إليه اطمئنانه حين تبين توقيع لوسي بيلوم : « يجب ان اراك عاجلاً . تعال عندي غداً صباحاً » . واعاد قراءة الرسالة الآمرة بحيرة . لم يسبق للوسي قط ان اتخذت معه هذه اللهجة . كانت جوزيت في أتم صحة ، وكانت مسرورة من الدور الذي تمثله في فيلم « سيزون الجميلة » ، وقد ذهبت هذا المساء الى حفلة راقصة للثياب المخرمة مرتدية ثوباً عظيماً موقعاً باسم آماريليس . ولم يتبين هنري ما تريد منه لوسي حقاً . ودس البطاقة في جيبه : يقيناً انه سيواجه إزعاجاً ، ولكن ما أهمية ازعاج بالزائد ، أو بالناقص ؟ وعاد فكره الى بول ومد يده نحو التلفون ، لكنه ارخاها : « الآنسة ماروي على اتم ما يرام » ، لم يكن الجواب ليختلف ابداً ، ولا لهجة المرضة الباردة . لقد منع من رؤية بول ، وهو الذي سبب جنونها ، ولقد كان الجميع متفقين على ذلك : على رسلهم ، ان هذا يوفر عليه مشقة اتهام نفسه بنفسه . لقد فرضت عليه بول دور الجلاد منذ زمن بعيد جداً حتى ان تأنيب ضميره قد تجمد في نوع من الكزاز : إنه ما عاد يشعر به . وعلى كل ، كان يشعر بانطلاق عجيب ، ، منذ ان فهم ان المرء على خطأ دوماً ، مهما فعل ، وعلى

الاخص إذا اعتقد أنه يفعل حسناً . كان يتجرع وجبته اليومية من الشتائم كما يتجرع اللبن الساخن .

وقال لوك :

– أأنا اول من جاء ؟

– كما ترى .

وتهالك لوك على كرسي . كان يتعمد ان يأتي بدون سترة وفي حذاء نسيجي لأنه كان يعرف ان تراريو يكره التهاون . وقال :

– قل اذن ، ماذا سنفعل اذا تخلى لامبير عنا ؟

فقال هنري بحدة :

– انه لن يتخلى عنا ؟

فقال لوك :

– انه مع فولانج مئة بالمئة . انا واثق ان سامازيل لم يقترح هذه المقالات الا من اجل ذلك : كي يدفع لامبير الى وضعنا موضع اقلية .

فقال هنري :

– لقد وعدني لامبير بصوته :

فتنهد لوك : « انني لأتساءل عن اللعبة التي يلعبها ، هـذا المتطرف الصغير . لو كنت مكانه ، لاستقلت منذ زمن بعيد » .

فقال هنري :

– افترض انه سيفعل ذلك ذات يوم . لكنه لن يكون مطية للآخرين ، لقد وفيت بالتزاماتي ، فهو يفي بالتزاماته .

كان هنري قد وضع لنفسه قاعدة بأن يـدافع عن لامبير ضد لوك وعن لوك ضد لامبير في كل منـــاسبة . لكن الموقف كان ملتبساً في الحقيقة ، فلامبير لن يتابع الى ما لا نهاية التصويت ضد قناعاته . وقال لوك :

– صمتاً ! هوذا العدو !

ودخل تراريو الاول ، يتبعه سامازيـل ولامبير الذي كان وجهه مقطباً . لم

يكن أحد يبتسم ، باستثناء لوك . كان وحده يتلهى بهذا النوع من حرب الإفناء التي لما يفنَ فيها احد بعد .

وقال تراريو وهو يحدق الى هنري بنظرة ملحة :

– قبل مناقشة المسألة التي تجمعنا اليوم ، اود ان اوجه نداء الى حسن نية كل منا . » وتابـــع بصوت حار : « نحن جميعاً متعلقون بـ « الأمـــل » ولكننا نقودها ، لفقدان التفاهم ، الى الافلاس. ذات يوم يقول سامازيل ابيض ، فيقول بيرون في اليوم التالي اسود : فيتيه القـــارىء ويشتري صحيفة اخرى . يجب ان نضع بأسرع ما يمكن اساساً مشتركاً يتجاوز خلافنا في الآراء » .

فهز هنري رأسه : « للمرة المائة اكرر انني لن اقوم بأي تنازل . ليس عليكم الا ان تتخلوا عن معارضتي . انني سأحافظ على « الأمل » في الخط الذي كان لها دوماً » .

فقال سامازيل :

– انه خط حكم عليه بالموت فشل « الاشتراكي الثوري الحر » وقـــد اصبح خطاً بالياً . لا مجال اليوم للوقوف على الحياد امام الشيوعيين . لا بـــد ان تكون معهم او ضدهم نهائياً . » وضحك بدون قناعة ضحكته الجـــذلة : « وباعتبار الطريقة التي يعاملونك بها ، فإنني لأدهش من عنادك في مداراتهم » .

فقال هنري :

– انني لأدهش من ان رجالاً يـــدعون انهم من اليسار ، يؤيدون حزب الرأسماليين ، والعسكريين والكهنة .

فقال سامازيل :

– لنميز . لقد ناضلت طوال حياتي ضد النزعـــة العسكرية ، ضد الكنيسة وضد الرأسمالية . ولكن يجب ان نعترف ان ديغـــول ليس مجرد عسكري . وتأييد الكنيسة ضروري اليوم للدفاع عن القيم التي نتمسك بها . وقـــد يمكن للديغولية ان تكون نظاماً معادياً للرأسمالية إذا ما تسلم قيادتهارجال يساريون.

فقال هنري :

– من الأفضل ان اسمع هذا على ان اكون أصم . لكن الواقع لم يتغير .

فقال تراريو :

– إلا انني اعتقد ان من مصلحتك ان تبحث معنا عن مجال للتفاهم . فقد يحدث لك أخيراً ان توضع موضع اقلية .

فقال هنري :

– هذا سيدهشني . » وابتسم ابتسامة خفيفة للامبير الذي لم يبتسم . من الواضح ان وفاءه لعهده يثقل عليه وانه حريص على إظهار ذلك . وقال هنري: « على كل حال ، إذا حدث لي ذلك، فانني سأستقيل، لكني لن أقبل بتسويات». وأضاف في نفاد صبر: «لا فائدة من النقاش حتى الغد . امامنا قرار علينا اتخاذه، فلنتخذه . اما بخصوصي فانني أرفض قطعاً نشر مقالات فولانج » .

فقال لوك :

– وأنا أيضاً .

واتجهت جميع الانظار نحو لامبير الذي قال بدون ان يرفع عينيه: «لا يبدو لي نشرها مناسباً » .

فقال سامازيل منفجراً :

– لكنك تجدها ممتازة ! انك لتتركهم يخوفونك !

فقال لامبير بترفع :

– لقد قلت ان نشرها لا يبدو لي مناسباً ، هذا واضح ، أليس كذلك ؟

فقال لوك بلهجة ساخرة :

– كنتما تأملان ان توقعا بيننا الشقاق ؟ لقد اخطأتما ضربتكما .

فنهض تراريو على حين غرة وصعق هنري بنظرته : « ذات صباح ، سوف تفلس « الأمل » . ستكون هذه نتيجة عنادك ! » .

وسار نحو الباب . وخرج سامازيل ولوك وراءه . وسأل لامبير بصوت متجهم :

– أأستطيع ان اكلمك ؟

فقال هنري :

ـ كنت سأطرح عليك السؤال نفسه .

كان يشعر بابتسامة كاذبة على شفتيه . منذ اشهر ، بل منذ سنة لم يجر مع لامبير محادثة ودية حقاً . وليس ذلك لأنه لم يحاول، بل لأن لامبير كان حرداً. ولهذا ما عاد هنري يعرف كيف يحدثه . وقال :

ـ اعرف ما ستقوله لي . انت ترى ان الوضع لم يعد محتملاً ؟

فقال لامبير :

ـ لم يعد محتملاً . » ونظر الى هنري في تأنيب : « لـك الحق في ألا تحب ديغول ، لكنك تستطيع ان تقف منه موقف حياد رفيق . ان فولانج ، في المقالات التي رفضتها ، يفرق بوضوح بين فكرة الديغولية وفكرة الرجعية » .

فقال هنري :

ـ التفريق بين الافكار لعبة اطفال . » واضاف : « اذن ، تريد ان تبيع حصتك ؟ » .

ـ نعم .

ـ وستشتغل في « الأيام الجميلة » مع فولانج ؟

ـ تماماً ...

فقال هنري :

ـ على رسلك ! » وهز كتفيه : « كما ترى ، كنت على حق . كان فولانج يعظ بالاستنكاف : لكنه كان يترصد ساعته . وسرعان ما القى بنفسه في السياسة » .

فقال لامبير بحدة :

ـ انها خطيئتكم . لقد وضعتم السياسة في كل مكان ! وإذا كنت تريد ان تمنع العالم من السقوط بأكمله تحت سيطرة السياسة، فأنت مجبر على ممارسة السياسة.

فقال هنري :

ـ على كل الاحوال ، انكم لن تمنعوا شيئاً ! أخيراً ، لا فائدة من المناقشة :

فنحن ما عدنا نتكلم اللغة نفسها . بع حصتك . على ان ذلك يطرح مشكلة . وإذا ما توزعناها بيننا نحن الأربعة ، فان الوضع سيعود إلى مـــا ساعدتني على تجنبه . يجب ان نتفاهم ، لوك وانت وانا ، على شخص قادر على شرائها .

فقال لامبير :

– اختر من تريد ، فهذا عندي سيان . حـــاول فقط ان تجد هذا الشخص بسرعة . فما افعله اليوم ، لا اريد ان اضطر إلى فعله ثانية .

فقال هنري :

– سأبحث . لكن اترك لي الوقت لأتدبر نفسي. فليس من السهل إحلال أي كان مكانك .

كان قد القى هذه الكلمات الاخيرة على سبيل الصدفة ، لكن لامبير بـــدا عليه التأثر . كان يغتاظ من جمل بريئة، وكان يحدث له ان يرى حرارة في كلمات لامبالية . وقال بصوت حرد :

– ما دمنا لم نعد نتكلم اللغة نفسها، فان اول قادم يستطيع ان يحل مكاني.

فقال هنري :

– انت تعرف إنه إلى جانب أفكار الشخص ، يوجد الشخص نفسه .

فقال لامبير :

– اعرف ، وهذا ما يعقد الامور. فأنت وأفكارك تعادلان اثنين.» ونهض: « أتأتي معي إلى مهرجان لونوار ؟ » .

فقال هنري :

– لعل من الأفضل لنا ان نذهب إلى السينما .

– آه لا ! لا اريد ان يفوتني ذلك .

– حسناً ! مرّ لأخذي في الثامنة والنصف .

كانت الصحف الشيوعية قد أعلنت عن قراءة رائعة من اربعة فصول وستة مشاهد يوفق فيها لونوار بين «مقتضيات صفاء الشعر والاهتمام بتسليم البشر رسالة رفيعة الانسانية » . وكان جوليان عازماً على تخريب هـــذه الحفلة ، باسم الفئة

القديمة المناصرة للانسانية . ولقد كان في المقالات ، التي نشرها لونوار منذ ارتداده ، تعصب ذليل جداً ، فحاكم ماضيه وماضي أصدقائه بحمية حقود للغاية ، حتى ان هنري كان يفكر بدون استياء في رؤيته موضوعاً عند حده. ثم انها كانت طريقة كغيرها في قتل هذه السهرة : كان منذ مرض بول لا يتحمل الوحدة بسهولة . وبالاضافة إلى ذلك ، كانت هناك بطاقة لوسي بيلوم التي تثير حيرته وشكوكه .

كانت القاعة غاصة . وكان المثقفون الشيوعيون مجتمعين بأكملهم : الحرس القديم وكمية من المجندين الجدد. ولقد كان كثير من هؤلاء الاتباع الجدد يفضحون قبل سنة باستنكار أخطاء الشيوعيين وأغلاطهم . ثم فجأة في تشرين الثاني فهموا . فهموا أن انتسابهم الى الحزب يمكن ان يفيد . وهبط هنري الممر الرئيسي بحثاً عن مكان ، وعند مروره اشرأبت الأوجه باحتقار حقود . لقد كان سامازيل على حق بخصوص ذلك: انهم لا يعترفون له بأي جميل على تمسكه بالشرف. كان طوال السنة قد هدّ قواه في الدفاع عن « الأمل » ضد الضغط الديغولي ، واخذ موقفاً عنيفاً ضد حرب الهند الصينية ، وضد اعتقال النواب المدغشقريين ، وضد مشروع مارشال : وبمجمل القول ، لقد ايد وجهات نظرهم تماماً . لكن هذا لم يكن يمنع ان يعاملوه على انه مزيف ومباع . وتقدم حتى الصفوف الأولى . ورسم سكرياسين ابتسامة ، لكن الشبان المتجمعين حول جوليان نظروا إليه بكراهية . وعاد على خطاه وجلس في آخر القاعة على إحدى درجات الدرج . وقال :

— لا بد انني شخص من نوع سيرانو دي برجراك . فليس لي إلا اعداء .

فقال لامبير :

— انها لغلطتك .

— حقاً ان كسب الاصدقاء ليكلف غالياً جداً .

كان قد احب الرفقة ، والعمل المشترك : لكن ذلك كان في زمن آخر ، في عالم آخر . ومن الافضل له في اليوم الذي هو فيه ان يكون وحيداً بشكل

جذري . فهو بهذا الشكل ليس لديه ما يخسره ، ولا شيء كبير يكسبه ايضاً . ولكن من الذي يكسب اي شيء ، على هذه الارض ؟

وقال لامبير :

– تطلع الى الصغيرة بيزيه . لقد لحقت بسرعة بنوع فتيات البيوت .

فقال هنري بمرح :

– نعم ، نموذج جميل للمناضلة .

كان ، قبل أربعة اشهر ، قد رفض لها مقابلة حول المشاكل الالمانية فانتحبت : « نهائياً ، للنجاح في الصحافة ، يجب ان تبيع نفسك للفيغارو او « الاومانيته » . واضافت : « لا استطيع على كل حال ان آخذ هذه الاوراق الى « السندان » . ثم بعد اسبوع اتصلت هاتفياً : « لقد اخذت على كل حال تلك الاوراق الى « السندان » . وهي تكتب الآن فيها أسبوعياً ، ويذكرها لاشوم بانفعال : « عزيزتنا ماري آنج بيزيه » . كانت تصعد الممر الرئيسي ، في حذاء مسطح ، وماكياج رديء ، ضامة يديها ، في اهمية . ومرت امام هنري الذي نهض وامسك بها من ذراعها : « مرحباً ! » .

فقالت بدون ابتسام :

– مرحباً .

وارادت ان تتملص .

– انت مستعجلة جداً : أهو الحزب الذي يمنعك من مكالمتي ؟

فقالت ماري آنج التي أصبح صوتها الصبياني حاداً :

– لا اعتقد ان لدينا شيئاً هاماً نتحدث عنه .

– دعيني على كل حال أهنئك : انت تشقّين طريقك .

– انني اشعر على الاخص انني أقوم بعمل نافع .

– مرحى ! فقد اكتسبت الفضائل الشيوعية كافة !

– آمل ان اكون قد فقدت بعض النقائص البورجوازية .

وابتعدت في كرامة ؛ وفي تلك اللحظة تعالى تصفيق . كان لونوار يصعد إلى

المنصة ، ويجلس امـــام الطاولة بينا كانت عصبة منظمة تثير الحماسة . ووضع اوراقاً على البساط واخذ يقرأ نوعاً من البيان . كان يقرأ بصوت متكسر ، مطلقاً كل كلمة باندفاع يائس ، وكأنه رأى هوات مدوخة تفتح اشداقهـــا بين المقاطع . كان من الواضح انه يخيف نفسه بنفسه . ومـــع ذلك ، لم يذكر عن الرسالة الاجتماعية للشاعر وعن شعر العـــالم الواقعي الا اكثر الافكار شيوعاً . وحين توقف ، تعالت موجة جديدة من التصفيق : ولم يحرك المعسكر المعـادي ساكناً .

وقال لامبير :

— أتدرك ذلك ! من اين سقطوا ليصفقوا لهذه الافكار !

فلم يجب هنري . يقيناً ، كان يكفي المرء ان ينظر الى هؤلاء المثقفين المرائين وجهاً لوجه ليخمد احتقارهم . فهم لم يرتدّوا الا وصوليه ً ، او خوفـــاً ، او بداعي الراحة الاخلاقية ، ولذلك لم يكن لعبوديتهم حد . لكن لا بد للمرء ان يكون مرائياً ايضاً كي يقنع بهذا الانتصار السهل للغاية . ولم يكن هنري يفكر بهؤلاء الناس حين كان يقول في نفسه وقلبـــه منقبض : « انهم يكرهونني » . كانوا صادقين ، اولئك الالوف من البشر الذين قرأوا « الأمل » ، والذين مـــا عادوا يقرأونها ، والذين اصبح اسم هنري عندهم اسم خائن . ولم تكن سخافة هذه السهرة لتقلل بشيء من صدقهم ولا من كراهيتهم .

وكان لونوار قد بدأ بصوت هادىء مشهداً بالوزن الاسكندراني : شاب يشكو من الفراغ في النفس ، يريد ان يغادر قريتـه حيث مسقط رأسه . وكان اهله ، وعشيقاته ، ورفاقه يحثونه على الرضوخ ، لكنه كان يحبط المحاولات البورجوازية في حين تبدأ الجوقة بتلاوة اشعار تنبؤيـــة . وكانت بضع صور غامضة وبضع كلمات ميتة تشير الى تفاهـــة الابيات المدروسة . وسُمع فجأة صوت يصيح :

— مزيف !

كان جوليان قد وقف . وكان يصرخ : « لقد وعدنا بشعر : اين الشعر ؟ » .

وصاح صوت آخر :

– والواقعية ؟ اين الواقعية ؟

– الرائعة : نحن نريد الرائعة !

– ومتى التوفيق ؟

وأخذوا يضربون بأقدامهم في إيقاع : « التوفيق ! » ، بينما كان الصياح يتعالى في القاعة : « إلى الباب ! نادوا البوليس ! مشاغبون ! حدثونا عن المعسكرات ! عاش السلم ! الفاشيون الى المشنقة ! لا تشتموا المقاومة ! عاش توريز ! عاش ديغول ! عاشت الحرية ! » .

كان لونوار يتحدى نظرات جلاديه . كان يوحي بأنه سيسقط على ركبتيه كاشفاً عن صدره أو سيأخذ برقص رقصة تشنجية . وبدون ان يعرف أحد لماذا ، هدأ اللغط وتابع قراءته . كان البطل يتنزه الآن عبر العالم ، باحثاً عن مهرب ممكن . واخترق القاعة لحن صغير وخفيف صادر عن هرمونيكا . وبعد قليل سمع نفير بوق . وكان جوليان يرافق كل بيت اسكندراني بنوبة ضحك يرتعد لها فم لونوار ارتعادة تشنجية . وانداح الضحك من مقعد الى مقعد ، وتعالت الضحكات من كل مكان ، وأخذ هنري يضحك بدوره : لقد جاء ، بعد كل شيء ، لأجل ذلك . وصاح به أحدهم : « نذل ! » وضحك بشدة اكبر . وانفجر التصفيق ، بين القهقهات والتصفير . وتعالى صياح آخر : « الى سيبيريا ! الى موسكو ! عاش ستالين ! واشٍ ! مباع ! » . بل صاح احدهم : « عاشت فرنسا ! » .

وقال لامبير وهما يخرجان من القاعة :

– كنت آمل ان تكون الحفلة اظرف !

فقال هنري .

– بالفعل ، لم تكن ظريفة مطلقاً . » واستدار وهو يسمع خلفه صوت سكرياسين اللاهث .

– لمحتك في القاعة ، ثم اختفيت . كنت ابحث عنك في كل مكان .

فسأل هنري .

– كنت تبحث عني ؟ » وانقبض حلقه . « ماذا يريد مني ؟ كان يعرف ذلك طوال السهرة : كان ثمة شيء رهيب يقع » .

وقال سكرياسين :

– نعم ، سنشرب كأساً في « النيو بار» . يجب ان نحتفل بهذا العيد الصغير. أتعرف النيو بار ؟

فقال لامبير :

– أعرفه .

فقال سكرياسين وهو يختفي في مثل لمح البصر :

– اذن ، عما قريب .

وسأل هنري :

– ما النيو بار ؟

فقال لامبير وهو يجلس في سيارة هنري :

– صحيح انك ما عدت تضع قدمك في ذلك الحي. منذ ان غزا الشيوعيون « البار الاحمر » ، التجأ الزبائن القدامى الذين ليسوا شيوعيين، الى حانة جديدة مجاورة .

فقال هنري :

– هيا الى النيو بار .

وركبا السيارة ، وبعد بضع لحظات كانا يدوران حول منعطف الشارع الصغير .

– هنا ؟

– هنا .

فأوقف هنري سيارته بعنف . ولمح النور الدامي للبار الاحمر . ودفع باب « النيو بار » : « انه لمقهى رديء بالأحرى » .

فقال لامبير :

– نعم ، لكن رواده أفضل من رواد المقهى المجاور .

فقال هنري :

– اوه ! انني لأشك في ذلك . » وهز كتفيه : « لحسن الحظ ، ان العشرة السيئة لا تخيفني » .

وجلسا الى طاولة . كثير من الشباب ، كثير من اللغط ، كثير من الدخان. لم يكن هنري يعرف واحداً من تلك الرؤوس . حين كان يخرج مع جوزيت ، كان يذهب فوراً الى امكنة مختلفة تماماً ، ولم يكن ذلك يحدث له كثيراً على كل حال . وسأل لامبير :

– وسكي ؟

– موافق .

وطلب لامبير كأسي وسكي بتلك اللهجة المشمئزة التي اخذها عن فولانج . وانتظرا مشروبها في صمت . كان ذلك كئيباً حقاً . ولم يعد هنري يجد ما يقوله للامبير . وبذل جهداً :

– يبدو ان كتاب دوبروي قد صدر .

– أهو الذي نشر مقتطفات منه في « الطوارىء » ؟

– نعم .

– انا متشوق لقراءته .

فقال هنري :

– وانا ايضاً .

في الماضي، كان دوبروي يحمل اليه دوماً مسوداته الاولى.اما هذا الكتاب، فسوف يشتريه هنري من مكتبة ، وسيتحدث عنه مع من يشاء ، لكن ليس مع دوبروي : الشخص الوحيد الذي يود لو يتحدث معه هنا . وقال لامبير :

– لقد وجدت ذلك المقال الذي رفضته لي ، عن دوبروي . أتذكر ؟ لم يكن سيئاً جداً ، أتعرف ؟

فقال هنري :

ـ لم اقل لك قط انه سيء .

انه يذكر تلك الحادثة. كانت المرة الاولى التيأحسّ فيها بنوع من الكراهية عند لامبير . وقال لامبير :

ـ سأعيد كتابته ، واقوم بدراسة شاملة عن دوبروي . » وتردد بدون ان يشعر : « لقد طلبه فولانج مني لـ « الأيام الجميلة » .

فابتسم هنري : « حاول الا تكون ظالماً اكثر مما ينبغي » .

فقال لامبير :

ـ سأكون موضوعيـــاً . » واضاف : « لدي ايضاً قصة ستظهر في « الأيام الجميلة » .

ـ آه ! أتكتب قصصاً اخرى ؟

ـ لقد كتبت قصتين . فولانج أحبها كثيراً .

فقال هنري :

ـ اود كثيراً لو اراها .

فقال لامبير :

ـ لن تحبها .

وظهر جوليان في فرجة الباب وتقدم نحو طاولتها . كان معلقاً ذراعهبذراع سكرياسين . كانت احقادهما المشتركة بمثابة صداقة بينهما مؤقتاً .

وقال بصوت صاخب :

ـ الى العمل ، ايهـا الرفاق ! لقد آن الوقت اخيراً للتوفيق بين الانسان والوسكي .

كان قد شك في عروتــه قرنفلة بيضاء ، وقد استعادت نظرته شيئاً من ألقها القديم : ربما لأنه لم يشرب بعد . وصاح سكرياسين :

ـ زجاجة شمبانيا !

فقال هنري مستنكراً :

ـ شمبانيا ، هنا ؟

فقال سكرياسين :

– لنذهب الى مكان آخر !

فقال جوليان وهو يجلس بسرعة :

– لا ، لا ، عليك بالشمبانيا ، لكن على الأخص بدون غجر ! » وابتسم : « سهرة جميلة ، أليس كذلك ؟ سهرة ثقافية رفيعة ! انني آسف فقط على انها لم تكن دموية قليلاً » .

فقال سكرياسين :

– سهرة جميلة ، لكن كان يجب ان يكون لها نتائج . » ونظر الى جوليان وهنري نظرة ملحة .

– لقد خطرت لي فكرة اثناء الحفلة : يجب ان ننظم رابطة لنعادي في كل وقت ، وبكل الوسائل ، المثقفين الذين يخونون .

فقال جوليان :

– ولو نظمنا رابطة تعادي جميع الرابطات ؟

فقال هنري لسكرياسين :

– قل اذن ، ألن تصبح فاشياً بعض الشيء ؟

فقال سكرياسين :

– هو ذاك ! لهذا ليس لانتصاراتنا غد .

فقال جوليان :

– خراء على الغد !

كان وجه سكرياسين قد غام : « يجب على كل حال ان نفعل شيئاً ما » .

فقال هنري :

– لماذا ؟

فقال سكرياسين :

– سأكتب مقالاً عن لونوار . انه يمثل حالة مدهشة للعصاب السياسي !

فقال هنري :

– اوه ! اتقول ذلك ! اني اعرف من يفوقه في هذا الميدان .

فقال جوليان :

– نحن جميعاً مصابون بالعصاب . لكن ما احد يكتب على كل حال بالوزن الاسكندراني .

فقال هنري :

– هذا صحيح ! » واخذ يضحك : « قل اذن ، كنت ستبدو في مظهر لو كانت مسرحية لونوار جيدة » .

فقالى جوليان :

– وتصور ان توريز جاء ليرقص كانكان ؟ ما المظهر الذي كنت ستبدو فيه ؟

فقال هنري :

– على كل ، لقد كتب لونوار قصائد جيدة .

فهز لامبير كتفيه في اغتياظ : « قبل ان يتخلى عن حريته » .

فقال هنري :

– حرية الكاتب : يجب أن نعرف ما تعنيه هذه الكلمة .

فقال سكرياسين :

– انها لا تعني شيئاً . لم يعد هناك معنى لأن يكون الانسان كاتباً .

فقال جوليان :

– صحيح . بل ان ذلك ليعيد إليّ الرغبة في الكتابة .

فقال لامبير في احتداد مفاجىء :

– يجب عليك ذلك . انهم لنادرون جداً اليوم الكتّاب الذين لا يعتقدون انهم مكلفون برسالة .

ففكر هنري : « هذا موجه إليّ » . لكنه لم يقل شيئاً . واخذ جوليان يضحك : « وها هو يكلفني فوراً برسالة : ان اشهد على ان الكاتب ليس مكلفاً برسالة » .

فقال لامبير :

– لكن لا !

فوضع جوليان اصبعه على شفتيه : « الصمت وحده موثوق » .

فقال سكرياسين على حين غرة :

– يا إلهي ! لقد حضرنا مشهداً مزعجاً ، رأينا رجلاً كان صديقَنا أحاله الحزب الشيوعي الى انسان دنيء : وانتم تتكلمون عن الأدب ! أليست لكم بيضات اذن ؟

فقال جوليان :

– انك تنظر الى العالم نظرة جدية اكثر مما ينبغي .

– نعم ؟ حسناً ! ولو لم يكن هناك رجال مثلي ينظرون الى العالم نظرة جدية ، لاستلم الستالينيون الحكم ، ولست أدري اين كنت ستكون انت .

فقال جوليان :

– مطمئناً تماماً ، تحت بضع أقدام من الأرض .

فأخذ هنري يضحك : « أتتصور ان الشيوعيين يريدون جلدك ؟ » .

فقال جوليان :

– لكن جلدي لا يحبهم . انني حساس جداً . » والتفت نحو سكرياسين : « انني لا أطلب شيئاً من أحد . انني اتلهى بالعيش ما دامت الحياة تلهيني . وحين ستصبح مستحيلة ، اضع لها حداً » .

فقال هنري بصوت عابث :

– أكنت انتحرت لو كان الشيوعيون في الحكم ؟

فقال جوليان :

– اجل . وكنت نصحتك بسرعة ان تفعل مثلي .

فقال هنري :

– هذا كثير ! » ونظر الى جوليان في ذهول : « يظن المرء انه يمزح مع اصدقاء ويتبين فجأة ان احدهم يعتبر نفسه نابليون ! » .

– قل لي : ماذا تفعل في حال دكتاتورية ديغولية ؟

– انني لا أحب لا الخطابات ولا الموسيقى العسكرية : لكني سأنسحب بنفسي مع شيء من القطن في اذني .

– انني ارى . حسناً . سأقول لك شيئاً : سينتهي بك الأمر الى رفع القطن والتصفيق للخطب .

فقال سكرياسين :

– لا يمكن اتهامي بأني احب ديغول ، انت تعرف ذلك . لكنك لا تستطيع ان تقارن بين ما ستكون عليه فرنسا ديغولية وفرنسا ستالينية .

فهز هنري كتفيه : « اوه ! انت ايضاً ، سرعان ما ستصيح : « عاش ديغول » .

فقال سكرياسين :

– ليست غلطتي اذا كانت القوى المعادية للشيوعية قد التفّت حول عسكري . فحين اردت اعادة تجميع اليسار ضد الشيوعيين رفضت .

فقال هنري :

– ما دمت معادياً للشيوعية ، فلمَ لا تكون عسكرياً ؟ » » واضاف في غضب : « أتتكلم عن يسار ! كنت تقول : هناك الشعب الاميركي ، والنقابات. وفي مقالاتك تدافع عن مارشال وشلته » .

– ان انقسام العالم الى كتلتين ، في الساعة الراهنة ، حقيقة واقعة : اننا مرغمون على القبول بأميركا او الاتحاد السوفياتي ككتلة .

فقال هنري :

– وانت تختار اميركا !

فقال سكرياسين :

– ليس في اميركا معسكرات اعتقال .

فقال هنري :

– المعسكرات ايضاً ! انتم تجعلونني اندم على انني تكلمت عنها !

فقال لامبير :

– لا تقل ذلك : انه اجلّ عمل قمت به حتى الآن . » وكان صوتـه متخثراً قليلاً . كان يتناول كأسه الثانية وكان لا يتحمل الكحول .

وهز هنري كتفيه : « مـــا افاد ذلك ؟ لقد استخدمها اليمين لخلق ضمـير شيوعي مستاء ، وكأنه وجد تبريره فيها ! فما أن تتكلم عن الاستغلال ، عن البطالة ، عن المجاعـــة ، حتى يجيبوك : ومعسكرات العمـــل . ولو لم تكن موجودة ، لاخترعوها » .

فقال سكرياسين :

– وكونها موجودة ، هذا محرج ، أليس كذلك ؟

فقال هنري :

– انني ارثي للناس الذين لا يحرجهم ذلك .

ونهض لامبير فجأة : « ستعذرونني ، لدي موعد » .

فقال هنري وهو ينهض بدوره :

– سأذهب معك . انني عائد لأنام .

فقال جوليان :

– لتنام ؟ في مثل هذه الساعة ؟ في مثل هذه الليلة ؟

فقال هنري :

– انها ليلة عظيمة ! لكني نعسان . » وألقى تحية صغيرة وسار نحو الباب .

وسأل لامبير :

– اين موعدك ؟

فقال لامبير :

– ليس عندي موعـد . لكني سئمت . انهم ليسوا ظرفاء . » واضاف في ضغينة : « متى سيمكننا ان نمضي سهرة دون ان نتكلم في السياسة ؟ » .

– لم نتكلم ، بل بوّلنا .

– بوّلنا على السياسة .

– كنت اقترحت عليك الذهاب الى السينما .

فقال لامبير :

– السياسة او السينما ! ألا يوجد حقاً شيء آخر على الارض ؟

فقال هنري :

– افترض ان نعم .

– ماذا ؟

– اود لو اعرف ذلك !

فرفس لامبير اسفلت الطريق . وسأل بلهجة ملحة الى حد ما : « ألا تأتي لشرب كأس ؟ » .

– لنشرب كأساً .

وجلسنا في مقهى على السطح . كان مساء جميـــلاً ، وكان اناس يضحكون حول طاولات مستديرة : عمّ كانوا يتحدثون ؟ كانت سيارات صغيرة تتلوى في الطريق ، وفتيان وفتيات يمرون متعانقين ، وازواج يرقصون تحت الأرصفة ، وصدى موسيقى جاز جميلة يتعالى . يقيناً ، يوجد على الأرض اشياء اخرى غير السياسة والسينما : لكن بالنسبة لأناس آخرين .

وطلب لامبير :

– كأسين مضاعفتين من السكوتش.

فقال هنري :

– مضاعفتين ! ما اسرعك ! انت ايضاً اخذت تدمن؟

– لماذا ، انت ايضاً ؟

– جوليان يشرب ، سكرياسين يشرب .

فقال لامبير :

– فولانج لا يشرب ، وفانسان يشرب .

فابتسم هنري : « انما انت الذي يرى في مكان آراء مسبقة سياسية . لقـد قلت ذلك من قبيل الصدفة » .

فقال لامبير الذي كان وجهه يعبّر عن عناد ضبابي : « ونادين ايضاً لم تكن تريد ان اشرب . لم تكن تعتقدني قادراً على ذلك ، لم تكن تعتقدني قادراً على شيء : تماماً مثلك » . وختم عبارته بصوت قاتم : « هـــذا مضحك : انني لا اوحي بالثقة » .

فقال هنري :

– لقد وثقت بك دوماً .

– كلا . لقد ابديت تجاهي رفقاً لمدة من الزمن ، لا اكثر . » وشرب لامبير نصف كأس الوسكي وتابع الكلام في غضب : « اذ لم يكن الانسان عبقريـاً في عصابتكم فلا بـــد ان يكون وحشاً . وفانسان ، انا موافق ، وحش . لكني لست لا كاتباً ، ولا رجلاً عملياً ، ولا فاسقاً كبيراً ، بـــل مجرد ابن عائلة ولا اعرف حتى كيف اسكر كما يجب » .

فهز هنري كتفيه : «ما من احد يطلب اليك ان تكون عبقرياً او وحشاً».

فقال لامبير :

– انت لا تطلب مني شيئاً لأنك تحتقرني .

فقال هنري :

– انك لمجنون تماماً ! انني آسف ان تكون لك الافكار التي لك ، لكني لا احتقرك .

فقال لامبير :

– انت تعتقد انني بورجوازي .

– وانا ؟ ألست بورجوارياً ؟

فقال لامبير في ضغينة :

– اوه ! لكن انت انت ، تقول انك لا تشعر بالتفوق على احد . لكنك في الحقيقة تحتقر الجميع : لونوار ، سكرياسين ، جوليان ، سامازيل ، فولانج ، وسائر الآخرين ، وانا ايضاً . » واضاف بصوت معجب وشرس في آن واحد : إن لك معنويات عالية ! فأنت متجرد ، شريف مخلص ، شجاع ، ومنطقي مع

نفسك : لامأخذ عليك !
فابتسم هنري : « استطيع ان اقسم لك ان ليست هذه حالتي !» .
فقال لامبير بلهجة مثبطة :
– هيا اذن ! انك لمعصوم عن الخطأ وانت تعرف ذلك . » واضاف في غضب : « وانا اعرف جيداً انني لست معصوماً عن الخطأ ، لكني لا ابالي : انني كما انا » .
فقال هنري :
– من يلومك على ذلك ؟ » وتفرس في وجه لامبير في شيء من تأنيب الضمير. كان قد لامه على انه استسلم للسهولة، لكن كانت للامبير اعذاره: طفولة قاسية، وروزا ماتت حين كان في العشرين ، ولم تعزّه نادين . وفي الحقيقة ، إن ما يطلبه لمتواضع : ان يُسمح له بأن يعيش حسب مشيئته قليلاً . وفكر هنري : « ولم اقدم له الا مطالب » . لهذا كان لامبير يقف الى جانب فولانج . ولعل الوقت لم يفت لتقديم شيء آخر له . وقال بصوت عطوف :
– اشعر انك تأخذ مآخذ عبرة علي : من الافضل ان تخرجها كلها دفعة واحدة ، وسوف نتفاهم .
فقال لامبير بصوت حزين :
– لا مآخذ عندي ، بل انت الذي يخطئني دوماً . انك تقضي وقتك في تخطئتي .
– انت مخطىء تماماً . حين اخالفك في الرأي ، فهذا لا يعني انني اخطئك . فنحن اولاً لسنا في عمر واحد . وما يناسبني لا يناسبك بالضرورة . فلقد كان لي ، مثلاً ، شباب : انني افهم ان ترغب في ان تستفيد قليلاً من شبابك .
فقال لامبير :
– أتفهم ذلك ؟
– أجل .
فقال لامبير :

– اوه ! ثم اذا وبختني ، فانني لا ابالي .

كان صوته يترنح، وكان قد شرب أكثر مما ينبغي كي يكون الحديث ممكناً، وعلى كل لم يكن هناك داعٍ الى العجلة .

وابتسم هنري له :

– اسمع ، لقـــد تأخر الوقت وكلانا متعبـــان . لكن لنخرج ذات مساء ولنحاول ان نجري حديثاً حقيقياً : منذ زمن طويل لم يحدث لنا ذلك !

فقال لامبير :

– حديثاً حقيقياً : أتعتقد ان هذا ممكن ؟

فقال هنري :

– ممكن اذا اردناه . » ونهض : « أأصحبك ؟ » .

فقال لامبير في لهجة مبهمة :

– كلا ، سأرى اذا كنت سأجد اصدقاء .

فقال هنري :

– اذن ، الى احدى تلك الأماسي .

فمد لامبير اليه يده :

– الى احدى تلك الأماسي !

وعاد هنري الى فندقه . كانت هناك رزمة في انتظاره : دراسة دوبروي . وبينما كان يرتقي الدرج فك الخيوط وفتح الكتاب على الصفحة الاولى : كانت ، بالطبع ، بيضاء ؛ ماذا تصور ؟ انه موفان الذي ارسل اليه هـذا الكتاب ، كما يرسل اليه كميات من غيره .

وتساءل : « لماذا ؟ لماذا تخاصمنا ! » كان قد سأل نفسه عن ذلـــك كثيراً. كانت مقالات دوبروي في « الطواريء » تردد بالضبط مـا تردده افتتاحيات هنري : لم يكن يتصل ، في الحقيقة ، شيء بينهما . وكانا متخاصمين . ان هـذا لحدث لا يمكن الرجوع عنـــه ، لكنه غير قابل للتفسير . كان الشيوعيون يكرهون هنري ، ولامبير يترك « الأمل » ، وبول مجنونة ، والعالم يركض الى

الحرب ولم يكن للخصومة مع دوبروي من معنى .

وجلس هنري الى طاولته واخذ يفتح صفحات الكتـاب . كان يعرف منه فقرات كثيرة . وقفز فوراً الى الفصل الاخير : فصل طويـل كتب ولا بد في كانون الثاني ، بعد تصفيـة « الاشتراكي الثوري الحر » . وشعر ببعض الحيرة . إن الجيد لدى دوبري هو انه لا يتردد أبداً في اعادة النظر في أفكاره . وفي كل مرة ، كان ينطلق الى المغامرة من جديد . لكن اعـادة النظر هذه المرة كانت جذرية . كان يصرح : « إن المثقف الفرنسي لا يستطيع شيئاً اليوم » . بديهي: فقد فشل « الاشتراكي الثوري الحر » ومقالات دوبروي في « الطواريء » تثير ضجة ، ولكن ليس لها اي تأثير ، على اي انسان . كان دوبروي يتهم تارة بأنه شيوعي متكتم ، وطوراً بأنه عميل لوول ستريت ، ولم يكن له الا اعداء: لا بد انه ليس في عيد . وكان هنري في وضعه نفسه تقريباً، ولم يكن في عيد كذلك، لكنه ليس في صالة مماثلة ، انه يعيش يوماً فيوماً ، انه يتدبر امره . لا ريب في ان دوبروي ، بما عنده من تعصب ، لا يعرف كيف يتدبر أمره . وبالأصل أنه يذهب الى ابعد ممـــا يذهب اليه هنري . كان يدين حتى الادب . وتابع هنري القراءة . كان دوبروي يذهب الى ابعد من ذلـك ايضاً : كان يدين وجوده بالذات . كان يعـارض المذهب الانساني القديم الذي كان مذهبه بمذهب إنساني جديد ، اكثر واقعية ، اكثر تشاؤماً ، يفسح مكاناً رحبـاً للعنف ، ولا يفسح اي مكان تقريباً لأفكار العدالة ، والحرية ، والحقيقـة . كان يبرهن بنجاح على ان هذه هي الاخلاق الوحيدة المناسبة للعلاقة الحاليـــة بىن البشر . ولكن كي يتبنى الانسان مثل هذه الاخلاق ، فلا بد ان يلقي عن كاهله بأشيـاء كثيرة ، مما لم يكن قادراً شخصياً على فعله ، كان من الغريب فعلاً ان يرى دوبروي يعظ بحقيقة لا يستطيع ان يجعل منها حقيقته : هذا يعني انه يعتبر نفسه ميتاً . وفكر هنري : « انها غلطتي . لو لم أعاند ، لتابـع « الاشتراكي الثوري الحر » وجوده ، ولما اعتقد دوبروي انه مقهور نهائياً » . كان قلبه ينقبض من تصوره لا مجدياً ، منعزلاً ، شاكاً في ان يكون لأعماله معنى ، منقطعاً عن المستقبل ،

ناقضاً ماضيه . وفجأة قال هنري في نفسه : « سأكتب له ! » . لعل دوبروي لن يجيب او سيجيب بغضب : ما الاهمية ؟ ان هنري لم يعـــد يعرف شيئاً عن كبرياء النفس . وقرر وهو يرقد : « سأكتب له ، غداً » . وقال في نفسه ايضاً « سأجري غداً حديثاً حقيقياً مع لامبير » . واطفـأ النور وتساءل : « غداً . لمَ تريد الأم بيلوم ان تراني غداً صباحاً ؟ » .

تنحت الخادمة ودخل هنري الى الصالون . جلود دب ، سجاد ، أرائك واطئة : انه الصمت المتواطيء نفسه يوم كان يلتقي هنا بجوزيت وهي معروضة عليه بشكل ضمني . لم تكن لوسي قد دعته على كل حال لتعرض عليه مفاتنهـا الخمسينيـــة ! وردد في نفسه : « مـاذا تريد مني ؟ » . كان يحاول ان يرسم أجوبة .

قالت لوسي :

– شكراً على مجيئك .

كانت ترتدي ثوباً للبيت متزمتاً ، وكان شعرها حسن التصفيف لكنها لم ترسم حاجبيها، وكان هذا النوع من الصلع يزيد في عمرها زيادة غريبة. وأشارت له ان يجلس :

– اريد ان أسألك خدمة . وهي ليست من اجلي : بل من اجل جوزيت . أأنت حريص ، أم لا ؟

فقال هنري :

– تعرفين جيداً ان نعم .

كانت لهجة لوسي طبيعية جداً حتى انه شعر ببعض الاطمئنان : انها تريـد ان اتزوج جوزيت ، او ادخل في شركة مـا . لكن لمَ تمسك بيدها اليمنى بهذا المنديل الصغير المخرم ، لمَ تشد عليه بهذه القوة ؟ وقالت لوسي :

– لا أدري الى أي حد ستذهب لمساعدتها .

– قولي لي اذن ما الأمر .

فترددت لوسي . كانت تعجن بين يديها المنديل المدعوك : « سأقول لك ، لا خيار لي » . ورسمت ابتسامة : « لقد قيل لك ولا بد اننا لم نكن اثناء الحرب مقاومات مئة بالمئة ؟ » .

– قيل لي ذلك .

فقالت لوسي :

– لن يعرف أحداً أبداً كم دفعت ليكون لي بيت آماريليس ، ولأجعل منه محلاً كبيراً . وعلى كل ، هذا لا يهم أحداً وانا لا ازعم انني اثير شفقتك على مصيري . كل ما هنالك ، يجب ان تفهم انني بعد ذلك كنت على استعداد لأن اقامر برأسي على ان أتركه يتدهور . ولم اكن استطيع انقاذه إلا باستخدام الألمان : فاستخدمتهم ولن اقول لك انني نادمة على ذلك . بديهي، اننا لا نحصل على شيء مقابل لا شيء ؛ فاستقبلتهم في « ليون »، وأقمت حفلات : باختصار، لقد فعلت ما هو ضروري . وقد كلفني هذا بعض المتاعب بعد التحرير ، لكن ذلك قد أصبح بعيداً ، منسياً .

ونظرت لوسي حولها ونظرت الى هنري . وتمتم بصوت هادىء : « وبعد ؟ » . كان يخيل اليه ان هذا المشهد قد حدث قبل الآن . متى ذلك ؟ ربما في أحلامه . منذ ان استلم تلك البطاقة ، كان يعرف ما ستقوله لوسي له . منذ سنة كان ينتظر هذه الدقيقة .

– يوجد شخص كان يهتم معي بشؤوني ، شخص يدعى مرسييه ، كان يأتي غالباً الى ليون : فسرق صوراً ، ورسائل والتقط شائعات . واذا ما فتح فاه ، ندمغ بدمغ الخيانة القومية ، انا وجوزيت .

فقال هنري :

– انها لصحيحة قصة السجل تلك ؟

لم يكن يشعر بشيء إلا بـ ... كبير . وقالت لوسي في دهشة :

– آه ! أكنت مطلعاً على ذلك ؟

وانفرج وجهها قليلاً . وقال هنري :

– واستخدمت ايضاً جوزيت ؟

فقالت لوسي في مرارة :

– استخدمتها ! لم تخدمني جوزيت في شيء مطلقاً . لقـــد ورطت نفسها بطريقة لا مجدية تماماً . لقد وقعت في حب ضابط ، فتى عاطفي جميـل ليس له أي نفوذ ، ارسل اليها برسائل شعرية ملتهبة قبل ان يقتـل في الجبهة الشرقية . فتركتها ملقاة في كل مكان ، وكذلك الصور التي يظهر فيها الاثنـــان . وثائق جميلة ، اؤكد لك . وسرعان ما فهـــم مرسييه الفائدة التي يستطيع ان يجنيها منها .

فنهض هنري فجأة وسار حتى النافذة . كانت لوسي تراقبه ، لكنه لم يكن يبالي بها . كان يتذكر وجه جوزيت المتواني في ذلك الصباح ، الصباح الاول ، وذلك الصوت الحقيقي للغايـــة الذي كان يكذب : « انا ، عشيقة ؟ لمن ؟ » . كانت قد أحبت . أحبت غيره ، فتى جميلا المانياً . والتفت نحو لوسي وسأل في جهد : « هل يبتزّك ؟ » .

فضحكت لوسي ضحكة صغيرة : « لن تتصور انني سأطلب منك مـــالاً ؟ منذ ثلاث سنوات وانا ادفع ، وكنت على استعداد لأن اتابع . بل لقد عرضت عليه مبلغاً ضخماً لشراء السجل منه ، لكنه خبيث ، وينظر الى بعيـــد » . ونظرت الى هنري في عينيه وقالت بلهجة متحدية : « كان جاسوساً للجستابو ، وقد اوقف . وقد ابلغني انني اذا لم اخرجه من هذا المأزق ، فانه سيجرنا معه» .

فلزم هنري الصمت . لقد كانت النذلات اللواتي نمن مع المـــان ينتسبن حتى إلى عالم آخر لا تمكن معه الا علاقة وحيدة: الحقد. ولكن ها هي لوسي تتكلم، وهو يصغي اليها . ان هذا العالم السافل ، لهو عالمه نفسه ، وليس هناك إلا عالم واحد. ومن ذراعي الضابط الالماني،انتقلت جوزيت الى ذراعيه. وقالت لوسي:

– أتدرك ما تعنيه هذه القصة بالنسبة لجوزيت ؟ انها لن تستطيع أبداً ، بما لها من طبيعة ، ان تواجهها ، وسوف تفتح الغاز .

فقال بصوت غاضب :

– ماذا تريدين ان افعل ؟ ماذاتنتظرين مني ؟ انني لا اعرف محامياً يستطيع ان يخرج جاسوساً للجستابو من مثل هذه الورطة . ان النصيحة الوحيدة التي استطيع ان اقدمها لك ، هي ان تهربي الى سويسرا بأسرع ما يمكنك .

فهزت لوسي كتفيها : « الى سويسرا ! اقول لك ان جوزيت ستفتح الغاز». وقالت في حنان مفاجىء : « لقد كانت مسرورة جداً في هذه الايام ، الصغيرة المسكينة . الجميع يقولون انها تخرج بطريقة مثيرة على الشاشة » . واضافت في نفاد صبر : « اجلس ، واصغ إلي » .

فقال هنري وهو يجلس :

– انني مصغٍ .

فقالت لوسي في نصف ابتسامة :

– لديّ محامٍ تحت يدي ! الاستاذ تريفو ، ألا تعرفه ؟ انه صديق موثوق جداً ، ولي عليه منات كثيرة . » وغرست نظرتها في عيني هنري :«لقد درسنا القضية معاً ، بكل تفاصيلها . انه يقول ان الحل الوحيد هو ان يدافع مرسييه عن نفسه على انه عميل مزدوج : ولكن بالطبع ، إن ذلك غير وارد إلا اذا وُجد مقاوم جدّي يؤيده » .

فقال هنري :

– آه ! انني افهم !

فقالت لوسي ببرود :

– هذا سهل الفهم .

فضحك هنري ضحكة صغيرة : « تظنين ان الامر بسيط جداً ! المصيبة هي ان جميع الرفاق يعلمون ان مرسييه لم يعمل معي قط » .

فعضت لوسي على شفتيها . وفجأة، تبخرت غطرستها، وخاف من ان تأخذ في البكاء ، اذ سيكون مشهداً مقبضاً للقلب بدون ريب . كان يراقب في لذة خبيثة الوجه المتداعي ، وكانت في رأسه كلمات تركض كالريح : عشيقة ضابط الماني ، لقد نالتني . يا للبليد المسكين ! كان يظن نفسه واثقاً من لذتها ، من

حنانها : يا للبليد ! انها لم تعتبره قط الا اداة . كانت لوسي امرأة عقل ، وكانت تنظر الى بعيد . واذا كانت قد اخذت بين يديها بمصالح هنري ، واذا كانت قد القت بجوزيت بين ذراعيه ، فلم يكن ذلك ليؤمن مستقبل ابنة لا تبالي بها . بل لتضم اليها حليفاً نافعاً . ولقد لعبت جوزيت الدور المطلوب منها . وكانت تروي لهنري انها لم تحب قط لتبرر تحفظ قلبها : لكن الحب كله الذي كان هذا القلب الواهي قادراً عليه ، اعطته للضابط الالماني الذي كان فتى جميلاً للغاية . كان يود لو يهينها ، لو يضربها ، وأمها تطلب منه ان ينقذها ! وقالت لوسي :

— ألم يكن العمل سرياً ؟

— نعم ، لكن كنا نعرف بعضنا فيما بيننا .

— ولن يصدقك قاضي الاستنطاق بمفردك ؟ وإذا ووجهت بزملاء ، فهل سيخالفونك ؟

فقال هنري في غضب :

— لست ادري ، ولا اريد المجازفة بذلك . لا يبدو عليك انك تشكين في خطورة شهادة الزور . انت حريصة على بيت خياطتك . وانا ايضاً حريص على بعض الاشياء الصغيرة .

كانت لوسي قد استعادت هدوءها . وقالت بصوت حيادي : « التهمة الرئيسية ضد مرسييه ، هي انه وشى بفتاتين في ٢٣ شباط ١٩٤٤ في جسر « ألما » . ووجهت الى هنري نظرة مستجوبة : كان اسمهما السري ليزا وايفون ، وقد امضينا عاماً في داشو ، الا يقول لك هذا شيئاً ؟ » .

— كلا .

— خسارة . لو كنت تعرفها ، لساعدنا ذلك . على كل حال ، من البديهي انها تعرفانك . فإذا اكدت ان مرسييه في ذلك اليوم كان في مكان آخر ، معك ، أفلن تسقطا دعواهما ؟ واذا صرحت انك كنت تستخدم سرياً مرسييه كجاسوس ، فهل سيجرؤ احد على دحض كلامك ؟.

ففكر هنري . نعم . ان له حظوة كبيره ، ويمكن لكذبة واحدة ان

تنجح . كان لوك في بوردو عـام ١٩٤٤ . ولقد مات شانسيل ، وفاريو ، وغالتييه . وإذا كان لدى لامبير ، وسيرروناك ، ودوبروي ، شكوك ، فسوف يحتفظون بها في أنفسهم . ولكن لن يدلي بشهادة زور من أجـل امرأة صغيرة اعجبه جلدها . لقد عرفت كيف تحتفظ بسرها ، البريئة ! وقال :

– اسرعي اذن بالهرب الى سويسرا ! سوف تجدين مجموعة من الناس الطيبين . الى سويسرا ، او الى البرازيل ، او الى الارجنتين : ان العـالم كبير . انه لوهم الظن بأن الحياة غير ممكنة إلا في باريس .

– انت تعرف جوزيت ، لا ! لقد بدأت الآن فقط بتذوق الحياة . انها لن تتحمل الضربة ابداً !

وفكر هنري وقلبه ينفرط : « يجب ان اراها . فوراً ! » ونهض فجـأة : « سوف افكر » .

فقالت لوسي وهي تخرج من جيبها قطعة ورق :

– هوذا عنوان الاستاذ تريفو . اذا قررت ، فاتصل به .

فقال هنري :

– على فرض انني قبلت : فهل من المؤكد ان الشخص سيعيد السجل ؟

– ماذا تريد ان يفعل ؟ فهو لا مصلحة له ، اولاً ، في اغضابك . ثم في اليوم الذي سيُعرف فيه السجل ، فإن شهادتك ستصبح مشبوهة . لا . إذا ما انقذته من الورطة ، فإن يديه ستظلان مربوطتين .

فقال هنري :

– سأتلفن لك هذا المساء .

فنهضت لوسي ، وظلت لحظة منتصبة امامه في تردد . ومن جديد خاف ان تسيل دموعها وأن ترمي بنفسها على قدميه . واكتفت بإطلاق تنهدة ورافقتـه حتى الباب .

ونزل الدرج بسرعة وجلس امام مقود سيارته وصعد نحو شارع غابرييل . كان لا يزال في جيبه المفتاح الصغير الذي اعطته اياه جوزيت ، قبل سنة ، ذات

ليلة جميلة . وفتح باب الشقة ودخل الى الغرفة دون ان يقرع . وقالت جوزيت:
– ما هذا ؟ » وفتحت عينيها وابتسمت ابتسامة مبهمة : « أهو أنت ؟ ما الساعة ؟ لطف منك ان تأتي لتقبيلي » .

فلم يقبلها . وسحب الستائر وجلس على مقعد مجنح . بين هذه الجدران المبطنة ، بين هذه الطرف ، هذا الحرير ، هذه الوسائد ، كان من الصعب عليه ان يؤمن بالفضيحة ، بالسجن ، باليأس . وكان ثمة وجه يبتسم ، وردي جداً تحت شعر أصهب . وقال :

– اريد ان اكلمك .

فانتصبت جوزيت قليلاً على وسائدها : « عمَّ ؟ » .

– لمَ لم تقولي لي الحقيقة ؟ لقد روت لي امك كل شيء . » وقال بصوت عنيف : هذه المرة اريد الحقيقة . ألأنها كانت تعتقد انني أستطيع ان اؤدي لك ذات يوم خدمة ، القت بك بين ذراعي ؟ » .

فقالت جوزيت وهي تنظر الى هنري في ذعر :

– ماذا حدث ؟

– أجيبيني ؟ ألكي تطيعي امك ، قبلت بأن تنامي معي ؟

فقالت جوزيت :

– منذ زمن طويل وماما تقول لي ان اهجرك . ان ما تريده هو ان أتعلق برجل مسنّ . » ورددت بلهجة ضارعة : « ماذا حدث ؟ » .

فقال :

– السجل ، أسمعت عن ذلك السجل ؟ ان الشخص الذي يملكه اعتقل وهو يهدد بأن يكشف أوراقه .

فأخفت جوزيت وجهها في الوسادة ، وقالت في يأس : « ألن ننتهي من الامر اذن ابداً ! » .

– أتذكرين ، في الصباح الاول ، هنا بالذات ، قلت لي انك لم تحبي أحداً قط . وفيما بعد حدثتني بشكل مبهم عن فتى مات في اميركا : كان فتاك ضابطاً

المانيا . آه ! لقد هزئت بي كثيراً .

فقالت جوزيت :

– لمَ تكلمني هكذا ؟ مـاذا فعلت لك ؟ حين كنت في ليون ، لم أكن أعرفك .

– لكن حين سألتك ، كنت تعرفينني . ولقد كذبت عليّ بكل براءة !

– ما كانت الفائدة من ان اقول لك الحقيقة؟ كانت ماما قد منعتني من ذلك. وبعد كل شيء كنت غريباً .

– وطوال سنة ، أبقيت غريباً بالنسبة لك ؟

– ما كان الداعي للكلام عن هذا كله ؟ » وأخذت تبكي بهدوء بين أصابعها: «ماما تقول انني اذا فُضحت فسوف اسجن.لا اريد! سأقتل نفسي بالأحرى».

– كم من الوقت دامت قصتك مع الضابط ؟

– سنة .

– أهو الذي اثث لك هذه الشقة ؟

– نعم . كل ما لدي ، هو الذي اعطانيه .

– وكنت تحبينه !

فقالت منتحبة :

– كان يحبني ، كان يحبني كما لن يحبني اي رجل ابـداً . نعم كنت احبه ، ليس هذا سبباً لألقى في السجن .

ونهض هنري ، وخطا عدة خطوات بين قطع الاثاث التي اختارهـا الضابط الجميـل . في الحقيقة ، كان يعرف دوماً ان جوزيت قابلة لأن تكون قـد وهبت نفسها لألمان . لقد اعترفت : « لم اكن افهـم شيئاً من تلك الحرب » ، فافترض انها كانت تبتسم لهـم ، وانها كانت تغازلهم بشكل ما ، وَعذرها على ذلك . ولقد كان على استعداد لأن يعذرها اكثر لو أحبت حباً صادقاً . ولكن الواقع انه لم يكن يتحمل ان يتصور على هذا المقعد زياً عسكرياً رمادياً اخضر، والرجل نائماً معها ، جسداً الى جسد ، فماً الى فم .

– أو تعرفين ما تأمله امك ؟ أن ادلي بشهادة زور كي انقذك من المأزق . »
واضاف : شهادة زور : اعتقد انها لا تعني عندك شيئاً » .

فرددت جوزيت بين دموعها :

– لن اذهب الى السجن ، سأقتل نفسي . وبالأصل سيان عندي ، سيان عندي ان اقتل نفسي .

فقال هنري بصوت عاد اليه لطفه :

– لا مجال هناك لذهابك الى السجن .

كفى ! لا فائدة من تمثيل دور رجل العدالة : انه غيور ، هذا كل شيء . ولو أراد العدل، لما استطاع ان يلوم جوزيت على حبها اول رجل أحبها . وبأي حق يوبخها على سكوتها ؟ لم يكن له اي حق . وتابع :

– في أسوأ الحالات ، سترغمان على مغادرة فرنسا . لكن الحياة ممكنة في غير فرنسا .

كانت جوزيت لا تزال تنتحب . من البديهي ان ما قاله لم يكن له أي معنى. العار ، الهرب ، المنفى : لن تتحمل جوزيت الضربة ابداً . بل انها منذ الآن غير متمسكة بالحياة الى حد كبير . ونظر حوله وتصاعد الضيق الى صدره . كانت الحياة تبدو لاغية في ديكور المهزلة هذا ، لكن اذا ما فتحت جوزيت الغاز يوماً فإنها ستموت بين هذه الجدران المبطنة ، راقدة تحت هذه الأغطية الوردية . وسوف تدفن في قميصها الراغي . لم تكن تفاهة هذه الغرفة الا مظهراً كاذباً ، في حين ان دموع جوزيت دموع حقيقية ، وثمة هيكل عظمي حقيقي يختفي تحت الجلد المعطر . وجلس على حافة السرير وقال :

– لا تبكي . سأنتشلك من هذه الورطة .

وابعدت خصائل الشعر التي كانت تتهدل على وجهها المبلل : « انت ؟ انك لتبدو عظيم الغضب ! ... » .

فقال :

– لكن لا ، انني لست غاضباً » وكرر بقوة : « اعدك بأن انتشلك من

هذه الورطة » .

فقالت جوزيت وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه :

– اوه اجل ! انقذني ! ارجوك !

فقال بعذوبة :

– لا تخافي . لن يحدث لك اي سوء .

فقالت جوزيت :

– انت لطيف ! » والتصقت به ومدت اليه فمها ، فأشاح بوجهه . فتمتمت بصوت ذليل جداً حتى ان هنري شعر بالخجل ، الخجـــل من انه على الشاطىء الآمن : « أأقرفك ؟ » . رجل تجاه امرأة، شخص يملك مالاً ، واسماً ، وثقافة، وعلى الاخص اخلاقية ! لقد زال عن هذه الاخلاقية رونقها بعض الشيء ، منذ فترة ما ، لكنها لا تزال قادرة على ان تخدع . ولقد كان ، عند المناسبة ، يترك نفسه تخدع بها . وقبّل الفم المملح بالدموع :

– انما انا الذي أقرف من نفسي .

– انت ؟

ورفعت اليه عينين لا تفهمان شيئاً وقبّلها من جديد ، في فيــض من الشفقة . ما الأسلحة التي قدمت لها ؟ اي مبادىء ؟ اي آمال ؟ لقد كانت هناك صفعات امها ، وفظاظة الذكور ، والجمال المذل ، ولقد وضعوا الآن في قلبهـــا تأنيب ضمير مدهوش من نفسه . وقال :

– كان عليّ ان اكون لطيفاً على الفور بدلاً من ان اهينك .

فنظرت إليه بقلق : أصحيح انك غير حاقد عليّ ؟ » .

– انني غير حاقد عليك . وسأنتشلك من هذه الورطة .

– ماذا تفعل ؟

– سأفعل ما ينبغي .

فأطلقت تنهدة ووضعت رأسها على كتف هنري . فداعب شعرها . شهادة زور : كان ينفر من هذه الفكرة . لكن ماذا ؟ انه لن يؤذي احداً بحلفه زوراً.

سينقذ رأس مرسييه ، وهـــذا شيء يؤسف له : لكن العديـــد من الآخرين يستحقون الموت وهم في أتم صحة ! وإذا رفض : فإن جوزيت قــادرة على قتل نفسها ، او ان حياتها لن يعود لها معنى ، على كل حال . كلا ، لم يكن يستطيع ان يتردد : فهناك ، من طرف ، جوزيت ، ومن طرف آخــر وساوس ضمير . ولف خصلة من شعرهـــا حول اصبعه . على كل الأحوال ، ان الضمير المرتاح لا يفيد شيئاً . لقد سبق وفكر بذلك : الاحرى به ان يحيـد عن طريق الصواب صراحة . وهــا هي الفرصة تسنح له ليقول خراء للأخلاقية : ولن يفوتهـــا . وملص يده ومررها على وجهها . لم يكن دور الرجل الشيطاني ليناسبه . سوف يدلي بشهادة الزور تلك لانه لا يستطيع ان يتصرف بشكل آخر ، هـــذا كل شيء . « كيف وصلت الى هــذا الحد ؟ » . كان ذلك يبدو له منطقياً جـــداً ومستحيلاً تماماً في آن واحد . ولم يشعر قط بهذا القدر من الكآبة .

لم يكتب هنري لدوبروي ، ولم يحــادث لامبير حديث قلب الى قلب . ان الصداقة لتعني تقديم تقارير : في حين انه كان يجب ان يكون بمفرده ، ليفعل ما سيفعله . وهو الآن ، وقد اتخذ قراره ، يمنع نفسه عن وساوس الضمير . ولم يعد يشعر بخوف. كذلك بديهي انه يجازف مجازفة كبيرة ، ومن الممكن ان تدحض اقواله ، وأي فضيحة جميلة إذا ثبتت عليه شهادة الزور ! وإذا ما تُبّلت بالمرقة الديغولية او المرقة الشيوعية ، فإنها ستكون حساء مدهناً . لكنه لم يكن يتوهم الاوهام عن اهمية عمله ، اما مستقبله الشخصي فلم يكن ليبالي بــه . ورتّب مع الاستاذ تريفو مهمة مرسييه المختلقة ، وفي اليوم الذي دخل فيـــه الى مكتب قاضي التحقيق لم يكن يشعر بأي انقباض في قلبه تقريباً . كان ذلك المكتب ، الشبيه بآلاف المكاتب الاخرى ، يبدو اقــل واقعية من ديكور مسرحي . ولم يكن القاضي وكاتبه الا ممثلين لمأساة مجردة : كانا يمثلان دورهمـا ، وهنري يمثل دوره . ولم تكن كلمة الحقيقة تعني شيئاً هنا .

وشرح بصوت هادىء :

— بديهي ، ان العميل المزدوج مضطر الى تقديم ضمانات الى العدو . انت تعرف ذلك مثلما اعرفه . لم يكن مرسييه يستطيع ان يساعدنا دون ان يورط نفسه . لكن المعلومات التي كان يقدمها الى الالمان ، كنا نقررها دوماً معاً . ولم يحدث اي تسرب قط لنشاط حقيقي للشبكة . وإذا كنت هنا اليوم ، وإذا كان العديد من الرفاق قد افلتنا من الموت ، وإذا كانت « الامل » قد استطاعت ان تعيش سراً ، فإنما ذلك بفضله .

كان يتكلم بحرارة يشعر انها مقنعة . وكانت ابتسامة مرسييه تدعم كلماته . كان فتى جميلاً جداً ، في حوالي الثلاثين ، متواضع الهيئة ، جذاب الوجه بالأحرى . وكان هنري يفكر : « ومع ذلك ، فربما هو الذي وشى ببوريل او فوشوا . ولقد سلم آخرين : بدون حب ، بدون حقد ، من اجل المال . ولقد قتلوا ، او انتحروا ، وهو لا يزال يعيش مكرماً ، غنياً ، سعيداً » . لكنه كان بعيداً جداً بين هذه الجدران الأربعة عن العالم الذي يحيا فيه البشر ويموتون ، ولهذا لم يكن لذلك كبير أهمية .

وقال القاضي :

— من الصعب دوماً ان نقرر متى ينقلب العميل المزدوج الى خائن . وما نجهله هو ان مرسييه قد تخطى هذا الحد ، مع الأسف .

وأشار الى الحاجب ، فتصلب هنري . كان يعلم ان ايفون وليزا قد قضتا اثني عشر شهراً في « داشو » ، لكنه لم يكن قد رآهما قط . أما الآن فهو يراهما. كانت السمراء ايفون ، وكانت تبدو انها شفيت . وكانت ليزا كستنائية الشعر ، وكانت لا تزال نحيلة شاحبة مثل شابة بعثت من قبرها ، وما كان الانتقام ليعيد اليها لونها . لكنهما كانتا كلتاهما حقيقيتين جداً ، وسيكون من الصعب عليه ان يكذب على مرأى منهما . وكانت ايفون هي التي رددت شهادتها ، ولم يترك نظرها وجه مرسييه .

— في ٢٣ شباط ١٩٤٤ ، في الساعة الثانية بعد الظهر ، كنت على موعد على جسر « ألما » مع ليزا بولو ، الماثلة هنا . وفي اللحظة التي دنوت منها، تقدم ثلاثة

رجال نحونا ، المانيان ، وهذا الرجل الذي دلهما علينا . كان يرتدي معطفاً بنياً، بدون قبعة ، وكان حليقاً مثله اليوم .

فقال هنري بحزم :

– هناك خطأ بخصوص الشخص . ففي ٢٣ شباط في الساعة الثانية ، كان مرسييه معي في « لاسوتورين » . كنا قد وصلنا اليها معاً عشية اليوم السابق . وكان بعض الرفاق سينقلون الينا مخطط المخازن التي دكتها الاميركان بعد ثلاثة ايام ، وقضينا اليوم معهم .

فقالت ايفون :

– إلا انه هو بنفسه .

ونظرت الى ليزا التي قالت :

– انه هو .

فقال القاضي :

– أليس من الممكن ان تكون قد اخطأت في التاريخ ؟

فهز هنري برأسه : « لقد حدث القذف في ٢٦ . وقد نقلت التعليمات في ٢٤ وامضيت ٢٢ و ٢٣ هناك . ان مثل هذه التواريخ لا تنسى » .

فقال القاضي وهو يلتفت نحو المرأتين :

– ولقد اعتقلتما في ٢٣ شباط ؟

فقالت ليزا :

– أجل ، في ٢٣ شباط .

وكان الذهول مخيماً عليهما . وقال هنري .

– انكما لم تريا الواشي بكما الا لحظة ، وفي وقت كنتما فيه مضطربتين. لقد عملت انا سنتين مع مرسييه ، ولا مجال لأن اخلط بينه وبين شخص آخر . كل ما اعرفه عنه يجيبني بأنه ما كان ليسلّم مقاومتين قط . ليس هذا إلا رأياً . لكني احلف اغلظ الايمان بأنه كان معي في لاسوتورين ، في ٢٣ شباط ١٩٤٤ .

كان هنري ينظر بخطورة الى ايفون وليزا. وتبادلتا النظرات في قلق . كانتا

واثقتين من هوية مرسيه وثوقها من صدق هنري ، وكان ثمة رعب في أعينها .
وقالت ايفون :

– اذن ، لا بد انه كان أخاه التوأم .

فقال القاضي .

– ليس له أخ .

– كان شخصاً يشبهه وكأنه اخوه.

فقال هنري :

– كثير من الناس يتشابهون في مرور سنتين .

وساد صمت وسأل القاضي :

– أتصرّان على شكواكما ؟

فقالت ايفون :

– كلا .

وقالت ليزا :

– كلا .

لقد قبلتا ، كي لا تشكا في هنري ، ان تشكا في اوثق ذكرياتها ، لكن مع الماضي كان الحاضر يترنح حولها ، بل الواقع ايضاً . واشمأز هنري من تلك الحيرة التائهة في أعماق أعينهم . وقال القاضي :

– هلا قرأت ثانية ووقعت ؟

واعاد هنري قراءة الصفحة المضروبة على الآلة الكاتبة . كانت شهادته ، التي ترجمت الى هذا الاسلوب اللاانساني ، قد فقدت وزنهـا ، فلم يحرجه التوقيع . لكنه تبع بعينيــه في شك خروج المرأتين . كان يود لو يلحق بهما ، لكن لم يكن لديه ما يقوله لهما .

كان يوماً شبيهاً بسائر الأيام وما كان احد ليقرأ على وجهه انه قد حلف زوراً . وصادفه لامبير في الممشى دون ان يبتسم له ، لكن ذلك كان لأسباب اخرى مغايرة : كان جريحاً لأن هنري لم يقترح عليه بعد خلوة منفردة . « غداً ،

سأدعوه للعشاء » . نعم ، الصداقة المسموح بها من جديد ، ولقد انتهت الاحتياطات والوساوس : لقد تمت الامور على احسن ما يرام ، حتى ان المرء ليفترض انه لم يحدث شي البتة . وقال هنري في نفسه وهو يجلس امام مكتبه : « لنفترض ذلك » . وتصفح بريده . رسالة ماردروس : لقد شفيت بول ، ولكن من الافضل الا يحاول هنري رؤيتها ، رائع . اما بيير لوفيريه فيكتب انه مستعد لشراء حصة لامبير . لا بأس . فهو شريف ومتزمت ، والعمل ممكن معه وإن يكن غير قادر على اعادة الشباب الى « الأمل » . آه ! ثمة معلومات اضافية عن قضية مدغسقر . وقرأ هنري الصفحات المضروبة على الآلة الكاتبة . مئة الف مدغسقري ذبيح مقابل مئة وخمسين اوروبياً ، والارهاب يسود الجزيرة ، وقد اعتقل جميع النواب رغم انهم استنكروا التمرد ، وتعرضوا لتعذيب جدير بالغستابو ، وقد القيت قنبلة يدوية على محاميهم لمحاولة قتله ، والدعوى مزيفة سلفاً ، وليس ثمة من صحيفة لتكشف النقاب عن الفضيحة . واخرج قلم حبره . يجب ان يرسل احدهم الى هناك : ولم يكن فانسان ليطلب افضل من ذلك . وبانتظار ذلك ، سوف يخطط افتتاحيته . وكان قد كتب السطور الاولى ، حين فتحت سكرتيرته الباب : « هناك زائر » . وناولته بطاقة : الاستاذ تريفو . وشعر هنري بانقباض صغير في قلبه . لوسي بيلوم ، مرسيه ، الاستاذ تريفو : لقد حدث شيء ما ، وإن له الآن شركاء .

— ادخليه .

كان المحامي يمسك في يده بمحفظة جلدية كبيرة وقال : « لن ازعجك طويلاً » . واضاف بصوت راضٍ : « لقد كان لشهادتك وقعها . إن اطلاق سراحه مؤكد . وانني لسعيد جداً بذلك . ان الاخطاء التي امكن لهذا الشاب ان يرتكبها ، لن يكفر عنها في السجن . لقد اتحت له امكانية ان ينقلب الى رجل جديد » .

فقال هنري :

— ويرتكب دناءات جديدة ! لكن ليست هذه هي المسألة . كل ما آمله

هو ألا اسمع عنه ثانية .

فقال الاستاذ تريفو :

– لقد نصحته بالرحيل الى الهند الصينية .

فقال هنري :

– فكرة ممتازة . ليقتل من الهنود الصينيين عدد مـــا قتله من الفرنسيين ، وسوف يصبح بطلاً مشهوراً . وبانتظار ذلك ، هل اعاد السجل ؟

– طبعاً . » واخرج من محفظتــه رزمة كبيرة مغلفة بورق بني : « لقـــد حرصت على ان اسلمك اياه شخصياً . »

فأخذ هنري الرزمة وقال بتردد : « لمــاذا لي ؟ كان يجب إعادته الى السيد بيلوم » .

فقال الاستاذ تريفو :

– ستفعل به ما تشاء . لقد التزم موكلي بتسليمك إياه .

فرمى هنري بالرزمة في الدرج . كان للوسي على المحــامي منّات غامضه : هذا لا يعني انه يحملها في قلبه . ربما كان يداعبه أمل بالانتقــام : « أأنت واثق ان فيه كل شيء ؟ » .

فقال الاستاذ تريفو :

– يقيناً . لقد فهم ذلك الشاب جيداً ان اي استياء من طرفك قــد يكلفه غالياً . لن نسمع عنه ثانية ، انا مقتنع بذلك .

فقال هنري :

– شكراً على تكلفك المشاق .

فلم ينهض المحامي : « ألا تعتقد ان علينا ان نخشى من تكذيب ؟ » .

فقال هنري :

– لا أعتقد . وعلى كل ، لم تحدث اي ضجة حول هذه القصة .

– كلا ، لحسن الحظ ، لقد اوقفت بسرعة .

وساد صمت لم يحاول هنري ان يقطعه ، وازمع الأستاذ تريفو على الانصراف

اخيراً : « حسناً ! انني سأتركك لعملك . آمل كثيراً ان نلتقي ثانية يوماً ما ، عند السيدة بيلوم » .

فقال هنري بجفاء :

– شكراً .

وما ان خرج المحامي ، حتى فتح هنري الدرج : وتجمدت يـده على الورق الأسمر . يجب ان يلمس شيئاً . يجب ان يحمل الرزمة الى غرفته ، ويحرقها دون ان يلقي عليها نظرة واحدة . لكنه كان أخذ بنزع الخيطان ، ونثر على الطاولة الوثائق : رسائل بالالمانية ، بالفرنسية ، تقارير ، شهادات . وصور : لوسي بين ألمان في بزاتهم العسكرية ، مرتدية ثوباً عاري الكتفين ، مترصعـة بالجواهر . وجوزيت جالسة بين ضابطين امام دلو شمبانيا ، وهي تضحك ملء فمهـا . وفي صورة اخرى كانت تعانق الضابط الجميل وتبتسم له تلك الابتسامـــة الواثقة السعيدة التي زرعت الاضطراب في نفس هنري مراراً عديـــدة ، مرتدية ثوباً كاشفاً وسط حديقة معشوشبة. وكان شعرها يتهدل بحرية على كتفيها ، وكانت تبدو اصغر منها اليوم ، واكثر مرحاً بما لا يقاس ! ولكم كانت تضحك ! وتبين هنري ، حين وضع الصور على الطاولة ، ان اصابعه قد تركت على السطح اللامع آثاراً ندية . كان يعرف دومـا ان جوزيت كانت تضحك في حين أن آلافاً من أمثال ليزا وايفون كن يحتضرن في المعسكرات . لكنها كانت قصة قديمـــة ، مخيفة جيداً وراء الستار المناسب الذي يخلط بين الماضي ، والغياب والعدم . أما الآن فهو يرى . لقد كان الماضي حاضراً : انه حاضر .

« حبي العزيز » . كان الضابط يكتب بفرنسية مدروسة ، معترضـة بجمل المانية صغيرة ؛ جمل صغيرة عاطفية . يبدو انه كان أحمق جداً ، عاشقاً جداً ، وحزيناً جداً . كانت قد أحبته ، ولقد مات ، ولا بد انهـــا بكت كثيراً . لكنها ضحكت ايضاً ، بالطبع . لكم ضحكت !

وحزم هنري الرزمة من جديد والقاهـــا في درج اغلقه بالمفتاح . « غـداً سأحرقها » . اما الآن ، فعليه ان ينهي مقاله . وتناول قلمه من جديد . سوف

يتكلم عن العدالة ، عن الحقيقة ، ويحتج ضد الجرائم والتعذيب . وقال في نفسه بقوة : « يجب ذلك » . وإذا استنكف عن فعل ما عليه ان يفعله ، فسوف يتضاعف ذنبه . ومهما ظن بنفسه ، فهناك اولئك البشر ، بعيداً ، الذين عليه ان يحاول انقاذهم .

واشتغل حتى الساعة الحادية عشرة مساء ، دون ان يأخذ وقته للعشاء . بل انه لم يكن جائعاً . وكما في كل مساء ، ذهب ليصحب جوزيت عند خروجها من المسرح ، وانتظرها في سيارته . كانت ترتدي معطفاً رمادياً ، بلون الضباب ، وكان ماكياجها كثير التكلف ، وكانت جميلة جداً . وجلست الى جانبه ، ووضعت حولها بعناية الغيمة التي كانت تدثرها . وسألت :

– ماما تقول ان كل شيء تم على ما يرام : هذا صحيح ؟

فقال :

– نعم ، كوني مطمئنة ، لقد احرقت جميع الاوراق .

– هذا صحيح ؟

– صحيح .

– ولن يشكوا في انك كذبت ؟

– لا اظن .

فقالت جوزيت :

– ما أشد ما كان خوفي طوال اليوم ! انني أكاد انهار . عد بي الى شقتي .

– طيب .

وجرت بهما السيارة في صمت نحو شارع غابرييل . ووضعت جوزيت يدها على خصرها : « أأنت الذي احرق الاوراق ؟ » .

– نعم .

– أنظرت اليها ؟

– نعم .

فقالت بصوت قلق :

– ماذا كان فيها على الضبط ؟ يقيناً ليس فيهـا صور شنيعة لي . لم تؤخذ لي صور شنيعة قط .

فقال في نصف ابتسامة :

– لا اعرف ما تدعينه صوراً شنيعة . كنت مع الضابط الالمـــاني وكنت جميلة جداً .

فلم تجب بشيء . كانت هي هي ، جوزيت . ولكنه كان يرى من خلالهـــا الفتاة الجميلة المرحة جداً التي كانت تضحك في صورة ، لامبالية بجميع المصائب. ومن الآن فصاعداً ، ستكون ابداً بينهما .

وأوقف السيارة وتبع جوزيت حتى باب البناية وقـال : « لن اصعد . انا ايضاً متعب ولدي أشياء كثيرة يجب ان انجزها » .

ففتحت عينين كبيرتين مذعورتين : « ألا تصعد ؟ » .

– كلا .

فقالت :

– انت غاضب ؟ في اليوم السابق قلت لا ، لكنك الآن غاضب ؟

– لست غاضباً . لقد احبك ذلك الشخص واحببته ، ولقد كنت حرة . »

وهز كتفيه : « لعلها الغيرة : لست راغباً في الصعود هذا المساء » .

فقالت جوزيت :

– كما تشاء .

وابتسمت له بحزن وضغطت على الزر . وحين اختفت ، لبث مليـاً ينظر الى كوة الباب المضاءة . نعم ربما كانت الغيرة ، لا اكثر: كان من المستحيل عليه هذا المساء ان يأخذها بين ذراعيه . وقال : « انني لست عادلاً » . لكن العدالة لم يكن لها دخل هنا ، والمرء لا ينام مع امرأة بداعي العدالة . وابتعد .

احتفظ لامبير بوجه المقطب ، حين دعاه هنري في اليوم التالي للعشاء وقال: « آسف ، عندي موعد » .

ـ وغداً ؟

ـ غداً أيضاً . عندي مواعيد طوال هذا الاسبوع .

فقال هنري :

ـ اذن ، لنؤجلها الى الاسبوع القادم .

من المستحيل ان يشرح للامبير لمَ لم يدعُـه قبل هذا الوقت . لكن هنري قرر بعد بضعة ايام ان يكرر الدعوة : وسوف يتأثر لامبير حتماً بهذا الالحاح . كان يرتقي درج الجريدة وهو يقلب في فمـه خطبة قصيرة مقنعة حين صادف سيزوناك ، فقال بمودة :

ـ آه ! انت ! إلامَ صرت إليه ؟

فقال سيزوناك :

ـ لا شيء خاصاً .

كان قد ازداد بدانة ، وكان أقل جمالاً بكثير مما كان عليه . وقال هنري :

ـ ألا تصعد من جديد دقيقة واحدة ؟ منذ قرون لم نتقابل .

فقال سيزوناك :

ـ ليس اليوم .

وفجأة ، هبط الدرج . وارتقى هنري الدرجات الاخيرة . كان لامبير ، في الرواق ، مستنداً الى الحائط كأنه ينتظره . فقال هنري :

ـ لقد صادفت سيزوناك . هل رأيته ؟

ـ نعم .

فسأله هنري وهو يدفع باب مكتبه :

ـ أتراه احياناً ؟ إلامَ صار إليه ؟

فقال لامبير بصوت غريب :

ـ اعتقد انه جاسوس للبوليس .

فنظر إليه هنري في دهشة : كان ثمة بخار يتصاعد من جبهته .

ـ ما الذي يدفعك الى هذا الاعتقاد ؟

– اشياء قالها لي .

فقال هنري :

– مدمن مخدرات بحاجة الى مال : بديهي أنـه من النوع الذي يمكن ان يشترى كجاسوس . » واضاف في فضول : « ما روى لك ؟ » .

فقال لامبير :

– لقد اقترح عليّ شركاً عجيبة . فقد وعدني بأن يسلمني الانذال الذين قتلوا ابي مقابل بعض المعلومات .

– اي معلومات ؟

فنظر لامبير الى هنري في عينيه : « معلومات عنك » .

وأحس هنري بتشنج في جوف معدته وقال بصوت مدهوش :

– ماذا يمكن للبوليس ان يهمه مني ؟

– انها تهم سيزوناك . » لم تكن نظرة لامبير لتترك هنري : « يبدو انك شهدت قبـل أيام في صالح شخص يدعى مرسييه ، شخص كان يعمل في السوق السوداء في ناحيـة ليون ويتردد على آل بيلوم . لقد زعمت انه كان يعمل في ١٩٤٣–١٩٤٤ في شبكتنا ، وانه رافقك الى لاسوتورين في ٢٣ شباط ١٩٤٤ » .

فقال هنري :

– هذا صحيح . ثم ؟

فقال لامبير بصوت منتصر :

– انك لم تلتق قط بمرسييه قبل الشهر الاخير هذا . سيزوناك يعرف ذلك ، وانا ايضاً . كنت اتبعك كظلك ، في تلك السنة : لم يكن هناك وجود لمرسييه . ولقد تم سفرك الى لاسوتورين في ٢٩ شباط ، وكان من المقرر ان ارافقك ولكن الموعد فاتني ، فاصطحبت شاسيل .

فقال هنري :

– انك لمخلوع تماماً ! » كان يشعر باستنكار شديد كما لو ان لامبير قـد شك فيه ظلماً : « لقد قمت برحلتين الى لاسوتورين ، الاولى مع مرسييه الذي لم يكن

يعرفه احد غيري » وأضاف بصوت غاضب : « انت لا تستحق ان اجاوبك : لأنك ، بمجمل القول ، تتهمني بشهادة زور ، ليس الا ذاك ! » .

فقال لامبير :

– في ٢٣ كنت في باريس ، كل شيء مسجل في مذكراتي ، سوف التحقق ، لكني اعرف انك لم تقم الا برحلة واحدة ، لقد تناقشنا في ذلك بما فيه الكفاية. لا ، لا ترو لي قصصاً . الحقيقة هي ان مرسييه مسيطر على آل بيلوم بطريقة او اخرى ، ولكي تنقذ تينك الموصومتين ، بيّضت صفحة جاسوس للجستابو !

فقال هنري :

– لو قالها غيرك ، لحطمت فكه ! اخرج من هذا المكتب حالاً ، ولا تضع قدميك فيه ثانية .

فقال لامبير :

– انتظر ! لدي كلمة اخرى اريد ان اقولها لك . انني لم أتخلَ عن شيء لسيزوناك : الا انني اقسم لك انني كنت ارغب في ان يتكلم . » وتابع : « انني لم اتخلّ له عن شيء. ولهذا اشعر الآن انني بريء الذمة . انني أستعيد حريتي!».

فقال هنري :

– منذ زمن طويل وانت تنتظر ذريعة ! وقد انتهى بك الأمر الى اختراع واحدة : اهنئك !

فقال لامبير :

– لم اخترع شيئاً ! » واضاف : « يا إلهي ! لكم كنت حماراً ! كنت اظنك شريفاً ، منزهاً ، الى حد لا يقاس ! كان ذلك يخجلني ! كنت أتخيل أن عليّ ان اكون مخلصاً تجاهك . أتتكلم عن الاخلاص ! انت تحكم على جميع الناس : الكن هذه الطريقة كغيرها لا تخنق الوساوس » .

ومضى نحو الباب في كبرياء عظيمة حتى ان هنري رغب تقريباًفي الابتسام. كان غضبه قد تبخر . ولم يعد يشعر الا بقلق مبهم. أيتفاهم معه بصراحة؟ كلا، فلامبير عـــديم الاستقرار ، سريع التأثر . لقد رفض اليوم ان يزود سيزوناك

بمعلومات ، لكن اعترافاً ما يمكن ان يصبح بين يديه او يدي فولانج خطيراً في الغد . عليه ان ينكر : فالخطر كبير بما فيه الكفايـة على هذا النحو . وفكر هنري : « ان سيزوناك يبحث عن أدلة ضدي ، انه يعلم انه يستطيع بيعها غالياً » . لم يكن دوبروي قد سمع عن مرسييه قط ، وربما كان يذكر ان هنري كان في باريس في ٢٣ شباط ١٩٤٤ . واذا اخذه سيزوناك على حين غرة ، فانه لن يرى أي داعٍ لتحريف الحقيقة . « يجب ان اخطره » . لكن هنري كان ينفر من ان يطلب منه تواطؤاً قبل ان يحاول على الأقل ان يتصالح معه . وعلى كل ، انه لا يستطيع ان يفكر بالاعتراف له بالحقيقة . كان ذلك غريباً ، وكان يقول في نفسه : « اذا كان لا بد ان اعاود ، فسوف اعاود » . ومع ذلك ، لم يكن ليتحمل ان يطلع غيره على ما فعل ، اذ سيشعر آنذاك بالخجل . ولن يشعر ابداً انه معذور مـا دام أمره لم يُكتشف : الى متى ؟ وكرر في نفسه : « انني في خطر » . وكان غيره في خطر : فانسان . حتى لو لم تكن عصابته هي التي نفذت الموت بالشيخ ، فان سيزوناك يعرف الكثير عنه . يجب ان يخطره . وكان يجب ان يذهب فوراً لرؤية لوك الذي كان في بيته يشكو من نوبة نقرس ، ويحرر معه رسالة استقالة . كان لوك ينتظر أزمة منذ زمن طويل ، ولن يذهل كثيراً دون ريب . ونهض هنري وفكر : « لن اجلس بعد اليوم الى هـذه الطاولة . لقد انتهى الأمر ، ان « الأمل » لم تعد لي ! » . كان آسفاً على تخليه عن الحملة التي بدأها عن احداث مدغسقر : لا شك في ان الآخرين سيغرقون السمكة . لكنه ، باستثناء ذلك ، كان أقل تأثراً مما كان يظن . وقال في نفسه في ابهام ، وهو يهبط الدرج : « انهـا الدية » . دية ماذا ؟ كونـه نام مع جوزيت ؟ كونه أراد انقاذها ؟ كونه زعم انه يحتفظ بحياته الخاصة في حين ان العمل يتطلب الانسان كله ؟ كونه عاند في العمل في حين انه لم يقف عليه نفسه بدون تحفظ ؟ لم يكن يعرف . وحتى لو عرف ، فان ذلك ما كان ليغير من الحال شيئاً .

أوصى هنري بواب الفندق في الليلة التي طبعت فيها الطابعة رسالة استقالته: « غداً ، لست هنا بالنسبة لأي انسان ، لا اقبل لا زيارات ولا مكالمات هاتفية » ودفع بدون مرح باب غرفته : لم يكن قد نام ثانية مع جوزيت ، ولم يكن يبدو عليها انها اهتمت لذلك كثيراً ، وكان ذلك حسناً جداً . لكن هذا لا يمنع ان هذا السرير الذي ينام عليه هنري بمفرده كان يبدو له صارماً مثل سرير في مستشفى . ما اطيب ان يمزج وسنه بوسن جسد آخر كله دفء ، كله ثقة : انه ليستيقظ مغتذياً . اما الآن فهو يشعر بالفراغ في نفسه عند اليقظة . ووجد مشقة في النوم . كان متعباً سلفاً من كل التعليقات التي ستثيرها استقالته .

واستيقظ في ساعة متأخرة . كان قد انهى تسريح شعره حين حملت اليه بطاقة هوائية : ووجب قلبه حين تعرف خط دوبروي . « لقد قرأت رسالة وداعك « الأمل » . حقاً ، إنه لمن العبث ألا يدل موقفنا الا على خلافاتنا في حين ان الكثير من الاشياء تقرّب بيننا . أما بخصوصي ، فإنني صديقك دوماً». وكانت هناك ملاحظة : « اود ان اكلمك في اقرب فرصة ممكنة بخصوص شخص يريد بك شراً » ولبثت عينا هنري ، طويلاً ، شاخصتين الى السطور الزرق – السود . كان قد فكر بأن يكتب : ولكن دوبروي هو الذي فعل ذلك . كان بإمكانه ان يتهم كرمه بأنه كبرياء . ولكن هذا معناه عندئذ ان الكبرياء عنده فضيلة كريمة . وقال هنري في نفسه : « سأذهب اليه فوراً » . وخيل اليه أنه قد أُطلق في صدره جيش من النمل الأحمر . ماذا قال سيزوناك ؟ اذا كان قد ولّد لدى دوبروي شكوكاً ، فكيف يكذب بكل تلك الحماسة ليبيدها ؟ لم يكن اوان الكذب قد فات بدون ريب ما دام دوبروي يعرض عليه صداقته ، لكن من الفظاعة ان يرد على مثل هذا العرض باستغلال للثقة . ولكن ماذا يفعل غير ذلك ! حتى دوبروي سيبدي استنكاره اذا اعترف له ، وسيشعر هنري عندئذ انه على خطأ . وركب سيارته . ولأول مرة ، كان يثقل عليه ان يكون لديه سر : فهذا يقتضي ان تخدع الغير او تخون نفسك ، ولا تعود الصداقة ممكنة . وتردد ملياً امام باب دوبروي دون ان يزمع على قرع

الجرس .

وفتحه له دوبروي باسماً ، وقال بلهجة طبيعية ومهتمة ، وكان لديهما اشياء هامة يبحثانها بعد غياب وجيز :

— لكم انا مسرور برؤيتك !

فقال هنري :

— انما انا المسرور . عندما استلمت كلمتك ، سرني ذلك كثيراً . » ودخلا الى المكتب واضاف : « لقد فكرت غالباً بالكتابة اليك » .

فقاطعه دوبروي ، وسأل : « ماذا حدث ؟ أتخلى عنك لامبير ! » .

كان الفضول القديم يلمع في عينيه ، عينيه الكاسرتين والذكيتين اللتين لم تتغيرا . وقال هنري :

— منذ اشهر وسامازيل وتراريو يريدان ان ينتقلا الى معسكر الديغولية . وقد سار معهما لامبير اخيراً .

فقال دوبروي :

— يا للنذل الصغير !

فقال هنري بحرج :

— إن له اعذاره .

وجلس على المقعد المعتاد واشعل كالعادة سيجارة . عليه ان يحتفظ بأعذار لامبير الحقيقية سرية . لم يكن دوبروي قد تغير ، ولا المكتب ولا الطقوس ، لكنه هو لم يعد كما كان . فقد كان من الممكن في الماضي ان يسلخ جلده ، وتشرح جثته ، دونما دهشة : اما الآن فهو يخفي تحت جلده ورماً معيباً . وقال بسرعة :

— لقد تخاصمنا وتركت صبره ينفذ .

فقال دوبروي :

— كان لا بد ان ينتهي الأمر هكذا ! » واخذ يضحك : « حسناً . لقد تم الأمر . فقد مات « الاشتراكي الثوري الحر » ، وسرقت منك جريدتك : وها

نحن قد عدنا الى نقطة الصفر » .

فقال هنري :

— انها غلطتي .

فقال دوبروي بحدة :

— انها ليست غلطة احد . » وفتح خزانة : « لدي آرمانياك حسن جداً ، أتريد منه ؟ » .

— بسرور .

وملأ دوبروي كأسين صغيرتين وناول هنري احداهما . وتبادلا الابتسام ، وسأل هنري :

— ألا تزال آن في أميركا ؟

— ستعود بعد اسبوعين . » واضاف دوبروي بمرح : « لكم ستسر . كانت ترى ان خصامنا احمق !

فقال هنري :

— حقاً انه لكذلك .

كان يود لو يتكلم ، فقد كان يبدو له ان هذا الخصام لن يصفّى حقاً إلا إذا بحثاه بقلب مفتوح. وكان على أتم استعداد للأعتراف بأخطائه. ولكن دوبروي حوّل الحديث من جديد :

— قيل لي ان بول شُفيت . أهذا صحيح ؟

— على ما يبدو . انها لم تعد تود ان تراني وهـذا يسرني . سوف تقيم لدى كلودي دي بلزونس .

فقال دوبروي :

— بمجمل القول ، انك حر كالهواء ! ما تنوي ان تفعل ؟

— سأنهي روايتي . اما الباقي ، فلا اعرف . لقد تم كل مـا حدث في سرعة كبيرة ، انني لا أزال مدوخاً .

— ألا يلذ لك التفكير بأنه سيتاح لك اخيراً وقت حر ؟

فهز هنري كتفيه : « ليس بشكل خاص . سيأتي ذلك دون شك . اما الآن ، فلست املك إلا تأنيبات الضمير » .

فقال دوبروي :

– انني لأتساءل حقاً لماذا !

فقال هنري :

– مهما قلت ، فإنني المسؤول عن كل ما حصل . لو لم اعانه ، لاشتريت حصة لامبير ، ولكانت « الأمل » ولكان « الاشتراكي الثوري الحر » حياً .

فقال دوبروي :

– كان « الاشتراكي الثوري الحر » هالكاً على كل الأحوال . « الأمل » ، اجل ، ربما كان امكننا ان ننقذها : ثم ماذا ؟ ان نقاوم كلا المعسكرين ، ان نبقى مستقلين ، هذا ما حاولته ايضاً في « الطواريء » : لكنني لا ارى ما يفيد ذلك .

فتفرس هنري في وجه دوبروي بحيرة . هل يحاول تبرئة هنري بداعي المجاملة ؟ ام انه يريد ان يتجنب ان تناقش تصرفاته الخاصة ؟ وقال هنري :

– أتعتقد ان « الاشتراكي الثوري الحر » لم تعد له فرصة منذ تشرين الاول؟

فقال دوبروي بصوت عنيف :

– اعتقد انه لم تكن له اي فرص قط .

كلا ، انه لا يتكلم هكذا بداعي المجاملة : كان مقتنعاً واحس هنري بالارتباك. كان يود كثيراً لو يشعر انه ليس مسؤولاً بشيء عن فشل « الاشتراكي الثوري الحر » ، ومع ذلك فقد أحرجه تصريح دوبروي هذا . كان دوبروي يلاحظ ، في كتابه ، عجز المثقفين الفرنسيين . لكن هنري لم يفترض انه يعطي استنتاجاته مدى خلفياً . وسأل :

– منذ متى تعتقد ذلك ؟

– منذ زمن بعيد . » وهز دوبروي كتفيه : « منذ البداية كانت المباراة قائمة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . وقد كنا خارج اللعبة » .

فقال هنري :

ـ الا ان ما كنت تقوله لم يكن يبدو لي خاطئاً الى هذا الحد . كان لأوروبا دور تلعبه ولفرنسا دور في اوروبا .

ـ كان ذلك خاطئاً . كنـــا محاصرين . » واضاف دوبروي بصوت نافد الصبر : » اخيراً ، افهم ذلك ، اي وزن كان لنا ؟ لا شيء البتة » .

نهائياً ، انه لا يزال هو هو . انه يرغمك بدون رحمـة على اتباعه ثم يتركك فجأة لينقضّ في اتجاه جديد . غالباً ما قال هنري في نفسه : « نحن لا نستطيع شيئاً » . لكن كان يحرجه ان يؤكد دوبروي ذلك بهذا القدر من القوة . وقال: « لقد عرفنا دوماً اننا لسنا إلا أقلية . لكنك كنت تقرّ بأن الأقلية يمكن ان تكون فعّالة » .

فقال دوبروي : « في بعض الحالات ، وليس في هـــذه الحالة » . واخـذ يتكلم بسرعة كبيرة ، من الواضح ان قلبه مثقل منذ زمن بعيد : « المقاومـة ، رائع ، كانت تكفيها قبضة من الرجال . فكل ما كنا نريده ، في النهايـة ، هو ان نزرع الاضطراب . اضطراب ، تخريب ، مقاومة ، انها مسألة تستطيعهـــا أقلية . لقد اعتقدنا انه ليس علينا الا ان نستفيد من اندفاعنا : مع انه كانت هناك قطيعة جذرية بين فترة الاحتلال ، والفترة التي تلت التحرير . كان رفض التعاون يتعلق بنا ، اما البقية فلم تكن تخصنا » .

فقال هنري :

ـ هذا يخصنا على كل حـــال قليلاً . » كان يفهم جيداً لمَ يزعم دوبروي العكس . فهو لا يريد ان يفكر بأنه كانت له امكانيات للعمل فأساء استغلالها : كان يفضل ان يتهم نفسه بخطـأ في الحكم على ان يعترف بفشل . لكن هنري ظل مقتنعاً أن المستقبل كان لا يزال مفتوحاً في عـام ١٩٤٥ : وهو لم يعمل في السياسة للذته الخاصة . فقد شعر بالبداهة بأن ما كان يجري حوله يخصه . وقال: « لقد أخطأنا ضربتنا ، وهذا لا يثبت اننا كنا على خطأ بمحاولتها » .

فقال دوبروي :

– اوه ! اننا لم نسبب سوءاً لأحـد ، والأفضل ان نهتم بالسياسة من ان نسكر ، فهذا على الأقل أنسب للصحة . الا ان هذا لا يمنع انه قد غُرر بنـا تغريراً جميلاً ! حين نعاود قراءة ما كنا نكتبـه بين ١٩٤٤ – ١٩٤٥ ، تأخذنا الرغبة في الضحك . جرِّب ذلك ، ترَ !

فقال هنري :

– افترض اننا كنا متفائلين أكثر مما ينبغي . هذا مفهوم ...

فقال دوبروي :

– انني امنح لأنفسنا الظروف المخففة التي تريدها كافة ! نجاح المقاومـة ، فرح التحرير ، هـذا يعذرنا اوسع معذرة . كان الصواب ينتصر ، والمستقبل موعوداً للرجال ذوي الإرادة الطيبة . ولم نكن ، بمثاليتنا العتيقة ، لنطلب غير الايمان بذلك . » وهز كتفيه : « لقد كنا اطفالاً » .

فسكت هنري . كان حريصاً على هذا الماضي : كما يحرص المرء ، بالضبط ، على ذكريات الطفولة . أجل ، ان ذلك الزمن الذي يميز فيه المرء دون تردد اصدقاءه من اعدائه ، والخير من الشر ، ذلك الزمن الذي تكون فيه الحيـاة بسيطة بساطة الصور ، ليشبه حقاً الطفولة . وكان نفوره بالذات من انكار ذلك يعطي دوبروي الحق . وسأل :

– برأيك ، ماذا كان علينا ان نفعل ؟ » وابتسم : « ان نتسجل في الحزب الشيوعي ؟ » .

فقال دوبروي :

– كلا . كما قالت لي ذات يوم ، اننا لا نستطيع ان نمنع أنفسنا ان نفكر فيه : من المستحيل ان نخرج من جلدنا . ولو انتسبنـا الى الحزب ، لكنـا شيوعيين رديئين جداً . » واضاف على حين غرة : وبالأصل ، ماذا يفعلون ؟ لا شيء البتة . كانوا محاصرين هم أيضاً » .

– اذن ؟

– إذن لا شيء . لم يكن هناك شيء يفعل .

وملأ هنري كأسه من جديـد . ربما كان دوبروي على حق ، لكنها إذن لمهزلة . ورأى هنري من جديد ذلك النهـار الربيعي الذي كان يتأمل فيه بجنين الصيادين بالصنارة ، وكان يقول لنـادين : « ليس لدي الوقت » . لم يكن لديه وقت قط : اشياء كثيرة دوماً عليه ان يفعلها . وفي الحقيقة لم يكن هناك مـا يفعل .

– خسارة الا نكون قد تبيّنا ذلك قبل الآن . كنا تجنبنا ازعاجات كثيرة .

فقال دوبروي :

– لم يكن بامكاننا ان نتبين ذلك في وقت ابكر ! ان نقبل بأننا ننتمي الى امة من الدرجة الخامسة ، والى عصر بالٍ : ان هذا لا يتم في يوم واحد . » وهز برأسه : « لا بد من جهد جهيد للاستسلام للعجز » .

ونظر هنري الى دوبروي في إعجاب . يا للشعوذة الجميلة ! لم يحدث ثمـة من فشل ، بل مجرد خطأ . وحتى الخطأ نفسه كان مبرراً ، وبالتالي لاغياً . كان الماضي واضحاً مثل عظمـــة سبيدج ، وكان دوبروي ضحيـــة مطلقة للقدر التاريخي . أجل : حسناً ! لم يكن هنري يجد ذلك مرضياً البتة . لم يكن يحب ان يفكر بأنه غُرِّر به من أول هذه القضية الى آخرها . لكم ثارت في ضميره من مماحكات ، وشكوك ، وتحمسات ، في حين ان دوبروي يعتقد ان كل شيء كان معداً سلفاً . كان يتساءل غالباً من هو . وها هو الجواب يأتيه : كان مثقفـاً فرنسياً اسكره نصر ١٩٤٤ وقادتـه الاحداث الوعي الصاحي للاجدواه . وقال :

– ها أنت قد اصبحت قدرياً !

– كلا . انني لا اقول ان العمل بشكل عام مستحيل . انـه مستحيل في اللحظة الراهنة ، بالنسبة لنا .

فقال هنري :

– لقد قرأت كتابك . مجمل القول ، انك تعتقد اننا لا نستطيع ان نفعل شيئاً الا اذا مشينا بصراحة مع الشيوعيين .

– أجل . ليس ذلك لأن وضعهم يحسدون عليه ، بل لأنه لا يوجد في الواقع شيء خارجهم .

– ومع ذلك انت لا تمشي معهم ؟

فقال دوبروي :

– انني لا استطيع ان اعيد تكوين نفسي . ان ثورتهم بعيدة اكثر من اللازم عن الثورة التي كنت آملها في الماضي . كنت مخطئاً ، ولا يكفي لسوء الحظ ان يتبين المرء اخطاءه لينقلب فجأة الى شخص آخر . انت شاب ، وربما كنت قادراً على القفز : ليس انا .

فقال هنري :

– اوه ! منذ زمن بعيد لم تعد بي رغبة ، انا ، في ان أتدخل بشيء . انني اود ان انسحب إلى الريف ، او بل ان اغادر البلاد الى الخارج ، واكتب . » وابتسم : « برأيك ، ألم يعد لنا الحق حتى في الكتابة ؟ » .

فابتسم دوبروي بدوره : « ربما بالغت قليلاً . فالأدب ، بعد كل شيء ، ليس خطراً الى هذا الحد » .

– لكنك ترى انه لم يعد له معنى ؟

فسأل دوبروي :

– أترى ان له معنى ؟

– نعم ، ما دمت اتابع الكتابة .

– ليس هذا بسبب .

فنظر هنري الى دوبروي في شك : « أما زلت تكتب ام لم تعد تكتب؟» .

فقال دوبروي :

– ان المرء لا يشفى من هوسه اذا اثبت انه ليس له معنى . ولولا ذلك لكانت مصحات الامراض العقلية خاوية .

فقال هنري :

– آه ! طيب . انك لم تتوصل الى اقناع نفسك : انني افضل هذا .

فقال دوبروي في ظاهر من خبث :

– ربما توصلت الى ذلك ذات يوم . . » وحوّل الموضوع عن عمد : «قل اذن، كنت اريد ان احذرك : لقد تلقيت زيارة غريبة امس . الصغير سيزوناك . لا ادري ما فعلت له ، لكنه لا يريد بك خيراً » .

فقال هنري :

– لقد طردته من « الأمل » منذ زمن بعيد .

فقال دوبروي :

– لقد بدأ بطرح مجموعة من الاسئلة علي لا ذنب لها ولا رأس : هل اعرف شخصاً يدعى مرسييه ، هل كنتَ في باريس في احد ايام ١٩٤٤ ، لست ادري. وانا اولاً لا أتذكر ثم ما يعنيه هذا ؟ وصرفته في شبه جفاء ، وعندئذ اخذ يخترع قصة تنيم الواقف .

– عني ؟

– اجل . انه مولع بالكذب ، ذاك الغلام الصغير . يمكنه ان يكون خطراً. لقد روى انك أدليت بشهادة زور لتبيض صفحة جاسوس للجستابو . وأنك طاوعتهم ، عن طريق الصغيرة بيلوم. يجب منعه من اشاعة امثال هذه القصص.

وفهم هنري ، وقد سكن روعه ، من لهجة دوبروي انه لم يفترض لحظة واحدة ان سيزوناك قال الحقيقة . ويكفي الآن ان يلقي بعبارة لامبالية ، ويسوى الحادث . لكنه لم يكن يجد العبارة . ونظر اليه دوبروي في شيء من الفضول :

– أكنت تعرف انه يكرهك الى هذا الحد ؟

فقال هنري :

– انه لا يكرهني بشكل خاص . » واضاف على حين غرة : « الواقع ان قصته صحيحة » .

فقال دوبروي :

– آه ! أهي صحيحة ؟

فقال هنري :

– اجل . » لقد شعر فجأة بالمذلة من فكرة الكذب . فبعد كل شيء ، ما دام يتدبر أمره مع الحقيقة ، فليس على الآخرين ان يمثلوا دور المشمئزين : إن ما هو بصالحه لهو بصالحهم ايضاً . وتابع في شيء من التحدي : « لقد ادليت بشهادة زور لأنقذ جوزيت التي نامت مع ألماني » . واضاف : « انت الذي غالباً ما وبخني على اخلاقيتي ، انك لترى انني اتقدم » .

فسأل دوبروي :

– إذن ، صحيح ان مرسييه كان جاسوساً ؟

فقال هنري :

– صحيح . كان يستحق كل الاستحقاق ان يُعدم . » ونظر الى دوبروي : « انت ترى انني ارتكبت نذالة ؟ لكني لم اكن اريد ان تضيع حياة جوزيت . فلو فتحت الغاز ، لما غفرت ذلك لنفسي ابداً . في حين انني اعترف ان وجود مرسييه آخر او عدم وجوده على الارض لا يمنعني من النوم » .

فتردد دوبروي وقال : « ان عدم وجوده لافضل على كل حال من وجوده » .

فقال هنري :

– بديهي . لكني واثق ان جوزيت كانت انتحرت . » وسأل في احتداد : « هل كنت استطيع ان ادعها تموت ؟ » .

فقال هنري :

– لقد قررت فوراً تقريباً . وهز كتفيه : « انا لا اقول انني فخور بما فعلت » .

فقال دوبروي في حدة مفاجئة :

– أتعرف ما تثبت ، هذه القصة ؟ ان الاخلاق الفردية لا وجود لها . وهذا شيء آخر من تلك الاشياء التي آمنا بها وليس لها اي معنى .

فقال هنري :

– هل تعتقد ؟ » نهائياً ، انه لا يحب هذا النوع من العزاء الذي يتعلل له به دوبروي اليوم . وتابع : « لقد وجدت نفسي محاصراً ، هـــذا صحيح . ففي ذلك الحين ، لم يكن لي الخيار . لكن مـــا كان ليحدث شيء لو لم تكن لي تلك العلاقة بجوزيت . أعتقد ان الغلطة انما هي كامنة هنا » .

فقال دوبروي في نوع من نفاد الصبر :

– آه ! اننـــا لا نستطيع ان نرفض لأنفسنا كل شيء . ان الزهد لشيء حسن اذا كان تلقائياً ، ولكن لا بد لذلك من ان يكون لنا مسرات إيجابيـــة اخرى : وليس لدينا الكثير منهـــا ، في العالم بوضعه الراهن . سأقول لك : لو لم تنم مع جوزيت ، لأسفت أسفاً كان سيقودك الى ارتكاب حماقات اخرى .

فقال هنري :

– إن هذا لممكن .

فقال دوبروي :

– اننا لا نستطيع ان نستخرج من سطح منحنٍ خطـــاً مستقيماً . ونحن لا نستطيع ان نعيش حياة صحيحة في مجتمع ليس صحيحاً . اننا نلدغ من جديـــد دوماً ، من هذا الجانب او ذاك . » وختم كلامـــه : « وهم آخر يجب ان نتخلص منه . ليس ثمة من سلام شخصي ممكن » .

فنظر هنري الى دوبروي في تردد : « إذن ماذا تبقّى لنا ؟ » .

فقال دوبروي :

– ليس شيئاً كبيراً ، على ما اظن .

وساد صمت . لم يكن هنري يشعر انه قنع بهذا الغفران المعمم ، وقـــال : « ما كنت اود ان اعرفه ، هو ماذا كنت فعلت مكاني ؟ » .

فقال دوبروي :

– لا استطيع ان اقول لك ، لانني لم اكـــن مكانك » واضاف : « يجب لذلك ان تروي كل شيء لي بالتفصيل » .

فقال هنري : « سأروي لك كل شيء » .

الفصل العاشر

أقلعت الطائرة من « غاندر » الى باريس دون توقف ، فوصلت قبل ساعتين من موعدها . وتركت حقائبي في محطة « الانفاليد » وركبت الاوتوبيس . كان فجراً رمادياً ، مقفراً ، وكان قدومي السري ، في الوقت الذي يعتقدونني فيه بعيدة جداً بين الغيوم ، أشبه بتطفل . كان ثمة رجل يكنس الرصيف امام باب بناية لا يزال مقفلاً ، ولم تكن علب القاذورات قد أُفرغت بعد : ورحت أتنزه قبل ان ينصب الديكور ويتبرج الممثلون. بديهي انني لست دخيلة حين اعود الى حياتي الخاصة : ومع ذلك ، بينما كنت افتح واغلق بهدوء باب الشقة كي لا أوقظ نادين ، كانت حركاتي الخفية توحي إليّ بشعور مبهم من الزلل والخطر . ما من صوت في مكتب روبير . وأدرت القبضة الخزفية : فرفع رأسه فوراً تقريباً ، ودفع مقعده مبتسماً ، وطوقني بذراعيه :

– يا حيواني الصغير المسكين ! أتأتين هكذا بمفردك ! كنت ذاهباً لآتي بك.

فقلت :

– لقد وصلت الطائرة قبل ساعتين من موعدها . » وقبّلت خديه اللذين اساء حلاقتهما . كان في البرنس ، بديناً ، منتفخ العينين من الأرق : « أاشتغلت طوال الليل ؟ هذا مؤذٍ » .

– كنت اريد ان انهي شيئاً ما قبل عودتك . أكانت رحلتك مريحة ؟ ألست متعبة ؟

– لقد نمت طوال الوقت . وانت ؟ عندما لا تكون عليك مراقبة ، لا

تكون حكيماً البتة .

تحدثنا بمرح ، لكن حين دخل روبير الى غرفة الحمام ، وجدت من جديد ذلك الصمت الذي خنقني لحظة لمحته من فرجة الباب محني الرأس، وهو يكتب، بعيداً عني للغاية . اي امتلاء في هذا المكتب لم اكن فيه ! كان الهواء مشبعاً بالدخان ، والعمل . كانت فكرة كلية القدرة تجمع هنا على رغبتها ، الماضي ، المستقبل ، العالم اجمع : كان كل شيء حاضراً ، وليس ثمة من غياب . كانت صورتي على احد الرفوف تبتسم ، صورة قديمة ولن تزداد قدماً ابداً . كانت في مكانها . لكن روبير اضطر الى العمل طوال الليل ليفسح لي مكاناً في ايامه المليئة الطافحة . وكان ثمة شيء لم ينهه لأنني عدت قبل الأوان . ونهضت . ان المرء ليكتشف ، ايام العودة والرحيل ، اكتشافات اكثر حقيقة من الحقيقة اليومية ، اعرف ذلك . ولكن مهما عرفنا ، مهما تفادينا جميع الفخاخ ، فلا بد ان نسقط فيها ببلادة ؛ إلا انه لم يعد يكفيني ان اقول هذا الكلام لأخرج منها : انني لن اخرج . ولكم كانت غرفتي خاوية ! ولقد ظلت خاوية ايضاً بينما كنت احوم بلا يقين بين النافذة والأريكة . كان ثمة بريد على طاولتي . كان ثمة اناس يسألونني متى سأعيد فتح عيادتي . وكانت بول قد خرجت من المصح ، وهي تدعوني لرؤيتها . ولاحظت ان كتابتها اقل طفولية من الماضي وانها لم تعد تقع في اخطاء إملائية . وكانت ثمة كلمة من ماردروس تؤكد لي انها شفيت . وذهبت لأعانق نادين التي استقبلتني بتسامح . كان لديها الف قصة ترويها لي ووعدتها بسهرتي . روبير ، نادين ، اصدقاء ، عمل : ومع ذلك فقد بقيت ساكنة في الرواق ، أتساءل في ذهول : « ماذا افعل هنا ؟ » .

وقال روبير :

— كنت تنتظرينني ؟ انا مستعد .

كنت مسرورة من مغادرة هذه الشقة ، من التنزه في الشوارع التي لم تكن لا مليئة ولا مقفرة . الارصفة ، مصانع غوبلان ، ساحة ايطاليا : لقد سرنا طويلاً ونحن نتوقف هنا وهناك وعلى أسطحة المقاهي، وتناولنا الطعام في مطعم حديقة

مونسوري .

كان روبير قد شعر انني راغبة عن الكلام وكانت لديه اشياء كثيرة يرويها لي : وكان يروي . كان اكثر مرحاً مما كان عليه قبل سفري : وليس ذلك لأن الموقف الدولي يبدو له لامعاً ، بل لأنه عاد الى تذوق حياته . كانت مصالحته مع هنري عظيمة الاهمية عنده . وقد اثار كتابه صدى كبيراً حتى انه ، رغم كل منطق ، شرع في غيره . وكان العمل السياسي لا يزال مستحيلاً . لكنه ما كان ليتخلى عن التفكير به . بل كان يشعر انه اخذ الآن يفهم الأمور على حقيقتها الى حد ما . وكنت اصغي اليه . كانت حيويته عظيمة حتى انه فرض علي ذلك الماضي الذي كان يحدثني عنه : كان ماضيّ ، ولم يكن لي غيره ، ولا اي مستقبل آخر غير المستقبل الذي يبشر به . عما قريب سأرى هنري ثانية ، وسأكون عظيمة السعادة بذلك ، انا ايضاً . وتلك الرسائل التي تلقاها روبير بخصوص كتابه ، سأقرأها معه وشيكاً وسأتلهى بها او أتأثر مثله . وسأتمتع مثله بالسفر الى ايطاليا ، عما قريب .

وسألني :

– الا يضجرك ان تسافري من جديد ، بعد كل تلك الاسفار ؟

– مطلقاً . ليست بي اي رغبة في البقاء بباريس .

كنت انظر الى الارض المعشوشبة ، الى البحيرة ، الى طيور السمّ . ذات يوم ، عما قريب ، سأحب باريس من جديد . ستحدث لي متاعب ، مسرات ، ايثارات ، وستنبجس حياتي من الضباب ، حياتي هنا ، حياتي الحقيقية ، وسوف تشغلني كلي . وشرعت في الكلام فجأة ، كان ينبغي عليّ ان اؤكد انه واقعي هو ايضاً ، ذلك العالم الذي يفصلني عنه محيط ، ليل . وسردت اسبوعي الأخير . لكن الكلام كان اسوأ ايضاً من التزام الصمت . وشعرت ، كما في السنة الماضية ، انني مذنبة ، بشكل كريه . كان روبير يفهم كل شيء ، كل الفهم . هناك ، كان ليويس يستيقظ في غرفة اجتاحها غيابي ، وكان ساكتاً لم يعد له احد . كان وحيداً ، ومعه في سريره ، بين ذراعيه ، مكاني الخاوي . ما من شيء سيكفر

عن اسف هذا الصباح : فالألم الذي اسببه له غير قابل للتكفير عنه .

وحين عدنا ، مساء ، قالت لي نادين :

– لقد تلفنت بول لتعرف هل انت هنا .

فقال روبير :

– انها المرة الثالثة . يجب ان تذهبي لرؤيتها .

– سأذهب غداً . وأضفت : « ماردروس يؤكد انهـــا شفيت . لكن ألا تعرفان كيف حالتها ؟ حقاً ؟ ألم يرها هنري ثانية ؟

فقالت نادين :

– كلا .

وقال روبير :

– ما كان ماردروس ليتركها تخرج لو لم تشفَ حقاً .

فقلت :

– هناك شفاء وشفاء .

وقبل ان انام ، تحادثت طويلاً مع نادين . انهـا تخرج من جديد مع هنري ، وكانت راضية جداً بذلك . واغرقتني بالاسئلة . وفي اليوم التالي ، تلفنت لبول لأخطرها بزيارتي : كان صوتها موجزاً وهادئاً . ومضيت في العـاشرة مساء نحو ذلك الشارع الذي كان يبدو لي مأساوياً جـداً ، في الشتاء المنصرم ، واخذتني الحيرة من مظهره المطمئن . كانت النوافذ مفتوحة على عذوبـــة المساء ، وأناس يتنادون من منزل لآخر ، وفتـاة صغيرة تقفز بالحبل . وتحت لافتـــة « غرف مفروشة » ضغطت على زر وفتح الباب ، بشكل عادي . عادي أكثر مما ينبغي. ما الفائدة إذن من ذلك الهذيان ، من ذلك التقطيب ، إذا كان كل شيء قد عـاد الى سابق نظامه ، اذا كان العقل والروتين قد انتصرا ؟ ومـا الفائدة إذن من تأنيب ضميري المهووسة اذا كان عليّ ذات يوم ان استيقظ في اللامبالاة ؟ كنت اتمنى تقريباً ان ارى بول تظهر على عتبة الاستديو ، حاقدة ، شاردة .

لكني استقبلت من قبل امرأة باسمة بدينة ترتدي ثوباً اسود انيقاً . واعادت

لي قبلتي بدون اندفاع وبدون تحمس . كانت الغرفة في أتم نظام ، وقد بدلت المرايا ، وكانت النوافذ ، لأول مرة منذ سنوات ، مفتوحة على مصاريعها .

– كيف حالك ؟ لقد قمتِ برحلة حلوة . انهـا لجميلة هـذه البلوزة : هل اشتريتها من هناك .

– نعم . من مكسيكو . انهـا لتعجبك تلك البلاد . » ووضعت رزمة بين ذراعيها : » إليك ! لقد أتيتك بأقمشة » .

– ما ألطفك ! » ونزعت الخيط ، وفتحت علبة الكرتون : « يا للألوان الرائعة ! » .

وبينما كانت تبسط الانسجة الموشاة ، اقتربت من النافذة . ولمحت ، كالعادة ، نوتر دام وحدائقها : من خلال ستار من حرير مصفر وعتيق ، عنـاد الحجارة الثقيل . وعلى طول الافريز ، كانت صناديق العجائب مقفلة ، وثمـة موسيقى عربية تعلو من المقهى المجاور ، وكلب ينبح ، وبول قد شفيت . كان مساء . قديماً جداً : ولم اكن قد التقيت بليويس قط . لم يكن ممكناً ان افتقده .

وقالت بول :

– يجب ان تحدثيني عن تلك البلاد . ستروين لي كل شيء . لكن لنذهب من هنا : سآخذك الى مقهـى مسلٍ جداً « الملاك الاسود » ، لقـد افتتح حديثاً وتجدين فيه جميع الناس .

فسألت بشيء من الخوف :

– من تعنين بجميع الناس ؟

فرددت بول :

– جميع الناس . انه ليس بعيداً . سنذهب اليه على اقدامنا .

– موافقة .

وقالت بول ونحن نهبط الدرج :

– أترين ، قبل ستة اشهر كنت تساءلت فوراً : لمَ قالت : « من تعنين ؟ » ووجدت كمية من الاجوبة .

فابتسمت في شيء من الجهد : « أأنت آسفة ؟ » .

– ستكون هذه مبالغة . لكنك لا تستطيعين ان تتصوري كم كان العـالم غنياً ، في ذلك الحين . كان لأبسط الاشياء عشرة آلاف وجـه . كنت تساءلت عن احمر تنورتك . اليك ، هذا المتشرد ، كنت حسبته عشرين شخصاً في آن واحد .

كان ثمة نوع من الحنين في صوتها .

– اذن ، فالعالم ، الآن ، يبدو لك مسطحاً بالاحرى ؟

فقالت بلهجة قاطعة :

– اوه ! البتة . انني راضية من انني املك تلك التجربة ورائي ، هـذا كل شيء . لكني اعدك بأن وجودي لن يكون مسطحاً . انني ادبر بالمشاريع .

– اسرعي بإخباري عنها !

فقالت :

– اولاً سأترك ذلك الاستديو ، انه يسئمني . لقد اقترحت عليّ كلودي ان اقيم عندها ولقد قبلت . وقررت ان اصبح مشهورة . اريد ان اخرج ، اسافر ، أتعرّف الى الناس ، اريد المجد والحب . !اريد ان اعيش .

لقد فاهت بهذه الكلمات الاخيرة بلهجة فخمة ، وكأنهـا تلفظ نذوراً . وسألت :

– أتفكرين بالغناء ، ام بالكتابة ؟

– بالكتابـة . لكن ليس من نوع السذاجات التي أريتك اياهـا . كتاب حقيقي ، سأتكلم فيه عن نفسي . لقد فكرت فيه كثيراً حتى الآن . لن يكون فيه شيء يعجب ، لكني اعتقد انه سيثير ضجة .

فقلت :

– اجل ، لديك اشياء كثيرة تقولينها . يجب ان تقوليها !

لقد تكلمت بحرارة . لكني كنت متشككة . لقد شفيت بول ، دون ادنى ريب ، لكن صوتها ، حركاتها ، ايماءاتهـا كانت توحي اليّ بالحرج نفسه الذي

توحي به تلك الوجوه الكاذبة الشباب التي يعاد تفصيلها من جلود قديمة . ربما كانت ستمثل حتى موتها دور امرأة عادية، لكن هذا عمل لا يهيئها مطلقاً للصدق مع النفس .

وقالت بول :

ـ هنا المكان .

ونزلنا الى كهف دافىء ورطب كغابة شيشن اتزا . كان يعج بالضجيج ، بالدخان ، وبصبيان وبنات في ثياب العمل ، ليسوا في سننا اطلاقاً . واختارت بول طاولة معرضة للانظار كافة قرب الاوركسترا وطلبت في ابهة كأسين من الوسكي مضاعفتين . ولم يكن يبدو عليها انها تشعر بأننا لسنا في مكاننا مطلقاً . وقالت :

ـ لا اريد ان اعاود الغناء انا لا اقول انني اصبحت بعقدة نقص ، فأنا اعرف انه اذا لم تعد لي جميع الاوراق الرابحة التي كنت أتمتع بها في الماضي ، من الناحية الجسدية ، فإنني املك غيرها . كل ما هنالك أن مهنة المغنية تتعلق بأناس كثيرين . » ونظرت إلي بمرح : « كنت على حق ، حول هذه النقطة . إن التبعية لكريهة . انني اريد نشاطاً رجولياً » .

فهززت رأسي . انها لم تعد تتمتع، برأيي ، بأي من الصفات الضرورية لأسر انتباه الجمهور ومن الافضل لها ان تحاول اي شيء آخر . وسألت :

ـ اتفكرين بوضع قصتك في قالب رواية ، ام انك سترويها كما هي ؟

فقالت :

ـ انني حالياً ابحث عن شكل ، شكل جديد . اي بالضبط ما لم ينجح هنري قط في اكتشافه . ان رواياته كلاسيكية الى حد مميت .

وافرغت كأسها بجرعة واحدة : « لقد كانت تلك الأزمة قاسية . لكن لو تعرفين اي فرح شعرت به حين وجدت نفسي اخيراً ! » .

كنت اود ان اقول لها شيئاً ما عطوفاً ، إنني مسرورة برؤيتها ، سعيدة ، أو اي شيء آخر . لكن الكلمات كانت تتجمد على شفتي . كان هذا الصوت

العنيد وهذا الوجه الصارم هما اللذين يجمدانني . كانت بول تبدو لي اكثر غرابة منهـــا حين كانت مجنونة . وقلت بارتباك : « لا بـــد انك اجتزت اوقاتاً عصيبة ! » .

– بالأحرى ! » ونظرت حولها في نوع من الدهشة : « في بعض الأيام ، كان كل شيء يبدو لي هزلياً جداً ! وكنت اضحك حتى الموت. وفي احيان اخرى ، كانت الفظاعة . لا بد انهم ألبسوني ثوب المصح بالقوة » .

– هل صدموك صدمات كهربائية ؟

– نعم . كنت في حالة غريبة جداً حتى انني آنذاك لم اشعر بخوف . لكني في ليلة ماضية ، حلمت بأنهم يطلقون طلقـــة مسدس على صدغي وشعرت من جديد بألم لا يطاق . ولقد قال ماردروس انها كانت ذكرى بدون ريب .

فقلت بلهجة غير اكيدة :

– انه لطبيبٌ ماردروس ، أليس كذلك ؟

فقالت بول بحدة :

– ماردروس ! انه لرجل عظيم ! غريب ، بأي ثقة وجد مفتـــاح كل تلك القصة . واضافت : « يجب ان اقول انني ، من جهتي ، قد قاومت قليلاً » .

– هل انتهى ، ذلك التحليل ؟

– ليس تماماً ، لكن الشيء الاساسي تم .

لم اكن اجرؤ على طرح سؤال ، لكنها تابعت من نفسها : « ألم احدثك قط عن اخي ؟ » .

– ابداً . لم اكن اعرف ان لك اخاً .

– لقد مات في الشهر الخامس عشر ، وكنت في عـــامي الرابع . من السهل ان تفهمي لماذا اتخذ حبي لهنري طابعاً مرضياً فوراً .

فقلت :

– كان هنري يصغرك بسنتين او ثلاث على الأقل .

– تماماً . لقد وَلّدتْ غيرتي الطفولية عند موت اخي شعوراً بالذنب يفسر

مازوشيتي تجاه هنري . لقد جعلت من نفسي عبدة هذا الرجل ، وقبلت ان التخلي من اجله عن كل نجاح شخصي ، واخترت الظلمة ، التبعية : كي أفتدي نفسي . كي يقبل اخي الميت ، من خلاله ، ان يغفر لي . » وأخذت تضحك : « فكّري اني جعلت منه بطلاً ، قديساً ! انني لأضحك احياناً من ذلك بمفردي ! » .

فسألت :

– هل رأيته ثانية ؟

فقالت باندفاع :

– آه ! كلا ! ولن أراه . لقد استغل الموقف .

ولزمت الصمت . انني اعرف جيداً نوع التغير الذي لجأ اليه ماردروس ، وانا استخدمه بنفسي ، عند المناسبة ، واقدره حق قدره . نعم، كي يمكن انقاذ بول كان لا بد ان يهدم حبها حتى في الماضي . لكني رحت أفكر بتلك الجراثيم التي لا تمكن ابادتها الا باتلاف العضو الذي تفترسه . لقد مات هنري بالنسبة لبول ، لكنها ماتت هي الأخرى . انني لا أتعرف هذه المرأة الضخمة المبللة الوجه بالعرق ، ذات العينين البقريتين ، التي تجرع الوسكي بجانبي . ونظرت إليّ بثبات ، وقالت :

– وانتِ ؟

– انا ؟

– ماذا فعلت في أميركا ؟

فترددت . ثم قلت : « لا ادري ان كنت تذكرين . لقد قلت لك انه كانت لي قصة هناك » .

– اذكر . مع كاتب اميركي . أرأيته ثانية ؟

– لقد امضيت هذه الشهور الثلاثة معه .

– أتحبينه ؟

– أجل .

– ماذا ستفعلين ؟

– سأعود لرؤيته في الصيف القادم .

– ثم ؟

فهززت كتفي . بأي حق تطرح عليّ هذه الاسئلة التي أتمنى بيأس كبير ان اجهل أجـــوبتها ؟ واسندت ذقنها الى قبضتها المطبقة وزادت نظرتها إلحاحاً .

– لماذا لا تعيدين تكوين حياتك معه ؟

فقلت :

– ليست بي اية رغبة في اعادة تكوين حياتي .

– الا انك تحبينه ؟

– اجل لكن حياتي هنا .

فقالت بول :

– انت التي تقررين ذلك . لا شيء يمنعـــك من اعادة تكوينها في مكان آخر .

فقلت باستياء :

– تعرفين ما يمثله روبير لي .

فقالت بول :

– اعرف انك تتصورين انك لا تستطيعين الاستغناء عنه . لكني اجهل من اين تأتي سيطرته هذه عليك : وانت تجهلين ذلك ايضاً .» كانت تتابع التحديق فيّ : « ألم تفكري قط بتحليل نفسك من جديد ؟ » .

– كلا .

– أتخافين ؟

فهززت كتفي : « مطلقاً . لكن ما الفائدة ؟ » .

يقيناً ، ان تحليلاً ما يمكنه ان يعلمني عن نفسي كمية من الاشياء الصغـيرة ، لكني لا أعرف ما يمكن ان يفيدني ذلك.ولو زعم انه يذهب الى ابعد من ذلك ، لتمردت . ان عواطفي ليست أمراضاً .

وقالت بول بلهجة متألمة :

— لديك الكثير من العقد .

— ربما . لكن ما دامت لا تزعجني ...

— لن تسمحي ابداً بأن تزعجك : هذا بالضبط جزء من عقدك . ان تبعيتك تجاه روبير متأتية من عقدة . انا واثقة ان التحليل سيخلصك .

فأخذت أضحك : « لمَ تريدين اذن ان اهجر روبير ؟ » .

كان النادل قد وضع أمامنا كأسين اخريين من الوسكي ، وافرغت بول نصف كأسها وقالت :

— ليس هناك شيء يضر كالحياة في ظل مجـد ، فهو مدعاة للذبول . يجب عليك انت ايضاً ان تجـدي نفسك بنفسك . » وقالت فجأة وهي تومىء الى كأسي : « اشربي إذن » .

فقلت :

— الا تعتقدين اننا نشرب اكثر مما ينبغي ؟

فقالت :

— لماذا اكثر مما ينبغي ؟

بالفعل ، لماذا ؟ انني احب كثيراً انا ايضاً الضجة التي يثـيرها الكحول في دمي . ان الجسد لشيء منطبق تماماً ، بل انه لضيق ، ولكم أتمنى ان أفتـق الخيوط . انها لا تفتق لكني اتوهم أحياناً انني سأقفز من جـلدي . وشربت مع بول . وقالت بقوة :

— ما من رجل يستحق العبـادة التي يتطلبونها منا ، ما من رجـل ! انت ايضاً ، انك لمخـدوعة . اعطي روبير ورقـاً ووقتاً للكتابة : فلا ينقصه بعد ذلك شيء .

كانت تتكلم بصوت عالٍ ليعلو صوتها على فرقعة الاوركسترا ، وكان يخيل إلي ان الأنظار تتجه نحونا في دهشة . ولحسن الحظ كان معظم الناس يرقصون ، تائهين في سعير جليدي .

وتمتمت في سخط : « إنني لا أبقى مع روبير بداعي الاخلاص » .

فقالت :

– إذا كان ذلك بداعي العادة ، فحسب ، فليس هذا بأفضل . اننا اصغر سناً من ان نرضخ . » كان صوتها يتحمس وعيناها تعومان في الضباب : « سآخذ بثأري . انت لا تستطيعين ان تتصوري ما أعظم سعادتي ! » .

كانت الدموع تخط أخاديد ثقيلة في جلدها الرطب . وكانت تتجاهلها . ربما كانت قد ذرفت كثيراً حتى ان جلدها فقد حساسيته . وكانت بي رغبة في البكاء معها على ذلك الحب الذي كان خلال عشرة أعوام معنى حياتها وكبريائها والذي انقلب الى قرحة مخجلة . وشربت جرعة من الوسكي وشددت على كأسي في يدي وكأنه تعويذة ، وكنت أقول في نفسي : « اجدر بي ان اتألم حتى الموت من ان انثر في الريح وانا اقهقه رماد ماضيّ » .

وقرعت كأسي الصحن بعنف . وفكرت : « انا ايضاً ، سأنتهي الى هنا ! قد يقهقه المرء كثيراً أو قليلاً ، لكنه ينتهي دوماً هكذا ، ولا يستطيع ان ينقذ ابداً الماضي كله . انني أريد نفسي وفية لروبير ، اذن فهو ليويس الذي ستخونه ذكرياتي ذات يوم . سوف يقتلني الغياب في قلبه وسوف أدفنه في أعماق ذاكرتي » كانت بول تتابع الكلام ولم أعد أصغي مطلقاً : « لمَ كان هو ليويس الذي حكمت عليه ؟ » . لقد أجبته : « كلا » ، وفي الوقت نفسه كان اي جواب آخر يبدو لي غير معقول . لكن لمَ اذن ؟ لقد قالت بول : « اعطي روبير ورقاً ووقتاً ، فلا ينقصه شيء » . كنت أرى ثانية ذلك المكتب، العظيم الامتلاء بدوني. لقد أردت، بعض الأحيان ، في العام المتصرم مثلا ان امنح نفسي أهمية . ولكني حتى في هذه الحال كنت أعرف انني لا أمثل لروبير اي مساعدة،في جميع الميادين التي لها أهميتها عنده.فقد كان دوماً وحيداً ، امام مشاكله الحقيقية . هناك كان ثمة رجل جائع إلي : وكان لي مكاني بين ذراعيه ، مكاني الذي لا يزال فارغاً : لماذا ؟ كنت حريصة على روبير بكل قواي ، وكنت على استعداد لوهب حياتي من اجله لكنه لم يكن يسألني

اياها ، وفي الحقيقة انه لم يطلب مني شيئاً قط . ولم يكن الفرح الذي يأتيني به حضوره يتعلق بأحد غيري ان ابقى أو ان اهجره : ان قراري هـذا لا يتعلق بأحدٍ غيري . وأفرغت كأسي . ان اقيم في شيكاغو ، وان آتي الى هنـــا بين الحين والحين : لم يكن ذلك مستحيلاً للغـــاية ، بعد كل شيء ، سوف يبتسم لي روبير عند كل قدوم وكأننا لم نفترق قط ، وربما لن يتبين انني ما عدت اتنشق الهواء نفسه الذي يتنشقــه . اي طعم من تأنيب الضمير والعبث ، لا يُحتمل على الاطلاق .

وعدت في ساعة متأخرة جداً ، وكنت قد شربت كثيراً ، ونمت نومـــاً سيئاً . وبينما كنا نتناول افطارنا : نظر إلي روبير نظرة صارمة :

– وجهك متعب !

– لم انم جيداً . ولقد شربت اكثر مما ينبغي .

وجاء من خلف كرسيّ ووضع يديه على كتفي : « أآسفة على عودتك ؟ ».

فقلت :

– لا ادري . احياناً يخيل إليّ أن من العبث الا اكون حيث يحتـــاج إلي احدهم ، حاجة حقيقية ، كما لم يحتج إلي احد قط . وأنا لست هناك .

– هل تعتقدين انك تستطيعين الحياة هناك ، بعيداً كهذا البعـــد عن كل شيء ؟ هل تعتقدين انك ستكونين سعيدة ؟

فقلت :

– لو لم تكن موجوداً ، لحاولت . يقيناً كنت حاولت .

وانفصلت اليدان عن كتفي وخطـــا روبير بضع خطوات ونظر إليّ في ارتباك : « لن تعود لك مهنة ، ولا اصدقاء ، وستحاطين بأناس لا يشاطرونك اهتماماتك ، ولا يتكلمون لغتك ، وستنفصلين عن ماضيك كله ، وعن كل مـــا له أهمية عندك ... لا اعتقد انك ستتحملين طويلاً » .

فقلت :

– ربما لا .

اجل ، ان حياتي مع ليويس ستكون ضيقة جداً . ولن استطيع ، وانا الغريبة ، المجهولة ، ان اصنع لنفسي وجوداً شخصياً ولا ان امتزج بذلك البلد الكبير الذي لن يكون بلدي قط . انني لن اكون الا عاشقة مضمومه الى صدر من يعشقها . لم اكن اشعر انني قادرة على ان اعيش من اجل الحب فقط . ولكن كم كنت اتعب يومياً من القائي عن كاهلي عبء يوم تافه لم اكن فيه مطلوبة من احد ! ولم يجبني روبير بأنه بحاجة إلي . لم يقل لي ذلك قط . كل ما هنالك ، انني لم أكن أطرح اسئلة في الماضي . ولم تكن حياتي ضرورية ولا مجانية : كانت حياتي . اما الآن فقد كان ليويس يسألني : « لماذا لا تبقين ، دوماً . لماذا ؟ » . ولقد اجبت انا التي اخذت على نفسها الا تخيب أمله ابداً : « كلا » . كان يجب ان ابرر هذا الرفض ، ولم اكن أجد تبريراً . لماذا ؟ لماذا ؟ كان صوته يقفو اثري . وفكرت منتفضة : « لكن ما من شيء لا يمكن اصلاحه ! » . ان ليويس لا يزال حياً ، وانا كذلك . ونستطيع ان نتكلم عبر المحيط . وكان وعد بأن يبدأ هو بالكتابة لي ، خلال اسبوع . وإذا كان لا يزال يناديني في رسالته ، اذا ما كانت لتأسفاته نبرة نداء ، فسوف اجد القوة لأتخلى عن الأطمئنان القديم . وسوف اجيب : « نعم ، انني قادمة . انني قادمة لأبقى الى جانبك ما اردت الاحتفاظ بي » .

ووضعت انا وروبير مخطط رحلتنا ، وقمت بحسابات دقيقة وأبرقت الى ليويس ان يوجه رسالته الى شباك البريد ، في « آمالفي » : طوال اثني عشر يوماً سيكون قدري معلقاً . وفي اثني عشر يوماً ربما قررت ان اجازف بجنون في مستقبل مجهول ، او سأستقر من جديد في الغياب ، في الانتظار . اما الآن فلم اكن هنا ولا هناك ، لم اكن نفسي ولا انساناً آخر ، لم اكن إلا آلة لقتل الوقت ، الوقت الذي يموت عادة بسرعة كبيرة ولا يكف عن الاحتضار . وركبنا طائرة ، وسيارات ، ومراكب ، ورأيت من جديد نابولي ، وكابري وبومباي ، واكتشفنا هركولانوم ، وايشيا . وكنت اتبع روبير ، وكان يثير اهتمامي ما يثير اهتمامه ، وكنت أتذكر ذكرياته . لكن ما ان كان يتركني وحيدة ،

فأي بلادة ! كنت بشق النفس اتظاهر بالقراءة او بتأمل الديكور القائم هناك. وكنت ، بعض الأحيان ، ابعث من العدم ، في دقة شيزوفرينية ، وصولي الى شيكاغو ، وليلة شيشكاستينانغو ، ووداعنا . وفي اغلب الاحيان كنت انام ، بل انني لم انم بهذا القدر قط .

احب روبير ايشيا ، وتأخرنا فيها ووصلنا الى آمالفي بعد ثلاثة ايام من الموعد المنتظر . وكنت اقول في نفسي وانا انزل من السيارة : « انني ، على الأقل ، مطمئنة ، فالرسالة هنا » . وتركت روبير وحقائبنا في الساحة وسرت نحو البريد وانا أحاول الا اركض . وكان ذلك المركز ، كسائر مراكز البريد ، يفوح برائحة الغبار ، والصمغ ، والسأم . لم يكن الجو مضيئاً ، ولا معتماً ، وكان المستخدمون لا يكادون يتحركون في اقفاصهم . ولقد كان ذاك المكان فعلاً من الامكنة التي تتكرر فيها الايام على طول السنة والحركات نفسها طوال اليوم دون ان يقع شيء ابداً . كنت لا استطيع ان افهم ان يخفق قلبي حتى ليكاد ينفطر بينما كنت اقف في الصف امام الشباك . ومزقت احدى الصبايا مغلفا وحركت ابتسامة كبيرة وجهها وشجعني ذلك . واظهرت جواز سفري في سيماء من تحريض . ونظر المستخدم بازدراء الى الصناديق المصفوفة وراءه ، وتناول من احدها رزمة فتصفحها وناولني مغلفاً : رسالة من نادين . فقلت :

— توجد رسالة أخرى .

— لا يوجد غيرها .

كانت رسالة نادين تثبت ان مركز البريد يعمل ، ان الرسائل تصل عندما ترسل . وألححت :

— اعرف ان هناك غيرها .

وبابتسامة ايطالية لطيفة ، وضع الرزمة امامي : « انظري بنفسك » .

دينال ، دولنكور ، ديبو . وعدت الى الوراء ، ونقبت في الرزمة من أ الى ي . هذه الرسائل كلها ! ثمة منها ما تنتظر منذ أسابيع ولا يطالب بها احد : لمَ كانت اي مساومة مستحيلة ؟ اي مقايضة ؟ وقلت في يأس :

– وفي الصندوق د ، ألا يوجد شيء باسمي ؟

– جميع الرسائل الموجهة الى اجانب موجودة في هذه الرزمة .

– انظر على كل حال .

فنظر وهز رأسه : « كلا ، لا شيء » .

وخرجت من البريد ، ولبثت على الرصيف ، خاوية الوفاض . يا للشعبذة الفظة ! لم أعد مطمئنة الى الأرض تحت قدمي ، ولا الى التقويم ولا الى اسمي الخاص . لقد كتب ليويس ، والرسائل تصل ، اذن لا بد ان تكون رسالته هنا : ولم تكن موجودة . كان الأوان أبكر من ان ابرق : « بدون اخبار ، قلقة » ، ابكر من أن أذوب بكاء ، ولم تكن المشكلة بعد كل شيء الا مشكلة تأخر عادي ، لا يترك لي سبيلاً الى يأس واسع . لقد اخطأت الحساب ، هذا كل شيء : ان الخطأ في الحساب نادراً ما يؤدي الى الموت . ومع ذلك بينما كنت اتناول العشاء مع روبير على سطح مزهر يطل على البحر ، لم اكن حية بشكل مؤكد . كان يحدثني عن نادين التي كانت تخرج باستمرار مع هنري ، وكنت اجيب ، ونحتسي نبيذ رافيلو ، وكان على العنوان رجل ذو شارب يبتسم. كانت فوانيس قوارب الصيد تلمع في البحر . وكانت حولنا رائحة قوية من نباتات عاشقة ، ولم يكن ينقص شيء ، في اي مكان ، الا سطور سود على ورقة صفراء ، كانت ستشير الى غياب ، غيابُ غيابٍ : حقاً انه ليس بشيء ، الا انه يلتهم كل شيء .

ووصلت الرسالة في اليوم التالي . كان ليويس يكتب من نيويورك . لقد اقام ناشروه حفلة كبيرة على شرف كتابه ، وهو يرى الكثير من الناس ، ويلهو كثيراً . اوه ! انه لم ينسني ، انه مرح ، انه حنون . لكن من المستحيل ان اقرأ بين سطوره اي نداء . وجلست فوق سطح مقهى ، مواجه البريد ، على شاطىء البحر . كانت فتيات في دراعات زرقاء ، وقبعات مستديرة يلعبن على الشاطىء ، ونظرت اليهن ملياً ، خاوية القلب . لقد كان ليويس ، طوال خمسة عشر يوماً ، يتناولني ، وكان وجهه يراوح بين التأنيب والحب ، وكان يضمني

يه ، ويقول : « لم احبك قط بهذا القدر » . كان يقول : «عودي » . وكان في نيويورك ، مع وجه مجهول ، وابتسامات لا توجه إليّ ، حقيقياً حقيقية هـذا الرجل الذي يمر . لم يكن يطلب إليّ العودة . ترى ألا يزال يتمنى عودتي . كان يكفي هذا الشك لينتزع مني القوة على ارادة ذلك . سوف انتظر ، كما في العام المنصرم ، الا انني لم اعد اعرف لمَ حكمت على نفسي بمكاره الانتظار .

وكانت هناك رسائل اخرى في باليرمـا ، وسيراقوزة . كان ليويس يبعث برسالة كل اسبوع ، كما في الماضي . وكانت كلها تنتهي كما في الماضي بهذه الكلمة : « Love [1] » ، التي تقول كل شيء ولا تعني شيئاً . ترى الا تزال كلمة حب ، ام انها اكثر الصيغ ابتذالاً ؟ لقد كان حنان ليويس رزيناً جـداً دوماً حتى انني لم اكن اعرف كم استطيع ان اعزو الى رزانته . في الماضي ، حين كنت اقرأ الجمل التي يخترعها من اجلي ، كنت اجد من جديد ذراعيه ، فمه : فهل هي غلطته ام غلطتي اذا كانت قد كفّت عن بعث الدفء في نفسي؟ كانت شمس صقلية تشوي جلدي ، لكن البرد كان لا يزال مخيماً في داخـلي . كنت اجلس في شرفتي او ارقد على الرمل ، وانظر الى السماء الملتهبة ، والبحر ، وارتعد . كنت في بعض الايام اكره البحر . كان رتيباً ولا نهائياً كالغياب . كانت مياهه شديدة الزرقة حتى انها كانت تبدو لي محلاة بالسكر . وكنت اغمض عيني او اهرب .

حين عدت الى باريس ، الى بيتي ، حيث كانت تنتظرني اشياء علي ان افعلها ، فكرت : « يجب ان اعود الى نفسي » . ان اعود الى نفسي ، كما يعود المرء الى صنع مرقة فاسدة : هذا ممكن الصنع . علي ان اتراجع ، ان انظر الى همومي ، الى متاعبي ، بغمزة عين هاوٍ . سأكون جالسة الى جانب روبير وسنكون قـد تحدثنا . او سأكون قد احتسيت الوسكي مع بول مفتوحـة القلب . وعلى كل ، كنت قادرة على تعلم الامثولة بنفسي . لم يكن ليويس في وجودي الا مرحـلة جعلتني الظروف اعلق عليها قيمة باهظة . وبعد سنوات من الامتناع ، اكون قد تمنيت حباً جديداً ، اذ انني لم أستثر هذا الحب الاخير الا عن عمـد . ولقد

---

١ – اي حب بالانكليزية . « المترجم » .

بالغت في الحماسة له لأنني كنت اعرف ان حياتي كأمراة تشرف على نهايتها . لكني كنت استطيع في الحقيقة ان استغني عنه . واذا ما انفصل ليويس عني ، فسوف اعود بسهولة الى تقشفي القديم ، او سوف ابحث عن عشاق آخرين ، وهم يقولون جميعاً انك لواجد اذا بحثت . لقد كانت غلطتي هي انني ابالغ في الجدية التي انظر بها الى جسدي : كنت بحاجة الى تحليل يعلمني السيرة الطليقة . آه ! من الصعب ان يتألم المرء دون ان يخون . لقد حاولت مرة او اثنتين ان اقول في نفسي : « ستنتهي هذه القصة ذات يوم وسأجد ذكرى جميلة ورائي ، فالأجدر بي أن آخذ موقفي من الآن » . لكني تمردت . يا للمهزلة المضحكة ! ان ازعم انني امسك بقصتنا بين يدي وحدي : هذا يعني انني استبدل ليويس بصورة ، انني احول نفسي الى شبح وماضينا الى ذكريات شاحبة . ان حبنا ليس قصة استطيع ان استأصلها من حياتي لأرويها لنفسي . انه موجود خارجاً عني ، اننا نحمله انا وليويس معاً . ولا يكفي ان اغمض عيني لألغي الشمس : فأن انفي هذا الحب ، فهذا يعني فقط انني اتعامى . كلا . انني ارفض التفكير الحذر ، الوحدة الكاذبة وتعازيها الشحيحة . وفهمت ان هذا الرفض لهو مداجاة ايضاً : فأنا في الحقيقة لا اسيطر على قلبي . كنت عاجزة امام هذا القلق الذي يستولي عليّ في كل مرة افض فيها رسالة من ليويس . وما كانت خطاباتي الحكيمة لتردم هذا الفراغ في داخلي . كنت بدون ملجأ .

يا له من انتظار طويل ! احد عشر شهراً ، تسعة اشهر ولا يزال بيننا دوماً القدر نفسه من الارض والماء واللايقين . وحل الخريف محل الصيف . وها هي نادين جاءت تقول لي في يوم من ايام تشرين الاول :

– لديّ خبر اخبرك به .

كان في عينيها مزيج مقلق من التحدي والاضطراب .

– ماذا إذن ؟

– انني حبلى .

– أمتأكدة ؟

– كل التأكد . لقد رأيت طبيباً .

وتفرست في وجه نادين . كانت تعرف كيف تحمي نفسها وكان في نظرتها بصيص من نور هازىء . وقلت : « أفعلت ذلك عمداً ؟ » .

فقالت :

– وبعد ؟ أهي جريمة إذا اردت طفلاً ؟

– أأنت حبلى من هنري ؟

فقالت ساخرة :

– افترض ذلك ، ما دمت انام معه .

– وهو موافق ؟

– انه لا يعرف بعد .

فألححت : « لكنه يتمنى طفلاً ؟ » .

فترددت : « لم اسأله » .

وساد صمت وقلت : « اذن ماذا تزمعين عمله ؟ » .

– ماذا تريدين ان افعل بطفل ؟ فطائر صغيرة ؟

– اعني : أتزمعين الزواج من هنري ؟

– هذا يخصه .

– لكن لك فكرتك .

– فكرتي ، هي ان يكون لدي طفل . اما الباقي ، فلست اطلب شيئاً من انسان .

لم تكن نادين قد اطلعتني قط على الرغبة في الامومة هذه . أهو سوء النية الذي يوحي إليّ بأنها تمنت على عن طريق هذه المناورة ان ترغم هنري على الزواج منها ؟ وقلت :

– سوف تضطرين الى الطلب . فلمدة من الزمن على الاقل ، سيتوجب على والدك او على هنري ان يتحملا هذا العبء .

فأخذت تضحك في ظاهر من تنازل عابث : « هيا ، اعطيني نصيحة . انني

اری جیداً انك تموتين رغبة في ذلك » .

– ستلومينني عليها طويلاً .

– قولي على كل حال .

– لا تقترحي على هنري ان يتزوجك دون ان تكوني واثقة من انــه راغب في ذلك حقاً . اعني ان يكون راغباً بشكل اناني ، من اجل ذاته ، وليس فقط من اجل الطفل ومن اجلك . وبدون ذلك ، سيكون زواجاً تعيساً .

فقالت بأحدّ صوت لها :

– لن اقترح عليه شيئاً ، لكن من قال لك انه ليس راغباً في ذلك ؟ يقيناً ، إذا سألت رجلاً هل يرغب في طفل، تملكه الخوف . لكن عندما يوجد الطفل، فإنه يُسر . وانا ارى ان الزواج سيفيد هنري كثيراً ، وكذلك ان يكون له بيت . ان الحياة البوهيمية اصبحت شيئاً بالياً .

وتوقفت ، لاهثة الانفاس . وقلت :

– لقد سألتني نصيحة ، فأعطيتك اياهـا . إذا كنت تعتقدين باخلاص ان الزواج لن يثقل على هنري ولا عليك ، فتزوجا .

كنت اشك في ان تستطيع نادين الحصول على السعادة داخل حياة منزلية . كنت لا اتوصل الى رؤيتها منهمكة كل الانهماك في وقف نفسهـا على زوج وعلى طفل . وإذا ما تزوجها هنري بداعي الواجب ، أفلن يحقد عليهـا لذلك ؟ لم اكن اجرؤ على سؤاله . وكان هو الذي اقترح خلوة . ففي ذات مساء ، بدل ان يدخل كالعادة الى مكتب روبير ، قرع باب غرفتي : « ألا ازعجك ؟ » .

– كلا .

وجلس على الاريكة وسأل عابثاً : « أعلى هذه تقومين بعملك ؟ » .

– نعم . أتريد ان تجرب ؟

فقال :

– من يدري ؟ انني بحاجة لأن تشرحي لي لماذا أشعر بنفسي إنساناً طبيعياً الى حد موئس : هذا مريب ، اليس كذلك ؟

فقلت بطلاقة كبيرة حتى انه نظر اليّ في شيء من الدهشة :

— ليس هناك ادعى للريبة من هذا !

فقال بمرح :

— اذن ، يجب علي حقاً ان اعالج نفسي . » واضاف : « لكن ليس عن ذلك كنت اريد ان اكلمك » . وابتسم : « لقد جئت الى حد ما اسألك يد ابنتك » .

فابتسمت بدوري : « أستكون زوجاً صالحاً ؟ » .

— سأبذل جهدي . أترتابين بي ؟

فترددت ، وقلت بصراحة : « إذا كنت تتزوج فقط لأن الزواج يسوي امر نادين ، فانني ارتاب قليلاً » .

فقال :

— انني افهم ما تقصدينه . لا تخافي . لقد اخذت من قصة بول درساً . كلا . انني اولاً مولع بنادين . ثم ربما كنت سأدهشك ، انني اعتقد ان بي نزعة لأن اكون رب اسرة .

فقلت :

— انك لتدهشني قليلاً .

— الا ان ذلك صحيح . لقد فوجئت من ذلك بنفسي ، لكن عندما اعلمتني نادين انها حامل خفق قلبي بشكل غريب . انني اسبب لنفسي مشقه كبيرة لأصنع كتباً ينتقدها الجميع ، او مسرحيات تثير استنكار الناس : ثم ببساطة ، عندما تركت نفسي تنقاد لجسدي ، خلقت شيئاً حياً . ليس شخصية من ورق ، بل سيكون طفلاً حقيقياً من لحم وعظم . وبسهولة كبيرة .

فقلت :

— آمل ان اكتشف في نفسي سريعاً نزعة لأن اكون جدة . افترض انكما ستتزوجان بأسرع ما يمكن ؟ كيف ستنظمان حياتكما ؟ لا بد لكما من شقة .

فقال هنري :

– لسنا نرغب في البقاء في باريس . بل انني احب ان اترك فرنسا فترةً من الزمن . ويبدو اننا نستطيع ان نجد في بعض زوايا ايطاليا دوراً للاجار ليست غالية .

– وبانتظار ذلك ؟

– اتعرفين ، لم يتح لنا الوقت بعد لاعداد كثير من المشاريع .

فقلت :

– تستطيعان دوماً ان تقيما في سان مارتان . ان المنزل كبير بما فيه الكفاية .

ولم تستقبح نادين الفكرة . ولم تشأ ان تسكن في الجناح ، لانه كانت لها فيه ذكريات مكربة ، على ما افترض . ورتّبت غرفتين كبيرتين في الطابق الثاني . وتخلت عن منصبها كسكرتيرة ، وأخذت تطالع كتب فن استعمال الوسائط الكفيلة بولادة اولاد أصحاء ، وتحيك اقمطة صارخة الألوان تسخر من التقاليد كافة ، وكانت تتلهى كثيرا . كانت فترة بذخ ، على ما يبدو . كان هنري يهنىء نفسه على انه افلت من قلاقل الحياة السياسية ، ولم يكن يبدو على روبير انه آسف عليها كثيراً . وكانت بول تصرّح بأنها مسرورة من حياتها الجديدة . وكانت تسكن في فندق بلزونس حيث كانت تقوم بوظيفة سكرتيرة بشكل غامض . وكانت كلودي تعيرها اثواباً ، وتأخذها الى كل مكان . وكانت تحدثني بنهم عن زياراتها ، وعشاقها ، وتريد ان تجرني الى مجدها .

وقالت لي :

– اخيراً ! اصنعي لنفسك ثوب سهرة . ألا ترغبين في ان تلبسي ، في ان تظهري نفسك ؟

– اظهر نفسي لمن ؟

– على كل حال ، انت بحاجة لثوب ترتدينه بعد الظهر . تلك القطعة المدهشة من القماش الهندي ، ماذا فعلت بها ؟

– لست أدري . انها في خزانتي .

– يجب ان تخرجيها .

واخذت ، عابثة ، تفتش في خزانتي عن الخرقة الملكية التي كانت تحمي ، في الطرف الآخر من العالم والزمن ، كتفي هندية عجوز .

– ها هي ! يمكنك ان تفصّلي منها بلوزة رائعة !

ولمست في ذهول قطعة القماش التي لها الوان زجاج نوافـذ الكنائس والموزاييك . ذات يوم ، في مدينة بعيدة تتصاعد منها ابخرة البخور ، رماهـا رجل يحبني بين ذراعي : كيف امكن لها ان تتحول الى مادة هنا ، اليوم ؟ لم يكن ثمة من ممر من هذا الحلم القديم الى حياتي الواقعية . ومع ذلـك كان الشال هنا . وفجأة ، لم أعد اعرف اين انا ، حقاً : هنا ، فريسة لذكريات هاذية ؟ ام في مكان آخر ، أحلم بأني هنا ، ولكني على وشك اليقظة التي ستعيدني الى الاسواق الهندية والى ذراعي ليويس ؟

وقالت بول :

– اعهدي بها الي . وسوف تعطيها كلودي لخياط ليفصلها ، وسأعمـل على ان تكون عندك قبل الخميس . ستأتين يوم الخميس ، هذا مؤكد ؟

– هذا حقاً لا يستهويني .

– لقد وعدت كلودي بأن آتي بك . انني اود كثيراً ان اعوضها قليـلاً عما فعلته من اجلي !

كان صوت بول مؤثراً كما كان يوم كانت تتضرع اليّ لأصالحها مع هـنري . وقلت :

– سآتي لبعض الوقت .

كانت كلودي قد عمدت ، كي تعيد الى استقبالاتها ايام الخميس سابق رونقها ، الى تمويل جائزة ادبية تمنحها لجنة تحكيم نسائية ، ترأسها هي بنفسها بالطبع . وكانت تستعجل ان تعلن هذا الحدث الكبير للعـالم ، ورغم ان المشروع كان لا يزال غامضاً ، فقد دعت في يوم الخميس التـالي الصحفيين و « جميع باريس » . وكان بإمكانها كل الإمكان ان تستغني عني ، ولكن كان ثمـة كلمة آمرة من بول ترافق علبة الكرتون التي تلقيتها مساء الاربعاء ، والتي كان يرقد فيها ، بعـد ان

استحال شكله ، الشال القديم . إنه الآن بلوزة على قدي ، وعلى الموضة . وكان يتشبث برائحة ماضٍ ضائع ، وحين ضممته ، شعرت بشيء مـــا يشبه الأمل يتسرب الى دمي . كنت ألمس بجسدي الدليل على ان بين السعادة المتلاشية وبين خمولي اليوم ممراً : اذن فمن الممكن ان تكون هنـاك عودة . كانت صورتي التي اعادت إليهـا غضاضتها تسريحتي الجديدة دمثة في المرآة : من الآن الى ستة اشهر ، لن اكون قد هرمت كثيراً . سوف ارى ليويس ثانيـة ، وسوف يتابع محبتي . وحين دخلت الى صالون كلودي لم اكن بعيدة عن التفكير : « بعد كل شيء ، انني لا ازال شابة ! » .

وقالت بول :

— كنت خائفة للغاية من ان لا تأتي ! » وجرتني الى آخر الرواق وقالت في سيماء من قلق واهمية : « يجب ان اكلمك . اريد ان تفعلي شيئاً آخر ايضاً من اجلي » .

— ماذا اذن ؟

— كلودي تصر اصراراً كبيراً على ان تكوني عضواً في لجنتنا التحكيمية .

— لكني لست كفؤاً ، ولا وقت لدي .

— لن يكون عليك ان تعملي شيئاً .

فقلت ضاحكة :

— اذن لماذا تصر عليّ ؟

فقالت بول :

— حسناً ! بسبب الاسم .

فقلت :

— اسم روبير . اما اسمي فلا يساوي شيئاً .

فقالت بول بعجلة :

— انه الاسم نفسه . » ودفعتني الى الصالون الصغير : « اخشى ان اكون قد اسأت تحديثك عن هذا المشروع . انه ليس لعبة من ألعاب المجتمع » .

وجلست بخضوع : منذ ان شفيت بول وهي تطنب في الكلام عن تفاهات اطناباً عظيماً . كان من المحزن ان اراها تتحمس لهذه القصة البلهاء كما كانت تتحمس في الماضي لمصير هنري . ومدحت لي طويلاً فضائل العدد سبعة : ان اللجنة التحكيمية تلك تحتاج الى سبعة اعضاء . وانتفضت بقوة : « كلا يا بول ، لا دخل لي في هذه المسألة . كلا » .

فقالت بقلق :

– اسمعي ، قولي على الاقل لكلودي انك ستفكرين .

– إذا شئت . لكني فكرت وانتهيت .

فنهضت وصدر صوتها خفيفاً : « أصحيح ما يقال : ان هنري سيتزوج نادين ؟ » .

– صحيح .

فأخذت تضحك : « ما اظرف ذلك ! » . وعادة الى جدّيتها : « من وجهة نظر هنري ، هذا ظريف . لكني ارثي لنادين ، يجب ان تتدخلي » .

فقلت :

– انها تفعل ما يحلو لها ، كما تعرفين .

فقالت بول :

– لمرة واحدة فقط ، استعملي سلطتك . سوف يدمرها كما اراد تدميري . »

واضافت حالمة : « بديهي ان هنري بالنسبة لها بديل روبير » .

– هذا ممكن جداً .

فقالت بول :

– اخيراً ، انني أغسل يدي من الأمر . » وسارت نحو الباب ، وقالت في اضطراب مفاجىء : « يجب ألا احتكرك ! تعالي بسرعة ! » .

كان الصالون يغص بالناس . وكانت اوركسترا صغيرة تعزف بدون نشاط الحان جاز ، وكان بعض الازواج يرقصون . كان معظم الناس منهمكين في الأكل والشرب . وكانت كلودي ترقص مع شاعر شاب يرتدي بنطلوناً من المخمل

الخزامي ، وكنزة بيضاء ، وحلقاً ذهبياً في احدى اذنيه . ويجب ان أقول انه كان يدهش قليلا . وكان هناك كثير من الشبان : مرشحون للجائزة الادبية الجديدة ، بدون شك ، وكانوا يتظاهرون جميعاً بأنهم ملحقون بالسفارات . وسرني أن اشاهد رأساً مألوفاً : رأس جوليان . كانت ثيابه لائقة هو الآخر ، ولم يكن يبدو عليه انه ثمل . وابتسمت له وانحنى أمامي :

– هل استطيع ان ادعوك للرقص ؟

فقلت :

– اوه ! كلا !

– ولماذا ؟

– انني عجوز اكثر مما ينبغي .

فقال وهو يلقي نظرة الى كلودي :

– ليس اكثر من الاخريات .

فقلت ضاحكة :

– كلا ، ولكن بقدرهن تقريباً .

فضحك ايضاً ، لكن بول قالت بصوت جدي :

– آن محشوة بالعقد ! » ونظرت الى جوليان في تظرف : «لكن ليس انا» .

فقال جوليان مبتعداً :

– اي حظ لك !

وقالت لي بول في لهجة مستاءة :

– عجوز اكثر مما ينبغي ! يا لهذه الفكرة ! لم اشعر قط بالشباب كما أشعر به الآن .

فقلت :

– ان الانسان ليشعر كما يشعر .

لسرعان ما انقشعت تلك العاصفة الصغيرة من الشباب التي دوّختني للحظة . ان المرايا الزجاجية لمتساهلة اكثر مما ينبغي : اما المرآة الحقيقية فهي وجه هاته

النسوة اللواتي في عمري ، هذا الجلد الرخو ، هذه الملامح المشوهة ، هـــذا الفم الذي يتهاوى ، هذه الاجساد التي يحزر المرء بشكل يثير الفضول تحدُّبها تحت اخزمتها . وكنت افكر : « انهـــا جلود قديمة ، وانا في عمرهن » . وتوقفت الاوركسترا وانقضّت كلودي عليّ :

– لطف منك ان تأتي . يبدو انك تهتمين كثيراً بمشاريعنا ؟ سأكون سعيدة جداً اذا انضممت الينا .

فقلت :

– سأسر بذلك . الا ان لدي عملاً كثيراً في الوقت الراهن !

– هذا مـــا يبدو . انت في سبيلك لأن تصبحي محللة نفسية على الموضة . دعيني اقدم لك بعضاً ممن هم تحت رعايتي .

كنت مسرورة ، ولكن خائبة قليلاً من انهـا لم تلح إلحاحاً اكبر : لم تكن حريصة جداً على مساهمتي ، ولا بد ان بول تخيلت افكاراً . وصافحت كمية من الايدي : شبان ، وآخرون اقل شباباً . كانوا يأتونني بأقداح شمبانيا ، وبفطائر صغيرة ، وكانوا يهرعون ، وبعضهم يوجه المديح في رقة . وكانوا كلهم يصارحونني بين ابتسامتين بحلم ما صغير : الحصول على مقابلة مع روبير ، على مقال منه لمجلة جديدة تشق طريقها ، توصية لدى موفان ، نقـد ودي في « الطوارىء » ، او كانوا يتمنون كثيراً ان يروا اسمهم مطبوعاً فيها ! وطلب اليّ البعض ممـــن هم اكثر سذاجة او مجوناً نصائح : كيف السبيل للحصول على جائزة ، وبشكل عام ، للوصول ؟ ولقـــد كانوا يظنون ، ولا شك ، انني اعرف تعاويذ ! كنت اشك في مستقبلهم ؛ فالمرء لا يحزر من نظرة واحدة هل هـذا او ذاك موهوب او غير موهوب ، ولكنه يتبين بسرعة ما اذا كانت له أسباب حقيقية للكتابة : ولم يكن جميع أعمدة الصالونات هؤلاء يكتبون الا لأنه يصعب عليهم التصرف بطريقة اخرى مع حرصهم على ان يعيشوا حياة ادبية ، ولكن ما من احد منهم كان يحب الاختلاء مع الورق الابيض . كانوا يشتهون النجاح تحت شكله الأكثر تجريداً ، ورغم كل شيء فليست هذه هي الطريقة المثلى للحصول عليه . كنت

أجدهم لا يقلون جحوداً عن طموحهم . ولقد قـال لي أحدهم تقريباً : « انني مستعد للدفع » . وكان ثمة كثيرون منهم تضطرهم كلودي الى الدفـع ، بشكل عيني . كانت تشع بينما كانت تتفاهم مـع صحفيين ، وسط دائرة من المعجبين نفوسهم خضراء . وكانت بول لا تحسن الاستفادة من هذه النهزة ، اذ وقـع اختيارها على جوليان . كانت ، وهي جالسة إلى جانبه ، وساقاها متصالبتان عالياً ، ساقان لا تزالان جميلتين للغاية ، قد استدعت روحها كلها في عينيهـا وراحت تتكلم حتى لتكاد انفاسها تنبهر . وما كان لمبتدىء ، يدوخه هذا القدر الكبير من الكلمات ، ان يتمنع،لكن جوليان كان يعرف هذه الاغنيات كافة . كنت اسمع صوتاً ملحاً لشيخ كبير تقلد صلعته الصورة التقليدية للعبقرية،وكنت آلي على نفسي انني اذا ما فقدت ليويس ، انني حين أفقده، سأتخلى حالاً وللأبد عن اعتقادي بأنني لا أزال امرأة . انني لا اريد ان اشبههن .

كان الشيخ يقول :

– كما ترين،يا سيدة دوبروي ، انني لا اجعل من ذلك مسألة طموح شخصي، لكن الاشياء التي قلتها يجب ان تسمع . ما من انسان يجرؤ على قولها : لا بد من شيخ مجنون مثلي ليجازف بذلك . وليس هناك الا رجل واحـد لديه الشجاعة الكافية ليدعمني : زوجك .

فقلت :

– سوف يهتم لذلك كثيراً بالتأكيد .

فقال بحدة :

– لكن يجب ان يكون لاهتمامه نتائج عملية . انهم يقولون لي جميعاً : هذا جدير بالاهتمام ، هذا مثير ! وفي لحظة النشر ، يخافون . اذا فهم روبير دوبروي اهمية هذا الأثر ، الذي وقفت عليه ، استطيع ان اقول ذلك دون ان اكذب ، سنوات من حياتي ، فعليه ان يفرضه . ستكفي مقدمة منه .

فقلت :

– سأحدثه عنه .

كان يغيظني ، هذا الشيخ ، لكني كنت اشفق عليـــه . فعندما ينجح المرء تواجهه كمية من المشاكل ، ولكنه يواجه ايضاً مشاكل حين لا ينجح . لا بد انه شيء كئيب ان يتكلم الانسان ويتكلم دون ان يوقظ صدى ابداً . كان قد نشر كتابين او ثلاثة كتب غامضة، وكان هذا الكتاب يمثل فرصته الاخيرة، وكنت اخشى الا يكون جيداً هو الآخر : انني ارتاب في جميع الناس الحاضرين هنا . وتغلغلت بين الجمع الغفير ولمست ذراع بول :

– اعتقد انني اديت واجـــبي كله . انني ذاهبة . سوف تتصلين بي هاتفياً .

– ألديك ثانية ؟ » وامسكت بذراعي في سيماء من تآمر : « يجب ان اسألك نصيحة ، بخصوص كتابي . لقد اقلقني ذلك طوال هذه الليالي . هل تعتقدين ان من المناسب ان انشر الفصل الأول في « الطوارىء » ؟ .

فقلت :

– هذا يتعلق : بالفصل وبمجموع الكتاب .

فقالت بول :

– دون ادنى شك ، فقد كتب الكتاب ليتلقفه القارىء دفعة واحـــدة . يجب ان يتلقاه في معدته دون ان يتـــاح له الوقت ليتمالك نفسه . ولكن نشر فصل منه ، في « الطوارىء » لهو ، من جهة أخرى ، ضمانة جدية . انـــني لا اريد أن أُعتبر امرأة دنيوية تكتب على طريقة سيدات ...

فقلت :

– جيئيني بالمخطوط . سيعطيك روبير رأيه .

فقالت :

– سأرسل اليـــك نسخة غداً صباحاً . » وتركتني هنا واسرعت نحـــو جوليان : « أذاهب من الآن ؟» .

– انني آسف ، علي ان اذهب .

– ألن تنسى ان تتلفن لي ؟

– انني لا انسى شيئاً قط .

ونزل جوليان الدرج معي وقال لي بصوته المصقول : « امرأة لطيفة جداً ، بول ماروي ، الا انها تحب القضبان اكثر ممـــا ينبغي . لاحظي ان القضيب في حد ذاته ليس شيئاً سيئاً ، لكن أصحاب المجموعات يسئمونني » .

فقلت :

– يبدو لي ان عندك انت ايضاً مجموعتك .

– كلا ! ان ما يحـــدد صاحب المجموعة هو الكاتالوج ، ولم يكن لدي كاتالوج قط .

كنت معكرة المزاج حين تركت جوليان ، فقد كان يجرحني ان يدور الحديث عن بول بهذه اللهجة . ولكن بينـما كنت استبدل مظهري الفخم بروب دي شامبر ، تساءلت « بعد كل شيء ، لماذا ؟ انها لا تبالي بمـا يُظن بها : وهي على حق دون شك » . كنت أريـــد نفسي مختلفة عن تلك السعالى الناضجات اكثر مما ينبغي : وفي الحقيقة، كانت لدي حيل أخرى لا تزيد قيمة عن حيلهن. واسرعت بالقول : لقد انتهيت ، انني عجوز . فهكذا الغي تلــك السنوات الثلاثين او الأربعين التي سأعيشها ، عجوزاً منتهية ، في الندم على الماضي الضائع. انني لن أحرم من شيء ما دمت قد تخليت من الآن : إن لفي صرامتي حـــذراً أكثر منه كبرياء،بل هي في الحقيقة تحجب كذبة خشنة : انني انفي الشيخوخة برفضي مساوماتها . اني اؤكد تحت جـلدي الذابل استمرار امرأة شابة ذات مطالب لم تمس ، متمردة على التنازلات كافة ، تحتقر الجـــلود الحزينة التي في الأربعين . لكنها ما عادت موجودة ، ولن تولد ثانية أبداً ، حتى تحت قبـلات ليويس .

وفي اليوم التالي ، قرأت مخطوط بول : عشر صفحات فارغة ، تافهة كأنهـا نص من « الاعترافات[1] » . لا فائدة من ان أُصدم ، فهي في الحقيقة غير حريصة الى هذا القدر على الكتابة ، وفشلها لن يكون مأساوياً . كانت قد أمنت نفسها مرة واحدة . نهائية ضد المأساوي ، ولقد اخذت موقفها من كل شيء . لكني

---

١ . « اعترافات » جان جاك روسو . « المترجم »

كنت اجد مشقة في الاستسلام لاستسلامها . بل لقد كنت محزنة جداً حتى انني أخذت انفر اكثر فأكثر من مهنتي. فغالباً ما تأخذني الرغبة في ان اقول لمرضاي: « لا تحاولوا إذن الشفاء ، فإننا نشفى دوماً بما فيه الكفاية » . كان لدي زبائن كثر ، ولقد نجحت في هذا الشتاء بالذات في عدد من المعالجات الصعبة ، لكن قلبي كان بعيداً . نهائياً ، انني لم أعد أفهم لمَ كان من المستحسن ان ينام الناس ليلاً ، ان يفعلوا الحب بسهولة ، ان يكونوا قادرين على العمل ، على الاختيار ، على النسيان ، على الحياة . الماضي ، كان يبدو لي ان تخليصهم شيء عاجل ، تخليص جميع اولئك المهووسين المسجونين في تعاساتهم الضيقة ، في حين ان العالم واسع جداً . اما الآن ، فإنني ما عدت أفعل شيئاً سوى اطاعة مبادىء قديمة حين احاول ان انتزعهم مما يسيطر عليهم : هاءنذا قد أخذت في مشابهتهم ! كان العالم لا يزال على سعته : وما عدت انجح في الاهتمام به .

قلت في نفسي ذلك المساء : « هذا فاضح ! » . كانا يتناقشان في مكتب روبير ، ويتكلمون عن مشروع مارشال ، ومستقبل اوروبة ، المستقبل كله ، ويقولان ان اخطار حرب تتعاظم ، وكانت نادين تصغي اليهما في سيماء من ذعر . ان الحرب لشيء يخصّنا جميعاً ، وانني لا استخف بهذين الصوتين القلقين . ومع ذلك لم أكن أفكر إلا بتلك الرسالة ، بسطر من تلك الرسالة : « عبر المحيط ، الذراعان الحانيتان باردتان جداً » . لماذا كتب ليويس ، وهو يعترف لي بمغامرات لا أهمية لها، هذه الكلمات الحاقدة ؟ انني لم أسأله ان يكون وفياً لي ، فهذه سخافة مع ذلك الماء كله وذلك الزبد كله بيننا . بديهي انه حاقد عليّ لغيابي : ترى هل سيغفر لي ذلك يوماً ؟ هل سأجد ثانية ذات يوم ابتسامته الحقيقية ؟ كانا يتساءلان حولي عن المصير الذي يهدد ملايين البشر ، وكان مصيري أيضاً ، ولم أكن أهتم إلا بابتسامة ، ابتسامة لن توقف القنابل الذرية ، لا تستطيع شيئاً ضد أي شيء . ولا من أجل أحد ما : تخفي عني كل شيء . وكررت في نفسي : « هذا فاضح » . حقاً ، انني لا أفهم . فبعد كل شيء ، ان كوني محبوبة ليس نهاية ولا سبباً للوجود ، انه لا يغير من الأمور شيئاً ، ولا

يؤدي الى شيء : حتى أنا ، لا يؤدي بي الى شيء . انني هنا ، وروبير يتكلم مع هنري ، اما ما يفكر به ليويس هناك ، فبمَ يؤثر عليّ ؟ ان أعلق مصيري بقلب ليس هو الا قلباً بين ملايين القلوب الأخرى ، فلا بد انني فقدت الرشد ! كنت أحاول ان استمع ، لكن عبثاً . كنت أقــول في نفسي : ذراعاي باردتان . وفكرت : « بعــد كل شيء ، يكفي تشنج من قلبي الذي ليس إلا قلباً بــين ملايين القلوب الأخرى كي يكف هذا العــالم الواسع عن ان يعنيني الى الأبد . ان قياس حياتي لهو ابتسامة واحدة كما انه الكون بأسره . وان اختار تلك او هذا ، فان في ذلك تعسفاً أيضاً » . وبالأصل لم يكن لي الخيار .

وأجبت ليويس ، ولا بد انني وجدت الكلمات المناسبة لأن رسالته التالية كانت منفرجة وواثقة . ثم اخذ يطلعني على مجرى حياته في لهجة من الصداقــة المتواطئة . كان قد باع كتابه لهوليود ، وصار لديه مــال ، واستأجر منزلاً على ضفة بحيرة ميشيغان . كان يبدو سعيداً . وكان الربيع . وتزوج هنري ونادين : هما ايضاً كانا يبدوان سعيدين . لماذا ليس انا ؟ وجمعت شجاعتي كلها . وكتبت : « أود كثيراً ان ارى منزل البحيرة » . انه يستطيع ان يهمل هذه الجملة ، او ان يقول لي : « في السنة القادمــة سترين المنزل » او : « لا اعتقــد انك سترينه ابداً » . وحين أمسكت بين يدي بالمغلف الذي يحتوي على رده ، تصلبت كأنني واجهت مفرزة تنفيذ اعدام . كنت أقول في نفسي : « يجب ألا اتوهم الاوهام . إذا لم يقل شيئاً فهذا يعني انــه لا يريد رؤيتي ثانية » . وبسطت الورقة الصفراء ووثبت الكلمات فوراً الى عيني : « تعالي في نهاية تموز ، فسيكون المنزل قــد أُعدّ » . وتهالكت على الاريكة : لقد عُفي عني في اللحظة الاخــيرة . كنت قد شعرت بخوف عظيم حتى انني لم احس في البدايــة بأي فرح . ثم ، وبعنف ، أحسست بيدي ليويس على جسدي وأشرقت : ليويس ! كنت قد قلت ، وانا جالسة الى جانبه في غرفة نيويورك : « هل سنلتقي ثانيــة ؟ » . وكان يجيب : « تعالي » . لم يكن قد حدث شيء ، بين سؤالي وجوابه ، وكانت هــذه السنة الموهومة قد انقضت واستعدت جسدي حياً . يا للمعجزة ! لقد احتفلت بــه

كطفل ضاع ووجد . لقد رعيتـــه طوال شهر كامــل ، انا التي لا تـكاد تهتم به عــادة . لقد اردته مصقولاً ، لامعاً ، متألقاً . وصنعت لنفسي اثواب سباحة ، واخذت حمامات شمس . كنت أملك من الآن ، وانا في الاقمشة القطنية المزهرة ، البحيرة الزرقاء ، والقبل . وكانت تُعرض هـــذه السنة في الواجهات تنورات طويلة وحريرية غريبة . فاشتريت منهــا . وقبلت ان تهديني بول أغلى عطر في باريس . لقد آمنت ، هــذه المرة ، بوكالات السفر ، بالجواز ، بالسمة ، وبطرق السماء . وبدت لي الطائرة حين صعدت إليها مأمونة كأنهـــا قطار من قطارات الضواحي .

كان روبير قد تدبر امره ليحصل لي على دولارات في نيويورك . وعدت الى الفندق الذي نزلت فيــه في رحلتي الاولى وقدمت لي الغرفة نفسها ، ولكن في طابق أعلى . ووجدت من جديد ، في الاروقـــة ذات الرائحة المكتومة حيث تحترق بقية من شمعة حمراء ، الصمت نفسه يوم كان الفضول هواي الوحيــد . وخلال بضع ساعات ، عرفت من جديد اللامبالاة . ان باريس لم تعد موجودة ، ولا شيكاغو بعد ، وكنت اسير في شوارع نيويورك ولا افكر بشيء . وفي صباح اليوم التـــالي انشغلت بهدوء في مكاتب ومصارف ثم صعدت الى غرفــتي لآتي بحقيبتي . ونظرت في المرآة الى المرأة التي سيأخذها ليويس بين ذراعيه هـــذا المساء. سوف يحل هذا الشعر، وسأخلع تحت قبله البلوزة المفصلة من شال هندي. وعلقت بها الوردة التي ستداس بعد قليل ، ومسست رقبتي بالعطر الذي قدمته لي بول : كنت اشعر بشكل مبهم انني أعد لتضحية ضحية لم تكن انا . وللمرة الاخيرة تأملت فيها : كان يخيل إليّ انه يمكن ان تحب لو انني احببت .

وحطت الطائرة في شيكاغو بعــد اربع ساعات . وركبت سيارة ووجدت المنزل هذه المرة دونما مشقة . كان الديكور لا يزال هو هو . كانت لافتة شيلتز تشع احمراراً تجاه الاعلان الكبير . وكان ليويس جالساً على الشرفة امام طاولة يقرأ . واشار إليّ اشارة باسمة ، ونزل راكضاً ، واخذني بين ذراعيه وقـــال الكلمات المتوقعة : « لقد عدت ! اخيراً ! » . ربمــا كان المشهد يدور في وفاء

محتوم اكثر مما ينبغي ، إذ لم يكن يبدو واقعياً تماماً ، ولكأنه نسخة ضبابية قليلاً لمشهد السنة المنصرمة . او ربما تملكتني الخيبة فقط من عري الغرفة : لم يعد فيها رسم ، لم يعد فيها كتاب . وقلت : « يا للفراغ ! » .

ـ لقد نقلت كل شيء الى باركر .

ـ هل المنزل معد ؟ كيف هو ؟

فقال :

ـ سترين . سترين قريباً . » وراح يهدهدني بين ذراعيه . وقال في ابتسامة صغيرة مندهشة : « يا للرائحة الغريبة ! أهي هذه الوردة ؟ » .

ـ كلا ، انها انا .

ـ لكن لم تكن لك هذه الرائحة في الماضي ؟

وفجأة ، خجلت من اغلى عطر في باريس . من تفصيل بلوزتي المدروس ومن تنوراتي الحريرية : فما الفائدة من هذه التصنعات كلها ؟ انه لم يكن بحاجة اليها ليشتهيني . وبحثت عن فمه . لم أكن راغبة الى هـــذا الحد في عمل الحب لكني كنت اريد ان اكون واثقة من انه لا يزال يشتهيني . ودعكت يداه حرير التنورات ، وسقطت الوردة ارضاً ، وكذلك بلوزتي ولم اعد اطرح اسئلة .

نمت طويلاً . حين استيقظت كانت الساعة قد تجاوزت الظهر . وبينما كنت اتناول الغداء ، اخذ ليويس يحدثني عن الجيران الذين سنجاورهم في باكر ومنهم دوروثي ، وهي صديقة قديمة ، طلقت بعد زواج تعيس وتعيش مع طفليهـا ، عند اختها وصهرها ، على بعد ميلين او ثلاثة من منزلنا . ولم اهتم كثيراً بدوروثي وربما شعر بذلك اذا سألني على حين غرة :

ـ الا يزعجك ان استمع الى مباراة البيزبول من الراديو ؟

ـ مطلقاً . سوف اقرأ الصحف .

فقال ليويس في استعجال :

ـ لقد احتفظت لك بكل اعداد « النيو يوركر » ، واشرت على المقـالات المهمة .

ووضع على طاولة الليل كومة من المجلات وفتح الراديو . وتمددنا على السرير واخذت اتصفح « النيو يوركر » . لكني لم اكن مرتاحة . لقد حدث لنا كثيراً في السنين الماضية ان نقرأ او نستمع الى الراديو ، جنباً الى جنب ، دونما كلام : كل ما هنالك ، انني واصلة لتوي اليوم ، وانني لأستغرب الا يفكر ليويس إلا بالبيزبول وانا راقدة الى جانبه . لقد امضينا اليوم الاول كله ، في السنة الماضية في عمل الحب . وقلبت صفحة ، لكني لم اكن استطيع القراءة . في هذه الليلة ، وقبل ان يدخل فيّ ، اطفأ ليويس النور ، ولم يمنحني ابتسامته ، ولم يلفظ اسمي : لماذا ؟ لقد نمت دون ان اطرح اسئلة ، لكن تناسي سؤال ما لا يعني الاجابة عليه . كنت افكر : لعله لم يجدني ثانية تماماً . فمن الصعب ان نلتقي ثانية بعد عام . صبراً ، سوف يجدني . وبدأت في مقال وتوقفت ، حبيسة الانفاس . الى الشيطان برواية فوكنر الاخيرة وسائر الباقي . كان يجب ان اكون بين ذراعي ليويس ، ولم اكن بينهما : لماذا ؟ وما كانت مباراة البيزبول تلك لتنتهي . وانقضت ساعات ، وكان ليويس لا يزال يصغي . لو كنت على الأقل استطيع ان انام ، لكني كنت مشبعة نوماً . واخذت قراري وقلت بمرح :

— أتعرف ، يا ليويس ، انني جائعة . ألست جائعاً ؟

فقال ليويس :

— اصبري أيضاً عشر دقائق . لقد راهنت بثلاث زجاجات وسكي على « المردة » : ان ثلاث زجاجات وسكي لشيء هام ، أليس كذلك ؟

— هام جداً .

كنت أتعرف جيداً ابتسامة ليويس ، وذلك الصوت الساخر والحنون . كل هذا كان سيكون طبيعياً جداً في يوم آخر . وبعد كل شيء ، ربما كان طبيعياً ان يشبه اليومُ أيَ يوم آخر . لكن الحقيقة ان هذه الدقائق الاخيرة بدت لي طويلة بشكل فظيع .

وقال ليويس بفرح :

— لقد ربحت ! » ونهض ، وأدار الزر : « أيتها الجائعة الصغيرة المسكينة ،

سنذهب لنتغدى ! » .

ونهضت بدوري وسرحت شعري بسرعة : « الى اين تأخذني ؟ » .

– ما رأيك بالمطعم الألماني القديم ؟

– انها لفكرة طيبة .

كنت احب كثيراً ذلك المطعم ، فلي فيه ذكريات طيبة . وتحادثنا في مرح ونحن نتناول مقانق من الملفوف الأحمر . وقص ليويس عليّ رحلته إلى هوليود. ثم اخذني الى بار المتشردين والى المرقص الصغير الاسود حيث كان يعزف في الماضي بيغ بيلي . كان يضحك ، واضحك ، والماضي يبعث . وفجأة فكرت : « أجل ، كل هذا احسن تقليده ! » . لمَ فكرت بذلك ؟ ما الذي لا يسير على ما يرام ؟ لا شيء. لا شيء البتة . لا بد انني أنا التي تتخيل أفكاراً ، فقد أتعبني السفر في الطائرة ، وكذلك انفعال الوصول . بديهي انني كنت اهذي . لقد قال لي ليويس قبل عام : « لن احاول بعد الآن ألاّ احبك . لم احبك قط بهذا القدر » .. لقد قال لي هذا ، كان ذلك بالأمس ، وكنت لا أزال أنا ، وكان لا يزال هو . ودفنت نفسي بين ذراعيه ، في التاكسي الذي كان يعيدنا الى سريرنا . كان هو هو . كنت أتعرف حرارة كتفه الخشنة . ولم أجد فمه من جديد ، ولم يقبلني . وسمعت فوق كتفي تثاؤباً .

لم أتحرك . لكني شعرت انني أغوص في أعماق الليل . وفكرت : « لا بد ان هذه هي حالة من يكون مجنوناً » . كان ضوءان باهران يمزقان الظلمات ، حقيقتان متساويتان في الثبوت ولا تستطيعان ان تكونا صحيحتين معاً : ليويس يحبني ، وحين يأخذني بين ذراعيه ، يتثاءب . وارتقيت الدرج ، وخلعت ثيابي. كان يجب ان أطرح سؤالاً على ليويس ، سؤالاً بسيطاً جداً . وكان ، مسبقاً ، يمزق حلقي ، لكن كل شيء يفضّل على هذه الفظاعة المبهمة . ورقدت . ورقد الى جانبي والتفّ بالأغطية :

– ليلة سعيدة .

كان قد أدار لي ظهره . وتشبثت به :

– ليويس . ماذا هناك ؟
– لا شيء البتة . انني متعب .
– اعني : طوال اليوم ، ماذا كان هناك ؟ ألم تجدني ثانية ؟
فقال :
– لقد وجدتك .
– اذن ، ألم تعد تحبني ؟

فساد صمت : صمت حاسم ، ولبثت فاغرة الفم . لقـد استولى عليّ الخوف طوال السهرة ، لكني لم اصدق جدياً ان لخوفي مـا يبرره . وفجأة لم يعد هناك أي شك ممكن . ورددت : « ألم تعد تحبني ؟ » .

فقال ليويس بصوت معتنى به :

– انني لا أزال أحرص عليك ، كثيراً . انني أشعر بكثير من الود تجاهك . لكنه لم يعد حباً .

هو ذاك . لقد قالها . لقد سمعت هذه الكلمات باذني، وما من شيء يستطيع محوها ، أبداً . ولزمت الصمت . لم أعد أعرف ما أصنع بنفسي. انني لم أتغير قط . وكان الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، وكل شيء يترنح . كان يخيل إليّ ان صوتي بالذات لم يعد ملكي . وقلت :

– كنت اعرف ذلـــك ! كنت اعرف انني سأفقدك . منذ اليوم الأول ، عرفت ذلك . وانمـــا من أجل ذلك بكيت في نادي دوليزا : كنت أعرف . والآن ، تم الامر . كيف حدث ؟

فقال ليويس :

– انما بالأحرى لم يحدث شيء . لقد انتظرتك بدون جزع ، هذه السنة . أجل ، إن المرأة لشيء محبب . انـــا نتحادث ، وننام معاً ، ثم ترحلين : لا داعي لفقدان الرشد . لكني اقول في نفسي انه ربما سيحدث شيء ما حين اراك ثانية ...

كان يتكلم بصوت متجرد ، وكأن هـــذه القصة لم تكن تعنيني . وقلت

بضعف :

ـ انني فاهمة . فلم يحدث شيء ...

ـ كلا .

وفكرت في ضياع : « انما السبب تلك الرائحة الغريبـــة ، تلك الحرائر . ليس عليّ الا ان ابدأ كل شيء من جديد : سأرتدي ثوب السنة الماضية ... » . لكن كان من الواضح ان تنوراتي لا دخل لها في الأمر . وسمعت صوتي من بُعد قصي : « اذن ، ماذا سنعمل ؟ » .

فقال ليويس :

ـ لكني آمل كثيراً ان نمضي صيفاً مرضياً ! ألم نمض يوماً طيباً ؟

ـ يوماً جحيمياً !

ـ حقاً ؟ » كان يبدو آسفاً : « كنت اظن . انك لم تلاحظي شيئاً » .

ـ لقد لاحظت كل شيء .

وتخلى عني صوتي. لم اعد استطيع الكلام ، وبالأصل . ما الفائدة ؟ في السنة الماضية ، حين حاول ليويس ألا يحبني ، شعرت من خلال ضغائنه ومزاجه العكر انه لم يتمكن من ذلك تماماً : لقد احتفظت بالأمل دوماً . اما هذه السنة ، فلم يكن يغصب نفسه : انه لم يعد يحبني ، هذا يثب الى العينين وثباً. لماذا؟ كيف؟ منذ متى ؟ لا أهمية لذلك ، فالاسئلة كلها باطلة . فالفهم هام حـين لا يزال هناك أمل ، وكنت واثقة انني لا املك شيئاً آمله .

وتمتمت : « حسناً ! ليلة سعيدة » .

وللحظة ضمني اليه وقال : « لا اريد ان تكوني حزينة » . وداعب شعري: « هذا لا يستحق الألم » .

فقلت :

ـ لا تقلق نفسك من اجلي . سأنام .

فقال :

نامي . نامي جيداً .

واغمضت عيني . اجل يقيناً ، سأنام . كنت اشعر انني منهكة اكثر مما يمكن لليلة حمّى ان تنهكني . كنت افكر في برود : هو ذاك : « لم يحدث شيء . هذا طبيعي . اما اللاطبيعي ، فهو ان يكون حدث شيء ما ذات يوم . ماذا ؟ لماذا ؟ » . انني في الحقيقة لم افهم : ان الحب دوماً غير مستأهل . لقد أحبني ليويس دون سبب مقبول . ولم ادهش انا لذلك : والآن لم يعد يحبني ، وهذا بدوره لا يدهش ، بل انه لشيء طبيعي للغاية. وفجأة انفجرت الكلمات في رأسي : « لم يعد يحبني » . كان الأمر يعنيني ، كان علي ان اعوي حتى الموت . واخذت ابكي . كان يقول في كل صباح : « لمَ تضحكين ؟ لمَ انت وردية جداً ، دافئة جداً ؟ » . لن اضحك بعد الآن . كان يقول : « آن ! » . ولن يقولها ابداً بهذه اللهجة بعد اليوم . ولن ارى ثانية ابداً بعد اليوم وجهه السعيد الحاني . كنت افكر من خلال عبراتي : « يجب ان اسدد ثمن كل شيء . يجب ان أدفع ثمن كل ما أعطي دون ان اطلبه بوزنه من الدموع » . وأنّت صافرة من بعيد . وكانت قطارات تعوي . كنت ابكي . كان جسدي يتفرغ بارتعادات كبيرة من حرارته ، وكنت اصبح باردة ورخوة مثل جثة قديمة . لو كنت استطيع ان ألفي نفسي تماماً ! وعلى الأقل طالما بكيت ، فسأظل بدون مستقبل، وسيظل رأسي فارغاً : كان يخيل إليّ انني استطيع ان انتحب دون ملل حتى نهاية العالم .

وكان الليل هو الذي سبقني الى التعب . فاصفرّت ستارة المطبخ ، وانطبع عليها ظل كثيف في ملامح واضحة. عما قليل سيتوجب علي ان اقف على قدمي، وان الفظ كلمات ، وان اواجه رجلاً نام بدون دموع . لو استطعت على الأقل ان احقد عليه ، لقربنا ذلك من بعضنا . لكن لا : انه مجرد رجل لم يقع له شيء . ونهضت . كان الصباح في المطبخ ساكناً وأليفاً ، شبيهاً بكثير غيره من الأصباح . وصببت لنفسي كأس وسكي جرعته مع حبة من البنزدرين .

وقال ليويس :

— هل نمت ؟

– ليس كثيراً .

– لقد اخطأت !

وراح يهتم بالمطبخ ، وكان يدير لي ظهره، وساعدني هذا على الكلام. وقلت: « ثمة شيء لا افهمه . لمَ تركتني آتي ؟ كان عليك ان تخطرني » .

فقال ليويس بحدة :

– لكني كنت راغباً في رؤيتك . » واستدار وابتسم لي في براءة : « انني مسرور بوجودك هنا ، انني مسرور بقضاء هذا الصيف معك » .

فقلت :

– انت تنسى شيئاً ، هو انني احبك . ليس من المرح ان تعيش الى جانب شخص تحبه ولا يحبك .

فقال ليويس في لهجة استخفاف :

– لن تحبيني دوماً .

– ربما . لكنني أحبك في اللحظة الراهنة .

فابتسم : « لديك من الحس السليم ما يكفي لمنع ذلك من ان يدوم طويلاً» . وتابع : « جدياً ، كي تحبي احدهم حباً ، فلا بد ان تحتدّي . وحين يكون هناك اثنان يلعبان اللعبة ، فيمكن لهذا ان يستحق المحاولة . لكن اذا كنت تلعبين بمفردك ، فهذه بلاهة » .

ونظرت اليه في حيرة . أهو حقاً غير شاعر ، ام انه يتظاهر ؟ ربما كان يتكلم مختصاً : ربما فقد الحب كل اهمية في عينيه منذ ان كفّ عن حبي . على كل حال ، سواء أكان متعمداً ام طائشاً ، فإن انانيته تثبث لي انه لم يعد لي حساب عنده . وتمددت على السرير . كنت اشعر بصداع. واخذ ليويس يصفّ الكتب في صناديق ، وتبينت فجأة انني لم أمس الاعماق . كنت مستلقية على الغطاء المكسيكي ، انظر الى الستارة الصفراء ، والجدران : لم اعد محبوبة لكني لا ازال اشعر انني في بيتي . وربما كان هذا كله يخص امرأة اخرى. ربما كان ليويس يحب امرأة اخرى . لقد كان هناك نساء في حياته ، هذا العام . لقد

حدثني عنهن ، ولم تبدِ لي اي واحدة منهن مقلقة . لكن ربما كان التقى بواحدة لم يحدثني عنها عن عمد . وناديت :

– ليويس !

فرفع رأسه : « نعم ؟ » .

– يجب ان اطرح عليك سؤالاً : أهناك امرأة اخرى !

فقال باندفاع :

– اوه ! بحق الآلهة كلا ! لن احب بعد اليوم !

وتنهدت . لقد وفر علي اسوأ ما في الأمر ! هذا الوجه الذي لن اراه ثانية ، هذا الصوت الذي لن اسمعه ثانية . ليسا موجودين بالنسبة لأي شخص آخر . وسألت :

– لمَ تقول هذا ؟ لا تستطيع ابداً ان تعرف .

فهز ليويس رأسه وقال بصوت متردد قليلاً : « اعتقد انني لم اخلق للحب . لم يكن لأي امرأة ، قبلك ، حساب عندي . لقد التقيت بك في لحظة كانت حياتي تبدو لي فيها فارغة جداً : لهذا القيت بنفسي في هذا الحب باندفاع كبير . ثم آل كل شيء الى مآله » . وتفرس في وجهي بصمت ، واضاف : « مع ذلك اذا كان ثمة احد خلق لأجلي فهو انت . وبعدك ، لا يمكن ان يوجد احد » .

فقلت :

– انني ارى .

وأتم صوت ليويس الودي القضاء على كل أمل لي . لو كان عدوانياً ، ظالماً ، لحاولت دونما شك ان ادافع عن نفسي . لكن لا . كان يبدو مكتئباً مثلي تقريباً مما يحدث لنا . وكان رأسي يؤلمني أكثر فأكثر وتخليت عن المزيد من استجوابه . كان السؤال الحاسم الوحيد : « ليويس ، لو بقيت ، فهل كنت ستتابع حبي ؟ » لامجدياً لأنني على الضبط لم أبق .

وذهب ليويس ليشتري لي حبوباً مسكّنة ، وبلعت منها اثنتين . ونمت . واستيقظت منتفضة . وسرعان ما قلت في نفسي : « آل كل شيء الى مآله ! » .

وجلست قرب النافذة . كان ليويس خلف ظهري يحزم صحوناً . وكان الجو حاراً من الآن . وكان اطفال يلعبون بالكرة بين الشوك ، وكانت فتاة صغيرة تترنح على دراجة حمراء بثلاثة دواليب ، وكنت أعض على شفتي كي لا أذوب دموعاً. وتبعت بعيني سيارة طويلة فخمة كانت تسير ملامسة الرصيف وأشحت برأسي : المشهد نفسه ، الغرفة نفسها ، وعلى الستارة الصفراء يتعلق ظل اسود . وكان ليويس يرتدي بنطلوناً من بناطيله العتيقة المرقعة ، وكان يصفر . كان الماضي يسخر بي جهاراً ، ولم أعد أتحمل . فنهضت ، وقلت :

– اريد ان اقوم بجولة .

وركبت سيارة ، فذهبت بي حتى « لوب» وسرت طويلاً : ان السير ليشغل النفس قدر البكاء تقريباً . كانت الشوارع تبدو لي كارهة . لقد أحببت هذه المدينة ، أحببت هذا البلد : لكن الأشياء تغيرت خلال سنتين وما عاد حب ليويس يحميني . ان اميركا الآن تعني القنبلة الذرية ، التهديد بالحرب ، الفاشية الوليدة . وكان معظم الناس الذين اصادفهم اعداء : كنت وحيدة ، محتقرة ، ضائعة . وتساءلت : « ماذا فعلت اذن ؟ » . وعند نهاية بعد الظهر ، وجدت نفسي عند أسفل لافتة « شيلتز » . وكانت علب القمامة في الدرب المسدود تدخن برائحة خريفية طيبة . وارتقيت الدرج الخشبي ، ونظرت بثبات الى الرقعة الحمراء والبيضاء التي تحجب خزان الغاز . ومر قطار من بعيد فارتعدت الشرفة . كانت هذه هي الحال بالضبط في اليوم الأول ، في الأيام السابقة . وقلت في نفسي : « الأجدر بي ان أعود إلى باريس » . كنت ألمح زاوية الشارع العريض حيث ينتظرني رحيلي من الآن . وكانت السيارة الذي ستقلني تجري في مكان ما من المدينة . وسيوقفها ليويس بحركة اعرفها ، وسيصفق الباب ، ولقد كان انصفق مرة ، اثنتين ، ثلاثاً . وهذه المرة ستكون الى الأبد . ما الفائدة اذن من ثلاثة أشهر من الاحتضار ؟ « طالما رأيت ليويس ، طالما ابتسم لي ، فلن اشعر ابداً بالقوة لقتل حبنا في نفسي . اما القتل عن بعد ، فالجميع قادرون على ذلك » . وتسلقت الدرابزون . « لا اريد ان اقتله » . كلا لا اريد ان يصبح

ليويس بالنسبة لي ذات يوم ميتاً مثل دييغو .

وقال لي ليويس صباح اليوم التالي :

– آمل ان يعجبك منزل الكثبان !

فقلت :

– اوه ! بالتأكيد .

كان يضع في الصناديق الكتب الاخيرة ، علب المحفوظات الاخيرة . كنت مسرورة بمغادرة شيكاغو . فالأشياء في باركر لن تصرّ على الأقل في تقليد الماضي . ستكون هناك حديقة ، وسيكون لنا سريران ، وسيكون هذا أقل غماً . وأخذت أعد حقيبتي . ودفنت في اسفلها الشال الهندي : لن ارتديه أبداً بعد الآن ، فقد كان يخيل إليّ ان في تخاريمه شيئاً ما مؤذياً ولمست بقرف كل هذه التنورات ، والبلوزات ، وحماقات الشمس التي اخترتها في عناية كبيرة . واطبقت الحقيبة وصببت لنفسي كأساً من الوسكي .

وقال ليويس :

– يجب الا تشربي بمثل هذا المقدار .

– لمَ لا ؟

وبلعت من البنزدرين . كنت بحاجة الى معونة لأجتاز هذه الأيام التي يجب علي فيها ان اتعلم من جديد ساعة فساعة انه لم يعد يحبني . ولقد جاء اليوم اصدقاء لأخذنا في السيارة ، لن تتاح لي دقيقة واحدة لأذهب للبكاء بهدوء في ركن ما .

– آن . افلين ، نيد .

وصافحت الايدي . وابتسمت . وعبرت السيارة المدينة ، ثم الحدائق والضواحي . كانت افلين تكلمني ، وكنت اجيب . واجتزنا سهلاً واسعاً شائكاً بالأفران العالية ، والمقاسم ، والاخشاب المدهونة جيداً ، وتوقفنا عند نهاية طريق تسده اعشاب ماردة . وكان ممر من الحصباء يؤدي الى منزل ابيض . وكانت هناك ارض معشوشبة تنحدر انحداراً بطيئاً نحو مستنقع . ونظرت

بكامل عيني الى الكثبان القادحة بالشرر ، وبالمـــاء المزهر بالنيلوفر ، وستائر الاشجار الملتفة . سوف اعيش هنا طوال شهرين ، كما لو انني كنت في بيتي ، ثم انى سوف ارحل كي لا أعود ابداً!

وقال ليويس :

– إذن ؟

– عظيم !

عند نهاية الارض المعشوشبة ، الى جانب فرن من القرميـــد كانت مدخنته تـــدخن ، كان اناس يفترشون الارض . وهتفوا بمرح : « أهلاً بالمستأجرين الجدد ! » .

وصافحت بضع أيدٍ : دوروثي ، أختها فرجينيا ، صهرها ويلي الذي يعمل في الافران العالية المجاورة ، وبيرت البدين الذى كان معلماً في شيكاغو . وكانت قطع من لحم الهامبورغر تشوى على صفيح الفرن الاسود ، وكانت رائحة البصل المشوي ونار الحطب طيبة . وناولني أحدهم كأس وسكي فأفرغته بجرعة واحدة: كنت بحاجة اليه . وقالت دوروثي :

– أليس المنزل جوهرة ؟ ان البحيرة وراء الكثبان بالضبط . وهناك زورق صغير لعبور المستنقع : في خمس دقائق تكونين على الشاطىء .

إنها امرأة تميل الى السواد ، صارمة الوجه متعبته ، حماسية الصوت . كانت قد احبت ليويس . وربما كانت لا تزال تحبه . غــير انه كانت في نظرتها حرارة صادقة . وقالت :

– سيكون شيئاً مدهشاً ان تشوي عشاءكما ، عند المساء ، في الهواء الطلق . ان الاحراج مليئة بالاغصان الميتة ، وليس عليك الا ان تجمعيها .

فقال لي ليويس بمرح :

– سأشتري لك فأساً صغـيرة ، وحين لا تكونين عاقـــلة ، سيحكم عليك بقطع الحطب . » وامسك بي من ذراعي : « تعالي لرؤية المنزل » .

ووجدت من جديد وجهه في نار الجزع الفرحة . كان قد نظر إليّ في الماضي

بابتسامة الفخر هذه .

– قطع الأثاث الأخيرة تصل غداً . هنا سنضع السريرين . اما الغرفة التي في الصدر ، فستكون المكتبة .

لكأننا حقاً عاشقان يعدّان عشهما . وحين عدنا الى الحديقة، شعرت بفضول متواطىء في جميع الانظار . وسألت فرجينيا : « أتحتفظان بمنزل مؤقت في شيكاغو ؟ » .

– اجل ، اننا نحتفظ بمنزل مؤقت .

كانت انظارهم تخلط بيننا . وكنت اقول « ليويس وانا » ، واقول : «نحن» سنبقى هنا الصيف بأسره ، كلا ليس لدينا سيارة، نأمل كثيراً ان تأتوا لرؤيتنا. وكان ليويس يقول « نحن » هو الآخر . كان يتكلم بحماسة . لقد تكلمنا قليلاً جداً منذ وصولي ، وهذه هي المرة الاولى التي اراه فيها مرحاً : كان الآن بحاجة الى الآخرين ليكون مرحاً . كان الجو هنا أرطب بكثير من شيكاغو ، وكانت رائحة العشب تدوخني . كنت اشتهي لو القي عني بهذا الحمل الذي يسحق قلبي وأن اكون مرحة انا ايضاً .

– آن ، هل تريدين القيام بجولة في الزورق ؟

– اوه ! احب ذلك كثيراً .

كانت حباحب تضيء في الغسق بينما كنا نهبط الدرج الصغير . وجلست في الزورق ودفع ليويس الشط بعيداً عنا . كانت اعشاب هلامية تلتف حول المجذافين . وكان ليل ريفي حقيقي على المستنقع ، على الكثبان . لكن السماء فوق الجسر كانت حمراء وبنفسجية ، سماء كاذبة لمدينة كبيرة : كانت نيران الافران العالية تحرقها . وقلت : « انها لجميلة جمال سماوات الميسيسيبي » .

– اجل . وبعد بضعة أيام ، سيكون لنا بدر كبير .

كانت نار مخيم تتقلص عند سفح . بين فترة واخرى ، كانت نافذة تلمع خلال الاشجار . وكانت احداها نافذتنا . كانت . كسائر النوافذ التي تتألق من بعيد في الليل ، تعد بالسعادة .

وقلت :

— دوروثي جذابة .

فقال ليويس :

— اجل دوروثي المسكينة . انهـا تعمل في دراغ ستور في باركر وزوجها يدفع لها نفقة ضئيلة . طفلان ، طوال حياتها هنا ، حتى دون منزل تملكه : هذا صعب .

كنا نتحدث عن الآخرين فيما بيننا ، وكان الماء الاسود يعزلنـا عن العالم ، وصوت ليويس حنوناً ، وابتسامته متواطئة . وتساءلت فجأة : « هـل انتهى كل شيء حقاً ؟ » . كنت قد استسلمت فوراً لليـأس من قبيل الكبرياء ، كي لا اشبه سائر النساء اللواتي يكذبن على انفسهن ، وكذلـك من قبيل الحذر ، كي اجنب نفسي عذابات الشك ، والانتظار ، والخيبة : ربما استعجلت اكثر ممـا ينبغي . لم تكن طلاقة ليويس ومبالغاتـه في الصراحة طبيعية ، فهو في الواقع ليس خفيفاً ولا فظاً ، وما كان ليعلن بقساوة عن لامبالاتـه لو لم تكن نتيجة قرار . كان قد قرر ان يكف عن حبي ، ليكن : لكن اتخاذ قرار ثم التمسك به شيئان منفصلان .

وقال ليويس :

— يجب ان نعمّد مركبنا الصغير . ما رأيك لو سميناه آن ؟

— سأكون فخورة جداً !

ها هو ينظر الي بوجه من تلك الوجوه التي كان ينظر اليّ بهـا في الماضي . وكان هو الذي اقترح نزهة العشاق هـذه . لعله اخذ يتعب من تعقله الكاذب ؛ لعله يتردد في طردي من قلبه . وعدنا الى البر ، وسرعان ما انصرف مدعوونا . ورقـدنا جنباً الى جنب في السرير الضيق المنصوب مؤقتـاً في صدر المكتبة ، واطفأ ليويس النور . وسأل :

— هل تعتقدين انك ستسرّين هنا ؟

— انا واثقة من ذلك .

واسندت خدي الى كتفه العارية . وداعب بلطف ذراعي والتصقت بـه . كانت يده على ذراعي، كان دفئه، رائحته، ولم يعد لي كبرياء او حذر . وجدت فمه من جديد وكان جسدي يذوب شهوة بينما كانت يدي تزحف على البطن الدافيء كان يشتهيني هو الآخر ، ولقد كانت الشهوة بيننا حباً دوماً . كان ثمة شيء مـا يبدأ من جديد هذه الليلة ، انني واثقة من ذلك . وفجأة استلقى فوقي ، ودخل فيّ ، وامتلكني دونما كلمة ، دونما قبلة . ولقد تم ذلـك بسرعة كبيرة حتى انني لبثت مذهولة . وقلت قبله :

— ليلة سعيدة .

فقال ليويس وهو يستدير نحو الحائط :

— ليلة سعيدة .

كان غيظ يائس يمسك بي من خناقي . وتمتمت : « ليس له الحق » انه لم يمنحني حضوره ولا لحظة واحدة ، ولقد عاملني كأنني آلة لذة . حتى لو لم يعد يحبني ، ما كان عليه ان يفعل ذلك . ونهضت ، كنت اكره دفئه . وذهبت للجلوس في غرفة الجلوس وبكيت قدر ما شئت . لم اكن افهم شيئاً . كيف اضحى جسدانا غريبين الى هذا الحد ، هما اللذان تبادلا الحب بذلك القدر ؟ كان يقول : « انني سعيد جداً ، فخور جداً » . كان يقول : « آن ! » . كان يمنحني قلبه بيديـه ، بشفتيه ، بعضوه ، بكل جسده : كان ذلـك بالأمس . تلك الليالي التي لا تزال ذكراها تحرقني : تحت الغطاء المكسيكي ، على فراشنا الصغير الذي كان يهدهده الميسيسيبي ، في ظل الكلات ، امـام نار صمغية الرائحة ، تلك الليالي ... ألن تبعث ثانية ابداً ؟

حين عدت الى السرير ، منهكة ، نهض ليويس على احد مرفقيه . وسألني في غيظ : « أهذا هو برنامجك للصيف ؟ تمضية نهار طيب والبكاء ليلاً ؟ » ..

فقلت بعنف :

— اوه ! لا تأخذ هـــذه اللهجة العليا ! انما ابكي غضباً . ان ننام هكذا كالجليد ، هذا فظيع : ما كان عليك ...

فقال ليويس :

– لا استطيع ان امنح حرارة لا املكها .

– اذن كان يجب ألا تنام معي .

فقال بهدوء :

– كنت راغبة في ذلك جداً . ولم اشأ ان ارفض .

– كان من الأفضل لو رفضت . افضل ان نقرر ألا ننام ثانية معاً ابداً .

– هذا افضل حتماً اذا كنت بعد ذلك ستقضين الليل في البكاء . حاولي اذن ان تنامي .

لم تكن هناك كراهية في صوته ، بل لامبالاة فحسب . كان هدوؤه يبلبلني. ولبثت مستلقية على ظهري ، شاخصة العينين . كانت البحيرة تزمجر من بعيد في ضجيج كضجيج مصنع . هل يقول ليويس الحقيقة ؟ هـل انا المذنبة ؟ اجل ، دون ادنى شك ، انني مذنبة : ليس لأنني استجديت مداعباته ، بـل لأنني اخترعت لنفسي آمالاً كاذبة . يقيناً ان ليويس ليس منسجماً تماماً مع نفسه ، وهذا ما يفسر وثباته في سلوكه . ولكن بالنسبة لرجل مثله هناك مسافة بـين رفض الحب وغياب الحب . كان قد قرر عن عمد ان يكف عن حبي : والنتيجة هي انه ما عاد يحبني . لقد مات الماضي وانتهى . موت بدون جثة ، مثل موت دييغو : هذا ما يجعل تصديقه صعباً . لو كنت استطيع فقط ان ابكي على قبر ، لساعدني ذلك كثيراً .

قال لي ليويس صباح اليوم التالي في سيماء من قلق :

– هي ذي اقامة لا تبدأ حسناً !

فقلت :

– لكن لا ! لم يحدث شيء خطير . دعني اعتاد ، وسيسير كل شيء على مـا يرام .

فقال ليويس :

– اود كثيراً لو يسير كل شيء على مـا يرام ! يخيل إليّ اننا نستطيع ان

نقضي وقتاً طيباً معاً . حين لا تبكين ، أتفاهم جيداً معك .

كانت نظرته تسائلني . وكان هناك رياء في تفاؤله ، وكان ليويس يسترخص عواطفي الخاصة بي . إلا ان قلقه كان صادقاً . اذ كان يحزنه ان يسبب لي ألماً . وقلت :

— انا واثقة اننا سنقضي صيفاً جميلاً .

كان يشبه صيفاً جميلاً . كنـــا ، كل صباح ، نعبر في الزورق المستنقع ذا الأعشاب الهلامية ، ونتسلق الكثبان الرمليـة التي كانت تحرق قدمي . والى اليمين ، كان الساحل المقفر يمتد الى مـــا لا نهاية ، والى اليسار ، كان يذهب ليموت عند سفح الافران العاليـة المزدانة بألسنة اللهب . كنا نسبح ، ونسمّر لوننا تحت الشمس ونحن ننظر الى الطيور البيض الجاثمة على أرجل عاليـة وهي تنقر الرمل . وكنـــا نعود مساء نحو المنزل ، محملين كالهنود بالأغصان الميتة . وكنت امضي الساعات في القراءة على الأرض المعشوشبة بين السناجب الرمادية . وآباء زريق الزرق ، والفراشات ، وطيور داكنة كبيرة ذات صدر أحمر . ومن بعيد كنت اسمع طقطقة آلة ليويس الكاتبة . وفي المساء كنا نشعل ناراً في فرن القرميد ، واذيب قطعة من الجليد تحنط فيها فروج مخلع المفـــاصل ، او يقطع ليويس بمنشار بفتيكاً متحجراً ونشوي تحت الرماد عرانيس من الذرة مغلفـة بأوراق رطبة . وكنا نسمع جنبـاً الى جنب اسطوانات ، او ننظر على شاشة التلفزيون الى فيلم قديم ، او الى مباراة ملاكمة . كانت سعادتنا متقنة التقليد حتى انه كان يخيل إلى غالباً انها ستصبح حقيقية بين دقيقة واخرى .

كانت دوروثي قد وقعت في أسر هذه الخديعة ، وكانت تفتنها . كانت تأتي في المساء غالباً على دراجتها الحمراء ، وتستروح رائحة الهـامبورغر ، وتتنشق دخان غصون الكرمة : « ما اروع هذه الليلة ! أترين الحباحب ؟ أترين النجوم؟ ونيران المخيم تلك على الكثبان ؟ » . كانت تصف لي بنهم هذه الحيـــاة التي لن تكون حيـــاتي ابداً والتي لم تكن حياتي حقـــاً . كانت تدوخني بالتقريظ ، والنصائح ، والوفاء . وكانت هي التي اثثت المنزل ، وهي التي تمدنا بالمؤونـة ،

وتقدم لنا علاوة على ذلك كمية من الخدمات اللامفيدة . وكانت تصل دوماً محملة برسائل عجائبية : طبخة جديدة ، نوع جديد من الصابون ، بيان يطنب في وصف غسالة من آخر طراز ، مقـــال نقدي يعلن عن كتاب مثير . وكانت تستطيع ان تحلم طوال اسابيع عن فوائد ثلاجة متقنة قادرة على الاحتفاظ بطن من القشدة الطازجة مدة ستة أشهر . لم يكن لها سقف خاص بها وكانت مشتركة في مجلة معمارية ثمينة تتأمل فيها بتلذذ مقامات أصحاب المليارات الاسطوريـة . وكنت استمع بصبر الى مشاريعها التي لن تنفذ ، والى صيحاتها الحمـاسية ، والى كل ثرثرتها المجنونة كامرأة لم تعد تأمل شيئاً . وكان ليويس يغتاظ منها غالباً ، وكان يقول لي : « ما كنت لأستطيع أبداً ان أعيش معها ! » . كلا ، مـا كان ليستطيع ان يتزوج دوروثي ، ولم استطع أنا ان أتزوجه وما عاد يحبني . كانت هذه الحديقة ، هذه الدار ، تعدان بسعادة ليست لأي منا .

وبالطبع ، كانت دوروثي هي التي قادتنا ذات يوم احد الى معرض باركر : كانت تعبد الرحلات الجماعية . وجاء بيرت ليأخذنا في سيارته ونقلت دوروثي في سيارتها القديمة فرجينيا ، ويلي ، وافلين . ولم يعرف ليويس كيف يرفض ، لكنه كان يفتقر الى الحماسة . أما انا فكان التفكير ببعد الظهر المبهج هذا الذي كان يجب ان يتبعه عشاء عند فرجينيا ، يقطب وجهي . كنت أخاف دوماً ، حين أتعرض طويلاً للانظار ، ألا استطيع القيام حتى النهـاية بدوري كامرأة سعيدة .

وقال ليويس وهو يدخل الى حديقة الملاهي :

– يا إلهي ! يا للناس ! يا للغبار !

فقالت دوروثي :

– آه ! لا تبدأ في الزمجرة . » واستدارت نحوي : « حين يأخذ بالتجهم ، فانه يريد ان يطفىء الشمس ! » .

كان وجهها يشع بأمل مجنون قليلا بينما كانت تهرع نحو ميدان اطلاق الأسهم الصغيرة . وكانت ، بانتقالها من كوخ الى كوخ ، تبدو وكأنهـــا تستهلك قبل

الاوان اكتشافات فائقة للعـــادة . واجتهدت انا في الابتسام . وتأملت بكل الفضول الذي استطعت ان اجمعه القرود العالمة ، والراقصات العرايا ، والانسان ـ الفقمة ، والمرأة ـ الجذع . وفضلت الالعاب التي تتطلب انتبـاه جسدي كله : وهكذا قلبت بحماسة الاسطوانات وعلب المحفوظات ، وقدت سيارات صغيرة ، على سجاجيد متحركة ، وقدت طائرات عبر سمـاوات مصورة . وكان ليويس يراقبني في خبث : « غريب كيف تستطيعين ان تأخذي الأشياء على محمل الجد ! لكأنك تقامرين برأسك ! » .

هل كان يجب ان ارى تعريضات في ابتسامته ؟ هل كان يفكر ان حبي كان يقوم على الجدية الباطلة ذاتها ، على الحماسة الكاذبة ذاتها ؟ » واجابت دوروثي بحدة : « هذا أفضل من اتخـــاذ ملامح الاشمئزاز العريضة في كل منـاسبة » . واخذت ذراعي بحزم . وحين مررنا على كوخ مصور فوتوغرافي ، داعبت بيدها الخشنة حرير ثوبي : « آن ! تصوّري مع ليويس ! ان ثوبك جميل جداً وهـــذه التسريحة تناسبك كثيراً ! » .

فقالت فرجينيا :

ـ اوه ! اجل . اننا لنحب كثيراً صورة لك !

كنت اتردد . وامسك بي ليويس من ذراعي ، وقـــال بمرح : « هيا إذن لتخليد نفسك . ما دام يبدو انك مغرية جداً » .

وفكرت بحزن : « بالنسبة لآخرين ، وليس بالنسبة له ابداً بعد اليـوم » . وجلست الى جانبـــه في مطار مصور ، ووجدت مشقة كبيرة في الابتسام . لم يكن يلاحظ اثوابي ، اذ لم يعـد لي جسد بالنسبة له ، وبالكاد وجه لو كنت على الأقل استطيع ان افكر ان كارثة ما شوهت وجهي ! لكني انا التي احبها ومـا عاد يحبها . كان اندفاع دوروثي يشهد على ذلك ولهـذا قضى على توازني كله . كنت اذوب ، أتهاوى . كان علي ان اجلس مستقيمة وابتسم حتى لقلب الليل . وقالت دوروثي :

ليويس ، يجب ان ترافق افلين ، ان الشمس تتعبها . انها تريد الجـــلوس

في الظل . حين ستعود من التواليت ، قدم لها كأساً بينما سنذهب لرؤية وجوه الشمع .

فقال لتوْنس :

ـ آه ! لا ليس انا !

ـ لكن لا بد من رجل ليهتم بها . انها لا تعرف بيروت ولا تستطيع ان تستلطف ويلي .

فقال ليويس :

ـ لكني انا لا استطيع استلطاف افلين .

فقالت دوروثي بغضب :

ـ طيب ، سأبقى معها . » وبدرت مني حركة فقالت : « كلا ، ليس انت ، يا آن . هيا ، هيا : ستروبان لي » .

وبينما كنا نبتعد ، قلت لليويس : « لمَ لم تعد لطيفاً مع دوروثي ؟ » .

ـ لكنها هي التي دعت افلين . لم يطلب اليها احد ان تدعوها .

وامتنعت عن المناقشة ، وانشغلت في تأمل قتلة متجمدين في جريمتهم قرب ضحاياهم المتجمدة في موتها . وكانت مكسيكية صغيرة في الخامسة من العمر ، جالسة على فراش وضعها ، تهدهد طفلاً وليداً . وكان غورينغ[1] تحتضر على محمل ومشنوقون في أزياء المانية يتأرجحون على مشانق . وخلف الاسلاك الشائكة ، كانت جثث من الشمع تتراكم في كومة هائلة . وتأملتها ، مذهولة . هي ذي باشنوالد وداشو تتراجعان الى اعماق التاريخ ، بعيداً جداً مثل المسيحيين الذين تلتهمهم الاسود في متحف غريفان . وحين وجدت نفسي ثانية في الخارج ، في دوار الشمس ، كانت اوروبا كلها قد مرت عند حدود الفضاء . كنت انظر الى النساء العاريات الأكتاف ، والرجال ذوي القمصان الزهرية وهم يقضمون « هوت ـ داغ » او يلحسون المثلجات. ما كان من احد يتكلم لغتي ، وانا نفسي نسيتها . كنت قد فقدت ذكرياتي كلها ، وحتى صورتي : لم يكن لدى ليويس

---

١ ـ غورينغ : ماريشال الماني انتحر عام ١٩٤٦ . وكان سيخلف هتلر في الرايخ الثالث.

مرآة بارتفاع عيني ، اتبرج تحسساً في مرآة جيب . وانني لأكاد لا أذكر من انا، واتساءل ألا تزال باريس موجودة ؟

وسمعت دوروثي تقول بصوت غاضب :

– تقرر ان تعود ، ولا تطلب حتى رأي آن . يبدو انه ستعرض في الساعة السابعة افلام قديمة صامتة . ولقد حدثوني عن ساحر خارق للعادة .

كان صوتها يتضرع ، لكن جميع الوجوه حولها ظلت مغلقة . وقال ويلي .

– آه ! لنعد اذن ! هناك مارتيني ينتظرنا والجميع جائعون .

فتمتمت :

– ان الرجال انانيون للغاية !

وجلست بينها وبين ويلي في سيارتها القديمة . كانت مستاءة جداً حتى انها لزمت الصمت طوال الطريق : انا ايضاً . وحين نزلت من السيارة امسكت بذراعي وقالت على حين غرة : « لمَ لا تبقين هنا ؟ يجب ان تبقي » .

– لا إستطيع .

– لكن لماذا ؟ هذا مؤسف للغاية !

– لا استطيع .

– على الأقل ستعودين ؟ عودي في الربيع ، فهو اجمل الفصول هنا .

– سأحاول .

كنت اقول في نفسي بغضب وانا ادخل الى البيت : « بأي حق تكلمني هكذا ؟ لمَ كل هذا اللطف الباطل في حين ان ليويس لم يقل لي مرة واحدة : ستعودين ؟ » . وقبلت في عجلة قدح المارتيني الذي ناولني اياه ويلي. كنت ثائرة الأعصاب. وكنت أتأمل في ضيق المائدة المثقلة بالفطائر، والسلَطات،والكاتو: إن الاتيان عليها يقتضي وقتاً طويلاً ! كانت دوروثي قد اختفت . وعادت ، وقد استحال وجهها ابيض من المسحوق، ترتدي ثوباً طويلاً رثاً ومزهراً. ووصل بيرت ، وفرجينيا ، وليويس بدورهم ، ضاحكين .. كانوا يتكلمون جميعاً معاً ولم احاول متابعة الحديث. كنت انظر الى ليويس الذي اضحى من جديد مرحاً

جداً واتساءل : « متى اجد نفسي وحيدة معه ثانية ؟ » . وهكذا ترصدت في الماضي ذهاب تيدي ، وذهاب ماريا . لكن نفاد صبري اليوم كان ابله : لن يكون ليويس قربي بعد الآن ، اذا ابتعد عن الآخرين. ووضع بيرت على ركبتي صحناً من السندويش ، وكان يبتسم لي وسمعته يسألني :

– هل كنت في باريس في ٢٤ آب ١٩٤٤ ؟

فقال ليويس بنوع من الفخر :

– لقد امضت آن الحرب كلها في باريس :

فقال بيرت :

– ياالذلك اليوم ! كنا نظن اننا سنجد مدينة ميتة :وفي كل مكان كانت نساء في اثواب مزهرة، لهن سيقان جميلة لوحتها الشمس،مختلفات جداً عن الفرنسيات كما نتصورهن هنا !

فقلت :

– أجل ، لقد خاب فأل مراسليكم من صحتنا الجيدة .

فقال بيرت :

– اوه ! بعض الحمقى ! كان من السهل ان نفهم ان المرضى والشيوخ لم يكونوا في الشوارع ، ولا المبعدون ولا الاموات . » وأضحى وجهه حالمـــاً : « كان يوماً خارقاً للمألوف على كل حال ! » .

فقال ويلي بأسف :

– حين وصلت ، كان الناس قد كفوا عن حبنا .

فقال بيرت :

– اجل ، سرعان ما جعلناهم يكرهوننا . لقد تصرفنا كوحوش .

فقال ليويس :

– رغماً عنا .

– كان يمكن منع ذلك ، كان يكفي بعض الحزم ...

فقال ليويس بحدة :

– أترى انه لم يشنق ما فيه الكفاية من البشر ؟ انهم يلقون بالرجال في الحرب ثم يشنقونهم عند اول اغتصاب !

فقال بيرت :

– لقد شنقوا الكثيرين ، موافق . لكن بالضبط : ذلك لانه لم تتخذ منذ البداية التدابير الضرورية .

فقال ويلي :

– اي تدابير ؟

فقالت دوروثي :

– آه ! اذا أخذوا يتكلمون عن حربهم ، فلن ننتهي !

كانت وجوه المحاربين الثلاثة تلتمع حيوية ، وكانوا ينتزعون الكلام من انفسهم في بعبعة . لم يكن ودهم تجاه فرنسا مشكوكاً فيه ، وما كانوا يشعرون تجاه بلادهم بأي زهو ، ومع ذلك كنت استمع اليهم في حرج : انها حربهم التي يروونها فيما بينهم ، حرب لم نكن لها إلا ذريعة مثيرة للسخرية قليلاً . كانت وساوسهم تجاهنا تشبه الوساس التي يمكن ان يشعر بها رجل امام امرأة ضعيفة او حيوان سلبي . ولقد كنت رأيت كيف صنعوا من تاريخنا اساطير من شمع . وحين سكتوا أخيراً ، سألتني افلين بصوت ذابل :

– وكيف هي باريس في هذا الوقت ؟

فقلت :

– مغزوة من قبل الاميركان :

فقال ليويس :

– لا يبدو ان هذا يعجبك ؟ يا للشعب الجاحد ! لقد اتخمناه بالحليب الناشف ، وسنغرقه بالكوكاكولا والدبابات ، ولا يركع عند اقدامنا ! » واخذ يضحك : « اليونان ، الصين ، فرنسا . نحن نساعد ، ونساعد ، هذا جنون . أمة من اولاد الكشافة » .

فقالت دوروثي بصوت عدائي :

– أتجد هذا مضحكاً ؟ ان التنكيت لشيء جميـــل ! » وهزت كتفيها :
« حين سنلقي قنابل ذرية على الأرض كلها ، سيسلينا ليويس ايضاً ببضع نكت طيبة وسوداء للغاية » .

فنظر إليّ ليويس بمرح : أليس فرنسياً الذي قـــال ان الضحك من الاشياء أفضل من التباكي عليها ؟ » .

فقالت دوروثي :

ليست المسألة مسألة ضحك او بكاء بل عمل .

فتغير وجه ليويس : « انني اصوت لوالاس ، واتكلم عنه : ماذا تريدين ان أفعل اكثر من ذلك ؟ » .

فقالت دوروثي :

– انت تعرف رأيي بوالاس . لن يخلق هذا الرجـــل ابداً حزبـاً يسارياً حقيقياً . انه يريد ان يفيد فقط الناس الذين يريدون ان يبتاعوا ضميراً مطمئنـاً بثمن بخس ...

فقال ويلي :

– يا إلهي ! دوروثي ، ان حزباً يسارياً حقيقياً ، ليس هو ليـــويس الذي يستطيع ان يخلقه ، ولا أي منا ...

فقلت :

– ومع ذلك ، فأنتم عديدون ممن يفكرون بما تفكر : أليست هناك وسيلة لاتحادكم ؟

فقال ليويس :

– اولاً ان عددنا يتناقص اكثر فأكثر . ثم اننا معزولون .

فقالت دوروثي :

– وعلى الاخص ، انت ترى ان من المريح اكثر بكثير ان تهزأ من ان تحاول شيئاً ما .

كانت سخرية ليويس الباردة تغيظني، انا ايضاً ، احياناً . كان بصيراً،ناقداً.

بل كثيراً ما كان يسخط . لكنه كان يشعر تجاه الاخطاء والعيوب التي يأخذها على اميركا بالصميمة نفسها التي يشعر بها المريض تجاه مرضه ، والمتشرد تجـــاه وسخه : وكان هذا يكفي ليبدو لي بشكل مبهم انـــه متواطىء . وقلت في نفسي فجأة انه حاقد علي لأنني لم استحسن بلاده، وانه لم يتلاءم قط مع بلادي: وكان هذا صلفاً . وكنت احتج في نفسي : « ما كنت لأصبح اميركية مقابـل اي شيء في العالم » وبينما كانوا يتابعون خصامهم ، كنت اتساءل عابثة من اين انبجست فيّ كوليت بودوش الغاضبة هذه ؟

وعادت بنا سيارة بيرت الى بيتنا ، واخذني ليويس بحنان بين ذراعيه «هل امضيت يوماً طيباً ؟ » .

كانت ابتسامته الحانية تملي علي جوابي . وما كانت حالي النفسية تهم احداً . وقلت :

– طيباً جيداً » واضفت : « كم كانت دوروثي عدائية ! » .

فقال ليويس .

– انها ليست سعيدة . » وفكر : « ولا فرجينيا ، ولا ويلي ، ولا افلين . انه لحظ كبير ان نشعر ، انت وانا ، اننا متلائمان مع نفسينا قليلاً » .

– انني لست متلائمة مع نفسي الى حد كبير .

– تمر بك اوقات سيئة ، كجميع الناس : لكن ليس ذلك مزمناً .

كان يتكلم في ثقة كبيرة حتى انني لم اجد ما اجيبه به . وتابع : «انهم جميعاً عبيد بقدر متفاوت : لأزواجهم ، لنسائهم ، لأولادهم . هذه هي تعاستهم » . فقلت :

– لقد قلت لي في العام المنصرم انك تتمنى ان تتزوج .

– احياناً افكر في ذلك .» واخذ ليويس يضحك: «ولكن ما ان سأحبس في بيت مع زوجة واولاد فلن افكر الا بشيء واحد : ان انقذ نفسي » .

وشجعني صوته المرح : « ليويس ، أتعتقد اننا سنلتقي ثانية ذات يوم ؟ » .

وفجأة غام وجهه . وقال بلهجة خفيفة : « لِمَ لا ؟ » .

– لأننا نسكن بعيداً جداً عن بعضنا البعض .
– اجل نحن نسكن بعيداً .

واختفى في غرفة الحمام . كانت هذه هي الحال دوماً : ما ان اقترب منه ، حتى يتهرب . انه خائف بدون شك من ان اسأله دفئاً ، او اكاذيب او وعوداً لا يستطيع ان يمنحني اياها . واخذت اخلع ثيابي . كنت قد توقعت ان تكون هذه الخلوة مخيبة ، ولكن خيبتي لم تتضاءل مع ذلك. كان حظاً ايضاً ان ينجسم جسدي مع جسد ليويس بحيث كان يحجب لا مبالاته بدون مشقة.وكنا ننام في سريرينا المتماثلين ، تفصلنا هوة جليدية ، ولم اعد افهم حتى معنى كلمة : شهوة .

كنت اتمنى لو كان قلبي مطاوعاً ايضاً بهذا الشكل . كان ليويس يزعم ان الحب يقتضي ان يركب الانسان رأسه:لنفترض انني امتنعت عن ركوب رأسي؟ كان ليويس نائماً ، وكنت اسمع أنفاسه المتعادلة،وللمرة الأولى حاولت ان أراه بعينين غير عيني":عيني دوروثي المستاءتين.صحيح انه اناني.لقد قرر ان يستخلص من قصتنا اكثر قدر ممكن من البهجة واقل قدر ممكن من الانزعاج ، واما ما كنت اشعر به في نفسي فهو عنده سيان . لقد تركني آتي الى شيكاغو دون ان ينذرني بشيء ، لأنه كان يعجبه ان يراني . وما ان أصبحت تحت رحمته ، حتى اعلن لي بدون مراعاة انه ما عاد يحبني . وعلاوة على ذلك كان يطلب ان اقابله بوجه بشوش : حقاً انه لا يهتم إلا بنفسه . وباختصار ، لمَ يدافع عن نفسه بجدة كبيرة ضد التأسفات ، والانفعالات ، والألم ؟ ان في هـذا الحذر شحاً . وحاولت في صباح اليوم التـالي أن اجد في الصراحة قوة . فنظرت الى ليويس وهو يروي في سيماء من انشغال ارض الحديقة وقلت في نفسي: « انه رجل بـين الآخرين . فلمَ اعاند في النظر اليه على انـه فريد ؟ » . وسمعت سيارة البريد . ورفع الساعي العلم الأحمر الصغير المعلق بصندوق ، ورماه في الداخل مع البريد. وصعدت في ممر الحصباء. لا رسائل، بل كمية من الصحف. سوف اقرأ الصحف، ثم سأختار كتابـاً من المكتبة ، وسوف اذهب للسباحة ، وسوف أستمع الى الاسطوانات بعد الظهر : كنت أستطيع أن أفعل كميـة من الاشياء المحببة دون

ان اعذب رأسي او قلبي .

وصاح ليويس :

– آن ! تعالي انظري : لقد التقطت قوس قزح . » كان يروي أرض الحديقة وكان قوس قزح يتراقص في انبجاس الماء . « تعالي بسرعة ! » .

وتعرفت ذلك الصوت الملح والمتواطىء ، ذلك الوجه الفرح : وجهاً لا يشبه اي وجه آخر . كان ليويس ، كان هو نفسه . لقد كفّ عن حبي ، لكنه ظل نفسه . فلمَ اسيء التفكير به فجأة ؟ كلا . لا استطيع ان انسحب بنفسي مع مثل هذا الربح . انني في الحقيقة افهمه . فأنا ايضاً اكره التعاسة وانفر من التضحيات : انني افهم ان يرفض في آن واحد ان يتألم من اجلي وان يخسرني . انني افهم ان ينهمك انهاكاً زائداً في تجنيب قلبه المشاق مما يمنعه من القلق كثيراً لما يجري في قلبي . ثم انني اذكر لهجته ، حين قال لي وهو يقلص يده على كتفي: « انني على استعداد للزواج منك حالاً » . ففي تلك اللحظة طردت عني كل حفيظة ، للأبد . حين يريد الانسان ان يكف عن الحب حقاً ، فإنه لا يعود يحب : لكنه لا يريد عن ارادة منه .

تابعت اذن حبي لليويس : لم يكن ذلك مريحاً قط . كان يكفي حنو في صوته كي اجده ثانية بأسره . وبعد دقيقة اكون قد فقدته من جديد . وحين ذهب ليمضي يوماً في شيكاغو ، في نهاية الاسبوع ، شعرت بالأحرى بالاطمئنان: اربع وعشرون ساعة من الوحدة ، سوف تكون راحة . ورافقته الى موقف الاوتوبيس . وعدت ببطء نحو البيت ، على طول الطريق المحفوف بالحدائق والفيلات الزاهية . وجلست على الارض المعشوشبة مع كتب . كان الجو شديد الحرارة ، وما كانت ورقة واحدة تتحرك . ومن بعيد كانت البحيرة صامتة . واخرجت من حقيبتي آخر رسالة من روبير . كان يروي لي بالتفصيل قضية مدغسقر ولقد كتب هنري مقالاً سوف يظهر في العدد القادم من « الطواريء »، لكن ذلك لم يكن كافياً مطلقاً . كان لا بد من وجود صحيفة يومية او اسبوعية كبيرة الإصدار للتأثير على الرأي العام . ولقد فكر في تنظيم مهرجان خطابي ،

لكن الوقت ضيق . وطويت الرسالة . وتبعت بعيني طائرة كانت تمر في السماء: ان الطائرات تمر في كل لحظة ، وكان بإمكانها ان تقلني الى باريس . ما الفائدة ؟ لو كنت قرب روبير لحدثني بدل ان يكتب إلي ، ولكن ما كان ذلك ليفيده . انني لا استطيع شيئاً له وهو لا يناديني ، ولا أملك أي سبب للذهاب من هنا . ونظرت حولي : كان العشب ملساً ، والسماء مصقولة ، والسناجب والطيور تبدو كحيوانات اهلية . ولم اكن املك ايضاً أي سبب للبقاء . وأخذت كتاباً: « الادب في انكلترة الجديدة » . كان سيستهويني قبل سنة واحدة ، لكن بلاد ليويس ، وماضيها ، لم تعد الآن تعنيني . وكانت جميع تلك الكتب الراقدة على الأرض المعشوشبة خرساء . وتمطيت : ما العمل ؟ لم يكن لديّ شيء أعمله على الاطلاق . ولبثت مغروسة هناك ، ساكنة مدة بدت لي طويلة جداً ، وفجأة استولى علي الرعب . لقد قلت في نفسي غالباً انه ليس هناك مصير أسوأ من ان اصبح مشلولة ، عمياء ، صماء ، مع وعي ساهر : وكان هذا مصيري . ونهضت أخيراً ودخلت الى البيت . واخذت حماماً ، وغسلت رأسي ، لكني لم أكن أعرف قط كيف اشغل نفسي بجسدي. وفتحت الثلاجة : ابريق من عصير البندورة ، وآخر مليء بعصير البرتقال ، وسلطات جاهزة . ولحوم باردة ، ولبن ، ولم يكن علي إلا ان أمد يدي . وكانت الرفوف مكتظة بعلب المحفوظات ، والمساحيق السحرية ، والأرز الجاهز الذي يكفي غطسه في ماء غالٍ : في ربع ساعة تناولت عشائي . لا شك ان هناك فناً لقتل الوقت ، لكنه غريب عني . ما العمل ؟ واستمعت الى بضع اسطوانات ثم أدرت زر التلفزيون . وتلهيت بالقفز من محطة الى اخرى ، خالطة بين الأفلام ، والكوميديات ، والمغامرات ، ونشرات الاخبار ، والمآسي البوليسية ، والقصص الغريبة . ولكن في لحظة معينة حدث شيء ما هناك ، في العالم . كنت أدير وأدير الزر ، لكن الشاشة ظلت بيضاء . وفكرت بالنوم . لكني للمرة الاولى في حياتي كنت خائفة من المتسكعين ، واللصوص ، والهاربين من المصح ، كنت خائفة من النوم وخائفة من الأرق . كانت البحيرة تزمجر الآن ،

والحيوانات تطقطق الاغصان الميتة . وكان الصمت ، في البيت ، خانقاً . وارتجت جميع الابواب ، وذهبت لآتي من غرفتي بغطاء ووسادة ، وتمددت بثيابي على الاريكة وتركت النور مضاء. ونمت . وعندئذ دخل رجال من النوافذ المغلقة ، وصرعوني. وحين استيقظت كان عصفور يصفر ، وآخر يختبر الاشجار بضربات من منقاره . كنت لا أزال افضل كوابيسي على الواقع ، فأطبقت عيني ثانية ، لكن النور كان باهراً تحت جفوني . ونهضت . كم كان البيت فارغاً! كم كان المستقبل عارياً ! في الماضي ، كنت نظرت بانفعال الى البرنس الأبيض الملقى على المقعد والخفين القديمين المنسيين تحت المكتب ، أما الآن فلم أعد اعرف ما تعنيه هذه الاشياء . انها تخص ليويس ، اجل ، ليويس لا يزال موجوداً : لكن الرجل الذي كان يحبني اختفى دون ان يترك أثراً. كان ليويس : ولم يكن هو . كنت في بيته . ولدى غريب .

وخرجت ، وصعدت ممر الحصباء : لقد اختفى علم صندوق الرسائل الأحمر ، ولا بد ان الساعي قد مر . واخذت البريد . كانت فيه رسالة لي : ميريام مسافرة الى المكسيك مع فيليب ، وهما يزمعان عند العودة ان يتوقفا في شيكاغو . ويأملان كثيراً ان يلتقيا بي . لم اكن قد رأيتها منذ ١٩٤٦ ولكن نانسي جاءت الى باريس في شهر ايار الماضي واعطيتها عنواني في اميركا . ولم يكن غريباً ان تكتب لي ميريام ، ومع ذلك نظرت الى الرسالة في ذهول . كانت تذكرني زمناً لم يكن فيه ليويس موجوداً بالنسبة لي : كيف اصبح غيابه هذا الفراغ المفترس ؟ فراغاً يبتلع كل شيء . كانت الحقيقة ميتة ، وكذلك ذكرياتي . من المستحيل ان اهتم ثانية واحدة بميريام ، بفيليب ، بأي شيء . لم يكن هناك اعتبار الا لذلك الرجل الذي انتظره والذي لا اعرف حتى من هو . لم اكن أعرف من أنا نفسي . وانعطفت في الحديقة ، وذرعت البيت طولاً وعرضاً ، وناديت : « ليويس ! عد ! ساعدني !» . وجرعت وسكي وبنزردين: عبثاً . دوماً ذلك الفراغ اللامحتمل . وجلست قرب النافذة المزججة وترصدت .

« ليويس ! » . كانت حوالي الساعة الثانيـــة حين سمعت وقع خطاه على الحصباء . واندفعت . كانت ذراعـــاه مثقلتين بالعلب : كتب ، اسطوانات ، شاي من الصين ، زجاجة شيانتي . لكأنها هدايا ، ولكأن اليوم يوم عيد . وأخذت الزجاجة من بين يديه :

– شيانتي : ما أحسن هذه الفكرة ! ألهوت جيـداً ؟ أربحت في البوكر ؟ ماذا تريد ان تأكل : بفتيكاً ؟ فروجاً ؟

فقال ليويس :

– لقد تغديت . » كان يتخلص من عليه ، ويخلع حذاءه ، ويضم خفيه .

– لقد استولى عليّ الخوف طوال الليل بدونك : حلمت بأن متسكعين يصرعونني .

– افترض انك شربت الكثير من الوسكي .

وجلس على المقعد قرب النافذة المزججة وجلست على الاريكة : « ستروي لي كل شيء » .

– لم يحدث شيء خارق للمألوف .

كنت قد استقبلته بالارتباك المعتاد عند النساء اللواتي مـــا عدن محبوبات : كثير من الحرارة ، كثير من الاسئلة ، كثـير من الاخلاص . كان يروي ، لكن بطرف شفتيه . أجل ، لقد لعب بالبوكر ، ولم يربح ولم يخسر . وكان تيدي في السجن ، لاسباب عادية . كلا لم يرَ مارتا . لقد رأى بيرت لكنهما لم يتحدثا عن شيء خاص . كان يبدو عليه الغيظ كلما طالبته بتفصيل ما.واخيراً أخذ صحيفة وفتحت كتاباً تظاهرت بقراءته . لم أكن قد تغديت ، لكني لم أكن أستطيع الاكل .

كنت أتساءل : « لكن ماذا أنتظر اذن ؟ » . لقد تخليت عن الامل في ان أستعيد الماضي ذات يوم. اذن ، ماذا أزمع؟ هل تستطيع الصداقة ان تحل محل حب ضائع؟لكن هذا لن يكون شيئاً كبيراً،لن يكون حباً ، ان أمكن لشيء ما أصلاً ان يقف على قدميه . كلا ، كان ذلك نهائياً كالموت نفسه . ومن جديـد

رحت افكر : « لو بقيت على الأقل بين يدي جثة !» . كنت أود لو أقترب من ليويس ، وأضع يدي على كتفه ، وأسأله : « كيف أمكن لمثل هــذا الحب ان يتبخر ؟ اشرح لي». لكنه سيجيبني: «ليس هناك ما يتطلب الشرح»واقترحت:

- ألا تريد ان تقوم بجولة على الشاطىء ؟

فقال دون ان يرفع عينيه :

– كلا لست راغباً في ذلك مطلقاً .

كانت قد انقضت ساعتان فقط . وكان لا تزال أمامي نهاية بعد الظهر كلها لاعيشها ، ثم السهرة ، والليل ، ويوم آخر ، وايام اخرى أيضاً . كيف أقتلها ؟ لو كانت هناك فقط سينما في الجوار ، او ريف حقيقي فيه غابات ومروج كنت سأمشي فيها حتى تنهك قواي ! لكن هذه الطرق المستقيمة المحفوفة بالحدائق ، أشبه بساحة سجن . وملأت كأساً . كانت الشمس تلمع ومع ذلك لم يكن النور قوياً بما فيه الكفاية ليوقف الاشياء عند حدها، فكانت تسحقني. كانت أحرف كتابي تلتصق بعيني وتعميني : لا مجال للقراءة . وحاولت ان افكر بباريس ، بروبير ، بالماضي ، بالمستقبل . مستحيل . كنت حبيسة في هـــذه اللحظة ، مكتوفة ، والغل في عنقي . كان وزني يخنقني ، وأنفاسي تسمم الجو : انمـا من نفسي كنت اريد أن أهرب . وهذا بالضبط ما لن يمنح لي أبداً . كنت أفكر: « انني اريد كل الارادة أن أتخلى عن فعل الحب ، وان أتنكر في ثيـاب امرأة عجوز ، وأن يكون شعري أبيض : لكن ألا أستطيع هجر نفسي بعد اليوم ، فيا له من عذاب ! » . ولمست يدي الوسادة ، وتركتها . كنت منقادة أكثر مما ينبغي . كان الكحول يتأكل معدتي دون ان يحدث شيء ما : ان هذا العذاب الساكن لا يمكن ان يدوم أبداً. كان ليويس لا يزال يقرأ وجاءني إلهام مفاجىء: « انه لم يعد نفسه ! » ان الرجل الذي يحبني قد اختفى وكذلك ليويس . كيف أمكن لي أن أنخدع ! ليويس ! انني لأتذكره جيداً ! كان يقول : « ان لـــك رأساً صغيراً ، مستديراً .. هل تعرفـين كم أحبك ؟ » . كان يعطيني زهـرة ، ويسأل : « هل تُؤكل الزهور في فرنسا ؟ » . إلامَ صار اليه ؟ ومن حكم عـلي

بهذه الخلوة المأتمية مع مخادع ؟ وفجأة سمعت صدى ذكرى كريهة : تثاؤب .

قلت وأنا أذوب دموعاً :

— آه ! لا تتثاءب !

فقال :

— آه ! لا تبكي .

وتهالكت بكل طولي على الأريكة. كنت أهوي هوياً . وكانت اسطوانات برتقالية تدور أمام عيني وكنت أهوي في الكلمات . وقال ليويس بغضب :

— حين تبدئين في البكاء ، تأخذني الرغبة في الذهاب من هنـــا كي لا أعود أبداً .

وسمعته يغادر الغرفة . كنت اغيظـــه ، وسوف ينتهـــي الأمر بي الى فقدانه ، وكان علي ان أتوقف . وقاومت لحظة : ثم غصت حتى الاعماق . ومن بعيد جدا ، سمعت وقع خطا . كان ليويس يمشي في القبو ، وقد روى الحديقة، ودخل الى البيت . وتابعت البكاء .

— ألم تنتهي ؟

فلم أجب . كنت منهكة ، لكني لا أزال ابكي . انها لهائلة كمية الدموع التي يمكن ان تحتويها عينا امرأة . وذهب ليويس ليجلس الى مكتبـه . وطقطقت الآلة الكاتبة . كنت افكر : « لو كان كلباً لما تركته يتألم . وانا أبكي بسببه وهو لن يقوم بحركة » . وصرفت على أسناني . كنت قد وعدت نفسي بألا اكرهـه ابداً ، ذلـــك الرجل الذي فتح لي قلبه دون تحفظ . كنت اكرر في نفسي : « ولكنه لم يعد نفسه ! » كانت أسناني تصطك ، وما كان من الصعب أن اصاب بنوبة عصبية . وبذلت جهداً مزقني من رأسي الى قـــدمي ، وفتحت عيني ، وعلقت نظري بالحائط ، وصحت :

— ماذا تريد أن أفعل ؟ انني حبيسة هنـا ، حبيسة معك . لا استطيع أن اذهب لأرقد في حفرة .

فقال بصوت اكثر وداً قليلاً :

– يا إلهي ! كم تسببين الألم لنفسك !

فقلت :

– انه أنت . انك لا تحاول حتى ان تساعدني .

– ماذا يمكن أن أفعل لأمرأة تبكي ؟

– لو كنت شخصاً آخر ، اساعدته .

– انني أكره أن أراك تفقدين الرشد .

– هل تعتقد انني افعل ذلك عمداً ؟ هـل تعتقد ان من السهل ان تعيش مع شخص تحبه وما عاد يحبك ؟

كان لا يزال جالساً في مقعده ، ومـا عاد يسعى الى الهرب ، لكني كنت أعرف انه لن ينتزع من نفسه الكلمة التي نحن بحاجة اليها لإنهاء هـذا الفصل . وكان علي أنا ان اخترع نهاية . والقيت بكلمات كيفما اتفق : « انني لست هنـا الا من أجلك ، ليس لي غيرك ! فحين أثقل عليك ، ماذا أستطيع ان أصبح؟» .

فقال :

– لا داعي للنحيب لانني لا أرغب في الحديث معك في اللحظة نفسهـا التي تتمنين فيها ذلك . هل يجب ان انفـّذ رغباتك كافة ؟

فقلت :

– آه ! أنت ظالم جداً ! » ومسحت عيني : « أنت دعوتني لقضاء الصيف هنا ، وقلت لي انك مسرور بوجودي هنا . اذن يجب ألا تظهر هـذه الملامح الكارهة » .

– انني لست كارهاً . لكن حين تبدئين في البكاء ، تأخذني الرغبة في الذهاب من هنا ، هذا كل شيء .

فقلت :

– انني لا ابكي كثيراً الى هذا الحد . » ولويت منديلي في يـدي : « انت لا تدرك . لكأنني في بعض الأحيان عدوّ ، لكأنك ترتاب بي ، إنّ هذا فظيع» .

فابتسم ليويس ابتسامة صغيرة : « انني ارتاب قليلاً » .

فقلت :

– لا يحق لك ! انا اعرف جيداً انك لا تحبني . انني لن اسألـك ابداً شيئاً ما يشبه الحب . فأنا ابذل جهدي كي تكون لنا علاقات طيبة .

فقال ليويس :

– اجل ، انت لطيفة جـداً . » وأضاف : « لكن بالضبط ، انمـا لذلك ارتاب فيك » . وارتفع صوته : « ان لطفك لهو أخطر فخ ! فهكذا نلتني في السنة الماضية . كان يبدو لي من العبث ان ادافع عن نفسي ضد شخص لا يهاجمني ، ولهذا لم أدافع عن نفسي ، وحين كنت أجـد نفسي بمفردي ، كان الاضطراب يسيطر على قلبي من جديد . كلا . لا اريد ان يتكرر ذلك ! » .

فنهضت ، وخطوت بضع خطوات محاولة تهدئة نفسي . ان يـلومني على لطفي ، حقاً لقد تجاوز أبعد الحدود ! وقلت :

– انني لا استطيع ان أكون غير لطيفة عمداً ! » وأضفت : « انت حقاً لا تسهل الامور علي . واذا كانت الحـال هكذا ، فإنني لا أرى الا حلاً واحداً : أن أرحل » .

فقال ليويس :

– لكني لا أرغب في ان ترحلي ! » وهز كتفيه : « ليست الأمور سهلة علي انا الآخر » .

فقلت :

– أعرف .

نهائياً ، لم أستطع ان أترك الغضب يستولي علي تجاهـه . لقد تمنى أن يحتفظ بي الى جانبه ، للأبد ، ورفضت : واذا كان مزاجه اليوم متقلباً ورغباته غـير منسجمة ، فيجب ألا ادهش لذلك . ان المرء ليناقض نفسه رغماً عنه حين يضطر الى ان يريد ما لا يريده . وقلت :

– لست راغبة في الرحيل . لكن يجب الا تبدأ بكرهي .

فابتسم : « أوصلنا الى هذا الحد ؟ » .

– منذ لحظة كنت تركتني أموت في مكاني دون ان تحرك اصبعاً .

فقال :

– هذا صحيح. ما كنت لأستطيع ان أرفع اصبعاً. لكن لم تكن خطيئتي: كنت مشلولاً .

فاقتربت منه . كنت اريد ، وقـــد أخذنا بالكلام أخيراً ، ان أستفيد من هذه الفرصة . فقلت :

– انت مخطىء اذ ترتاب بي . ثمة شيء يجب ان تعرفـــه : انني غير حاقدة عليك ، انني لم أحقد عليك قط لأنك ما عدت تحبني . ليس هناك سبب لأن تستكره التفكير بما افكر به عنك . ليس فيّ شيء يمكن ان يكون بالنسبة لك مستكرهاً .

وتوقفت . كان ينظر اليّ بشيء من القلق . كان يخـــاف من الكلمات . انا كذلك. لقد رأيت الكثير من النساء يحاولن ان يهدئن بالكلمات ندم أجسادهن. انني أعرف الكثيرات منهن نجحن بشكل محزن في استدراج رجـــل دوخته الكلمات الى السرير . انه لشيء فظيع ان تحاول المرأة اجتلاب يدي رجل الى جسدها بمخاطبتها عقله . وأضفت فقط :

– نحن صديقان ، ليويس .

– بالتأكيد ! » وطوقني بـــذراعه وهمس : « آسف على انني كنت قاسياً جداً » .

– آسفة على أنني كنت حمقاء جداً .

– أجل! واية حمقاء ! ومع ذلك فقد خطرت لك فكرة طيبة : لمَ لم تذهبي لترقدي في حفرة ؟

– لأنك ما كنت ستأتي لاخراجي منها .

فضحك : « بعد يومين ، كنت أخطرت البوليس » .

فقلت :

– انت تربح دوماً . ليس هـــذا عدلاً : لن أستطيع ابداً ان اتألم طوال

يومين ، ولا ان احاول ايلامك ساعة واحدة .

– هذا صحيح . لا يوجد خبث كثير في هذا القلب المسكين . ولا كثير من الحكمة في هذا الرأس !

– لهذا يجب ان تكون لطيفاً معي .

فقال وهو يشدني إليه بمرح :

– سأحاول .

ومن ذلك الحين ، تضاءلت المسافة بيننا . حين كنـــا نتنزه على الشاطىء ، حين كنا نرقد تحت الشمس ، او عند المساء ونحن نصغي الى الاسطوانات ، كان ليويس يكلمني بوفرة . كان تفاهمنا يُبعث ثانية . لم يعـــد يخشى أن يطوقني ، ويقبلني . بل لقد فعلنا الحب ، مرتين او ثلاثاً . وحين أحسست بفمه الذي كان يلاقي فمي ، اخذ قلبي يخفق بجنوناً : ان قبلات الشهوة تشبه للغاية قبلات الحب ! لكن سرعان ما تمالك جسدي نفسه . لم يكن الا جماعاً زوجياً قصيراً ، فعلاً لا يعني شيئاً حتى انني لم أفهم كيف امكن لافكار اللذة والخطيئة الكبيرة ان ترتبط به .

كانت الايام تمر دون شفقة كبيرة . وكانت الليـــالي على الاخص هي الصعبة عليّ . كانت دوروثي قد اهدتني كمية من الكبسولات الصغيرة الصفراء : كانت تملك مجموعـــة من الحبوب ، والاقراص ، والكبسولات ، لمختلف الاستعمالات . وكنت ابلع دوماً حبتين منومتين او ثلاثاً قبل ان اذهب الى الفراش ، لكني كنت انام واشاهد احلاماً . وسرعان ما شكوت من ألم جديد : بعد شهر ، او خمسة عشر يوماً ، او عشرة ايام ، سوف ارحل . هـــل سأعود ذات يوم ؟ هل سأرى ليويس ثانية ؟ لا شك في انه نفسه لم يكن يعرف الجواب : كان لا يحسن التنبوء بمشاعر قلبه .

وقررنا ان نقضي الاسبوع الاخـــير في شيكاغو . وذات مساء تلفنت ميريام من دنفر لتسألني هل نستطيع ان نلتقي . وقلت نعم واتفقنا مع ليويس ان اذهب الى شيكاغو قبله بيوم : وسوف ألاقيه في البيت في اليوم التـــالي حوالي

منتصف الليل . كان هـــذا في حينه يبدو بسيطاً جداً ، لكني صباح رحيلي ، شعرت بقلبي لا يطاوعني . كنا نتنزه على طول الشاطىء. وكانت البحيرة خضراء قاسية حتى انه كان يمكن السير على امواجها . وكانت فراشات ميتة ترقـد على الرمل . وكانت المنازل الريفية مقفلة كلها ، باستثناء كوخ للصيادين الذين كانوا يجففون شباكهم بحذاء مركب اسود . وكنت افكر : « انهـا المرة الاخيرة التي أرى فيهـا الحديقة . المرة الاخيرة في حياتي » . كنت انظر بكل عيني . لم أكن اريد ان انسى . ولكن كان لا بد ، لكي يبقى الماضي حياً ، ان اغذيه بالتأسفات والدموع . ولكـن كيف احتفظ بذكرياتي واحمي قلبي ؟ وقلت على حين غرة : سأتلفن لأصدقائي بأنني لست ذاهبة » .

فقال ليويس :

– لماذا ؟ يا لهذه الفكرة !

– افضل ان ابقى هنا يوماً آخر .

فقال ليويس مؤنباً ، وكأنه لا يستغرب شيئاً كما يستغرب تقلبـات المزاج : « لكنك كنت مسرورة جداً برؤيتهم » .

فقلت :

– لم تعد بي رغبة .

فهز كتفيه : « انني اجدك لا معقولة » .

ولم أتلفن . بالفعل ، كان من اللامعقول ان أبقى ما دام ليويس يجد بقائي لا معقولاً . ولم تعد عنده أهمية لرؤيتي يوماً بالزائد او بالناقص ، اذن ماذا يفيدني ان اجرجر نفسي يوماً آخر على هـــذا الشاطىء ؟ وودعت الجميع . وقـالت دوروثي : « ستعودين ؟ » ، وقلت : « اجل » . واعددت حقائبي ، وعهدت بها الى ليويس ولم احمل الا حقيبة ليل صغيرة. وحين اطبق وراءنا باب البيت سألني: «ألا تريدين ان تودعي المستنقع؟»فهززت رأسي واتجهت نحو موقف الاوتوبيس. لو كان يحبني ، لما كانت مأساة ان اتركه لأربع وعشرين ساعة . ولكن البرد كان يستولي على قلبي : كنت بحاجة لوجوده لأتدفأ . كنت قد بنيت لنفسي في

هذا البيت عشاً غير مريح ، لكنه عش على كل حال ، وكنت أتدبر أمري فيه. كنت اخشى ان اغامر في الجو العاري .

وتوقف الاتوبيس . ووضع ليويس على خدي قبلة روتينية : « إلهي جيداً » وانصفق الباب، واختفى. عما قريب سوف ينصفق باب آخر ، وسوف يختفي، للأبد : كيف سأتحمل بعيداً عنه هذا اليقين ؟ وحين جلست في القطار ، كان الليل يسدل ستوره . وكانت وردة بلون الشاي تنتشر في السماء . وأخذت افهم انه يمكن للمرء ان يغمى عليه اذا تنشق وردة . وعبرنا المرج . ثم دخل القطار الى شيكاغو . كنت أتعرف الواجهات المبنية من القرميد الأسود والمتصلة بأدراج وشرفات خشبية : كان ذلك منسوخاً بآلاف النسخ ، بيت حبي الذي لم يعد بيتي .

ونزلت في المحطة الرئيسية. كانت نوافذ البنايات الشاهقة تضاء، وقد أخذت لافتات النيون تلمع . الانوار ، الواجهات الزجاجية الحافلة ، وضجة الشوارع العظيمة كانت تدوخني . وتوقفت عند ضفة النهر . كانت جسوره مرفوعة ، وكانت باخرة سوداء المداخن تشق في ابهة المدينة الخانعة الى قسمين . ونزلت ببطء نحو البحيرة بحذاء المياه الداكنة التي كانت تلمع فيها نيران حبيسة . لم تكن هذه الصخور الشفافة ، هذه السماء المدهونة ، هذه المياه التي تتصاعد منها انوار مدينة مغمورة ولجبتها ، حلماً ، يحلمه شخص آخر : بل كانت انسانية ، رابلة ، واقعية ، مدينة أرضية امشي عليها ، بلحمي وعظمي . وما كان اجملها تحت بروكارها الفضي ! كنت انظر اليها بكل عيني، وكان شيء ما يدب بخجل في قلبي . يظن ان الحب هو الذي يعطي العالم رونقه كله : لكن العالم يغني الحب ايضاً بثرواته . كان الحب ميتاً ، وها هي الارض لا تزال هنا ، سليمة بأناشيدها السرية ، وروائحها ، وحنانها . كنت اشعر بنفسي منفعلة كالناقه الذي يكتشف اثناء حمّياته ان الشمس لم تنطفىء .

لم تكن ميريام ولا فيليب يعرفان شيكاغو . لكنهما وجدا الوسيلة ليضربا لي موعداً في اكثر مطاعم المدينة ارستقراطية . وتوقفت امام مرآة ، وانا اجتاز

قاعة البهو الفخمة . كانت المرة الاولى منذ عدة اسابيع التي انظر فيهـا الى نفسي وجهاً لوجه . كانت تسريحتي وزينتي على طريقـة أهل المدن ، وكنت قد اخرجت بلوزتي المفصلة من القماش الهندي . كانت ألوانها لا تزال زاهية كما كانت في شيشيكاستينانغو ، فأنا لم اهرم ، ولم يتغضن وجهي . ولم يكن مستحباً عندي ان التقي بصورتي . وجلست الى البار ، وتذكرت مندهشة وأنا أشرب كأس مارتيني انه توجد انتظارات هادئة وان الوحدة يمكن ان تكون خفيفة .

— آن العزيزة ! » كانت ميريام تقبلني . كانت تبدو اصغر وأكثر حزمـاً تحت شعرها الابنوسي والفضي . وكانت قبضة يـد فيليب محملة بتلميحات لا يمكن التصريح بها . كان قد سمن قليلاً . لكنه احتفظ بسحره المراهق ، وأناقته الباردة . وتكلمنا بلا تناسق عن فرنسا ، وزواج نانسي ، والمكسيك . وذهبنا لطلب طاولة في القاعة الكبيرة ذات السقف الراشح بالبلور والتي كان يديرهـا رئيس خدم صلف . كانت — الله يعلم اي نزوة تكمن وراء ذلك — صورة طبق الاصل لقاعة « باث[1] » المسماة « بامب روم » حيث كان انكليز القرن الثـامن عشر الأنيقون يأتون لشرب الميـاه . وكان خدم زنوج متنكرون في ثياب ماهاراجات هنود يرفعون على السفافيد ارباع الخراف المتلظية . وكان آخرون ، متقنعون في ثياب خدم القرن الثامن عشر ، يحملون سمكات ماردة .

وقلت :

— يا لها من مسخرة !

فقال فيليب ، وهو يبتسم بابتسامته الرقيقة :

— انني احب هذه الامكنة السخيفة .

كانوا قـد افرغوا له اخيراً الطاولة التي حجزها ، وبذل عنايـة كبيرة في تشكيل طعامنا . وحين بدأنا نتحادث ، تبينت بدهشة اننا لم نكن متفقين على اي شيء تقريباً . كانا قد قرآ كتاب ليويس ، ولم يجداه صعباً على الفهم بما فيه الكفايـة . وكانت مصارعات الثيران في مكسيكو قـد اثارت اشمئزازهما .

---

١ — باث : بلدة مياه معدنية في انكلترا « المترجم » .

وبالمقابل ، بدت لهما القرى الهندية في هندوراس وغواتيمالا جنات عدن شاعرية.
وقلت :
– شاعرية للسياحة ! لكن ألم تريا جميع أولئك الصبيان العميان ، والنساء ببطونهن المنتفخة ؟ جنات غريبة !
فقال فيليب :
– يجب ان نحكم على الهنود حسب مقاييسنا نحن .
– حين يموت الانسان جوعاً فهو يموت جوعاً ، هذا واحد بالنسبة لجميع الناس .
فرفع فيليب حاجبيه وقال : « غريب . ان اوروبا تتهم الاميركان بأنهم ماديون . لكنكم تعلقون من الاهمية أكثر بكثير مما نعلق على المظاهر المادية للحياة » .
فقالت ميريام :
– ربما يجب على الانسان ان يتمتع بالرفاهية الاميركية ليفهم الى أي حد لا تهم الرفاهية .
كانت تلتهم في تجرد حصتها من البطة بالكرز ، وكان ثوبها الكهربائي الزرقة يكشف عن كتفين جميلتين ناضجتين : كانت قادرة حتماً على النوم في منزل متنقل ، وعلى اتباع حمية نباتية مدروسة مقاديرها بعناية ، لبعض الوقت .
وقلت بحدة قليلاً :
– ليست المسألة مسألة رفاهية . ان يكون الانسان محروماً مما هو ضروري ، فهذا شيء يهم . ولا شيء آخر يهم .
فابتسم لي فيليب : « ما هو ضروري للبعض ليس ضرورياً للآخرين ، انت تعرفين خيراً مني مدى ذاتية السعادة » . ودون ان يترك لي الوقت لاجيب ، تابع : « نحن نفكر كثيراً بالذهاب لتمضية سنة او سنتين في هندوراس للعمل في هدوء . انا واثق ان هذه الحضارات القديمة تستطيع ان تعلمنا الشيء الكثير » .
فقلت :

– لست ارى حقاً ماذا . فبمقدار ما تنتقد ما يجري الآن في اميركا ، يجدر بك ان تحاول فعل شيء ما ضد ذلك .

فقال فيليب :

– انت ايضاً ، تستسلمين لهذا العصاب ! التأثير : انه الفكرة المسيطرة على جميع الكتّاب الفرنسيين . هذا يكشف عن عُقد مثيرة : لانهم يعلمون تماماً انهم لن يغيروا شيئاً .

فقلت :

– جميع الكتاب الاميركان يشكون من العجز ، وهذا ما يبدو عقدة مثيرة للفضول . لن يكون لك الحق في ان تسخط يوم تسيطر الفاشية على اميركا بأسرها ، او يوم تدلع اميركا نار الحرب .

فتركت ميريام قطعة اللحم المحشوة بالارز والمشكوكة بطرف شوكتها تسقط ، وقالت بجفاء : « انت تتكلمين كشيوعية ، يا آن » .

فقال فيليب وهو يحدجني بنظرة مثقلة بالتأنيب :

– اميركا لا تريد الحرب . قولي ذلك لاصدقائك الفرنسيين . واذا كنا نهيئها بنشاط ، فهذا بالضبط كي لا نضطر الى خوضها . ولن نصبح ابداً فاشيين .

فقلت :

– ليس هذا ما كنت تقوله قبل سنتين . كنت ترى ان الديموقراطية الاميركية مهددة جدياً .

فأصبح وجه فيليب خطيراً للغاية : « ما فهمته منذ ذلك ، هو انه لا يمكن الدفاع عن الديموقراطية بطرق ديموقراطية . ان تعصب الاتحاد السوفياتي يرغمنا على تصلب مماثل . وهذا يؤدي الى مبالغات انا اول من يأسف لها : لكنها لا تعني اننا اخترنا الفاشية . انها تعبر عن المأساة العامة للعالم الحديث » .

وتفرست فيه بدهشة . كنا نتفاهم جيداً قبل عامين . كان يطالب آنذاك بقوة باستقلال فكره : ولقد ترك الدعاوة الرسمية تقنعه بسهولة كبيرة ! كان ليويس على حق بدون شك حين قال لي : «ان عددنا يتناقص اكثر فأكثر ...».

وقلت :

— بتعبير آخر ، ان السياسة الحالية لوزارة الخارجية تبدو لك انها يقتضيها الموقف ؟

فقال بلطف :

— حتى لو كان بامكاننا ان نتصور سياسة مغايرة ، يا عزيزتي آن ، فلن اكون انا القادر على فرضها . كلا ، اذا كنا نتمنى ان نرفض كل تواطؤ مع هـذا العصر المحزن ، فان الحل الوحيد هو ان ننسحب الى زاوية ما ضائعة وان نعيش فيهـا بعيداً عن العالم .

كانا يريدان ان يتابعا بلا همٍ حياتهما الجميلة المريحة ، ولن تقف اي حجة عقبة في وجه انانيتهما الملحوظة . وقررت ان اترك الموضوع ، وقلت : « اعتقد اننـا نستطيع ان نتناقش طوال الليل دون ان يقنع احدنا الآخر . انه لوقت ضائع ، فالمناقشات لا تؤدي الى شيء » .

فقال فيليب مبتسماً :

— خاصة واننا حرمنا منك مدة طويلة جداً واننا سعداء جـداً برؤيتك ثانية ! » واخذ يتكلم عن شاعر اميركي جديد .

قال فيليب ونحن نخرج من المطعم :

— آن ، اننا نضع هذه الليلة بين يديك . انا واثق انك دليل مدهش .

وركبنا السيارة واخذتها الى شاطىء البحيرة . ووافق فيليب : « انه اجمل خط جوي في اميركا ، اجمل من خط نيويورك » . وبالمقابل اتضح ان المسارح ادنى مستوى من مسارح بوسطن ، وان بارات المتشردين اقل غرابـة من بارات سان فرنسيسكو . وكانت هذه المقارنات تدهشني : بمَ يمكن ان اقارن تلـك الامكنة التي اخرجها ليويس ذات ليلة من العدم؟ هل لها مكانها اذن في الجغرافية؟ والواقع انني كنت اكتشف بيسر من خلال ذكرياتي الطرق التي تقود اليها . كان نادي ديليزا يمت الى ماضٍ متوفى ، ولم يكن يقع في اي مكان على الارض : وها هو يظهر عند زاوية شارع متصالب مع شارع آخر ، وكان لكليهما اسم ، وكانا

مؤشرين على خارطة ما .

وقال فيليب في سيماء من رضى :

– ان المكان ممتاز .

وبينما كنت انظر الى المشعوذين ، والراقصين ، والبهلوانيين ، كنت أتساءل باستياء ما كان سيحدث لو انه اجاب قبل عامين على الهاتف : « انني قادم » . لا شك في اننا كنا سنقضي بضع ليالٍ جميلة ، ولكن ما كنت احببته مدة طويلة ، ما كنت أحببته أبداً حباً حقيقياً . كان يبدو لي غريباً جداً ان تكون الصدفة قد قررت بدلاً عني بثقة كبيرة . ولا ريب في أنها لم تكن صدفة إذا كان فيليب قد فضل علي نهاية اسبوع في « كاب – كود » اذا كان احتراماً لامه لم يلحق بي الى غرفتي . ولما كان اكثر حماسة ، واكثر كرماً ، فانه كان سيفكر ، ويشعر ، ويعيش ، بطريقة مختلفة ايضاً : كان سيكون شخصاً آخر . هذا لا يمنع ان الظروف المختلفة قليلاً كان يمكن ان تلقي بي بين ذراعيه ، وان تحرمني من ليويس . كانت هذه الفكرة تثير تمردي . لقد كلفتني قصتنا الكثير من الدموع . ومع ذلك ما كنت لأقبل بانتزاعها من ماضيّ مقابل أي شيء في العالم . وأحسست فجأة بعزاء لانها ، حتى ولو انتهت ، وصدر الحكم عليها ، ستتابع ابداً الحياة فيّ .

حين خرجنا من النادي ، عاد بنا فيليب باتجاه البحيرة . كانت البنايات الشاهقة قد تبخرت في ضباب الفجر . وأوقف السيارة بحذاء المشتل ، ونزلنا نحو البساتين المظلة على البحيرة لنسمع عن قرب أقرب هدير للمياه المزرقة : كم كانت جديدة تحت السماء ذات الانعكاسات المائلة الى الزرقة ! وقلت في نفسي بأمل : « انا أيضاً ، ستبدأ حياتي من جديد : ستكون ايضاً حياة ، حياتي الخاصة بي » . وبعد ظهر اليوم التالي اخذت ميريام وفيليب للنزهة عبر الحدائق، والشوارع، والاسواق التي تخص بكل وضوح مدينة أرضية أعرف كيف أتوجه فيها دون وصاية . وإذا كان العالم قد أعيد إلي ، فإن المستقبل لم يعد مستحيلاً كل الاستحالة .

ومع ذلك ، حين اتجهت السيارة الحمراء نحو نيويورك عند الغسق ، ترددت في العودة : كنت خائفة من الغرفــة المهجورة ومن الحداد في قلبي . وذهبت الى دار السينما . ثم سرت في الشوارع . لم اكن قــد تنزهت قط بمفردي في شيكاغو ليلاً . كانت المدينة ، تحت أرديتها المغطاة بنثار الذهب ، قد فقدت هيئتهــا المعادية ، لكن لم اكن اعرف ما افعل بها . كنت اتسكع ، محتــارة في حفلة أُدعَ اليها ، وكانت عيناي تغرورقان . وشددت على شفتي . كلا ، لا اريــد البكاء . وفي الحقيقة ، انني لا أبكي ، قلت ذلك في نفسي . انهــا أنوار الليل التي ترتعد فيّ ، ولمعانها يتكثف في قطرات مالحة عند حافة اهدابي . لأنني هنا ، لأنني لن أعود ، لأن العالم غني جداً ، فقير جداً ، والماضي ثقيل جداً ، خفيف جداً . لأنني لا أستطيع ان اجد السعادة في هذه الساعة الجميلة جداً ، لأن حبي مات وانا لا أزال على قيد الحياة .

وركبت سيارة . ووجدت نفسي من جديد عند زاوية الممر المزحوم بعلب القمامة . وعند المدخل المعتم ، اصطدمت بالدرجة الاولى من الدرج . وكان يلمع حول خزان الغاز اكليل أحمر ، ومن بعيد كان قطار يصفر . وفتحت الباب . كانت الغرفة مضاءة، لكن ليويس نائم . خلعت ثيابي،اطفأت النور ، وانسبت في هذا السرير الذي طالما بكيت فيه . اين وجدت هــذه الدموع كلها ؟ لأي شيء ؟ وفجأة لم يعد في داخلي ما يستحق نحيباً . وانسحقت بالجدار . منذ زمن بعيد لم ارقد في حرارة ليويس ، فكان يخيل إليّ ان مجهولاً قــد تخلى لي إشفاقاً عن قطعة من فراشي . وتحرك ، ومد يده :

— هل عدتِ ؟ كم الساعة ؟

— منتصف الليل . لم اشأ ان آتي قبلك .

— اوه ! كنت هنا في العاشرة . » كان صوته قد استيقظ تماماً : « مــا أحزن هذا المنزل أليس كذلك ؟ » .

فقلت :

— لقد كان يوجد سحر ، هنا .

– سحر ؟ لست ادري . لكن كان يأتي أناس على الأقل ، وتحدث أمور .

كان ، وهو مستلقٍ على ظهره في الظلام ، يتذكر بصوت عال الايام والليالي التي انقضت في هذه الغرفة ، كان قلبي ينقبض . كانت حياته قد بدت لي شاعرية مثلما بدت لفيليب حياة الهنود ، لكن اي وجـــود متزمت بالنسبة له ! كم من اسابيع ، كم من أشهر دونما لقاء ، دونما مغامرة ، دونما حضور ! ألا كم تمنى ولا بد امرأة تكون له بأسرها ! لقد ظن لحظة انه يفلت من الوحدة ، وتجرأ على تمنّي شيء آخر غير الأمن : ولقد خاب أمله ، وتألم ، ثم تمالك نفسه . وأمررت يدي على وجهي : ستظل عيناي بعد اليوم جافتين . انني أفهم كل الفهم انــه لم يستطع ان يعرض نفسه لترف الأسف،ولا لترف الانتظار انني لا اتمنى ان اكون حطاماً في حياته . ولم يكن لي الحق حتى في تأسف ما . لم تبق لي شكوى . لم يبق لي اي شيء على الاطلاق . وفجأة ، اضاء النور ، وابتسم لي :

– آن ، ألم تقضي صيفاً رديئاً أكثر مما ينبغي ؟

فترددت : « انه لم يكن افضل صيف في حياتي » .

فقال :

– اعرف ، اعرف . وهناك اشياء كثيرة آسف لها . لقد ظننت احياناً انني اشعر بنفسي متفوقاً او معادياً . لم يكن ذلك صحيحاً البتة ، لكني ، في بعض اللحظات ، تسيطر عقدة على صدري . وعندئذ أفضل أن اترك الجميع يموتون وانا معهم على أن أقوم بحركة .

فقلت :

– اعرف أيضاً . افترض ان هذا يعود الى تاريخ بعيد . لا بد ان هذا عائد للشباب القاسي الذي عشته ، ولطفولتك أيضاً دون ريب .

فقال ضاحكاً ، ولكن بعد ان اصبح على أهبة الدفاع عن نفسه :

– آه ! لن تحلليني تحليلاً نفسياً !

– كلا ، لا تخف . لكني اذكر انني حين أردت ، منـــذ سنتين ، في نادي ديليزا ، ان اعيد اليك خاتمي وأسافر الى نيويورك ، قلت لي فيما بعد : « مسـ

كنت لأستطيع ان انتزع من نفسي كلمة واحدة ... » .

– أقلت هذا ؟ اي ذاكرة لك !

فقلت :

– اجل ، ان لي ذاكرة جيدة . وهذا لا يساعد . الا تذكر اننا فعلنا الحب ذلك المساء دونما كلمة ، وكنت تبدو شبه كاره ، وقد قلتُ : « هل تضاءلت صداقتك نحوي ؟ » . وعند ذاك أدرت لي ظهرك واجبتني : « صداقة ، لكني احبك ! » .

كنت قد قلدت صوته الأبح فانفجر ليويس ضاحكاً : « هذا يبدو لا معقولاً ! » .

– لقد قلت ذلك ، بهذه اللهجة .

فتمتم بلهجة خفيفة ونظره شاخص الى السقف :

– ربما كنت لا ازال احبك .

لو قال هذه الجملة ، قبل بضعة اسابيع ، لتشبثت بها بنهم ، ولحاولت ان اولد منها املاً . لكنها لم تبعث صدى في نفسي . كان من الطبيعي ان يتساءل ليويس عن أحواله النفسية . واللعب على الكلمات ممكن دوماً . لكن على كل حال كانت قصتنا قد انتهت ، وكان يعرف ذلك وانا ايضاً .

لم نتكلم لا عن الماضي ولا عن المستقبل ، ولا عن عواطفنا خلال الايام الاخيرة : كان ليويس هنا وكنت الى جانبه ، وكان هذا يكفي . ولما لم نكن نسأل شيئاً ، لم يكن يُرفض لنا شيء : كنا نستطيع ان نعتقد اننا طافحان . وربما كنا كذلك . وليلة رحيلي ، قلت :

– ليويس ، لا ادري اذا كنت سأكف عن حبك . لكني اعرف انك ستكون في قلبي طوال حياتي .

فضمني اليه : « وانت في قلبي ، طوال حياتي » .

هل سنلتقي ثانية ذات مرة ؟ لم أعد أرغب في التساؤل . ورافقني ليويس الى المطار ، وتركني امام شبابيك التذاكر مع قبلة سريعة ، وأسكنت الفراغ في

نفسي . وقبـــل ان استقل الطائرة بالضبط ، سلمني مستخدم علبة من الورق المقوى ترقد فيها تحت غطاء من الورق الحريري زهرة اوركيديا كبيرة ، حـين وصلت الى باريس ، لم تكن قد ذبلت بعد .

الفصل الحادي عشر

كانت نحلة تطن حول المنفضة ، رفع هنري رأسه واستنشق رائحة القبس الحلوة . ومن جديد انسابت يده على الورق ، أنهى نسخ الصفحة المشطوبة . كان يحب هذه الاصباح في ظل الزيزفون ، ربما كان ذلك لانه لم يعد يفعل شيئاً غير الكتابة : كان كتاب ما يبدو له من جديد شيئاً له أهميته . ثم انه كان مسروراً من ان دوبروي أحب روايته . ويقيناً سوف تعجبه هذه القصة القصيرة أيضاً . كان هنري يشعر انه ، لمرة واحدة ، فعل ما كان اقترحه على نفسه : انه لشيء محبب ان يكون الانسان راضياً عن نفسه .

وظهر رأس نادين من احدى النوافذ ، بين مصراعين زرقاوين :

– لكم يبدو عليك الاجتهاد ! لكأنك تلميذ يكتب وظائف عطلته .

فابتسم هنري . كان ضميره مرتاحاً سعيداً كضمير تلميذ . وسأل :

– هل استيقظت ماريا ؟

فقالت نادين :

– أجل ، سننزل .

فرتّب اوراقه . الظهر . لقد حان ان ينصرف اذا كان يريد ان يتجنب شارلييه وميريكو . سوف يتفاوضان من جديد مع دوبروي ، بشأن تلك الصحيفة الاسبوعية : وكان هنري قد سئم من التكرار : « لا اريد ان أتدخل فيها » .

وقالت نادين :

– ها نحن ذا !

كانت تحمل بيد كيس مؤن ، وتحمل بالأخرى شيئاً كانت فخورة به جداً : كان شيئاً وسطاً بين الحقيبة والمهد . وأمسك هنري به ، فقالت نادين :

– انتبه ! لا تزعجها !

فابتسم هنري لماريا . كان لا يزال مدهوشاً من انه أخرج من العدم فتاة صغيرة جديدة كل الجدة ، فتاة صغيرة زرقاء العينين ، سوداء الشعر ، كانت له . كانت تنظر الى الفراغ بثقة بينما كان يضعها في صدر السيارة . وقال :

– لنهرب بسرعة !

وجلست نادين الى المقود . كانت تعبد القيادة .

– سأمر اولاً بالمحطة لشراء صحف .

– إذا كنت مصراً .

– بالتأكيد . انا مصرّ . خاصة وان اليوم خميس .

كانت تظهر يوم الخميس « السندان » و « الأمل – المجلة » التي اندمجت بـ « الايام الجميلة » . وما كانت نادين تريد ان تفلت منها مثل هذه الفرص الجميلة للاستنكار .

وابتاعا كمية من الصحف وتابعا طريقهما نحو الغابة . لم تكن نادين تتكلم حين كانت تقود ، فقد كانت شديدة الانهماك . ونظر هنري في ودّ الى وجهها الجانبي العنيد . كان يجدها مثيرة حين تنهمك بأسرها وبحماسة جدية في مهمة ما . وهذا ما أثّر عليه على الاخص حين عاد الى رؤيتها ، اعني ارادتها الطيبة اللامنظمة . لقد قالت له في اليوم الاول : « أتعرف ، انني تغيرت » . لم تكن قد تغيرت كثيراً ، لكنها كانت قد ادركت ان شيئاً ما فيها لا يسير كما ينبغي ، وكانت تحاول ان تعيد تكوين نفسها : ولقد أراد ان يساعدها . لقد قال في نفسه انه اذا ما جعلها سعيدة ، فسوف يحررها من ذلك الاحساس الغامض الذي يسمم حياتها . وما دامت راغبة رغبة عظيمة في ان يتزوجها ، فقد قرر ان يتزوجها : كان متعلقاً بها بما فيه الكفاية لتجربة ذلك . يا لها من فتاة غريبة ! كان يجب دوماً ان تنتزع منك بقتال عظيم ما انت على استعداد لمنحها إياه كل الاستعداد . كان

هنري واثقاً من انها دبرت حيلها بحيلة ، بغشها في الارقام ، لتقسره قسراً . وفيما بعد ، بالتأكيد ، أقنعت نفسها انها حين وضعته امام الامر الواقع ساعدته فقط على وعي رغباته الحقيقية . وتفرس فيهـــا بحيرة . كانت تملك كنوز الخبث ، لكنها كانت تملك ايضاً الكثير من الذكاء البصير. يقيناً انها كانت تشك في اعماقها بأنه تصرف بكامل ارادته . ولهذا السبب الى حـــد كبير لم ينجح في إسعادها حقاً : كانت تقول في نفسها انه لا يحبها حباً وكانت تحقد عليه لذلك . وقـــال هنري في نفسه : « ربما كان من الافضل ان اشرح لهـــا انني اشعر بنفسي حراً دوماً لانني لم اكن مخدوعاً قط » . ولكن معرفـــة نادين بأن لعبتهـــا احبطت ستسبب لها ذلاً قاسياً . ستقتنع بأن هنري يحتقرها وانه عاملها بشفقة : مـــا من شيء يمكن ان يجرحها اكثر من ذلك . كانت تكره ان يحكم عليها الآخرون وان تُغرق بالهدايا السخية اكثر مما ينبغي . كلا ، لا فائدة من ان يقول لهـــا الحقيقة .

واوقفت نادين السيارة على ضفة المستنقع .

– انها لزاوية جميلة حقاً : ففي ايام الاسبوع لا يأتيها احد .

فقال هنري :

– ان السباحة للذيذة الآن .

وتحققت من وضع ماريا وخلعا ثيابهما . كانت نادين ترتدي ، تحت ثوبهـــا الكتاني ، مايو بيكيني صغيراً للغاية . وكانت ساقاها اقل ثقلاً مما كانتا عليه في الماضي وثدياها لا يزالان ناهدين . وقال بمرح :

– انك لبغي جميلة !

فقالت ضاحكة :

– اوه ! انت أيضاً ، يمكن ان ينطبق عليك ذلك .

وركضا نحـــو المستنقع . كانت تسبح مستلقية على بطنها ، وترفع رأسها فوق الماء بجلال ، وكأنها تحمله على صينية . كان يحب وجهها كثيراً ، وقـــال في نفسه : « انني متعلق بها . بل انني متعلق كثيراً : لمَ لا يكون حباً حقيقياً ؟ » . كان ثمة شيء في نادين يجمد دمه : ارتيابها ، ضغائنها ، سوء نيتها ، الوحـــدة

المعادية الغائصة فيها . لكن ربما لو أحبها أكثر ، لازدادت انفتاحاً ، وتألقاً ، ولطفاً . انها لدائرة مفرغة . فالانسان لا يمكن ان يرغم نفسه على الحب ، ولا على الثقة . وما كان احدهما يستطيع ان يبدأ .

وسبحا طويلاً وتمددا في الشمس . وأخرجت نادين من كيس مؤنها علبة سندويش . وتناول هنري احداها . وقال بعد فترة :

– أتعرفين ، لقد أعدت التفكير بما رويته لي البارحة عن سيزوناك . انني لا اتوصل الى التصديق . أهو سيزوناك حقاً ، أفانسان متأكد من ذلك ؟

فقالت نادين :

– متأكد تماماً . لقد اقتضاه ذلك عاماً ، لكنه وجد أخيراً أناساً وجعلهم يتكلمون . كان سيزوناك يقوم بالعملية عند عبور الخط ، وقد سلم كمية من اليهود الى الألمان ، انه هو بنفسه .

فقال هنري :

– ولكن لماذا ؟

كان يسمع صوت شانسيل المتحمس : « انني آتيك بأفضل صديق لي » . كان يرى الوجه الجميل الصارم والنقي الذي كان يوحي بالثقة فوراً . وقاليت نادين :

– من اجل المال ، على ما افترض . لم يكن أحد ليشك ، لكنه كان مدمناً على المخدر منذ ذلك الوقت .

– ولمَ كان يدمن على المخدر ؟

فقالت نادين :

– هذا ما لا أعرف عنه شيئاً .

– اين هو الآن ؟

– يود فانسان كثيراً لو يعرف ذلك ! لقد طرده في السنة الماضية حين عرف انه جبان . ثم اضاع أثره . » واضافت : « لكنه سيجده » .

وعض هنري على سندويشته . لم يكن يتمنى ان يوقف على اثر لسيزوناك .

كان دوبروي قد وعده بأنه سيقسم عند اللزوم بأنه عرف مرسيه . وسوف تكون لهما الغلبة معاً : لكن من الأفضل على كل حال ألا تعوم هذه القصة على سطح الماء من جديد أبداً . وقالت نادين :

— بمَ تفكر ؟

— بسيزوناك .

لم يكن قد روى لنادين قضية مرسيه . لا شك في انها ما كانت لتفضح سراً ، لكنها لم تكن تشجع على الاعترافات . كانت تعلق عليها الكثير من الفضول والقليل من الود . وقد كان لا بد من ود كثير لتقبل هذه القصة : رغم حلم دوبروي وآن ، لم يكن هنري يعيد التفكير بها ابداً بدون استياء . اخيراً ، لقد حصل على ما كان يريد . ولم تنتحر جوزيت ، بل أصبحت نجمة صغيرة يتحدث عنها الناس كثيراً ، وفي كل اسبوع كانت صورتها تنشر في هذه الجريدة او تلك . وكررت نادين :

— سوف يجدون سيزوناك .

وبسطت صحيفة ، وتناول هنري واحدة . ما كان يستطيع ، ما دام في فرنسا ، ان يتجنب النظر اليها ، ولكنه كان على أتم استعداد للاستغناء عن ذلك . اميركا تضع يدها على اوروبا ، نجاح الحزب الجمهوري الشعبي الفرنسي ، المتعاونون يعودون جماعات ، خرق الشيوعيين : هذا مثبط بالأحرى . وكان الوضع في برلين لا يزال بدون تسوية ، ومن الممكن جداً ان تندلع الحرب في صباح احد الأيام الاربعة القادمة . واستلقى هنري على ظهره من جديد واغمض عينيه . لن يفتح صحيفة ، في بورتو فينيري . فما الفائدة ؟ ما دام لا يستطيع ان يمنع وقوع شيء ، فالأجدر به ان يستفيد من وقته بعدم اكتراث كليّ . وقال هنري في نفسه : « هذا يثير استنكار دوبروي : لكنه يرى ان من المعقول ان نعيش وكأننا لن نموت ابداً ، وهذا شيء متماثل . ما الفائدة اذن من الاستعداد؟ على كل حال نحن لا نكون مستعدّين أبداً ، وفي الوقت نفسه نحن مستعدون بما فيه الكفاية » .

وقالت نادين :

– ان التطبيل الذي يطبّلون به لكتاب فولانج الحقير ذاك لا يُصدَّق !

فقال هنري :

– حتماً : ففي الساعة الراهنة ، الصحافة كلها يمينية .

– لكن اليمينيين ليسوا كلهم حمقى .

فقال هنري :

– لكنهم بحاجة شديدة الى أثر كبير !

كان كتاب فولانج تفاهة كبيرة ، لكنه كان قد اطلق شعاراً بارعاً : « تبرير الشر » فكونك من المتعاونين يعني انك ارتويت من ينابيع الخطأ المخصابة . وسحل انسان في ولاية الميسوري هو خطيئة ، اذن فداء . لتبارك اميركا على جرائمها كلها وليعش مشروع مارشال ! إن مدينتنا آثمة : وهذا أرفع لقب مجيد لها . وأن يريد الانسان ان يحقق عالماً أكثر عدلاً ، فأي غلاظة !

وقالت نادين :

– قل اذن، يا روحي المسكينة : حين ستظهر روايتك انت، فماذا سيقولون عنك !

فقال هنري :

– انني أشك في ذلك ! » وتثاءب : « آه ! لم يعد الأمر ظريفاً ! انني استطيع ان اتنبأ سلفاً بمقال فولانج ، وكذلك بمقال لونوار . وحتى الآخرون ، ممن يزعمون انهم متجردون ، أعرف ما سيقولونه » .

فقالت نادين :

– ماذا ؟

– انهم سيلومونني على انني لم اكتب لا «الحرب والسلم» ولا « اميرة كليف» . واضاف بمرح : « لاحظي ان المكتبات مليئة بكل الكتب التي لم اكتبها . ولكنهم لا يلقون على رأسك دوماً الا بهذين الكتابين » .

– متى يزمع موفان ان يصدر روايتك ؟

– بعد شهرين ، في نهاية أيلول .

فقالت نادين :

– لن نكون بعيدين عن الرحيل . » وتمطت : « اود من الآن ان اكون هناك » .

فقال هنري :

– وانا ايضاً .

لم يكن من اللطف ان يُترك دوبروي وحيداً ، وكان يفهم ان تنتظر نادين عودة امها لتسافر . وعلى كل ، كان هنري قانعاً بالحياة في سان مارتان . ولكنه سيتمتع اكثر ايضاً في ايطاليا . ذلك المنزل على شاطىء البحر ، بين الصخور والصنوبر ، كان بالضبط المكان الذي حلم به غالباً دون ان يؤمن به حين كان يقول في نفسه في الماضي: ان اترك كل شيء. وان ارحل الى الجنوب ، واكتب.

وقالت نادين :

– سنأخذ معنا فونوغرافاً جيداً وكثيراً من الاسطوانات .

فقال هنري :

– وكذلك كثيراً من الكتب . سوف نحيا حياة جميلة ، سترين .

ونهضت نادين على احد مرفقيها : « غريب سنقيم في منزل بيميانتا ، وهو سيعود ليعيش في باريس . ان لانغستون ما عاد يريد ان يضع قدميه في اميركا ثانية ... » .

فقال هنري :

– نحن ثلاثتنا في الحالة نفسها . كتاب عملوا في السياسة ثم سئموا منها . ان السفر الى الخارج ، لهو أفضل طريقة لقطع الجسور .

فقالت نادين برضى :

– انا التي خطرت لها فكرة ذلك المنزل .

– انها انت . » وابتسم هنري: «يحدث احياناً ان تخطر لك افكار طيبة».

فغام وجه نادين . ونظرت ملياً الى الافق بقسوة ونهضت فجأة : « سأعطي

ماريا لبنها » .

وتبعها هنري بعينيه . بمَ فكرت على الضبط ؟ المؤكد هو انها تجد مشقة في ألا تكون الا ام اسرة فقط . وجلست على جذع شجرة ، وماريا بين ذراعيها . كانت تعطيها لبنها في سلطة ، وصبر ، وكانت تضع كرامتها في ان تكون اماً جديرة ، وكانت قد اكتسبت مبادىء متينة في تربية الاطفال ومجموعــة من المعلومات الصحية . لكن هنري لم يلحظ قط حناناً حقيقياً في عينيها حين كانت تهتم بماريا . اجل ، هذا ما يجعل من الصعب عليه ان يحبها : حتى مع هذه الطفلة كانت تحافظ على مسافاتها ، وتظل دوماً منكمشة على نفسها . وسألت :

– أتعود إلى الماء ؟

– هيا بنا .

وسبحا ملياً ، وتجففا ، ولبسا ثيابهما ، وامسكت نادين بالمقود من جديد . وقال هنري حين توقفت السيارة امام البوابة :

– آمل ان يكونا قد ذهبا .

فقالت نادين :

– سأرى .

كانت ماريا نائمة . فحملها هنري الى البيت ووضعهــا على قفــة الدهليز . والصقت نادين انفها بباب المكتب ، ثم دفعت المصراع :

– أأنت بمفردك ؟

فصاح دوبروي :

– اجل ، ادخلي ، ادخلي اذن .

فقالت نادين :

– سأصعد لأُرقد الصغيرة .

ودخل هنري الى المكتب وابتسم : « خسارة انك لم تأتِ معنا : كان الماء لذيذاً » .

فقال دوبروي :

ــ سأذهب في احد الايام . » واخـذ من على مكتبه صفيحة ورق : « لدي رسالة لك : شخص يدعى جان بانتورو ، اخو المحامي الذي تعرفـه ، تلفن سائلاً ان تتصل به عاجلاً . لقد كلفه اخوه بجلب معلومات من مدغسقر يريـد ان يبلغك اياها » .

فقال هنري :

ــ لماذا يريد ان يراني انا ؟

فقال دوبروي :

ــ بسبب مقالاتك في السنة الماضية ، على مـا افترض . فأنت الوحيد الذي فتح فمه . » وناول دوبروي هنري الورقة : « اذا اعطاك هذا الشخص تفاصيل عما يجري هناك ، فلديك الوقت لكتابة مقال لـ « الطوارىء » ، بتأخير العدد قليلاً » .

فقال هنري :

ــ سأتلفن له حالاً .

فقال دوبروي :

ــ كان ميريكو يقول لي ان مـا يفعلونه لا سابق له ، بمحاكمتهم المتهمين هناك . كانت الدعاوى تجري في فرنسا ، في جميع الحالات المماثلة .

فجلس هنري : « أكان هذا الغداء على ما يرام ؟ » .

فقال دوبروي :

ــ ان ذلك المنزل شارلييه يأفل اكثر فأكثر . ان الشيخوخة لشيء حزين .

ــ أعادا للكلام عن الصحيفة الاسبوعية ؟

ــ لهذا جاءا . يبدو ان مانهاين يريد ان يراني بأي ثمن .

فقال هنري :

ــ هذا مضحك على كل حال . حين احتجنا الى المال ، لم نستطع قط ان نجده . والآن ونحن لا نطلب من احد شيئاً ، يأتي هـذا الشخص إليك لتوظف ماله .

كان مانهاين ابن مليونير كبير مات في المنفى . وكان قد نفي هو الآخر ، وأمضى ثلاث سنوات في سويسرا في مصح . وقد كتب كتاباً رديئاً جداً لكنه مليء بالنيات الطيبة . ولقد وضع في رأسه ان ينشىء صحيفة اسبوعية يسارية كبيرة ، وكان يريد ان يديرها دوبروي .

وقال دوبروي :

— سأذهب لرؤيته .

فسأل هنري :

— وماذا ستقول له ؟ » وابتسم : « أبدأت تستسلم للإغراء ؟ » .

فقال دوبروي :

— اعترف بأن هذا مغرٍ . فباستثناء الصحف الشيوعية ، لا توجد صحيفة يسارية . اذا كنا نستطيع حقاً ان نحصل على جريدة كبيرة الاصدار ، مع صور وتحقيقات ، الخ ... فهذا يستحق المحاولة على كل حال .

فهز هنري كتفيه : « أتدرك ما تتطلبه من عمل صحيفة اسبوعية كبيرة ناجحة ؟ ليست المقارنة مع « الطوارىء » بممكنة . يجب ان تهتم بها ليل نهار ، وعلى الاخص في السنة الاولى » .

فقال دوبروي :

— اعرف . » وبحث عن نظرة هنري : « لهذا لا استطيع التفكير بالقبول إذا لم تقبل انت ايضاً » .

فقال هنري بشيء من نفاد الصبر :

— انت تعرف انني مسافر الى ايطاليا . » واضاف : « لكن اذا كانت هذه القصة تهمك حقاً ، فليس من الصعب عليك ان تجد متعاونين » .

فهز دوبروي برأسه ، وقال : « لا أملك اي خبرة صحفية . إذا قامت هذه الصحيفة الاسبوعية ، فإنني بحاجة الى اخصائي بجانبي . وانت تعرف كيف تحدث الامور : ستكون له هو اليد العليا على كل شيء عملياً . يجب ان اكون قادراً على الثقة به كما اثق بنفسي : ليس هناك غيرك » .

فقال هنري :

– حتى اذا لم اسافر ، فإنني لن آخذ على عاتقي مثل هذا العمل .

فقال دوبروي مؤنباً :

– هذا مؤسف . لأن هذا النوع من العمل لهو بالضبط عملنا . كنا نستطيع ان نفعل شيئاً طيباً .

فقال هنري :

– ثم ؟ اننا اليوم محاصرون اكثر مما كنا عليه في السنة الماضية . اي تأثير يمكن ان يكون لنا ؟ لا شيء .

فقال دوبروي :

– توجد على كل حال أشياء تتعلق بنا . اميركا تريد ان تسلح اوروبا : هذه نقطة نستطيع ان ننظم حولها مقاومة . وإن جريدة ما ستكون نافعة لمثل هذا الغرض .

فأخذ هنري يضحك ، وقال : « بمجمل القول ، فإنك لا تبحث إلا عن سانحة لتعود من جديد الى السياسة ؟ اي صحة !

فسألت نادين وهي تدخل الى المكتب :

– من لديه صحة ؟

– والدك : انه لم يشمئز بعد من السياسة . انه يريد ان يعود اليها .

فقالت نادين .

– لا بد للمرء ان يشغل نفسه .

وركعت امام مكتبة الاسطوانات وأخذت تصف الاسطوانات . » وفكر هنري : اجل ، دوبروي سئم ، ولهذا يرغب في التحرك » .

وقال هنري :

– لم اكن سعيداً قط بهذا القدر منذ ان تركت السياسة . انني لن أعود اليها مقابل اي شيء في العالم .

فقال دوبروي :

– الا ان هذا التخاذل لشيء كريه. اليسار منقسم كلياً ، والحزب الشيوعي معزول : لا بد ان نحاول اعادة تجميع أنفسنا .

فسأل هنري بصوت غير مصدق :

– اتفكر بـ « إشتراكي ثوري حر » جديد ؟

فقال دوبروي :

– كلا ، ليس ذلك على الأخص » ! وهز كتفيه : « لا افكر بشيء محدد . انني الاحظ اننا في مأزق واتمنى ان نخرج منه » .

وساد صمت . كان هنري يتذكر مشهداً مشابهاً : كان دوبروي يلح عليه . وكان يدافع عن نفسه ويفكر انه سيكون بعيداً عن باريس قريباً ، في مكان آخر . ولكنه كان يعتقد في ذلك الوقت ان عليه واجبات . اما اليوم فإنه مقتنع بعجزه بما فيه الكفاية ليشعر انه حر تماماً . ان اقول نعم ، أو ان أقول لا ، فهذا لا يعني مصير الإنسانية : بل فقط الطريقة التي اربط بها مصيري بمصيره . ان دوبروي حريص على الخلط بينهما ، هذا شأنه ، لا شأني . على كل حال ، ان الأمر لا يعني أحداً غيره ، غيري ، وليس هناك أي شيء آخر .

وقالت نادين :

– أأستطيع ان اضع اسطوانة ؟

فقال دوبروي :

– بالتأكيد .

ونهض هنري : « سأذهب انا للعمل » .

فقال دوبروي :

– لا تنس ان تتلفن لذلك الشخص .

فقال هنري :

– انني لا انسى .

واجتاز البهو ورفع السماعة . كان الشخص على الطرف الآخر من الخط يبدو تائهاً من الأهمية والخجل . كان يبدو عليه انه تلقى من العالم الآخر رسالة آمرة

عليه ان يسلمها فوراً ، بأي ثمن الى صاحبهـــا . لقد كتب لي أخي : « ما من انسان يفعل شيئاً ، لكني متأكد ان هنري بيرون سيفعل شيئاً ما » . قال ذلك بأبهة . وفكر هنري : « لن انتهي بمقــال واحد » . وواعد باتورو في الغد ، في باريس ، وعاد ليجلس تحت شجرة الزيزفون . هـــذا هو السبب الذي استعجل من أجله السفر الى ايطاليا . فهو هنا لا يزال يتلقى الكثير من الرسائل ، والكثير من الزيارات ، والكثير من الاتصالات الهاتفية . وبسط أوراقه امامه. كان الفونوغراف يعزف رباعية فرانك ، ونادين تصغي ، جالسة على حافة النافذة المفتوحة . كان النحل يطن حول اشجار القبس . وكانت عربة تجرها الثيران تتدحرج على الطريق في قوقعة قديمة . وقال هنري في نفسه : « يا للسلام ! » . لِمَ يرغمونه على الاهتمام بما يحدث في تاتاناريف ؟ هناك دومـــاً اشياء فظيعة تحدث على الارض : لكن المرء لا يعيش عبر الارض كلها . ان التأمل طوال الوقت في مصائب بعيدة لا يمكن علاجها ، لمتعة كئيبة . وفكر : « هنا اعيش ، وهنـــا السلام » . ونظر الى نادين . كانت تبدو عليها سيماء من التأمل ليست مألوفـــة . كانت ، وهي التي تجد مشقة في تركيز نفسها على كتاب ما ، تستطيع ان تستمع طويلاً الى موسيقى تحبها ، وفي مثل هذه اللحظات يشعر المرء انه يسود في نفسها صمت يشبه السعادة . وقال هنريّ في نفسه : « يجب ان اجعلها سعيدة . ان هذه الدائرة المفرغة يجب ان تتحطم » . ان تجعل انساناً مـــا سعيداً ، فهذا شيء حسي ، هذا شيء متين ، يشغلك كثيراً اذا وقفت عليه نفسك . ان يهتم بنادين، ويربي ماريا ، ويكتب كتبه : ليست هذه الحياة التي كان يتمناها في الماضي . في الماضي كان يعتقد ان السعادة هي طريقة في امتلاك العالم : في حين انها بالأحرى طريقة في حماية الذات منه . ولكنه كان شيئاً كبيراً على كل حال ان يستمع الى هذه الموسيقى ، ان ينظر الى هذا البيت ، الى شجرة الزيزفون ، والى الاوراق المخطوطة على الطاولة ، قائلاً في نفسه : « انني سعيد » .

ظهر مقال هنري في مدغسقر في ١٠ آب . كان قد كتبه بحماسة . اعدام لا شرعي للشاهد الرئيسي ، اغتيالات للمحامين ، عذابات يتعرض لها المتهمون

لانتزاع اعترافات كاذبة منهم : كانت الحقيقة أفظع بكثير ايضاً مما تتصورها . ولم تكن هذه الاشياء تقع في تاتاناريف فقط : فالجميع هنا ، في فرنسا ، كانوا متواطئين . كان متواطئاً مجلس النواب الذي صوّت على رفع الضرائب، كانت متواطئة الحكومة ، ومحكمة التمييز ورئيس الجمهورية، كانت متواطئة الصحف الصامتة وملايين المواطنين الذين أراحهم هذا الصمت . وقال في نفسه حين أخذ عدد « الطوارىء » بين يديه : « هناك الآن على الأقل بضعة آلاف يعلمون » . وفكر بأسف : « ليس هذا شيئاً كبيراً » . كان قد درس هذه القضية عن قرب قريب ، وقد اهتم بها اهتماماً قلبياً كبيراً حتى انها أخذت تخصه شخصياً . في كل صباح كان يبحث في الصحف عن المقالات الضئيلة المخصصة للدعوى وكان يفكر فيها طوال اليوم . ولقد وجد مشقة في انهاء اقصوصته . وحين كان يكتب في ظلل شجرة الزيزفون، كانت رائحة القبس ولجبة القرية قد كفت عن ان يكون لها المعنى ذاته عنده .

كان يكتب ذلك الصباح ، بعدم اهتمام كبير ، حين قرعت البوابة . فعبر الحديقة ليذهب ليفتح : كان لاشوم . فقال :

– انت !

فقال لاشوم بصوت هادىء :

– أجل . اود ان اكلمك . » وأضاف : « لا يبدو عليك السرور لرؤيتي ، لكن دعني على كل حال ادخل . ان ما اريد ان اقوله لك يهمك » .

كان لاشوم قد هرم خلال الثمانية عشر شهراً الاخيرة ، وكانت هناك دوائر حول عينيه :

– عمّ تريد ان تكلمني ؟

– عن القضية المدغسقرية .

ففتح هنري الباب : « ماذا تريد ان تفعل مع فاشيّ قذر ؟ » .

فقال لاشوم :

– اوه ! دعك من ذلك ! انت تعرف ما السياسة . حين كتبت ذلك المقال،

كان يجب ان انفذ حكم الاعدام فيك . انها لقديمة هذه القصة .

فقال هنري :

— لدي ذاكرة طيبة .

فنظر اليه لاشوم في ألم : « احتفظ بضغينتك علي اذا شئت » . وقال متنهداً : « مع انه في الحقيقة كان يجب ان تفهم ! لكن الأمر في اللحظة الراهنة لا يتعلق بك او بي : هناك حيوات انسانية يجب ان تنقذ . إذن تستطيع ان تصغي إلي خمس دقائق » .

فقال هنري وهو يشير الى أحد مقاعد الخيزران :

— انني مصغٍ اليك . وبالفعل كان غضبه على لاشوم قد غادره : فهذا الماضي كله بعيداً جداً عنه .

وقال لاشوم وقد اتخذ قراره اخيراً :

— لقد كتبت مقالاً جميلاً جداً ، بل سأقول انه مقال عنيف مقلق . فهز هنري كتفيه : « انه لم يقلق عدداً كبيراً من الناس مع الاسف » . فقال لاشوم :

— اجل ، هذه هي المصيبة . » وبحث عن نظرة هنري : « افترض انه لو قدمت لك امكانية لعمل اوسع ، فانك لن ترفضها ؟ » .

فقال هنري :

— ما الأمر ؟

— بكلمتين ، اليك . اننا ننظم لجنة دفاع عن المدغسقريين . كان من الأفضل لو باده غيرنا . لكن المثاليين البورجوازيين الصغار لا يتمتعون بضمير مدغدغ دوماً . وهم ، عند المناسبة ، على استعداد ليبتلعوا اشياء ضخمة دون ان يحركوا ساكناً . والواقع ان ما من انسان يرفع اصبعه .

فقال هنري :

انتم ايضاً لم تفعلوا شيئاً كبيراً حتى الآن .

فقال لاشوم بحدة :

– لا نستطيع . لقد دبرت هذه القضية كلها لتصفية « الحركة الديموقراطية للبعث المدغسقري ». والهدف، من خلال النواب المدغسقريين ، انما هو الحزب. فاذا ما دافعنا عنهم بصخب كبير ، فسوف يتحول دفاعنا ضدهم .

فقال هنري :

– ليكن . اذن ؟

– اذن خطرت لي فكرة لجنـــة تضم شيوعيين او ثلاثة واغلبية من اللاشيوعيين . وحين قرأت مقالك ، قلت في نفسي انه ليس هناك انسان مؤهل اكثر منك لترؤسها . » وسأل لاشوم هنري بنظره : « الرفاق ليسوا ضد هـذه الفكرة . الا ان لافوري يريد ان يكون واثقاً من انك ستقبل ، قبـل ان يقدم اقتراحاً رسمياً » .

فلزم هنري الصمت . فاشيّ ، مباع ، وغد ، جاسوس : كانوا قـد حكموا عليه بالخيانات اجمع . وفجأة أخذوا يتحركون ، ممدودي اليد . كان هذا يوحي اليه بشعور صغير محبب من المجد . وسأل :

– من سيكون على الضبط في هذه اللجنة ؟

فقال لاشوم :

– جميع الاشخاص المهمين قليـــلاً الذين سيقبلون بالعمل . ليس عددهم كبيراً .» وهز كتفيه : « انهم يخافون جداً من ان يتبللوا ! انهم على استعداد لـترك عشرين بريئاً يموتون من العـــذاب على ان لا يورطوا انفسهم معنا » . وأضاف بصوت ملح : « إذا اخذت القضية بيدك ، فهذا سيبدل كل شيء . انهم سيتبعونك ، انت » .

فتردد هنري : « لمَ لا تسأل دوبروي بالأحرى ؟ ان اسمه اثقـل من اسمي وسيقول نعم حتماً » .

فقال لاشوم :

– من المستحسن ان يكون دوبروي معنا . لكنـه اسمك انت الذي يجب ان يكون في المقدم . إن دوبروي قريب جداً منا ، يجب على الأخص ألا تظهر

هذه اللجنة انهـــا شيوعية المصدر ، والا لما قامت . امـــا معك ، فلا مجال للالتباس .

فقال هنري بجفاء :

ـ انني أرى . انني استطيع ان اكون لكم نافعاً بمقدار مـا انا اشتراكي خائن .

فقال لاشوم بصوت مغضب :

ـ ان تكون لنا نافعاً ! انما تستطيع ان تكون نافعاً للمتهمين . ماذا تظن ؟ ما الذي سنربحه من هذه القصة » وتابع وهو ينظر الى هنري مؤنباً : « أنت لا تدرك . اننا نتلقى ، كل يوم ، وهذا الصباح أيضاً ، رسائل وبرقيات ممزقـة من مدغسقر . « تكلموا ! انذروا الرأي العام . قولوا لسكان العاصمة مـــا يجري هنا » . لكن ايدينا مكتوفة ! ما الذي يبقى علينا ان نعمله سوى التـأثير عن طريق المجموع ؟ » .

فابتسم هنري . كانت حدة لاشوم تلمس قلبه . صحيح انـه كان قادراً على تنفيذ مهام دنيئة ، لكنه غير قـــادر على ان يقبل بهدوء ان يُعذّب الابرياء ويذبحوا بالعشرات . وقال بلهجة مصالحة :

ـ ماذا تريد ! ان كل شيء مختلط عندكم بشدة : الأكاذيب السياسيـــة والعواطف الحقيقية التي يصعب تعرفها .

فقال لاشوم :

ـ إذا لم تبدأوا فوراً باتهامنا بالمكيافيلية، فسوف تتعرفونها بشكل افضل. يبدو عليكم دوماً انكم تعتقدون ان الحزب لا يعمل الا من اجل نفسه ! أتذكر في عام ١٩٤٦ ، حين تدخلنا لمصلحة كريسينو غارسيا و فلامونا على اننا جعلنا تنفيذ حكم الاعدام فيه محتماً ؟ واليوم نخفت اصواتنـا ، فتأتي لتقول لي : « انتم لا تفعلون شيئاً كبيراً » .

فقال هنري :

ـ لا تغضب . يبدو لي انك اصبحت متشككاً بشكل غريب .

— انت لا تدرك : هذا الارتياب الذي نلاقيه في كل مكان ! ان هذا لمسخط في النهاية !

وود هنري لو يجيبه : « انها غلطتكم » ، لكنه لم يقل شيئاً . لم يكن يشعر ان له الحق في ان يتخذ ملامح متفوقة سهلة . وفي الحقيقة ، ما عاد غاضباً من لاشوم . لقد قالها له لاشوم ، ذات يوم ، في « البار الاحمر » : « سأتحمل أي شيء ، كان علي ألا أترك الحزب » . كان يقدر ان شخصه الخاص لا يزن ثقيلاً امام المصالح التي تتصارع في الميدان: فما الداعي لأن يعلق قيمة اكبر على شخص هنري ؟ يقيناً ، ان الصداقة في هذه الشروط لا تعود ممكنة . لكن لا شيء يمنع من ان يعملا معاً .

وقال :

— اسمع ، انا لا اطلب أفضل من العمل معك . لا اعتقد ان لنا فرصاً كثيرة في النجاح : لكن سنحاول .

فأضاء وجه لاشوم : « استطيع ان أقول للافوري انك ستقبل ؟ » .

— أجل . لكن اشرح لي قليلاً ما تنوون عمله .

فقال لاشوم :

— سوف نتناقش معاً .

وقال هنري في نفسه : « هو ذاك ! هذا يثبت مرة اخرى : كل شيء سليم نفعله يتكشف عن واجبات جديدة » . كانت افتتاحياته عام ١٩٤٧ قد قادته الى كتابة المقال في«الطوارىء»، مما قاده الى تنظيم هذه اللجنة: كان مضيَّقاً عليه من جديد . وقال في نفسه : « لكن ليس لزمن طويل » .

قالت نادين بصوت غاضب :

— يجب ان تذهبي لتنامي ، فأنت تبدين متعبة .

فقالت آن بلهجة اعتذار :

— انه السفر في الطائرة الذي أتعبني.ثم كان هذا التفريغ الذي دام ساعات:

لقد نمت نوماً سيئاً في الليلة الماضية .

كان المكتب يبدو في حالة عيد . وكانت آن قد عادت عشية اليوم السابق وقد قطفت نادين ازهار الحديقة كلها لتملأ بها البيت . لكن ما من أحد كان مرحاً حقاً . كانت آن قد هرمت فجأة بشكل جدي وكانت تشرب الكثير من الوسكي . وكان دوبروي الذي عاد اليه الكثير من حيويته في الأيام الاخيرة يبدو مهموماً : بسبب آن دون ريب. وكانت نادين تتحرك بقدر متفاوت وهي تحيك شيئاً ما صارخاً. وكانت قصة هنري قد ألقت على السهرة المزيد من الشجن.

وقالت آن :

– ثم ماذا ؟ أأنتهى الامر ؟ ألم يعد هناك أمل في انقاذ هؤلاء الاشخاص ؟

فقال هنري :

– انني لا أرى اي أمل .

فقال دوبروي :

– كان يشاع ان مجلس النواب سيغرق السمكة .

فقال هنري :

– لو حضرت الجلسة ، لدهشت على كل حـــال . كنت أظـــن انني بارد الاعصاب : لكني شعرت ، في بعض الاحيان ، بالرغبة في القتل .

فقال دوبروي :

– اجل ، لقد بالغوا .

فقالت آن :

– هذا لا يدهشني من سياسيين . اما ما لا أتوصل الى فهمه فهو ان الناس في مجموعهم لم يصدر عنهم رد فعل كبير .

فقال هنري :

– لم يصدر عنهم رد فعل ، بهذا الخصوص .

كان جيرار باتورو والمحامون الآخرون قد اتوا الى باريس ، عازمين على اثارة السماء والارض . وقد بذلت اللجنة مـــا بوسعها لمساعدتهم . لكنهم اصطدموا

باللامبالاة العامة .

ونظرت آن الى دوبروي : « ألا تجد هذا مثبطاً ؟ » .

فقال :

– لكن لا . هذا كله يثبت ان العمل لا ينجح بدون اعداد مسبق . لقد انطلقنا من الصفر ، اذن من البديهي ...

كان دوبروي قد انضم الى اللجنة لكنه لم يهتم لها تقريباً . أما ما همّه في هذه القصة ، فهو انه استأنف احتكاكاته السياسية . فتسجل في حركة « مقاتلو الحرية » . واشترك في احد مهرجاناتهم ، وسيشترك في آخر بعد بضعة ايام . لم يكن يلح ان يتبعه هنري ، وما عاد يكلمه عن الصحيفة الاسبوعية ، لكنه كان من حين لآخر يترك تقريعاً ما مضمراً يفلت منه . وقال هنري :

– ان اي عمل ، سواء أكان معداً ام لم يكن ، لا يؤدي الى أي نتيجة في الساعة الراهنة .

فقال دوبروي :

– انت الذي يقول هذا . لو كان وراءنا فئة منظمة ، وصحيفة ، وأموال ، لربما كنا استطعنا النجاح في التأثير على الرأي العام .

فقال هنري :

– ليس في هذا شيء مؤكد .

– على كل حال ، لنقل انه كي تكون لنا فرص اكثر في النجاح ، حين تتاح لنا فرصة ، فيجب ان نستعد لها مسبقاً .

فقال هنري :

– بالنسبة لي ، لن تتاح الفرصة .

فقال دوبروي :

– هيا اذن ! انك لتضحكني حين تقول انك انتهيت مع السياسة . انت مثلي . لقد مارستها اكثر من اللازم كي تكف عن ممارستها . سوف يضيق عليك الخناق من جديد .

فقال هنري بمرح :
ـ كلا ، لأنني سأختبىء .
واشتعلت عينا دوبروي : « انني اراهنك : لن تبقى عامـاً في ايطاليا » .
فقالت نادين بحدة :
ـ انني اقبل الرهان . » واستدارت نحو أمها : « ما رأيك ؟ » .
فقالت آن :
ـ لست ادري . هذا يتعلق بسروركما هناك .
ـ كيف تريدين ألا نُسر ؟ لقد رأيتِ صورة البيت : أليس جميلاً ؟
فقالت آن :
ـ يبدو جميلاً جـداً . » ونهضت فجأة : « انـــني اعتذر . انني اقع من النعاس » .
فقالت نادين وهي تقبل امها :
ـ حاولي ان تنامي هذه الليلة . اقسم لك ان وجهك متعب .
فقالت آن :
ـ سأنام .
حين اطبقت الباب ، بحث هنري عن نظرة نادين : « صحيح ان آن تبـــدو متعبة » .
فقالت نادين في ضغينة :
ـ متعبة وكئيبة . اذا كانت آسفة الى هذا الحد على اميركتها ، فـــلم يكن عليها الا ان تبقى فيها !
ـ ألم تروي لك كيف كانت الحال هناك ؟
فقالت نادين :
ـ أتقول ذلك ! انها كتوم جـــداً . » واضافت : « وبالاصل ، انهـــم لا يقولون لي شيئاً قط » .
فتفرس فيها هنري بفضول : « ان لك علاقات غريبة مع امك .

فقالت نادين وكأنها لسعت :

– لمّ غريبة ؟ انني احبها كثيراً ، لكنها غالباً ما تغيظني . افترض ان الوضع مشابه بالنسبة لها . وليس هذا بشيء نادر ، فالعلاقات العائلية هكذا دوماً .

ولم يلح هنري. لكن هذا كان يذهله دوماً : ان هاتين الامرأتين على استعداد لأن تموت احداهما في سبيل الأخرى ، ومع ذلك فان بينهما شيئاً ليس على ما يرام . ان نادين تزداد عدائية وعناداً حين تكون امها معها . وبذلت آن جهوداً في الايام التالية لتبدو مرحة ، وانفرجت اسارير نادين . لكن كان المرء يشعر ان من الممكن في كل لحظة ان تنفجر عاصفة .

في ذلك الصباح ، لمحهما هنري من غرفته وهما تخرجان من الحديقة ، اذرعهما متعانقة ، ووجهاهما ضاحكان . وحين عبرتا الممر المعشب من جديد ، بعد ساعتين ، كانت آن تحمل تحت ذراعها قضيباً من الخبز ، ونادين تحمل صحفاً ، وكان يبدو عليهما انهما متخاصمتان .

كانت ساعة الغداء . وصفّ هنري اوراقه ، وغسل يديه ونزل الى غرفة الجلوس . كانت آن جالسة على طرف كرسي ، غائبة الروح . وكان دوبروي يقرأ « الأمل – المجلة » ، وكانت نادين ، واقفة الى جانبه ، ترقبه .

وقال هنري وهو يبتسم للجميع :

– مرحباً ! ماذا من جديد ؟

فقالت نادين وهي تومىء الى الصحيفة :

– هذا ! » واضافت بجفاء : « آمل انك ستحطم وجه لامبير » .

فقال هنري مبتسماً :

– آه ! ابداً ؟ أيمرغني لامبير في الخراء ؟

– لو كان لا يمرغ احداً غيرك !

فقال دوبروي وهو يناول هنري الصحيفة :

– خذ .

كان المقـــال بعنوان « صورهم بريشتهم » . وكان لامبير يبدأه بالشكوى مرة اخرى من التأثير الهدام لدوبروي : انها غلطته اذا كان هنري بعد بدايـة لامعة قـــد فقد موهبته كلها . ثم كان لامبير يلخص رواية هنري بمساعدة استشهادات مبتورة ، ومجموعة بشكل مضحك . وبحجة انه يقدم مفاتيح كتاب ليست له مفاتيح ، كان يقدم عن الحياة الخاصة لهنري ، ودوبروي ، وآن ، ونادين ، كمية من التفاصيل نصف الصحيحة ، نصف الكاذبـة ، مختارة بشكل تبدو معه كريهة بقدر ما هي سخيفة .

وقال هنري :

– يا للنذل ! انني اذكر ذلك الحديث عن علاقاتنا مع المال وهذا ما استنتجه منه . هذا المقطع المقرف عن « رياء أصحاب الامتيازات اليساريين » . وكرر : « يا للنذل ! » .

فقالت نادين :

– لن تتركه يمر هكذا ؟

فسأل هنري دوبروي بنظرته : « اود كثيراً لو احطم وجهه ، وهـذا لن يكون بالاصل صعباً . لكن ما الذي سأستفيده ؟ فضيحة ، صدى في الصحف ، مقال جديد ، اسوأ من هذا . . . » .

فقالت نادين :

– اضرب بقوة كبيرة ، وسوف يطبق فمه .

فقال دوبروي :

– بالتأكيد لا . كل ما يطلبه ، هو أن يتحدث الناس عنه : سوف يقفز على الفرصة . » وختم كلامه : « انا اؤيد ان يتركه هنري يعوي » .

فقالت نادين :

– اذن ، في اليوم الذي سيحلو له ، مـــا الذي يمنعه من كتابة مقال جديد وان يذهب الى ابعد من ذلك ؟ اذا قال في نفسه انه ليس لديه مـا يخشاه ، فلن يتحرج .

فقال هنري :

– هكذا الحال حين يزج المرء بنفسه في الكتابة . وان لجميع الناس الحق في البصاق عليك : بل ان الكثيرين يعتبرون ذلك واجباً .

فقالت نادين :

– انا لا اكتب . ليس لأحد الحق في البصاق عليّ .

فقالت آن :

– اجل ، هذا يثير السخط في البدايـة . لكن سترين : انك ستتعودين . » ونهضت : « لو نأكل ! » .

وجلسوا حول المائدة في صمت. وشكّت نادين من الصحفة قرصاً من المقانق وانفرج وجهها . وقالت في لهجة حائرة : « يغيظني ان افكر انـه سينتصر في هدوء » .

فقال هنري :

– انه لا ينتصر الى هذا الحد . كان حريصاً على كتابه قصص ، وروايات : وباستثناء مقالاته ، لم ينشر فولانج له شيئاً ، منذ تلك الاقصوصة المشهورة التي كانت رديئة للغاية .

فاستدارت نادين نحو آن : « أقيل لك مـــا جرؤ ان يكتبه في الاسبوع الماضي ؟ » .

– كلا .

– لقد أعلن ان انصار بيتان قد أحبوا فرنسا على طريقتهم وانهم أقرب الى الديغوليين من مقاوم انفصالي . » واضافت بلهجة راضية : « ما من أحد ذهب الى هذا الحد ! » . وقالت : « آه ! لقد عرفوا كيف يحولون الرفاق القدامى . أقرأت تقرير جوليان عن كتاب فولانج ؟ » .

فقالت آن :

– لقد اراني إياه روبير . جوليان ! من كان يصدق !

فقال دوبروي :

– ليس هذا بمدهش الى هذا الحد. ماذا تريدين ان يصبح الفوضوي ، اليوم؟ ان العاب الهدم الصغيرة ، يسارياً ، لا تلهي أحداً .

فقالت نادين :

– لا أرى لماذا يصبح الفوضوي حتمياً من « تجمع الشعب الفرنسي » .

كانت تعتبر التفسير عذراً ، وغالباً ما كانت ترفض ان تفهم كي لا تفسد على نفسها لذة الاستنكار . وساد صمت . لم تكن الاحاديث بين أربعة اشخاص سهلة قط : وكانت هذه المرة اقل سهولة من اي وقت مضى . وراح هنري يتكلم مع آن عن رواية جاءت بها من اميركا وقرأها . وكان دوبروي يفكر بشيء آخر ، وكذلك نادين . وتنهد الجميع ارتياحاً حين انتهى الطعام . وسألت نادين وهي تقوم عن المائدة :

– هل استطيع ان آخذ السيارة ؟ إذا كان احدكم يريد الاهتمام بماريا فسأقوم بجولة .

فقالت آن :

– سأهتم بماريا .

وقال هنري مبتسماً :

– ألا تأخذينني ؟

فقالت نادين :

– اولاً ليست بك أي رغبة » واضافت باسمة : « ثم انني افضل ان اكون بمفردي » .

فقال هنري :

– حسناً ، لن ألح ! » وقبّلها : « تنزهي جيداً ، وكوني حذرة » .

لم يكن راغباً في التنزه ، ولكن لا في العمل أيضاً . كان دوبروي يؤكد ان اقصوصته الاولى جيدة ، وكان مهتماً عظيم الاهتمام بالتي يريد ان يكتبها الآن ، لكنه كان يشعر ببعض الحيرة هذه الايام . فهو مـا عاد في فرنسا الآن ، ولا في ايطاليا بعد ، وكانت دعوى تاتاناريف قد انتهت دون أن تنتهي ما دام المتهمون

يرفضون الدفاع عن أنفسهم وما دام الحكم معروفاً سلفاً . وكان نشاط دوبروي يغيظه وكان يحسده مع ذلك بشكل غامض على الافراح التي يستخلصها منـه . وتناول كتاباً . بفضل السماء ، لم تعد الساعات والأيام محسوبة عليه ، ولم يكن مضطراً الى قسر نفسه . كان ينتظر ان يقيم في بورتو فينيري ليبدأ قصته الجديد.

ونادته آن ، حوالي الساعة السابعـــة ، لتناول شراب مقبل حسب طقس اقامته . وكان دوبروي يكتب حين دخل هنري الى المكتب ودفع اوراقه :

– هوذا شيء طيب قد تم .

فسأل هنري :

– ما هذا ؟

– مخطط ما سأقوله يوم الجمعة ، في ليون .

فابتسم هنري : « انك لشجاع حقاً . نانسي ، ليون : أي مدن كئيبة !» .

فقال دوبروي :

– اجل ، انها لكئيبـة نانسي ، الا انني احتفظ بذكرى طيبـــة من تلك السهرة .

فقال هنري :

– اشك في انك متهتك قليلاً .

فقال دوبروي :

– ربما ! . » وابتسم : « لا اعرف كيف اشرح لك . بعد المهرجان ذهبنا الى مطعم لنأكل كرنباً ونشرب جعة ، ولم يكن للمكان طابع نادر ، وكنت لا أكاد اعرف الاشخاص الذين كانوا معي ، وكنا لا نتحدث تقريباً . لكننا فعلنا شيئاً ما معاً ، شيئاً كنا مسرورين منه : كان ذلك حسناً » .

فقال هنري :

– انني اعلم ، لقد عرفت هذا . في الحرب ، اثناء المقاومة ، في الجريدة في السنة الاولى ، كانت هناك مثل تلك الاويقات . » واضاف : « لم يحدث لي هذا قط في « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال دوبروي :

— ولا لي ايضاً . » وتناول من يدي آن كأس مارتيني واحتسى منه جرعة: « لم نكن متواضعين بما فيه الكفاية . كي نحصل على هذه السعادات الصغيرة فلا بد ان نعمل فيما هو فوري .

فقال هنري :

— قل اذن ، لا يبدو لي انه شيء متواضع جداً ان نريد منع الحرب !

فقال دوبروي :

— انه لشيء متواضع ، لأننا لا نأتي مع افكار موضوعة مسبقاً نريد فرضها على العالم . لقد كان لـ « الاشتراكي الثوري الحر » برنامج بنّاء : كان طوبائياً حتماً . ان ما افعله الآن يشبه بالاحرى ما فعلته عام ١٩٣٦ . انني احاول ان أدافع عن نفسي ضد خطر معطى باستخدامي الوسائل التي بقدرتي . هذا اكثر واقعية بكثير .

فقال هنري :

— هذا واقعي إذا كان يخدم شيئاً ما .

فقال دوبروي :

— انه يمكن ان يخدم .

وساد صمت . وتساءل هنري : « ماذا في رأسه على الضبط ؟ » . كان قد قبل بسهولة اكثر مما ينبغي وجهة نظر نادين : انه يتحرك لأنه سئم . انها لموجزة هذه الكلبية. كان قد تعلم الا ينظر الى دوبروي بعين الجد بشكل اعمى: لكن هذا لا يسمح له بأن ينظر اليه على انه طائش . وقال هنري :

— ثمة شيء لا افهمه . كنت تقول في السنة الماضية انك شخصياً لا تستطيع ان تتقبل ما سميته « المذهب الانساني الجديد » ، وها انت ذا تمشي مع الشيوعيين الى النهاية . ألم يعد يحرجك ما كان يحرجك ؟ » .

فقال دوبروي :

— أتعرف ، ان هذا المذهب الانساني لهو بالضبط التعبير عن عالم اليوم . لم

نعد نستطيع ان نرفضه ما دمنا لا نستطيع ان نرفض العالم . اننا نستطيع ان نحرد ، هذا كل شيء .

فقال هنري في نفسه : « هذا ما يظنه بي . انني أحرد » . ان دوبروي سيتابع حتى موته ، التعالي على ماضيه وماضي الآخرين. وقال هنري في نفسه: « أخيراً ، إنما أنا الذي سعى اليـه » . كان يريد ان يفهم لا ان يدافع عن نفسه ضده ، فلا فائدة من الدفاع : كان يعرف انه في أمان . وابتسم :

– لمَ كففت عن الحرد ؟

فقال دوبروي :

– لأنني شعرت من جديد ذات يوم انني في الورطة . » وتابع :« اوه ! هذا بسيط جداً . في السنة المـاضية كنت أقول لنفسي : « كل شيء شر ، وأبسط شر صعب جداً على الابتلاع كي انظر اليه على انه خير » . إلا ان الموقف تفاقم . لقد اصبح اسوأ الشر مهدداًبشكل ان تحفظاتي تجاه الاتحاد السوفياتي والشيوعية بدت لي ثانويـــة جداً » . ونظر دوبروي الى هنري : « مـا يدهشني هو انك لا تشعر مثلي » .

فهز هنري كتفيه : « لقد رأيت عدداً لا بأس به من الشيوعيين ، هـــذا الشهر ، واشتغلت مع لاشوم . انني أفهم جيداً وجهـة نظرهم : لكني لا أتفاهم معهم ، لن أتفاهم ابداً . »

فقال دوبروي :

– ليس المقصود الدخول إلى الحزب ، لكن لا حاجة هناك لنكون متفقين على كل شيء للنضال معاً ضد اميركا وضد الحرب .

فقال هنري :

– انت اكثر تفانياً مني . فلن اضحي بالحياة التي ارغب في ان اعيشهـا من اجل قضية لا اؤمن إلا بنصفها .

فقال دوبروي :

– آه ! لا تخرج لي هذا النوع من الحجج ! انه يجعلني افكر بفولانج حـين

يقول : « الانسان لا يستحق ان ينصبّ الاهتمام عليه » .

فقال هنري بحدة :

– ليس هذا متماثلاً البتة .

– اكثر مما تظن . » وسأل دوبروي هنري بنظرته : « انت مقتنع بأنه بين الاتحاد السوفياتي واميركا يجب ان نختار الاتحاد السوفياتي ؟ » .

– بديهي .

– حسناً ! هذا يكفي. « وقال بعنف: » ثمة شيء يجب ان نقنع انفسنا به ، وهو انه ليس هناك ارتضاء آخر غير الأختيار ، وليس هنـاك حب آخر غير التفضيل . إذا كنـا ننتظر كي نلتزم ان نلقى الكمال المطلق ، فلن نحب ابداً شخصاً ما ، ولن نفعل ابداً شيئاً ما » .

فقال هنري :

– دون ان نطالب بالكمال ، نستطيع ان نجد على كل حال ان الاشياء قبيحة بالاحرى ، فلا نرغب في التدخل فيها .

فقال دوبروي :

– قبيحة بالنسبة لماذا ؟

– بالنسبة لما يمكن ان تكونه .

فقال دوبروي :

– اي الافكار التي تتصورها عنها . » وهز كتفيه : « الاتحاد السوفياتي كما يجب ان يكون ، الثورة بلا دموع ، هذا كله أفكار محض ، اي صفر . بديهي ، ان الواقع خاطىء دوماً إذا قورن بالفكرة . فما إن تتجسد الفكرة ، حتى تتشوه . كل ما هنالك ان تفوق الاتحاد السوفياتي على جميع الاشتراكيات الممكنة ، هو انه موجود » .

فنظر هنري الى دوبروي مستفهماً :

– ما هو موجود مصيب دوماً ، فلم يبق اذن الا ان نكتف ايدينا .

فقال دوبروي :

— على الاطلاق . ان الواقع ليس ثابتاً . ان له مستقبلاً ، امكانيات . ولكن كي نؤثر عليه بل وكي نعقله ، فلا بد ان نقيم فيه لا ان نتلهى بأحلام صغيرة .

فقال هنري :

— أتعرف ، انني لا أحلم تقريباً .

— حين نقول : « الاشياء قبيحة » او مثلي في السنة الماضية : « كل شيء شر ، فهذا يعني اننا نحلم خلسة بخير مطلق . » ونظر الى هنري في عينيه : « نحن لا ندرك ذلك ، لكن لا بد لنا من صلف غريب كي نضع هذه الأحلام فوق كل شيء . لو كنا متواضعين ، لفهمنا ان هناك من ناحية اولى الواقع ، ومن الناحية الأخرى لا شيء » . واضاف . : لا أعرف غلطة أسوأ من تفضيل الفراغ على الامتلاء » .

فالتفت هنري الى آن التي كانت تحتسي في صمت كأساً ثانية من المارتيني : « ما رأيك ؟ » .

فقالت :

— لقد وجدت دوماً مشقة ، شخصياً ، في اعتبار الشر الأصغر خيراً . لكن هذا لأنني آمنت طويلاً بالله . اعتقد ان روبير على حق .

فقال هنري :

— ربما .

فقال دوبروي :

— انني اتكلم عن معرفة للعلة . فأنا ايضاً حاولت ان ابرر استياءاتي بقبح العالم .

وملأ هنري كأسه من جديد. ألم يكن دوبروي على وجه الدقة يبرر استياءه بالنظريات ؟ وفكر : « لكن اذا انطلقنا من هذه النقطة ، فإنني احاول استياء مني أيضاً ان اقلل من قيمة ما يقوله » . وقرر ان يثق به ، على الأقل حتى نهاية الحديث . وقال :

— على كل ، هذا يبدو لي متشائماً بالأحرى، اعني اسلوبك في رؤية الاشياء :

فقال دوبروي :

– هذا أيضاً ليس متشائماً الا بالنسبة للأفكار التي كنت اتصورها في الماضي . أفكار باسمة اكثر بكثير . والتاريخ ليس باسماً . لكن لما لم تكن هناك اي وسيلة للإفلات منه ، فيجب ان نفتش عن أفضل طريقة لنعيشه : وهي ليست الاستنكاف برأيي .

كان هنري يود لو يطرح عليه اسئلة أخرى ، لكن سُمع في البهو وقع أقدام ودفعت نادين الباب . وقالت بمرح :

– السلام ، يا عصبة السكارى ! تستطيعون ان تشربوا نخب صحتي : انني استحق نخب شرف ! » ونظرت اليهم في انتصار : « خمنوا ما فعلت ؟ » .

فقال هنري :

– ماذا إذن ؟

– ذهبت الى باريس وانتقمت لنا : فقد صفعت لامبير .

وساد صمت وجيز . وسأل هنري :

– اين قابلته ؟ كيف حدث ذلك ؟

فقالت نادين بفخر :

– حسناً ! صعدت الى « الأمل » . ودخلت الى قاعة التحرير . كانوا جميعاً هناك ، سامازيل ، فولانج ، لامبير ، وعدد من الجدد ، لهم وجوه قذرة . ان رؤيتهم لتحدث تأثيراً غريباً ! » واخذت نادين تضحك : « وبدا لامبير مضطرباً ، وتمتم بأشياء لكني لم اتركه يتكلم . قلت له : « لك عليّ دين قديم : انني مسرورة من انك اتحت لي الفرصة لأسدده لك » . ووجهت كفي الى وجهه » .

فقال هنري :

– وماذا فعل ؟

فقالت نادين :

– اوه ! لقد اخذا القضية على مأخذ الكرامة ، وتظاهر بالصلف . واسرعت

بالانصراف .

فقال هنري :

– ألم يقل انني كنت استطيع ان أقوم بتبليغ رسالتي بنفسي ؟ هذا ما كنت قلته مكانه .

ما كان يريد ان يشتم نادين ، لكنه كان عظيم الاستياء . وقالت نادين :

– لم استمع الى ما قاله . » ونظرت الى ثلاثتهم بشيء من التحدي : « إذن؟ ألا تهنؤنني ؟ » .

فقال دوبروي :

– كلا . لا ارى ان ما فعلته ذكي جداً .

فقالت نادين :

– اما انا فأجده ذكياً جداً . » واضافت بلهجة حقود : « رأيت فانسان وانا خارجة من هناك ، فقال لي انني سفيهة » .

فقال دوبروي :

– إذا كنت تريدين الشهرة ، فقد أصبت في عمليتك . سوف تتحدث عنها الصحف في فرحة عظيمة .

فقالت نادين :

– انني لا أبالي بالصحف .

– الدليل انك تبالين بها !

وحدج أحدهما الآخر في بغض . وقالت نادين في غضب :

– إذا كان يعجبك ان يغطوّك بالخراء ، فترحى لك . أما انا فلا يعجبني هذا . » والتفتت نحو هنري ، وقالت على حين غرة : « هذا كله من غلطتك . لمَ رويت قصصنا لجميع الناس ؟ » .

فقال هنري :

– حسبك : انني لم اتكلم عنا . انت تعرفين جيداً ان جميع الشخصيات مخترعة .

فقالت :

– هيا إذن ! هناك خمسون شيئاً في روايتك تنطبق عليك وعلى بابا ، ولقد تعرفت على ثلاث جمل لي .

فقال هنري :

– يقول اناس انهم ليست لهم اي علاقة بك . » وهز كتفيه : « بديهي انني اظهرت اشخاصاً معاصرين ، في وضع قريب من وضعنا نحن : لكن هنـــاك الالوف على هذه الحال ، وهذا لا ينطبق علي او على والدك بشكل خاص . بل على العكس ، ان ابطالي في معظم النقاط لا يشبهوننا مطلقاً » .

فقالت نادين بحدة :

– لم احتج لأنه يمكن ان يقال انني احدث قصصاً ، لكن هل تعتقد ان هذا لطيف ؟ اننا نتحدث معك ، باطمئنان ، ونعتبر انفسنا رفاقاً لك ، وفي الوقت نفسه تلاحظ ، وتسجل نقاطاً داخل نفسك ، وذات يوم جميل نجد ، مسطورة على الورق ، كلمات كنا قد قلناها كي تنسى ، حركات لم يكن لها أهمية . انني اسمي هذا استغلالاً للثقة !

فقال هنري :

– لا يمكن للمرء ان يكتب دون ان يلتقط اشياء مما حوله .

فقالت نادين بشراسة :

– ربما . لكن علينا إذن ألا نعاشر الكتّاب .

فابتسم لها هنري : « أنت سيئة الحظ ! » ..

فقالت وهي تحمرّ :

– اهزأ بي الآن .

فقال هنري :

– انني لا اهزأ بك . » وطوق بذراعه كتفي نادين : « لن نحول هذه القصة الى مأساة » .

فقالت نادين : « انتم الذين تحولونها الى مأساة ! آه ! يبـدو مظهركم سعيداً

حين تكونون ثلاثتكم هنا تنظرون إليّ وكأنكم قضاة ! ».

فقالت آن بصوت مصالح :

– هيا ، ما من احد يحكم عليك . » وبحثت عن نظرة دوبروي : « انه لمرضٍ على كل حال التفكير بأن لامبير تلقّى صفعة طيبة » .

فلم يجب دوبروي . وحاول هنري ان يقطع حبل الصمت : « أرأيت فانسان ؟ إلامَ صار إليه ؟ » .

فقالت بلهجة مبحوحة :

– ماذا تريد ان يصير إليه ؟

– ألا يزال في الاذاعة ؟

– أجل . » وترددت نادين : « كان لدي قصة جميلة أرويها لكم ، لكن لم اعد ارغب » .

فقال هنري :

– هيا : اروي !

فقالت نادين :

– لقد وجد فانسان سيزوناك في فندق صغير من ناحية « باتينيول » . وما إن حصل على العنوان ، حتى ذهب يقرع باب سيزوناك ، ليقول له طريقته في التفكير . ورفض سيزوناك ان يفتح له . وتسمّر فانسان امام الفندق ، فهرب الآخر من سلم نجدة . ومنذ ثلاثة ايام لم يظهر ثانية : لا في الفندق ، ولا في مطعمه ، ولا في البارات التي يتزود منها بالمخدر ، ولا في اي مكان . » واضافت بصوت منتصر : « انه اعتراف ، أليس كذلك ؟ لو كان ضميره ناصعاً ، لما اختفى » .

فقال هنري :

– هذا يتعلق بما قاله له فانسان من خلال الباب . فحتى لو كان بريئاً ، فمن الممكن ان يكون قد خاف .

فقالت نادين :

– لكن لا . لو كان بريئاً لحاول ان يشرح موقفه . » والتفتت نحو امهـــا وقالت بلهجة عدائية : « لا يبدو ان هذا يهمك . مع انك قـــد عرفته ، سيزوناك » .

فقالت آن :

– أجل . لقد بدا لي مدمناً من الدرجة الاخيرة . وحين يصل المرء الى هذا الحد ، فإنه يقدر على اي شيء .

وساد صمت ثقيل . كان هنري يفكر في قلق : « فانسان وجـد سيزوناك . ثم ؟ » . إذا تكلم سيزوناك ، وإذا كان لامبير حانقاً بمـا فيه الكفاية على هنري ليؤكد قصته ، فماذا سيحدث ؟ ربمـــا كان دوبروي وآن يطرحان على نفسيها السؤال ذاته . وقالت نادين بغضب :

– حسناً ! إذا كان هذا هو التأثير كله الذي احدثته عليكم ، فقد كان من الافضل لي ان احتفظ بقصتي لنفسي !

فقال هنري :

– لكن لا . انها قصة غريبة : لهذا نحلم حولها .

فقالت نادين :

– لا تتحمل مشقة ان تكون مهذباً ! انتم اشخاص كبار ولست انـــا إلا طفلة . وما يسليني لا يسليكم ، هـــذا طبيعي . » وسارت نحو الباب : « انني صاعدة لأرى ماريا » .

وحردت طوال السهرة . وفكر هنري : «ان هذه الحياة الرباعية لا توافقها . سوف تتحسن الحال في ايطاليا » . وفكر في شيء من القلق : « أكثر من عشرة ايام» . كان كل شيء معداً. نادين وماريا ستسافران في عربات النوم ، وسيسبقهما في السيارة ، بعد عشرة ايام . كان يشعر من الآن في بعض الأحيان بريح ساخنة فيها رائحة الملح والصمغ على وجهه ، فتتصاعد نفحة من السعادة إلى قلبه . وفي لحظات اخرى ، كان يشعر بأسف يشبه الضغينة : كأنه نُفي رغم إرادته .

طوال نهار اليوم التالي، اعاد هنري التفكير في الحديث الذي كان بينه وبين دوبروي والذي امتد إلى ساعة متأخرة ليلاً. كان دوبروي يؤكد ان المشكلة الوحيدة هي ان يقرر الانسان مـــا هي الاشياء التي يفضلها من بـــين الاشياء الموجودة . وهذا لا يعني الرضوخ : فالانسان يرضخ حين يقبل من بـــين شيئين واقعين بالشيء الأقل قيمة . لكن خارج الانسانية كما هي عليه ، لا يوجد شيء. اجل ، كان هنري يوافق على بعض النقاط . فتفضيل الفراغ على الامتلاء هو ما لام عليه بول: كانت تتشبث بأساطير قديمة بدلاً من ان تأخذه كما هو وبالعكس، لم يفتش ابـــداً في نادين عن « المرأة المثالية » ، بـل اختار ان يعيش معها على معرفته بنواقصها . كان موقف دوبروي يبدو مبرراً حين يذهب فكر المرء إلى الكتب والأعمال الفنية على الأخص . فالمرء لا يكتب ابداً الكتب التي يريـد ، ويمكنه ان يتلهى بالنظر الى كل أثر كبير على انه فشل . ومع ذلك فنحن لا نحلم بفن لا أرضي : فالآثار التي نفضلها ، انما نحبها حباً مطلقاً . وكان هنري ، على الصعيد السياسي ، يشعر بقناعة أقل : لأن الشر يتدخل هنا . وهو ليس فقط خيراً أقل : انه مطلق الشقاء ، الموت . لكن إذا ما علّقنا اهميـة على الشقاء ، على الموت ، على البشر فرداً فرداً ، فلا يكفي ان نقول في انفسنا : «ان التاريخ تعيس على كل حال » ، ليكون لنا الحق في غسل أيدينا منه : فانه لشيء هـام ان يكون اكثر او أقل تعاسة . كان الليل يخيم . وكان هـنري يجتر افكاره في ظل شجرة الزيزفون حين ظهرت آن على أعلى الدرج :

– هنري ! » كانت تناديه بصوت هادىء لكنه ملح، وفكر بملل: « مأساة اخرى مع نادين » . وسار نحو البيت .

– نعم ؟

كان دوبروي جالساً بقرب المدفأة ونادين واقفة أمامه، داسّة يديها في جيبي بنطلونها ، مقطّبة . وقالت آن :

– لقد جاء سيزوناك .

– سيزوناك ؟

– انه يزعم انهم يسعون إلى قتله . انه يختبىء منذ خمسة ايام ، لكنه لم يعد يستطيع الاحتمال : خمسة ايام بدون مخدر ، انه على وشك الانهيار . » واومأت إلى باب غرفة الطعام : « انه هناك ، ممدداً على الأريكة ، مريضاً مثل كلب . سوف ازرقه » .

كانت تمسك في يـــدها بحقنة وكان صندوق الصيدلية على الطاولة . وقالت نادين بصوت قاس :

– ستزرقينه بعد ان يتكلم . » واضافت : كان يأمل ان تكون ماما ساذجة بما فيه الكفاية لتساعده دون ان تطرح عليه اسئلة . الا انه بدون حظ ، فقـد كنت هنا » .

فسأل هنري :

– هل تكلم ؟

فقالت نادين :

– سوف يتكلم . » وسارت بحدة نحو الباب وفتحته . وبصوت شبه ودي نادت : « سيزوناك ! » .

وتجمد هنري على العتبة بجانب آن بينما كانت نادين تقترب من الأريكة . ولم يتحرك سيزوناك ، كان راقداً على ظهره ، يئن ، ويداه تنفتحان وتنقبضان بحركة تشنجية . وقال : « بسرعة ! بسرعة ! » .

فقالت نادين :

– ستحصل على حقنتك . ماما آتية لك بالمورفين ، انظر .

فأدار سيزوناك رأسه ، وكان رأسه يرشح عرقاً . وقالت نادين :

– لكنك اولاً ستجيبني . في أي سنة بدأت تعمل مع الجستابو ؟

فقال سيزوناك :

– سوف اموت . » كانت الدموع تنساب على خديـــه وكان يرفس الفراغ بقدميه . كان مشهداً صعباً على التحمل ، وود هنري لو تضع له آن حداً فوراً . لكنها كانت تبدو مشلولة . واقتربت نادين من الأريكة وقالت :

– أجب وسنحقنك . » ومالت على سيزوناك : « أجب او ستسوء الحال . في اي سنة ؟ » .

فتمتم هامساً :

– ابداً . » ورفس رفسة اخرى ، وسقط على السرير ، بلا حراك . كان هناك بعض من زبد ابيض على طرف شفتيه .

وخطا هنري خطوة نحو نادين : « اتركيه ! » .

فقالت بعنف :

– كلا . اريد ان يتكلم . سيتكلم او سيموت . » وتابعت مخاطبة سيزوناك : « أتسمع ، إذا لم تتكلم ، فسنتركك تموت » .

كان دوبروي وآن جامدين مكانهما . والواقع انه إذا كانوا يريدون ان يعرفوا حقيقة سيزوناك ، فالآن هو وقت استجواب سيزوناك او ابداً . وكان من الأفضل ان يعرفوا .

وأمسكت نادين بسيزوناك من شعره : « نحن نعرف انك سلمت يهوداً ، عدداً من اليهود : متى بدأت ؟ قلها » . كانت تهز رأسه فأنّ :

– انت تؤلمينني !

فقالت نادين :

– اجب ، كم سلمت من اليهود ؟

فأطلق صرخة ألم صغيرة ، وقـال : « كنت اساعدهم ، كنت اساعدهم على العبور » .

فتركته نادين : « ما كنت تساعدهم . كنت تسلمهم . كم سلمت ؟ » .

فأخذ سيزوناك ينتحب على الوسادة . وقالت نادين :

– كنت تسلمهم ، اعترف !

فقال سيزوناك :

– من حين لآخر ، لإنقاذ الآخرين ، كان يجب ذلك . » ونهض ونظر حوله تائه النظرة : « انتم ظالمون ! لقد انقذت منهم . انقذت الكثيرين » .

فقالت نادين :

– بل العكس . كنت تنقذ واحداً من عشرين ، كي يرسل اليـــك زبائن ، وكنت تسلـّم آخرين . كم سلمت ؟

فقال سيزوناك :

– لست ادري . » وصرخ فجأة : « لا تتركوني اموت ! » .

فقالت آن وهي تتجه نحو الأريكة :

– اوه ! هذا يكفي . » ومالت على سيزوناك ورفعت كمه وعادت نادين نحو هنري : « هل اقتنعت ؟ » .

فقال :

– أجل . » واضاف : « ومع ذلك فانني لا اتوصل الى تصديق ذلك » .

كان غالباً ما شاهد سيزوناك زجاجي العين، مبلل اليدين ، وكان يراه مجندلاً على هذه الاريكة . لكن هذا كله لا يمحو صورة البطل الشاب المرتدي ربطة عنق حمراء الذي كان يذهب من متراس الى متراس وعلى كتفه بندقية كبيرة . وعادوا للجلوس في المكتب وسأل هنري :

– إذن ، ماذا سيفعل ؟

فقالت نادين بحدّة :

– لا مجال لسؤال ، انه يستحق رصاصة في رأسه .

فقال دوبروي :

– انت التي ستطلقينها ؟

فقالت نادين التي مدّت يدها الى الهاتف :

– كلا . لكن سأتلفن للبوليس .

فقال دوبروي :

– البوليس ! اتدركين ما تقولين !

وقال هنري :

– ستسلمين شخصاً للبوليس ؟

فقالت نادين :

– خراء إذن! شخص سلم عشرات اليهود الى الجستابو ، أتقول انني سأسب لنفسي الحرج !

فقال دوبروي بنفاد صبر :

– اتركي هذا الهاتف ، واجلسي . لا مجال لدعوة الشرطة . لكن يجب نتخذ قراراً : نحن لا نستطيع ان نعالجه ، ونحميه ، ونعيده بهـدوء الى .مهـ الجميلة .

فقالت نادين :

– سيكون هذا منطقياً ! » كانت قد اسندت ظهرها إلى الحائط وراح تنظر الى الآخرين بتهجم .

وساد صمت . لو حدث ذلك قبل اربعـة أعوام لكان الامر بسيطاً جداً فحين يكون العمل واقعاً حياً ، وحين يؤمن الانسان بأهداف ، فان كلمة العد لها معنى . فالخائن ، يُصرع . لكن ما العمل بخائن قديم حين لا يعود الأنسـ يأمل شيئاً ؟

وقالت آن :

– لنحتفظ به هنا يومين او ثلاثـة ، اي الوقت الكافي ليستطيع المشي. فعلاً مريض جداً. ثم سنرسله الى مستعمرة ما بعيدة : افريقيا الغربية الفرنسيـ مثلاً ، فنحن نعرف اناساً هناك ولن يعود ابداً : انه خائف جداً من ان يُقتل

فقال دوبروي .

– وإلامَ سيصير ؟ لن نعطيه رسائل توصية .

فقالت نادين :

– ولِمَ لا ؟ اجروا له إذن دخلاً ما دمتم تريدون مساعدته . كان صوتهـ يرتعد هوساً :

فقالت آن :

أتعرفين ، انه لن يرجع عن ادمانه ابداً ، انه خرقة حقيقيـة . على

حوال ، ان الحياة التي امامه اصبحت فظيعة جداً .
فضربت نادين بقدمها : — انه لن ينجو بجلده هكذا ! » .
فقال هنري :
— هناك كثيرون نجوا بجلدهم !
— ليس هذا سبباً . » ونظرت الى هنري في شك : « هل انت خائف منه
؟ » .
— انا ؟
— كان يبدو عليه انه يعرف اشياء عنك .
فقال دوبروي :
— انه يفترض ان هنري عضو في عصابة فانسان .
فقالت نادين :
— لكن لا . لقد سمعته . لقد قال لي : « اذا تكلمت ، فسيتعرض زوجك
اعب نفسها التي سأتعرض لها » .
فابتسم هنري : « هل تفكرين بأنني كنت عميلاً مزدوجاً ؟ » .
فقالت :
— لا ادري بمَ يجب ان افكر فأنتم لا تقولون لي شيئاً قط . » واضافت :
نا لا ابالي بذلك . تستطيعون ان تحتفظوا بأسراركم . لكن اريد ان يدفع
وناك ! اتدركون ما فعل ، كلا ؟ » .
فقالت آن :
— اننا ندرك . لكن ما يفيدك ان تجعليه يدفع ؟ ان الاموات لا يُبعثون .
— انت تتكلمين مثل لامبير ! انهم لا يبعثون ، لكن ليس هذا كافياً
ساهم . اننا لسنا امواتاً ، اننا لا نزال نستطيع ان نفكر فيهم والا نقبل
ام من اغتالوهم .
فقالت آن بصوت عنيف :
— لكننا نسيناهم . ربما لم تكن غلطتنا . بيد أن هذا يعني انه لم يعد لنا أي

حق على الماضي .
فقالت نادين :
– انني لم انسَ شيئاً . ليس انا .
– انت كغيرك . ان لك حياتك ، ولك فتاة صغيرة . لقد نسيت . وإذا كنت حريصة إلى هذا الحد على معاقبة سيزوناك ،فهذا كي تثبتي لنفسك العكس. لكن هذا سوء نية .
فقالت نادين :
- أسوء نية ان ارفض الدخول الى مطابخكم الصغيرة ! » وسارت نحو الباب – النافـــذة ، وصاحت بعنف : « حسناً ! انني لأسمي وساوسكم جبناً ! » . وصفقت الباب وراءها .
وقالت آن :
– انني افهمها . حين افكر في دييغو ، افهمها . » ونهضت : « سأعـــد له فراشاً في الجناح . انه نائم ، فليس عليكما إلا ان تنقلاه ... » . وخرجت فجأة وشعر هنري انها كانت على وشك البكاء .
وقال هنري :
– في الماضي ، كنت استطيع ان اصرعه بنفسي . اما اليوم فلن يكون لهذا أي معنى . » واضاف : «ومع ذلك فانها لفضيحة ان نساعد شخصاً كهذا على الحياة . »
فقال دوبروي :
– اجل ، ان كل حـــل سيكون رديئاً حتماً ..» ونظر الى سيزوناك : « الوقت الوحيد الذي يكون فيه للمشاكل حل، هو عندما لا تكون مطروحة. لو كنا في العملية ، لما كانت هناك مشكلة . الا اننا الآن ، خارجاً عنها . اذن سيكون قرارنا تعسفياً حتماً » . ونهض : « لنمدِّده » .
كان سيزوناك نائماً ، وكان وجهـــه هادئاً . كان وعيناه مطبقتان ، يستعيد بعض جماله القديم . لم يكن وزنه ثقيلاً . ونقلاه حتى الجناح ومدداه بثيابه على

السرير . وبسطت آن غطاء على قدميه . وتمتمت :

— ان الشخص النائم ليبدو مسالماً جداً .

فقال هنري :

— ربما لم يكن مسالماً الى هذا الحد . انه يعرف حتماً كمية من الاشياء عن فانسان ورفاقه . وفي الساعة الراهنة ، يوجـــد كثيرون على استعداد لتبييض صفحة عميل سابق للجستابو ليتمكنوا من الايقاع بمقاومين سابقين .

فقالت آن :

— ألا تعتقد انه لو كان يعرف اشياء ، لكان حصلت لفانسان متاعب ؟

فقال دوبروي :

— اسمعي ، حاولي ، وانت تعالجينـه ، ان تطبخيه : ان المدمنين يتكلمون بسهولة ، وربما عرفنا ما في رأسه . » وفكر : « اعتقد ان افضل حل ، على كل الاحوال ، ان نُركبه البحر » .

— لمَ وجب ان يأتي الى هنا ؟

كانت متضايقة جداً حتى أنه فكر ان من الواجب ان يتركها وحدها مـــع دوبروي . وصعد الى غرفته قائلاً ان شهيته مقطوعة وانه سيأكل قطعة فيما بعد مع نادين .

واستند الى النافذة . كان يلمح من بعيد الكتلة الداكنة لتل ، ومن قريب ، الجناح الذي يرقد فيه سيزوناك : هكذا كان يرقد في استديو بول ، ذات ليـلة مرحة من ليالي الميلاد . كانا يضحكان احدهمـا على الآخر ، ويهنئان نفسيهما على النصر ، ويصيحان مـــع بريستون : « عاشت اميركا » ويشربان نخب الاتحاد السوفياتي . ولقد كان سيزوناك خائناً ، وكانت اميركا النصيرة تستعد لاستعباد اوروبا ، واما ما كان يحدث في الاتحاد السوفياتي فقــد كان من الافضل الا ينظر اليه عن قرب كبير . ان الماضي ، وقد خوى من وعوده التي لم يحتوِ عليها قط ، لم يعد الا حيلة غليظة . كان مصباحا سيارة يحفران ، في التـل الاسود ، فرجة واسعة لامعة . وظل هنري ساكناً ، مدة طويلة ، ينظر الى زحف طرق النور

هذه في الليل . كان سيزوناك نائماً ونائمة معه جرائمه . وكانت نادين تتسكع في الريف . ولم تكن به اي رغبة في شرح موقفه . ونام دون ان ينتظر عودتها .

من خلال حلم مضطرب ، حسب هنري انـه سمع فجأة صوتاً غير مألوف ، صوت بَرَدٍ . وفتح عينيه . كان شعاع من نور يسوح تحت الباب : كانت نادين قد عادت وكان غضبها لا يزال ساهراً، لكن الصوت لم يأتِ من غرفتها. وسقط مطر من الحصى الصغيرة على زجـاج النافذة . وفكر هنري واثبـاً من سريره : « سيزوناك » . وفتح النافذة وانحنى : فانسان . فضم ثيابـه بسرعة ونزل الى الحديقة .

- ماذا تفعل هنا ؟

كان فانسان جالساً على المقعد الخشبي الاخضر مسنداً ظهره الى جدار البيت. كان وجهه هادئاً ، لكن قدمـه اليسرى كانت تضرب الارض بحركة تشنجية ، وكانت ساق بنطلونه ترتجف .

— انني بحاجة اليك . أمعك سيارتك ؟

— نعم . لماذا ؟

— لقد قتلت سيزوناك : يجب ان نأخذه من هنا .

فنظر هنري الى فانسان في ذهول : « قتلته ؟ » .

فقال فانسان :

— لم تقع مشكلة ، كان نائماً ، فاستخدمت مسدسي الكاتم للصوت ، فـلم يحدث اي ضجة . » كان يتكلم بصوت واضح وسريع . واضاف : « كل مـا هنالك ان ذلك النذل لم يشأ ان يحترق » .

— يحترق ؟

— لقد سرقنا صفائح من الفوسفور من الالمان اثناء المقاومة . انها عادة تسير على افضل وجه . لكن ربما اصبحت الآن قديمـة جداً ، مع انني حرصت على الاحتفاظ بها في مكان جاف . لقد انتظرت ثلاث ساعات فـلم يتحلل الا البطن تقريباً . وقد اخذت الساعة تتأخر . سننقله الى السيارة .

فتمتم هنري :

– لمَ فعلت ذلك ! » وجلس على المقعد . كان يعرف أن فانسان قادر على القتل ، وانه قتل . لكنها كانت معرفة مجردة . فحتى الآن ، كان فانسان قاتلاً بلا ضحية . لم يكن هوسه ، مثل الشراب او المخدر ، يعرض احداً غيره للخطر . وها هو ذا قد دخل الى الجناح ، وفي يده مسدس ، ووضع الفوهة على الصدغ الحي ، ومات سيزوناك . لقد بقي فانسان ، طوال ثلاث ساعات ، منفرداً مع رفيق صرعه ولا يريد ان يحترق : « كنا سنرسله الى غابة ما لن يعود منها ابداً ! » .

فقال فانسان :

– ليس غالباً ! كانت قدمه قد سكنت ، لكن كلامه كان يبدو اقل ثقة : « سيزوناك ! جاسوس ! اتدرك ذلك ! كيف لعب بنا ! شانسيل الذي كان يقول : « انه اخي الصغير ! » وانا ، الفرج المسكين ! لو لم تأخذني الريبة ، بسبب المخدر ، لوقعت بين يديه . ولقد فعلت اشياء من اجله لم افعلها قط من اجل انسان . وحتى لو كنت واثقاً ان ذلك سيكلفني حياتي ، لافتديتها بحياته » .

– كيف عرفت انه هنا ؟

فقال فانسان بغموض :

– لقد اقتفيت اثره . » واضاف : « لقد جئت على الدراجة ، وكنت سأحشو البقايا في كيس ، واربط صخرة بالكيس وارمي بالكل في النهر . كنت تدبرت امري بنفسي . » وكرر بحيرة : « لا افهم لمَ لم يحترق ! » . وتأمل لحظة بصمت ثم نهض : « من المستحسن ان نستعجل » .

– ماذا تريد أن تفعل ؟

– سنحمله ليأخذ حماماً ، حمام أبدية صغيراً . لقد وجدت مكاناً مناسباً .

ولم يتحرك هنري . كان يخيل إليه انه يطلب إليه ان يقتل سيزوناك بيديه بالذات . وقال فانسان :

– ما بك ؟ لا نستطيع ان نتركه هنا ، كلا ؟ والآن اذا كنت لا تريد ان

تساعدني ، فحسناً ، أعرني فقط السيارة ، وسأحاول ان أتدبر امري بدونك

فقال هنري :

– سأساعدك . لكني اسألك شيئاً بالمقابل : عدني بترك هذه العصابة .

فقال فانسان :

– إن ما فعلته هنا ، لشغل فردي . اما عن عصابتي ، فإنني اكرر عل
ما قلته لك سابقاً : ليس لديك شيء افضل تقدمه لي . جميع اولئك الاوغ
الذين يعودون ، ماذا تفعلون ضدهم ؟ لا شيء . اذن دعونا ندافع عن انفسنا

– ليست هذه طريقة في الدفاع عن النفس .

– ليس لديك افضل منهـا لتقترحها عليّ . » واضاف فانسان : « جيء
لا تجيء ، لكن قرّر » .

فقال هنري :

– حسناً ، انني آتٍ .

لم يكن الوقت وقت نقاش . وعلى كل لم يكن يعرف عما يتكلم ، اذ لم يـ
اي شيء يبدو حقيقياً . كانت ريح خفيفة تعزف وتلعب مع اغصان الزيزفو
وكانت رائحـة الورد المتذابل تصعد نحو البيت ذي المصاريع الزرق ، وكـ
ليلة كسائر الليالي ، لا يحدث فيها شيء . وتبع فانسان الى داخل الجنـا
وكان العالم اليومي هو الذي انداح في العدم : كانت الرائحة لا تحتمل : كثيـ
منتصرة ، الرائحة التي تملأ المطابخ حـين يحرق زغب فروج . ونظر هنري
السرير وتدارك صرخةِ : زنجي : كان وجـه الرجل الممدد على الغطاء الاب
اسود كله .

وقال فانسان :

– انه الفوسفور . » ورمى بالغطاء : « انظر الى هذا ! » .

كان الثقب الصغير في الصدغ مسدوداً بالقطن ، ولا أثر لدم . كان فانسار
دقيقـاً . كان لون الجسد ذي الاضلاع الناتئة بلون الخبز المحروق ، وقـد
الفوسفور في وسط البطن شقاً عميقاً . لم تكن هناك اي علاقة بين سيزوناك

ا الراقد المسود . وقال هنري :
– والثياب ؟
– سآخذها في عدلي . انني اتكفل بها . » وامسك بالجثة تحت ذراعيه، وقال
جة ممرض كفوء : « حذار من ان ينقصف الى قسمين » . واخذ هنري الجثة
القدمين ونقلاها حتى المرآب . وقال فانسان : « انتظر ريثما آخذ عدتي » .
كان قد اخفى دراجته وراء كتلة اشجار . وعاد منها بحبل و كيس تثقـله
مرة . وقال :
– لن يسع في الكيس ، لكني سأتدبر أمري .
وربط بقوة الصخرة المغطاة بالكيس حول بطن سيزوناك ، ولف الكيس
ل الجسد وعقده . وقال برضى : « من المؤكد انـه سيذهب ، هكذا ، الى
ع » .
ومددا الشيء على المقعد الخلفي وغطياه بمعطف . كان البيت يبدو نائمـاً .
نت نافذة نادين وحدها مضاءة : هل تشك في شيء ما ؟ ودفعا السيارة حتى
يق ، واجتهد هنري في تحريكها بصمت . كانت القرية ايضاً تبدو نائمـة ،
ن كان هناك حتماً مصابون بالأرق يرقبون الاصوات كافة .
وسأل هنري :
– هل سلـّم الكثير من اليهود؟ » لم يكن للعدالة دخل كبير في هذه القصة،
نه كان بحاجة لأن يقنع نفسه بجرائم سيزوناك .
وقال فانسان :
– المئات . كانوا يعبرون الخط بأعداد كبيرة . يا للوغد ! حين افكر بأنـه
يفلت مني ! انها غلطتي ، لقد كنت أخرق . فحين وجدت أثره ، تحامقت
كضت الى فندق ، و كنت على استعداد لقتله في غرفتـه ، وهذا ليس بعمل
. لقد رفض ان يفتح لي وافلت من بين أصابعي . لقد نلته على كل حال !
كان يتكلم، بصوت يتلعثم قليلاً، بينما كانت السيارة تجري على الطريق النائم.
من الصعب التفكير ، تحت تلك السماء الصامتة ، بأن هناك بشراً ، في كل

مكان قليلاً ، يموتون الآن ، ويقتلون ، وبأن هذه القصة حقيقية . وقال هنري :

– لمَ كان يعمل مع الجستابو ؟

فقال فانسان :

– لحاجته الى المال . كنت أظن انه يدمن منذ موت شانسيل ، منذ ان بدأ كل شيء يصبح مقرفاً. لكن لا، فهذا يرجع الى عهد بعيد. يا للمسكين شانسيل! كان يقول ان سيزوناك يحب الحيـاة الخطرة وكان يعجب بذلك : لم يكن يشك ان هذا يعني المخدر والمال بأي ثمن .

– لكن لمَ كان يدمن ؟ كان بورجوازياً شاباً متلائماً مع نفسه .

فقال فانسان في سيماء من طهرانية :

– كان ضالاً ، ضالاً اصبح نـذلاً . » وسكت وبعـد لحظة أشار اشارة : « هوذا الجسر » .

كان الطريق مقفراً ، والنهر مقفراً . وفي ثانية واحدة القيا من فوق الافريز بالشيء الذي كان سيزوناك . وحدث صوت في المـاء ، وتلاطم موجة ، وبضعة تجعدات ، ومن جديد كان النهر ساذجاً ، والطريق مقفراً ، والسماء ، والصمت. وفكر هنري : « ابداً لن اعرف من غرق » . كانت هذه الفكرة تحرجه كما انه لو كان مديناً لسيزوناك على الأقل بتأبين صحيح .

وقال فانسان حين انعطفا راجعين :

– أشكرك .

فقال هنري :

– احتفظ بتشكراتك . لقـد ساعدتك لانه كان ينبغي ذلك : لكني معارض ، أكثر من اي وقت مضى .

فقال فانسان :

– ان نذلاً يختفي ، لهو نذل يختفي .

فقال هنري :

– اني أفهم ان تكون حرصت على تسويـة حسابه ، سيزوناك . لكن

اشخاصاً لا تعرفهم ، لا تقل لي ان لك اسباباً حقيقية لقتلهم : انه نوع من المخدر وجدته لنفسك ، انت ايضاً ، نوع من الهوس .

فقال فانسان بحدة :

ــ انت مخطىء . لا احب القتل . لست سادياً ، انني اكره الدم . لكن كان هناك اشخاص في المقاومة يجدون لذة في اغتيال رجال الميليشيا : كانوا يمزقونهم إرباً ، برشاشاتهم . وكنت انا أشمئز من ذلك . انني شخص عادي ، أنت تعرف ذلك .

فقال هنري :

ــ لا بد ان هناك شيئاً ما . ليس شيئاً طبيعياً ان تقتل للقتل .

ــ انني لا اقتل للقتل ، بل كي يموت بعض الانذال .

ــ ولمَ انت حريص الى هذا الحد على ان يموتوا ؟

ــ ان شخصاً تكرهه حقاً ، فطبيعي ان تتمنى ان يموت . وإنما في الحالة المعاكسة يكون الانسان مجنوناً . » وهز كتفيه : « انها لشعوذات تلك القصص التي تقول ان القتلة مجانين جنسيون وسائر المسخرة . انا لا أقول انه ليس في العصابة مجذوب او مجذوبان . لكن اكثرهم حماسة ، هم آباء اسر صالحون يؤدون ما عليهم تأديته برضى ودون مشاكل » .

وسارت بهما السيارة في صمت . وقال فانسان :

ــ أتفهم . يجب ان نعرف من اي جانب نحن .

فقال هنري :

ــ لا حاجة للقتل من أجل ذلك .

ــ يجب أن نتبلل .

ــ جيرار باتورو ، حين يدافع عن المدغسقريين مجازفاً بسحله ، فهو يتبلل ، ولهذا معنى . تدبر امرك لتتبلل بفعلك شيئاً نافعاً .

ــ ماذا تريد أن تفعل من عمل نافع ما دمنا سنموت جميعاً في الحرب القادمة ! اننا نستطيع ان نسوي حسابات ، هذا كل شيء .

– ربما لن تقع حرب .

فقال فانسان :

– أتقول ! اننا كالجرذان !

ووصلا الى أمام الحديقة وأضاف فانسان :

– اسمع ، إذا ما حدثت مشكلة ، فأنت لا تعرف شيئاً ، ولم تر شيئاً ، تسمع شيئاً . لقد اختفى سيزوناك وحسبت انه سافر . إذا قيل لك ا تكلمت ، فكن واثقاً ومتأكداً من انها خدعة . انكر كل شيء .

فقال هنري :

– إذا حدثت مشكلة ، فلن أتركك تقع . والآن ، اغرب من هنا في صم

– انني غارب من هنا .

وأدخل هنري السيارة الى المرآب ، وحين خرج ، كان فانسان قد اختفى من الممكن الافتراض بالفعل ان سيزوناك طار . وفانسان لم يضع قدميه سان – مارتان . لم يحدث شيء .

كان قد حدث شيء ما . ففي شحوب الفجر ، كان ثلاثتهم جالسين و غرفة الجلوس ، وآن ودوبروي متلحفان بروب دي شامبر ، ونادين في كامـ ثيابها . كانت تبكي . ورفعت رأسها وقالت بصوت ضائع : من أين أ قادم ؟ » .

فجلس الى جانبها وطوق كتفيها بذراعه : لمَ تبكين ؟ » .

فأنّت نادين :

– انها غلطتي !

– ما هي غلطتك ؟

– انا التي تلفنت لفانسان . تلفنت من المقهى . أرجو فقط ألا يكونوا ق سمعوا شيئاً ! » .

فقالت آن بجدة : « كانت تريد فقط ان يشي فانسان بسيزوناك البوليس » .

فقالت نادين :
ـ رجوته الا يأتي . لكن لا فائدة ، فانتظرت على الطريق ، كنت خائفة.
سم لي انه يريد أن يتكلم مع سيزوناك ، وصرفني الى غرفتي . وبعد مــدة
يلة ، رمى بحصى على نافذتي ، وسألني اين نافذتك . وسألت بصوت مذعور:
ماذا حدث ؟ » .
فقال هنري :
ـ سيزوناك في قاع النهر مع حجر كبير في عنقه . لن يجدوه سريعاً .
ـ اوه ! يا الهي ! » كانت نادين تبكي وتنتحب نحيباً يهز جسدها المتين كله .
وقال دوبروي :
ـ كان سيزوناك يستحق رصاصة في رأسه ، لقد قلت ذلك بنفسك . أعتقد
هذا كان أفضل ما يمكن ان يحدث له .
فقالت نادين :
ـ كان حياً ، وهو الآن ميت ! هذا فظيع جداً !
وتركوها تبكي فترة طويــلة دون ان يقولوا شيئاً . ورفعت رأسها ثانية :
ماذا سيحدث الآن ؟ » .
ـ لا شيء البتة .
ـ اذا وجدوه ؟
فقال هنري ؟
ـ لن يجدوه .
ـ سيقلقون لاختفائه . لكن من يدري إن لم يكن قد قــال لصديقه أو
اق انه قادم الى هنا ؟ ألم يلاحظ أحد في القرية ذهابك وايابك وكذلــك
سان ؟ واذا كان قرب فانسان شخص آخر يعرف كل شيء !
ـ لا تضطربي . اذا وقعت أسوأ الاحتمالات ، فسأدافع عن نفسي .
ـ انت شريك في جريمة قتل .
فقال هنري :

– انا واثق من انني سأبرأ مع محامٍ قدير .

فقالت نادين :

– كلا ، ليس هذا أكيداً !

– كانت تبكي في هوس من تأنيب الضمير كان يزعج هنري . ذلــك لأن تدخل غرفة الهاتف الا حقداً على أهلها وعليه بالذات . هل كان من المستحي حقـــاً ان يستأصل منها الاحساس العنيد الذي كانت اولى ضحاياه ! لكم كا تجعل نفسها تعيسة !

وقالت :

– سيضعونك في السجن ، طوال سنين !

فقال هنري:

– لكن لا !

وأخذ نادين من ذراعها : « تعالي استريحي . لم تنامي هذه الليلة » .

– لن استطيع نوماً .

– ستحاولين . وانا كذلك .

وصعد الدرج ودخلا الى غرفة هنري.ومسحت نادين عينيها وتخطت بصو عالٍ : « انت تكرهني ، أليس كذلك ؟ » .

فقال هنري :

– انت مجنونة ! » وأضاف : « أتعرفين ما أعتقد ؟ هو انك انت تكر جميع الناس قليلاً . أما الآخرون، فهذا عندي سيان . لكن يجب الا تكره انا : لأنني ، انا ، احبك ، ضعي هذا في رأسك » .

فقالت نادين :

– لكن لا ، انت لا تحبني . وانت على حق : انني لست محببة .

فقال هنري :

– اجلسي هنا . » وجلس الى جانبها ووضع يده على يدها . كان ك الرغبة في ان ينفرد بنفسه ، لكنه ما كان يستطيع ان يـترك نادين لتأ

رها . وكان يشعر هو نفسه بتأنيب الضمير لأنه لم ينجح في كسب ثقتهـــا .
ل : « انظري الي ! » .
فأدارت نحوه وجهاً مسكيناً ناعس الطرف وشعر باندفاع كبـير نحوها .
، ان المرء يحب ما يفضله على كل شيء آخر . وكان حريصاً عليها اكثر من
صه على اي شيء آخر : كان يحبها وعليه ان يقنعها بذلك .
– أتعتقدين حقاً انني لا احبك ؟ أهذا جدّي ؟
فهزت نادين كتفيها : « ولمَ ستحبني ؟ بمَ آتيك ؟
– انني لست حتى جميلة .
فقال هنري :
– آه ! تخلصي من هذه العقد البلهاء . انت تعجبينني كما انت . ومـا تأتيني
عو انت : هذا كل ما اطلبه منك ما دمت احبك .
فنظرت اليه نادين بحزن : « اود كثيراً لو اصدقك » .
– حاولي .
فقالت :
– كلّا . انني أعرف نفسي أكثر مما ينبغي .
– انني اعرفك ايضاً ، أتعلمين .
– بالضبط .
– اعرفك ولا افكر الا بخير عنك : اذن ؟
– اذن هذا معناه انك لا تعرفني جيداً .
فأخذ هنري يضحك : « هوذا منطق جميل ! » .
فقالت نادين :
– انني قبيحة ! طوال الوقت افعل اشياء قبيحة .
– لكن لا . هذا المساء كنت غاضبة وهذا مفهوم . لم تتوقعي ما سيحدث.
ـيّ اذن عن هدم نفسك .
فقالت نادين :

– انت لطيف . لكني لا استحق ذلـــك . » وعادت الى البكاء : « لمَ انا هكذا ؟ اني اشمئز من نفسي » .

فقال هنري بحنان :

– انت جد مخطئة :

فرددت :

– انني اشمئز من نفسي !

فقال هنري :

– يجب الا تفعلي ذلــك ، يا حبيبتي . أترين ، ان كل شيء سيكون افضل بكثير لو لم تقرري انــه ليس ثمة من يحبك : أنت تحقدين على الناس للامبالاتهم المزعومة ، لهذا تكذبين عليهم من حين لآخر ، او تسببين لهم ورطة ، حبـــاً بالثأر . لكن هذا لا يذهب بعيداً جداً قط ، وهــذا لا يصدر عن روح سوداء جــداً .

فهزت نادين رأسها : « انت لا تعرف ما انا قادرة عليه » .

فابتسم هنري : « انني اعرف ذلك كل المعرفة » .

فقالت بصوت يائس جداً حتى ان هنري اخذها بين ذراعيه : « كلا » .

فقال :

– اسمعي ، إذا كان ثمة شيء ما يثقل على قلبك ، تفعلين حسناً اذا اخبرتني به . سوف يبدو لك اقل فظاعة ، بعد ان تقوليه .

فقالت نادين :

– لا استطيع . هذا قبيح جداً .

فقال هنري :

– لا تقوليه اذا كنت لا تريدين . لكن اذا كان مـــا احسبه ، فهو ليس بخطير جداً .

فنظرت إليه نادين بقلق : « لكن ماذا تحسب ؟ » .

– أهو شيء يتعلق بنا نحن ، انت وانا ؟

فقالت دون ان تتركه عيناها : « أجل » . وكانت شفتاها ترتجفان .

— أتعمدت ان تحبلي ؟ أهذا ما يعذبك ؟

فحنت نادين رأسها : « كيف حزرت ؟ » .

— كان لا ريب في انك لجأت الى الغش : كان هذا هو التفسير الوحيد .

فقالت :

— لقد حزرت ! لا تقل لي انني لا ابعث اشمئزازك !

— لكن يا نادين ، ما كنت لتقبلي ابداً ان اتزوجك رغماً عني ، ما كنت لتهدديني ابداً ! انها بالضبط لعبة صغيرة لعبتها مع نفسك.

فرفعت إليه عينيها بوجه ضارع :

— كلا ، ما كنت لأهددك ابداً .

— اعرف ذلك جيداً . لا بد انه اخذتك نوبة كراهية نحوي ، لسبب او لآخر ، لذلك دبرت تلك القصة . كان يسليك ان تفرضي عليّ موقفاً لم اكن اريده . لكنك كنت تجازفين بأكثر مما اجازف لأنك لم تنوي قط جدياً ان تقسريني قسراً .

فقالت نادين :

— كان ذلك على كل حال قبيحاً !

— لكن لا . كان ذلك على الاخص لا مجدياً : كنا سنتزوج سواء أقبل مدة قصيرة ام بعد مدة قصيرة ، وكان سيولد لنا طفل .

فقالت نادين :

أصحيح هذا ؟

— بديهي . لقد تزوجنا لأن الزواج كان يعجبنا كلينا . وكنت اشعر تجاهك بواجبات اقل كلما شككت في انك اردت ما حصل لك .

فترددت نادين ، وقالت : « افترض انه لو لم تعجبك الحياة معي ، لما كنت فعلت ذلك » .

فقال هنري بمرح :

– ابذلي جهداً صغيراً آخر . افهمي انني لو لم اكن احبك لما اعجبني ذلك .

فقالت نادين : – هذا شيء آخر . اذ يمكن للانسان ان يعجب بالحياة مع انسان دون ان يحبه .

فقال هنري : – ليس انا . » وأضاف بشيء من نفاد الصبر: «اخيراً ! لمَ لا تريدين ان تصدقي انني احبك ؟ » .

فقالت نادين متنهدة : – انها ليست غلطتي . انني ريبية .

فقال هنري : – لم تكوني هكذا دوماً . لم تكوني هكذا مع دييغو .

فتصلبت نادين : « كان ذلك مختلفاً » .

– فيمَ ؟

– كان دييغو لي .

فقال هنري بحدة :

– ليس أكثر مما انا لك . والفرق انه كان طفلاً : لكنــه كان سيهرم . لو كنت لا تقررين قبلياً ان كل راشد قاضٍ ، وبالتالي عدو ، لما احرجك عمري .

فقالت نادين بحزم :

– لن تكون الحال ، معك ، ابداً كما كانت مع دييغو .

فقال هنري :

– ليس هناك حبان متماثلان . لكن لمَ المقارنة ! بديهي إذا كنت تبحثين في قصتنا عن شيء آخر غير ما هي فعلاً ، فلن تجديه .

فقالت نادين : – لن انسى دييغو أبداً .

– لا تنسيه . لكن لا تستخدمي ذكرياتك ضدي . » واضاف : « هذا ما تفعلينه . فلأسباب عدة ، تفسدين حياتك الراهنة . لهذا تلتجئين الى الماضي . وبأسم الماضي ، تنظرين نظرة عليا الى كل ما يقع لك .

فنظرت اليه في شيء من التردد ، وقــالت : « اجل ، انني حريصة على ماضيّ » .

فقال هنري :

– انني أفهمك جيداً . لكن يجب ان تفهمي شيئاً : انت لا تتقـاعسين من

الحياة لأن لك ذكريات قوية جـداً . بل العكس . انت تستخدمين ذكرياتك لتبرري نفسك .

فلزمت نادين الصمت لحظة . كانت تعض على شفتهـا السفلى ، في تفكير : « لمَ تتهمني بالنية السيئة ؟ » .

– بإحساسك المفرط ، بارتيابك . انهـا لدائرة مفرغة . انت تشكين في حبي ، لهذا تحقدين علي ولكي تعاقبيني ، ترتابين بي وتحردين . » وقـال بصوت ملح : « لكن فكري : إذا كنت احبك ، فإنني جدير بثقتك وانت ظالمة بعدم منحك لي إياها » .

فهزت نادين كتفيها في سيماء من أسف : « إذا كانت دائرة مفرغـة ، لا نستطيع ان نخرج منها » .

فقال هنري :

– تستطيعين . إذا شئت ، استطعت . » وضمها اليه : « قرري ان تمنحيني ثقتك حتى دون ان تكوني اكيدة من انني استحقها . ان فكرة كونك مخدوعة ترعبك : لكن هذا أفضل ايضاً من ان تكوني ظالمة » . وأضاف : « وسترين : سأستحقها » .

فقالت نادين : – أتجدني ظالمة نحوك ؟

– اجل . انت ظالمة عندما تلومينني على انني لست دييغو . ظالمة عندمـا تنظرين إليَّ كقاضٍ في حين انني رجل يحبك .

فقالت نادين بصوت قلق :

– لا اريد ، لا اريد ان اكون ظالمة .

فابتسم هنري : « لا تكوني كذلك بعد الآن » . وقال وهو يعانقها : « لو بذلت شيئاً من الارادة الطيبة ، لأقنعتك في النهاية » .

فقالت وهي تطوق عنقه بذراعيها : « انني أسألك عفواً » .

– ليس لديّ ما أصفح به عنك . » واضاف : « تعالي . ستحاولين الآن ان تنامي . سنتحدث عن هذا كله ثانية غداً » .

وساعدها على الرقـاد ودثرها في سريرها . وذهب الى غرفته . لم يكن قد

تكلم قط بهذه الصراحة مع نادين ، وكان يخيل اليه ان شيئاً مـــا فيها قد لان . عليه ان يثابر . وتنهد . ثم ؟ كي يجعلها سعيدة فـــلا بد ان يكون سعيداً هو نفسه . وفي ذلك الصباح ، لم يكن يعرف ما يمكن ان تعنيه هذه الكلمة .

لم تشر الصحف بعد يومين الى اختفـاء سيزوناك . وكان هنري لا يزال يظن انه يشم حول الجناح رائحة شيء محروق، ولم تكن صورة الوجه المنتفخ والبطن المبقور ، لتمحي . لكن هـذا الكابوس كان يحجبه قلق آخر : فقــد تخاصم « الثلاثة الكبار » في موسكو ، وكان الموقف متوتراً جداً بين الشرق والغرب، حتى كان يبدو ان الحرب على الأبواب . وقاد هنري ونادين ودوبروي في السيارة الى محطة ليون بعد ظهر ذلك اليوم : كان متجهماً ، كسائر الناس . ونظر اليه هنري من بعيد يصافح الايدي في بهـو المحطة : لا بد انه كان يفكر بـــأن من السخرية ان يذهب اليـــوم بالذات ليدافع عن السلام بضربات خطابية . ومع ذلك ، حين توجه مع الأرصفة بصحبة ثـــلاثة اشخاص آخرين ، تبعهم هنري بعينيه في نوع من الأسف . كان يشعر انه مبعد .

وسألت نادين : — ماذا سنفعل ؟

— لنذهب أولاً لنأتي بتذكرتك .

— سنسافر على كل حال ؟

فقال هنري :

— نعم . اذا رأينا ان الموقف تفاقم ، أجلنا سفرنا . لكن ربمـــا حدث انفراج . لقد حددنا موعداً : نحن لا نزال عليه حالياً .

وذهبا الى السوق ، واشتريا اسطوانات ، ومرا بـ « الطـــواريء » ثم بـ « السندان » لرؤية لاشوم . كان الشيوعيون قـد قرروا ان يأخذوا القضية المدغسقرية رسمياً بيـدهم ، ما إن يصدر الحكم . وسوف يدلي المكتب السياسي بتصريح ، وسوف توزع عرائض ، وتنظـم مهرجانات خطابية . وكان لاشوم يحاول ان يكون متفائلاً ظاهرياً ، لكنه كان يعلم جيداً انهـــم لن يحصلوا على شيء . امـا بخصوص الموقف الدولي ، فـــلم يكن مرحاً أيضاً . وأخذ هنري

نادين الى السينما . وعند العودة ، وبينما كانا يجريان على طريق السيارات ، عبر غسق ندي ، هاجمته بأسئلة لم يكن يستطيع الإجابة عليها . » ماذا سيحدث إذا احتل الروس باريس ؟ ماذا سيحدث اذا ربحت اميركا؟ اذا أرادوا ان يجندوك، فماذا ستفعل ؟» وكان العشاء كئيباًوبعده فوراً صعدت آن الى غرفتها. وظل هنري في المكتب مع نادين . واخرجت من حقيبتها مغلفين منتفخين وبطاقة عربة النوم :

— اتريد ان ترى بريدك ؟

— اجل اعطينيه .

فناولته نادين احد المغلفين ، وفحصت تذكرتها : « أتدرك ، سوف أسافر في عربات النوم : سأشعر بالخجل » .

— ألست مسرورة؟في الماضي كان بكرغبة كبيرة في السفر في عربات النوم؟

— حين كنت اسافر في الدرجة الثالثة ، كنت احسد مسافري عربات النوم . لكني لا أحب ان أفكر انني انا التي سيحسدها الآخرون اليوم . »

وأعادت التذكرة الى حقيبتها : « منذ ان أصبحت هذه التذكرة بين يدي ، والسفر يبدو لي حقيقياً بشكل مرعب » .

— لمَ تقولين : بشكل مرعب ؟

— انه لشيء مرعب قليلا دوماً ، السفر ، اليس كذلك ؟

فقال هنري : — ان ما يضايقني، انا ، هو اللايقين. اود ان اكون واثقاً من اننا سنستطيع الرحيل .

فقالت نادين :

— على كل حال ، كان يمكننا ان نؤجل الموعد . ألا يضايقك ألا تشترك في ذلك المهرجان الذي تكلم عنه لاشوم ؟

فقال هنري :

— ما دام الشيوعيون سيدخلون المعركة بكل قواهم ، فانهم ما عادوا بحاجة الي . » وأضاف بحدة : « اذا بدأنا بتأجيل هذا السفر ، فلا يوجد سبب للكف عن ذلك . في ١٤ الجاري ، تبدأ دعوى جديدة . وحين سننتهي من مدغسقر ،

ستحدث اشياء أخرى . يجب ان نقرر بحزم » .

فقالت نادين : — اوه ! هذا يعنيك .

واخـــذت تقلب مجلة « آرغوس » ونشر رسالة : رسالة من شاب ، لطيفة جداً . كانت هناك رسائل لطيفة كثيرة . وكان هذا يسره عادة . لكن في تلك الليلة ، ودون ان يعرف السبب ، كان يغضبه ان يفكر بأنه في نظر بعض الناس نموذج بشري جميل . ودقت الساعة العاشرة . كان دوبروي يتكلم ضد الحرب. وفكر هنري فجأة انه يود لو كان محله. غالباً ما قال في نفسه :«الحرب كالموت، لا فائدة من الاستعداد لها » . لكن حين تنحرف طائرة وتهوي ، فمن الافضل ان تكون القائد الذي يحاول تقويمها على ان تكون مسافراً مذعوراً . ان يفعل شيئاً ما ، ولو كان كلاماً ، فهذا افضل من ان يظل جالساً في ركنه وعلى قلبه يرين هذا الثقل الغامض . وتخيل هنري القاعة الغاصة بالناس، والأوجه المشرئبة نحو دوبروي ، ودوبروي المشرئب نحوهم ، رامياً اياهم بالكلمات : لا مكان فيهم للخوف ، للقلق . انهم يأملون معاً . وعند الانتهاء ، سيذهب دوبروي ليأ كل مقانق ويشرب نبيذ بوجوليه : سيكون ذلك في حانـــة ما ، ولن يكون لأحــدهم شيء مهم يقوله للآخرين ، لكنهم سيشعرون بغبطة . واشعل هنري سيجارة . اننا لا نوقظ الحرب بالكلمات. لكن الكلام لا يزعم انه يغير التاريخ حتماً : بل هو ايضاً طريقة معينة في عيشه . وكان هنري ، في سكون هـــذا المكتب ، متروكاً لكوابيسه الذاتية ، يشعر انه لا يعيشه كما يجب .

وقالت نادين :

— ان طباعة العدد الأخير جيدة . انهم يثنون كثيراً على اقصوصتك .

فقال هنري بلامبالاة :

— انها لسائرة ، هذه المجلة .

فقالت نادين :

— خطأها الوحيد انها مجلة . بديهي انه لو كان لنا صحيفة اسبوعية لكان الامر مختلفاً بالنسبة للاحداث اليومية .

فقال هنري :

— لمَ لا يقر والدك قراره ؟ انه يتلظى رغبة . وسيسر افراد حركته بذلك والشيوعيون ينظرون الى المشروع بعين راضية . ما يوقفه ؟

فقالت نادين : — انت تعرف جيداً . انه لا يريد ان يتدخل بدونك .

فقال هنري : — هذا لا معقول . سوف يجد جميع المتعاونين الذين يريد .

فقالت نادين بحدة :

— ليس الأمر متشابهاً . انه سيحتاج الى شخص يستطيع ان يعتمد عليه وعيناه مغمضتان . » وأضافت : « لقد تغير ، أتعرف . لا بد انه العمر . انه لم يعد يرى نفسه قادراً على أي شيء » .

فقال هنري :

— اعتقد انه سيقرر مع ذلك في النهاية . ان الجميع يدفعونه الى ذلك .

فبحثت نادين عن نظرة هنري : « لو لم نرحل الى ايطاليا ، فهل يستهويك ان تهتم بذلك ؟ » .

فقال هنري : — اننا نرحل بالضبط كي نهرب من هذا النوع من الأشياء .

فقالت : — ليس انا . انني اسافر كي اعيش تحت الشمس في مكان جميل .

فقال هنري : — يقيناً ، يوجد هذا ايضاً .

فمدت نادين يدها نحو الرسائل : « أأستطيع ان اقرأ ؟ » .

— اذا كان هذا يسليك .

واخذ يقلب « آرغوس » لكن دونما قناعة . انه لن يهتم بعد الآن بـ « الطوارىء » ، ولن يعود هذا كله يعنيه . وقالت نادين :

— انها للطيفة رسالة الطالب الشاب .

فأخذ هنري يضحك : « الذي يقول انه يرى في حياتي مثالاً ؟ » .

فقالت نادين مبتسمة : — ان الانسان يحتذي الامثلة القادر عليها . » وتابعت : « جدياً ، لقد فهم اشياء » .

— أجل . لكنها بلهاء فكرة الانسان الشمولي تلك . في الحقيقة انني كاتب بورجوازي صغير يتدبر امره كيفما استطاع بين واجباته ومشاربه : لا أكثر من ذلك .

فغام وجه نادين : « وانا ، ما انا ؟ » .

فهز هنري كتفيه : « الحقيقة انه يجب الا نهتم بما نحن عليه. فعلى هذا الصعيد لا نستطيع ان ننجو بأنفسنا » .

فنظرت اليه نادين في تردد : «على أي مستوى آخر تريد ان اضع نفسي؟».

فلم يجب هنري . وهو : على اي مستوى سيضع نفسه ، حين يكون في ايطاليا . سيعاود التحمس لما سيكتبه ، وعندئذ لن يجد نفسه مدفوعاً ليضع نفسه موضع سؤال ككاتب . ليكن . ان يكون كاتباً ، فهذا لا ينقذ كل شيء . كان لا يرى كيف سيتجنب التفكير بنفسه . وقال بارتخاء :

– لك ماريا ، لك حياتك ، ولك أشياء تهمك .

فقالت نادين : – لدي ايضاً الكثير من الوقت . سيتاح لنا وقت واسع في بورتو فينيري .

فتفرس هنري في وجه نادين : « أيخيفك ذلك ؟ » .

فقالت : – لا ادري . انني أؤكد لك انني لم اؤمن قط بهذا السفر ، قبل ان تصبح هذه التذكرة في جيبي . أكنت تؤمن به ، انت ؟

– بديهي .

فقالت نادين بصوت عدائي قليلاً :

– ليس هذا بديهياً جداً . اننا نتكلم ، ونتبادل رسائل ، ونستعد : لكن ما دمنا لم نركب القطار ، فمن الممكن جداً الا يكون الامر الا لعبة . » واضافت : « هل انت واثق فقط انك راغب في السفر ؟ » .

فقال : – لمَ تسألين ذلك ؟

فقالت : – إنه شعور لدي .

– أتعتقدين انني خائف من ان أملّ معك ؟

فقالت بلهجة رصينة :

– كلا . لقد قلت لي عشرين مرة انني لا اسبب الملل لك ، وقد قررت ان اصدقك . انني افكر بمجموع ...

فقال هنري : « اي مجموع ؟ » .

كان مغضباً قليلاً . هذه هي عادة نادين : انها تريد اشياء ، بجـدة أكثر من اي انسان آخر ، وحين تحصل عليها ، يطيش صوابها . انها هي التي خطرت لها فكرة البيت ذاك ، وكان يبدو عليها انها متمسكة بها بقوة حتى ان هنري لم يعد طرح هذا المشروع على بساط البحث ولا لحظة واحدة . وفجأة كانت تتركه وحيداً امام مستقبل لم يعد معطى . وقالت نادين :

– انت تقول انـك لن تقرأ الصحف : لكنك ستقرأها . سيكون شيئـاً ظريفاً حين نتلقى « الطوارىء » او تلك الصحيفة الاسبوعية ، اذا مـا صدرت ذات يوم .

فقال هنري :

– اسمعي ، اذا تصرفنا هكذا مدة طويلة فهناك دوماً لحظة سيئة يجب ان نمر بها . ليس هذا سبباً لتبدلي فجأة جميع مشاريعك .

فقالت نادين بهدوء :

– من الحماقة ان نسافر فقط كي لا نبدل مشاريعنا .

– أسمعت ما قاله أبوك في اليوم السابق ؟ اذا بقيت ، فسيعود كل شيء كما كان في الماضي ، حين كنت تلومينني على انني لا اترك لنفسي وقتاً لأعيش .

فقالت نادين :

– لقد قلت الكثير من الحماقات في الماضي .

فقال هنري :

– لقد اخذت هذه السنة وقتي وكنت سعيداً جداً . انني مسافر الى ايطاليا كي يستمر ذلك .

فنظرت اليه نادين في سيماء من تردد : « اذا كنت تفكر حقاً انك ستكون سعيداً هناك ... » .

ولم يجب هنري . سعيد : الحقيقة ان الكلمة لم يعد لها معنى . اننا لا نملـك العالم قط : لا مجال كذلك لحماية أنفسنا منه . اننـــا فيه ، هذا كل شيء . في بورتو فينيري كما في باريس ، ستكون الأرض كلها ماثلة حـوله ، بتعاساتها ، بجرائمها ، بمظالمها . انه يستطيع ان يستخدم بقية حياته في الهرب ، فلن يكون

في مأمن ابداً . سيقرأ الصحف ، ويستمع الى الراديو ، ويتلقى رسائل . وكل ما سيربحه انه سيقول في نفسه : « انني لا استطيع شيئاً » . وفجأة ، انفجر شيء ما في صدره . كلا . ان العزلة التي تخنقه هذا المساء ، إن هـذا العجز الصامت ، ليس هو ما كان يريده . كلا . لن يقبـل ان يقول في نفسه للأبد : « كل شيء يحدث بدوني » . لقد رأت نادين بوضوح : لم يختر ولا لحظة واحـدة هذا المنفى حقاً . كان يدرك فجأة انه كان يتحمل هذه الفكرة منـذ أيام بقرف . وسأل : « هل ستكونين مسرورة اذا بقينا هنا ؟ » .

فقالت باندفاع :

– سأكون مسرورة حيثما كنت انت مسروراً .

– كنت راغبة في الحياة تحت الشمس ، في مكان جميل ؟

– اجل . وترددت نادين وقالت : « أتعرف ، ان النـاس الذين يحلمون بالجنة ، عندما نضعهم امامها ، يكفـّون عن استعجال الذهاب اليها » .

– وبتعبير آخر ، ستندمين إذا سافرنا؟

فنظرت اليه نادين في سيماء من جد : « انني اطلب اليك شيئاً : افعل ما يحلو لك ، انت » . واضافت : « اعتقد انني لا زلت على انانيتي السابقـة ، لكني ازددت ذكاء . إذا اعتقدت انني قسرتك قسراً ، فسيسمم هذا وجودي » .

فقال هنري :

– لم أعد أعرف ما يحلو لي . » ونهض ووضع على الفونوغراف واحـدة من الاسطوانات التي اشتراها . اذا لم يسافر ، فلن يجد غالباً الوقت ليستمع اليهـا . ونظر حوله . إذا لم يسافر ، فهو يعلم ما ينتظره . انه على سابق علم ، هذه المرة. وقال في نفسه « على الأقل سأتجنب بعض الفخاخ » . وفكر باستسلام : « سأقع في غيرها » .

وقال :

– هل تريدين ان نستمع الى القليل من الموسيقى ؟ لا حاجة بنا لنقرّر شيئاً هذا المساء .

لكنه كان يعلم انه اخذ قراره .

الفصل الثاني عشر

هل كنت أشعر مسبقـاً بأنني سأصل الى هذا الحـــد ؟ حين سرقت تلك الزجاجة من حقيبة بول ، كنت ازمع ان ارميها : وخبأتها في قاع علبة قفازي. يكفي ان أصعد الى غرفتي ، تكفي حركة واحدة ، وسأكون قد انتهيت . ان التفكير بذلك ليطمئنني . واسندت خدي الى العشب الدافىء ، وقلت بصوت خافت : « اريد ان أموت » . وانحلت عقدة انفاسي ، وشعرت فجـأة بهدوء كبير .

ليس هذا بسبب ليويس ، فمنذ خمسة عشر يومـــاً ذبلت وردة الاوركيديا الكبيرة ، ورميتها ، ورُفعت القضية . لقد اخذت بالشفاء ، وانا في شيكاغو : سوف اشفى ، لن استطيع ان امنع نفسي من ذلك . ليس هـــذا بسبب البشر الذين يُقتلون في كل مكان تقريباً ، ولا بسبب الحرب التي تهدد: ان يقتل الانسان او ان يموت ، فليس هناك كبير فرق ، وجميع النـاس يموتون ، في العمر نفسه تقريباً ، في حوالي الاربعين . كلا . لا شيء من هذا يؤثر عليّ . لو كانت الأشياء تؤثر علي ، لشعرت بنفسي حية ، ولما تمنيت ان اكف عن ان اكون كذلك من جديد . كان الموت يطاردني ، كما في ذلك اليوم الذي صرخت فيه رعبـاً ، وأنا في الخـــامسة عشرة . انني لم اعد في الخـــامسة عشرة . لم تعد لي القوة على الهرب . ان المحكوم بالموت يشنق نفسه في زنزانتــه ، كي لا ينتظر بضعة ايام ، ويريدون مني ان اصبر طوال سنين ! ما الفائدة ؟ انني متعبة . ان الموت ليبدو اقل رهبة ، حين يكون الانسان متعباً . اذا كنت استطيع ان اموت من رغبتي فيه ، فلنستفد من ذلك .

ها قد مضى خمسة عشر يومـــاً على ذلك : منذ اللحظة التي وصلت فيهـا باريس . كان روبير ينتظرني في محطة الانفاليد . ولم يرني فوراً . كان يسير على طول الرصيف ، في خطى انسان مسنّ صغيرة ، وفكرت بمثل لمح البصر : « انه مسن ! » وابتسم لي ، وكانت نظرته لا تزال فتية : لكن وجهه كان قد اخذ ينحل ، وسينحل حتى اليوم الذي سيتفسخ فيـه . ومنذ ذلـــك لم اكف عن التفكير : « امامه عشرة أو خمسة عشر عاماً ، وربما عشرون عاماً : إن عشرين عاماً لمدة قصيرة ! ثم سيموت . سيموت قبلي ». انني استيقظ ، ليلاً ، منتفضة ، وأقول في نفسي : « سيموت قبلي » . كان يتكلم مع هنري هـذا الصباح ، كانا يقولان انه يجب البدء من جديد ، وان الانسان يبدأ من جديد أبداً ، وانـه لا يمكن التصرف بطريقة اخرى ، وكانا يعدّان خططاً ، ويتناقشان . اما انـــا فكنت انظر الى اسنانه . لا يوجد في الجسم شيء صادق غير هذا : الاسنان التي يتكشف منها الهيكل العظمي . ونظرت الى هيكل روبـير العظمي وقلت في نفسي : « انه ينتظر ساعته » . ستأتي الساعة سيتركوننا نذبل فترة ما ، طويلة او قصيرة ، لكن لا يوجد عفو قط . سأرى روبير ممـــدداً على سرير ، شمعي اللون ، وعلى شفتيه ابتسامة كاذبة . سأكون وحيدة امـام جثته . اي كذبة ، اولئك الراقدون المتحجرون المطمئنون الذين ينامون جنباً الى جنب في السراديب ، واولئك الازواج المتعانقون تحت توابيتهم ! من الممكن ان يخلط رمـادنا بعضه ببعض : لكن لن تمتزج ميتانا . لقد اعتقدت طوال عشرين عاماً اننا نعيش معاً . لكن لا . كل منا وحيد ، حبيس في جسده ، مـــع شرايينه التي تتصلب تحت الجلد الذي ييبس ، مع كبده ، مع كليتيه اللتين تهترئان ودمه الذي يشحب ، مع موته الذي ينضج في صمت في داخله والذي يفصله عن سائر الآخرين .

انني أعرف ما سيقوله لي روبير ، فقد سبق وقـاله لي : « انني لست ميتـاً اوقف التنفيذ فيه . انني حي » . كان قد اقنعني . لكن ذلك لأنه كان يخاطب لحظتها امرأة حية ، والحياة هي حقيقة الاحياء . كنت العب مع فكرة الموت : مع الفكرة فقط . كنت لا أزال من هذا العالم . اما اليوم فالأمر يختلف . لم اعد

العب. ان الموت هنا. انه يحجب زرقة السماء، وقد ابتلع الماضي والتهم المستقبل. ان الارض جليدية ، وقد استعادها العدم . ولا يزال حلم خبيث يطوف عبر الابدية : فقاعة سوف أفقأها .

استندت الى مرفقي . نظرت الى البيت ، الى شجرة الزيزفون ، الى المهد حيث تنام ماريا . انه يوم كسائر الايام ، والسماء في الظاهر زرقاء . لكن أي صحراء ! كل شيء صامت . لعل هذا الصمت هو صمت قلبي فقط . لم يعد فيّ حب ، لأحد ، لشيء . كنت افكر : « العالم واسع ، لا ينفد ، ولا تكفي حياة واحدة للانتشاء به ! » . ونظرت اليه بلامبالاة ، اذ لم يعد الا منفى لامحدوداً . ما تهمني دروب المجرة البعيدة وملايين البشر الذين سيجهلونني قط ! ليس لي الا حياتي ، ولا قيمة لغيرها ، الا انه لم يعد لها قيمة . لم أعد أرى مـا افعله على الأرض . مهنتي ، يا للمزحة ! كيف سأجرؤ على منع امرأة من البكاء ، على ارغام رجل على النوم ؟ نادين تحب هنري ، ولم يعد لي حساب عندها . ولقد كان روبير سعيداً معي كما كان يمكنه ان يكون سعيداً مع غيري او بمفرده . « اعطه ورقاً ، وقتاً ، فلا ينقصه شيء » . سيأسف علي ، بالتأكيد . لكنه ليس موهوباً في التأسفات ، وعلى كلٍ سرعان ما سيكون تحت التراب ، هو بدوره . كان ليويس بحاجة إليّ وفكرت : « فات الأوان للبدء ، فاتَ الاوان للبدء من جديد » ، وقدمت لنفسي اسباباً ، فهجرتني الاسباب كافة . لم يعد بحاجة إليّ . وارهفت اذني : لا نداء ، في اي مكان . لا شيء يحميني ضد تلك الزجاجة الصغيرة التي تنتظرني في قاع علبة قفازي .

نهضت ، ونظرت الى ماريا . على وجهها الصغير المغمض ، لمحت ايضاً موتي . ذات يوم ، ستبلغ عمري ولن اكون موجودة . انها نائمة ، تتنفس ، وهي حقيقية تماماً : إن لديها واقع المستقبل والنسيان . سيكون الخريف ، وستتنزه في هذه الحديقة ، او في مكان آخر . واذا لفظت من قبيل الصدفة اسمي ، فلن يجيبها أحد وسيضيع صمتي في الصمت الكوني . لكنها لن تلفظه . سيكون غيابي تاماً للغاية حتى ان الجميع سيجهلونه . هذا الفراغ يصيبني بالدوار .

بيد اني اذكر ان الحياة كانت جميلة كمعرض ، احياناً ، والنوم حنوناً كابتسامة . في « غاو » ، كنا ننام على سطح الفندق ، وكان النسيم يتغلغل عند الفجر في الكلة فيهتز السرير كمركب . كان ذلك على ظهر مركب تفوح منه رائحة القطران ، وكان بدر كبير برتقالي يرتفع خلف « ايجين » . كانت السماء والارض تمتزجان في مياه المسيسيبي. وكانت الارجوحة تتأرجح في الباحة حيث كانت ضفادع تنق ، وكنت أرى مجموعات النجوم تتزاحم فوق رأسي . ونمت على رمال الكثبان ، على تبن الاهراء ، على العشب ، على إبر الصنوبر ، تحت الخيام ، في ملعب دلف وفي مسرح ابيدور ، وسقفي السماء ، على حضيض قاعات الانتظار ، على مقاعد خشبية ، على أسرّة قديمة ذات مظلات ، على أسرّة ريفية كبيرة محشوة بالزغب ، وعلى شرافات ، وعلى كراسٍ ، وعلى أسطحة . ونمت أيضاً في اذرع .

كفى ! كل ذكرى توقظ احتضاراً . كم من ميتات احمل فيّ ! ماتت الفتاة الصغيرة التي كانت تؤمن بالجنة ، ماتت الفتاة الصبية التي كانت تحسب الكتب خالدة ، والافكار والرجل الذي كانت تحبه ، ماتت المرأة الشابة التي كانت تتنزه طافحة النفس في عالم موعود بالسعادة ، ماتت المحبة التي كانت تستيقظ ضاحكة بين ذراعي ليويس . مت كما مات دييغو ومات ليويس . وهن ايضاً ، بلا قبور : لهذا يحرم عليهن سلام الجحيم. انهن لا يزلن يذكرن انفسهن ، بضعف وينادين النوم بآنات . الشفقة عليهن . لندفنهن جميعاً دفعة واحدة .

سرت نحو البيت ، ومررت دونما صوت أمام نافذة روبير . انه جالس الى طاولته ، يعمل . ما اقربه ! ما ابعده ! يكفي ان اناديه ، فيبتسم لي : ثم ؟ سيبتسم لي عن بعد : بعد لا يُتخطى . ليس ثمة من عمر ، من حياته الى موتي . صعدت الى غرفتي ، فتحت علبة القفاز : أخذت الزجاجة . انني أمسك بالموت الذي فيّ ، بيدي : مجرد زجاجة صغيرة داكنة اللون . وفجأة ، لم تعد تهددني ، فهي تتعلق بي . رقدت على السرير ، مطبقة على الزجاجة ، وأغمضت عيني.

كنت أشعر ببرد ، بيد انني كنت اسيل عرقاً . كنت خائفة . ثمة شخص

سيسمّمني . كنت انا ، ولم اعد انـا ، وكان ظلام اسود ، وكان كل شيء بعيداً قصياً. شددت على الزجاجة . كنت خائفة. لكني كنت اريد ، من كل روحي ، ان اقهر الخوف . سأقهره . سأشرب . والا عاد كل شيء من جديد . لا اريد . سيعود كل شيء من جديد . سأستعيد افكاري المنظمة ، في نظامها ذاته ابداً ، وكذلك الاشياء ، والنـــاس ، وماريا في مهدها ، وديفو في لامكان ، وروبير يمضي بهدوء الى موته ، وليويس الى النسيان ، وأنا الى العقل، العقل الذي يحفظ النظام : الماضي في الخلف ، المستقبل في الامـام ، لامرئياً ، النور المفصول عن الظلمات ، هـــذا العالم المنبجس بانتصار من العدم ، وقلبي حيث يخفق ، لا في شيكاغو ، ولا قرب جثـة روبير ، لكن في قفصه ، تحت ضلوعي . سيعود كل شيء من جديد . سأقول في نفسي : « اصابتني نوبة انهيار عصبي » . البداهـــة التي تسمرني الى هذا السرير ، سأفسرها بالانهيار العصبي . كلا ! لقد أنكرت بما فيه الكفاية ، نسيت بما فيه الكفاية ، هربت بما فيه الكفاية ، كذبت بمـا فيه الكفاية . لمرة ، لمرة واحدة والى الابد ، اريد للحقيقة ان تنتصر . لقـد تغلب الموت : انه هو الحقيقي ، الآن . تكفي حركة ، فتصبح هذه الحقيقة ابدية.

فتحت عيني . كان النهار . لكن لم يعد ثمـة فرق بين الليل والنهار . كنت اطوف فوق الصمت : صمت ديني كبير كما في الزمن الذي كنت ارقـــد فيه على فراشي منتظرة ان يخطفني ملاك. كانت الحديقة والغرفة صامتتين . انا كذلك. لم اعد خائفة . كل شيء يقبل بموتي . انا اقبل بـــه . لم يعد قلبي يخفق لأحد : كأنه لم يعد يخفق قط ، كأن سائر البشر قد استحالوا غباراً .

تصاعدت ضوضاء من الحديقة : اقدام ، أصوات . لكنها لم تكن ترعـــج الصمت . كنت أرى ، وكنت عمياء ، كنت اسمع وكنت صماء . لقـــد قالت نادين بصوت مغضب عالٍ جداً: «ما كان يجب على ماما ان تترك ماريا بمفردها». ومرت الكلمات فوق رأسي دون ان تلامسني : لم تعد الكلمات تستطيع ان تصيبني . فجـأة ، ارتفع في صدى ضعيف ، صوت صغير مضنٍ . « هل حدث شيء ما ؟ » . ماريا بمفردها على الممر المعشوشب : يمكن لهر ان يخدشها ، لكلب

ان يعضها . كلا : انهم يضحكون في الحديقة . لكن الصمت لم يطبق من جديد. وردد الصدى : «ما كان يجب علي» . وتصورت صوت نادين ، قوياً مستنكراً: « ما كان يجب عليك ! لم يكن لـك الحق ! » . تصاعد الدم الى وجهي ولسع قلبي شيء ما حيّ : « ليس لي الحق ! » . أيقظتني اللسعة . انتصبت ، نظرت الى الجدران في ذهول . كنت امسك بالزجاجة في يدي، وكانت الغرفة فارغة، لكني لم اعد بمفردي . سيدخلون الى الغرفة . لن أرى شيئاً ، لكنهم سيرونني . كيف لم افكر في ذلك ؟ لا استطيع ان اخلـّف لهم جثتي وكل مـا سيتبعها في قلوبهم هم: روبير محني على هذا السرير، ليويس في دار باركر مع كلمات تتراقص امـــام ناظريه ، نحيب نادين الخانـــق . لا استطيع . نهضت ، خطوت بضع خطوات ، سقطت جالسة على مقعد زينتي . هذا غريب . سأموت بمفردي . بيد ان الآخرين سيعيشون موتي .

لبثت ، ملياً ، امام المرآة انظر الى وجهي، وجه الناجية من الخطر . كانت الشفتان سترزقّان ، والأنف سيتقلص. لكن لا من اجلي : من اجلهم . ان موتي لا يخصني . الزجاجة لا تزال هنا ، بمتناول يدي ، الموت لا يزال مـاثلاً : لكن الاحياء ماثلون اكثر منه ايضاً . لن استطيع ان افلت منهم ، ما دام روبير على الأقل حياً . وضعت الزجاجة مكانها . محكومة بالموت ، لكن محكومة بالحياة ايضاً . كم من الزمن ؟ عشر سنين ؟ عشرين سنة ؟ كنت اقول : عشرون سنة مدة قصيرة. اما الآن فان عشر سنوات تبدو لي لانهائية، تبدو لي نفقاً طويلاً اسود.

— ألا تنزلين ؟

قرعت نادين الباب ، دخلت ، انها واقفة بجانبي . شعرت بنفسي اشحب . كانت ستدخل ، وستراني على السرير ، متشنجة الجسد : يا للفظاعة !

سألت بصوت قلق : — ما بك ؟ أمريضة ؟

— كنت مصابة بصداع . فصعدت اتناول اسبرين .

صوتي يخرج بدون جهد من فمي ، انه يبدو لي طبيعياً . وقـــالت نادين في لهجة موبخة :

— وتركت ماريا بمفردها .

– كنت سأنزل ثانية فوراً ، لكني سمعتك . فبقيت لأستريح قليلاً .
واضفت : « لقد تحسنت حالي » .
نظرت إلي نادين في تشكك : لكن كل ما كانت تشك فيه ، هو ان قلبي في متاعب .
– أصحيح ؟ أتشعرين بتحسن ؟
– لقد افادني الاسبرين . » ونهضت لأفلت من هذه النظرة المسجونة : « لنهبط » .
ناولني هنري كأس وسكي. كان ينظر الى اوراقه مع روبير الذي راح يشرح لي اشياء في سيماء من بهجة . تساءلت في ذهول : « كيف امكنني ان أكون بهذا الطيش ؟ كيف لم افكر بتوبيخ الضمير اللامتناهي الذي كنت اعدّه له ؟ » .
كلا ، لم يكن طيشاً . فللحظة من الزمن ، انتقلت فعلاً الى الجانب الآخر ، حيث لا يعود لشيء حساب ، حيث كل شيء يساوي لا شيء .
قال روبير : – أتسمعيني ؟ » وابتسم لي : « اين انت ؟ » .
فقلت : – هنا .
اني هنا . انهم يحيون ، انهم يكلمونني ، انني حية . ومن جديد ، وثبت مضمونة القدمين في الحياة . الكلمات تدخل الى اذني ، ورويداً رويداً تأخذ معنى. هي ذي تصميات الصحيفة الاسبوعية والنماذج التي يقترحها هنري. أليس لدي فكرة للعنوان ؟ إن اي اسم من الاسماء التي اقترحت حتى الآن لا يناسب. بحثت عن عنوان . قلت في نفسي انهم ما داموا أظهروا قوة كافية لانتزاعي من الموت، فربما استطاعوا ان يساعدوني من جديد على الحياة . سيستطيعون حتماً. اما ان نغوص في اللامبالاة ، واما إن تعمر الارض ثانية . لم اغص . ما دام قلبي يتابع وجيبه ، فلا بد انه يخفق لشيء ما ، لأحد ما . ما دمت لست صماء ، فسوف اسمع نفسي من جديد انادي . من يدري ؟ ربما عدت من جديد ذات يوم سعيدة . من يدري ؟

انتهت